

رواية
بختيار علي
عن الكردية: إبراهيم خليل
قصر الطيور
الحزينة
مكتبة 1658



قصر الطيور الحزينة

بختيار علي

بەختیار عەلی

کۆشکی باڵندە غەمگینەکان

Translated from Kurdish by:
Ibrahim Khalil

ترجمها عن الكردية:
إبراهيم خليل

Designed by:
Sarwar Murad

الإخراج الفني وتصميم الغلاف:
سرور مراد



0717-2021



+965 99462291 / +965 51088000

@DarAlkhan_kw info@daralkhan.com

1 2 2024



رواية



قصر الطيور الحزينة

بختيار علي

ترجمة

إبراهيم خليل



2021



بەختیار عەلی

کۆشکی باڵندە غەمگینەکان



2021


MOHAMED KHATAB



١



ذات مساء شتوي بارد على ناصية شارع، التقى «منـگوري باباگوره» و«كاميراني سلمى» بـ «منصوري أسرين».

كانا قد لبثا هناك ينتظرانه منذ وقت طويل. وكان كاميراني سلمى قد أقسم أن يقتل منصوري أسرين إذا لم تصل المفاوضات بينهما إلى نتيجة مُرضية، أن يقتله دون تردد و«يمرّغه في دمائه مثل كلب»... تلك هي الطريقة الوحيدة.

كان الجميع يعلم كم هو شرس وغضوب كاميراني سلمى، وكانت الشائعات والأقاويل التي تتردد هنا وهناك تصيبه بالجنون. لا أحد يعلم بالضبط كيف وصلت تلك الأقاويل إلى مسامع كاميران. ولكن المؤكد أن نمّاماً خبيثاً قد زاد في تلك الحكاية وبالغ فيها قبل أن يصبَّها في أذنيه.

وتذهب الإشاعة إلى أنّ سوسن فِكرت، تلك الحسناء الغريبة التي وصلت قبل عام مضى من بغداد، قد وقعت في غرام «منصوري أسرين»، وإذا ما صحّت تلك الحكاية فليس أمام كاميران سوى قتله، بل قتل نفسه إذا لزم الأمر، أما أن

يعيش ذلك الحب اليائس من جديد فهذا ما لن يكون.

كان العشق قد وصل به إلى مرحلة خطيرة وقد باح به لجميع من حوله، لندمائه، لأخواته، لأبناء عمومته وحتى لجيران دكان أخيه... وأخبر الجميع أنه إذا لم يتوصَّل إلى نتيجة مع منصوري أسرين فإنه سيفتك به لا محالة. وكان الجميع يعلم أن كاميراني سلمى مجنون ويفعلها؛ فهو واحد من حَمَلة السكاكين المحترفين الذين لا يعرفون بدقّة ماذا يعني الحب، وشخص مثله أخطر ما يكون حين يتحول، على حين غرّة، إلى عاشق.

نصحه منـﮔوري باباﮔوره، وهو من أعقل أصدقائه، أن يتحادث مع منصور قبل الإقدام على أي تصرف متهور. قال له: «لا أحد حتى الآن يعرف شيئاً مؤكداً حول علاقة منصور بسوسن فِكرت، لا يجب أن تكون بكل هذا التهوّر والسذاجة بحيث تقتل شخصاً ما دون كلمة أو دليل».

كان منـﮔور من أشهر حملة السكاكين وأقدمهم في المدينة، ورجلاً بعيد النظر، ويرى أن على المرء قبل أن يمدَّ يده إلى سكينه أن يكون قد استنفد جميع الوسائل الأخرى، وينظر إلى كاميراني سلمى نظرته إلى ابن أو أخ صغير، لأنه كان يرى فيه نوعاً محترماً من الرجولة، لقد كان يحترم هذا النوع من الرجال المتحمِّسين الذين ما زالوا يحملون بين أضلاعهم جذوة الحياة التي يحبها كثيراً. في ذلك الوقت، كان عمر كاميراني سلمى

عشرين عاماً، وعلى تهوّره وحداثة سنّه صاحبَ تجربة في الحياة، ولذلك كان منـكور -الذي يفوقه سناً بكثير- يكنُّ له الكثير من الاحترام والتقدير.

قبل عامٍ واحد، كانا قد تعارفا في صالة قمار داخل قبو فندق قديم يستمدُّ شهرته من قذارته وتردد بعض القساة من مشاهير لاعبي القمار عليه. خلال الساعة الأولى، لفتَ كاميران نظره بجرأته ونظراته الحادة الثاقبة، وهكذا سرعان ما انضمَّ إلى نادي أولئك اللاعبين المحترفين الذين تتلطخ أيدي بعضهم بالدماء لأسباب أتفه حتى من النقود وأقل منها معنى.

حدث ذلك ليس فقط لأنه كان فتى وسيما بشعر فاحم وبشرة حليبية، ولكن منذ الليلة الأولى التي قدِم فيها كان يعرف كل شيء عن الفندق والمقامرين. كانت طريقة ارتدائه لثيابه، وأسلوبه في الحديث، والزي الكردي الجميل الذي كان يلائمه بشكل كبير، مصدر دهشة لكل من يراه، ومن الواجب القول إنه لولا منـكوري باباگوره لكان وقع منذ اليوم الأول ضحية خطر قاتل. لقد كان واحداً من الفتية المغامرين الذين لا يهابون مواجهة أحد. كان واثقاً بنفسه إلى درجة يرمي معها بنفسه في المهالك دون أن تجدي معه نصائح أخواته له وخوفهن عليه شيئاً، بل كان يتجاهلهن بغضب وحدّة. كان الجميع واثقاً أن تهوّره هذا سيكون سبباً في أن يلقى حتفه شاباً، وقد سبق لاثنين من أخواله أن لقيا حتفهما وهما في عنفوان الشباب لأسباب تافهة وفي حوادث لا معنى لها. كأن هذه الطبائع كانت وراثية

في العائلة، إذ كان يروقه دائماً القيام بأشياء صعبة غالباً ما تجرُّ عليه المشاكل.

نادراً ما كان منـگوري باباگوره يتبنى هذا النوع من الفتيان، إلا أنه كان يَعلم أن العصر الذي يعيش فيه كاميران يختلف عمّا كانت عليه الحال قبيل عشرين عاماً، حين كان هو ذاته يلعب هذه اللعبة ذاتها. قبل عشرين عاماً، كانت الرؤية أوضح ولم تكن الدولة قد بثت عيونها ورجالها الذين يُحسب لهم حساب في كل شق وزاوية كما هو الآن. هكذا تجنب الانزلاق إلى سلك حملة السكاكين في السوق. في ذلك الوقت، لم تكن سوق السياسة رائجة كما هي اليوم حيث كل شيء مخيف ومظلم.

من المؤسف أن يودي طيش الشباب بشاب مثل كاميراني سلمى. بعد تجربة عشرين عاماً، اتخذ منـگوري باباگوره قراراً ألا يسمح لكاميراني سلمى بامتطاء فرس الجُموح التي ستودي به. لقد جعل من ذلك قضيته. كان منـگوري باباگوره يعرف أن الوضع الآن ليس كما كان عليه في السابق، حين كان يمكن للمرء أن يحمل في جيبه سكيناً ليشهرها ويستخدمها حيثما أراد دون أن يخشى مساءلة أو عقوبة. ولو أنه كان قد التقى بكاميراني سلمى قبل عشرين عاماً لما كان سيهتم كثيراً بدخوله في أي معركة سكاكين يجرح ويتلقى الجراح أو حتى يقتل أحدهم، أما الآن فليس لديه رغبة في أن يرى شاباً متحمساً ناري الطبع يموت. قال لمن حوله: «إن هذا الشاب

يمر بمرحلة طيش وعلينا العناية به».

لقد أحبه في البداية لأنه رأى فيه مقامراً ذكياً بعينين يقظتين، ثم لم يلبث أن تغلب عليه شعور الإخاء تجاهه. قبل شهر أسرَّ له كاميران بفخر وابتهاج أنه يحب ابنة فِكرت گولدانـچـي. لقد كانت طريقة كاميران في البوح بهذا الحب غريبة جداً وفريدة بالنسبة إلى منـگوري باباگوره. منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً وهو يرى ويسمع أحاديث عن الحب هنا وهناك، لكن لم يسبق له أن باح له أحدهم بقصة حبه هكذا علانية وبهذه الطريقة. لقد كان كاميران يشعر بالفخر وهو يروي قصة حبه لسوسن للجميع وفي كل مكان حتى لأخواته وبنات عماته، مع أن الجميع كان يعلم أنها قصة حب من طرف واحد، وأن سوسن فِكرت لا تعلم شيئاً عن العواطف التي تجيش في صدر كاميران. قالت له واحدة من أخواته: «إن جمال سوسن يجعلها محط أنظار جميع الرجال، ولا أظن أنك الوحيد الذي تعلق بهواها». كذلك بنات عماته كانت لديهن الفكرة ذاتها، فقد كن يرين أن سوسن گولدانـچـي فتاة مغرورة، وأنها إنما اكتسبت جمالها مما ترتديه من ثياب أنيقة زاهية، ومما تتعطر وتتبرَّج به من مساحيق تبييض البشرة والتجميل. غير أن الجميع كان على ثقة أن لدى سوسن شيئاً آخر غير الثياب الأنيقة يجعل منها امرأة متميزة لأن ثيابها كانت دائماً أقل لفتاً للأنظار من ثياب سائر النسوة، ومكياجها كان أخف وأقل مما تضعه الأخريات لكن أكثر انسجاماً وذوقاً، ولعل هذا ما كان يلفت إليها أنظار

الرجال. كانت سوسن امرأة متحضِّرة بمعنى الكلمة، مدنيّة أكثر من جميع نساء هذه المدينة اللواتي كن يصرفن من الوقت ويبذلن من الجهد أكثر مما يجب دون طائل، لأن مظهرهنَّ في النهاية كان قروياً خالصاً. حين وقعت عينا منـگوري باباگوره للمرة الأولى على سوسن فِكرت، قال: «ستكون أسعد رجل في العالم لو أصبحت هذه الفتاة زوجتك». رغم أن كاميراني سلمى لم يكن له أي تجارب سابقة في الحب إلا أنه، كسائر شباب عصره المتأنِّقين في اللباس، كان يرى أن باستطاعته في أي وقت الاستيلاء على قلب أي فتاة يريدها. في الحقيقة، لم يكن لهذا الثقة المفرطة بالنفس وهذا الوهم الذي يدور في رأسه ما يُسوِّغه. لا شك أن كاميراني سلمى كان شاباً وسيماً، لكن سمعته السيئة لم تكن لتشجع أي فتاة في المدينة -باستثناء بنات عماته- على إقامة علاقة معه وعدّه زوجاً أو عاشقاً محتملاً. لكن منـگوري باباگوره كان يعتقد جازماً أن أي شخص يتعرّف إلى هذا الفتى عن قرب ويلمس جرأته وحرارة قلبه الطفولية، سيغفر له جميع ما يبدر منه من تصرفات فجائية وألفاظ عدوانية مستفزة. وكثيراً ما كان يردِّد أن سلوكه الفظ ناتج عن طيش الشباب ليس إلا، بينما كان الجميع يدرك أن هذا التسامح المفرط الذي يبديه منـگوري باباگوره تجاه تصرفات كاميراني ابن سلمى دولان إنما يغفر به لنفسه، لأنه يرى فيه صورة شبابه البكر حين كان في مثل سنه سكّيراً ومن حملة السكاكين، ويقوم بما يقوم به كاميران الآن. الجميع يذكر أن همه الأول وعمله اليومي كان تحقير الناس، ولذلك

كان اسمه قد ذاع في أرجاء المدينة كشرير ليس في قلبه ذرة من الرحمة. والآن حتى بعد أن تحول إلى شخص آخر، ما زال يتفهَّم أمور الطيش والتهوُّر تلك. كان يقول كمن يتوجه بالنصح لأخيه الصغير: «لا تشهر سكينك في وجه شخص لا تعرفه، لا تتشاجر إلا مع شخص تعرفه حق المعرفة».

في تلك الليلة الشتوية الباردة، حين كانا على ناصية الشارع يترقبان ظهور منصوري أسرين، كنا جميعاً نترقب هطول الثلج، لقد كان الجو بارداً لدرجة جعلت منـگوري يرتعش وكانت تلك إشارة إلى أن الهطول سيكون وافراً عميماً، وكان منـگوري يستشعر ذلك. خلال السنوات الثلاث الأخيرة، اعتاد على اعتمار قبعة في الشتاء. ومع امتداد الشتاء، كانت تنكمش وتتغضّن. من يومها، أصبح من السهل التعرّف إليه حتى عن بعد بهيئته تلك مع القبعة الروسيّة فوق رأسه.

بعد نصف ساعة من الانتظار الممضّ، لاح طيفُ منصور قادماً، كان يرتدي معطفاً أسود. بدا شاباً وقوراً يسير بثباتٍ غيرَ آبهٍ بالبرد، أشبه بأولئك المغنين الذين يعزفون على الغيتار تحت انهمار ندفٍ ناعمة من الثلج، وكانت الرياح تعبث بشعره الطويل فتدفعه إلى الخلف، بدا هزيلاً حزيناً، وفي عينيه نظرة تنبئ عن قلب محطّم في الداخل. كان منـگور يجهل كيفية التعامل مع هذا النوع من الناس، كان للفتى صوت ناعم غير معقّد، إلا أنه مختلف عن أي نبرة نسائية قد تفسد رنين صوت أي رجل في هذه المدينة أو قوّته. وإذا أضفنا إلى كل ذلك وجه منصور

وعينيه الواسعتين، علمنا لماذا شعر منـگور تجاهه بالحسد، فطوال حياته التي عاشها بوصفه شخصاً قصير القامة مجدور الوجه وأصلع الرأس، كان عليه لكي يتابع حياته في مدينة لا ترحم أن يكون بهذه القسوة والشدة. بالنسبة إلى شخص قبيح المنظر مثله لا يريد أن يكون فريسة أو نكرة، كان عليه أن يتقن فنون العيش والبقاء أكثر ممن حوله بعشرات المرات. لكن هذه النوعية من الناس، أمثال منصوري أسرين، يكونون عادة أذكى وأعزّ وأكثر قبولاً منه، إنهم يمتلكون شيئاً ما يجعل الناس تتقبّلهم بسرعة. أدرك منـگور، منذ اللحظة الأولى التي وقعت عيناه فيها على هذا الفتى أنه عاشق، بل عاشق أبدي. كان موقناً في أعماقه بأن هذا النوع من الأشخاص الذين يوحي ظاهرهم بأنهم مساكين ولا خطر منهم هم الأشد عناداً وتمرداً، من ذلك النوع الذي لا يغضب بسرعة لكنه لا يتخلى بسهولة عن آماله ومطامحه. كان منـگور، على العكس من ذلك، يميل إلى أولئك الذين يثورون بسرعة ويحطمون ما حولهم ثم يندمون على ما فعلوا بالسرعة ذاتها. رغم أن منصور بدا فتى دمثاً إلا أن منـگور همس لنفسه: «يشبه الكلب»، غير أن كلمة الكلب هنا التي تلفظ بها منـگور لم تكن تحمل ذلك المعنى السيئ الذي يتعارف عليه معظم الناس، لكنه كان يعني بها ذلك الشخص الذي يسلك طرقاً ملتوية للوصول إلى مآربه، ذلك الشخص الذي يكون في ظاهره ساذجاً ومسكيناً أما في الحقيقة فيكون حذراً ومخادعاً. كان منصور يعرف بعض الشيء عن سبب هذا اللقاء، لأن منـگور كان قد أبلغه عن طريق أحد رفاقه أنه راغب

هو وأحد أصدقائه في مقابلته، غير أنه لم يحدد توقيت هذا اللقاء. كانت بقية من الاعتداد بالنفس ما تزال متقدة بين جوانح منـكور منذ عهد شبابه الأول، وهي التي صوَّرت له أن جميع من في هذه المدينة يعرفه. كان يرى لاسمه رهبة كبيرة من واقع اشتهاره في أوساط المقامرين وحملة السكاكين في السوق، حتى لقد خُيِّل إليه أن ليس في المدينة كلها من يجهله. لكن الحقيقة أن منصوري أسرين لم يكن قد سمع باسمه، وحين أسرَّ إليه أحد أصدقائه أن منـكوري باباگوره، مع صديقٍ له، يرغب في مقابلته، قفز إلى ذهنه في الحال أن الموضوع يتعلق بواحدة من أخواته التي كانت على علاقة عاطفية جامحة مع أحد الصاغة. وكان على ثقة أن تلك العلاقة ستجر على العائلة النكبات، لأنه هو شخصياً كان عاشقاً وكان يشعر أن أكثر من عاشق واحد في وقت واحد وداخل عائلة واحدة أمر لا يجب أن يحدث. لم يكن قد سمع من قبل باسم منـكوري باباگوره، وإن كان قد رآه مراراً قبل ذلك، لم يكن هناك من لم يرَ سابقاً هذا الشخص الذي كان يتجول في كل مكان بسترته الشعبية الموشومة ونعله البيضاء النظيفة، في المقاهي والحانات ومطاعم الشواء. كانت هيئته من ذلك النوع الذي يكفي أن تراه مرة واحدة حتى يعلق في ذاكرتك إلى الأبد، رأس صلعاء مدورة ووجه مجدور ورقبة قصيرة وقامة قصيرة مكتنزة ولكن مفعمة بالكبرياء. أما منصور فلم يكن منتمياً إلى هذا المكان الذي يجول فيه، فقد كان طالباً في السنة الثالثة قسم الأحياء. كان واثقاً أنه قد سبق ورأى عشرات المرات هذا الشخص الذي

كان على جميع علاته يتمتع بعينين واسعتين وعسليتين تغطيان بجمالهما على معظم معايبه الأخرى، نوع من العيون التي يمكنها إظهار أقصى حد من الوفاء أو من الخوف والشراسة إذا استلزم الأمر. كانت التجربة الطويلة قد علمته أن يعبِّر لمن حوله عن غضبه ورضاه بمجرد النظر والملاحظة، وكل من يتقن قراءة عيني منـكّور كان يحسن التفلّت من ثورات غضبه قبل وقوعها.

كانت تلك الليلة باردة، ولم يكن منـكّور يفكر إلا في شيء واحد هو إقناع منصور بالذهاب معهما إلى حانة شراب أو دكان صديق أو أي مكان آخر بعيداً عن هذه الريح الباردة.

عثروا، في النهاية، على مكان يجتمعون فيه وكان قبو دكان خدرو دويار، عنبر كبير مزدحم بمراوح مكسورة، برادات قديمة، أسلاك وأدوات كهربائية قديمة ومتهرئة. أما كيف تبع منصور أسرين هذين الشخصين المجهولين إلى مكان كهذا فلا أحد يعرف. وحتى حينما جلس الثلاثة مقابل بعضهم البعض على ثلاثة كراسٍ بالية، كان منصور ما يزال يعتقد أنهما يريدان الحديث معه حول موضوع غراميات أخته. ولو كان يعلم أن الموضوع يتعلق بسوسن فِكرت لما جاء معهما بالتأكيد. كان يشعر أن ما من قوة يمكن أن تجبره على الحديث عن سوسن فِكرت، وكانت تلك مفارقة غريبة إذ كيف له أن يتقبل الحديث إلى شخصين غريبين حول موضوع أخته ويرفض في الوقت عينه سماع أي شيء يتعلق بسوسن.

رائحة القبو والفوضى التي تعم المكان ذكّرت منصور بأماكن أخرى، الغرفة التي قضى فيها طفولته في بيت جده وتلك البسط والمفارش الجميلة، الغرفة التي لفظ فيها صديقه هوشيار أنفاسه الأخيرة، مختبر الحيوانات المائية في الجامعة، غرفة نوم ابن عمته يوسف مع زوجته الثانية، وأماكن أخرى لا يكاد يربط بينها رابط سوى ذاكرته. لم يكن يعلم في تلك الساعة أن هذا القبو سيقلب مجرى حياته ويرمي به في أبعد مكان يمكن له أن يتخيله.

منذ البداية لم ينبس كاميراني سلمى ببنت شفة، ولم يكن منصور يعلم ما الذي جمع هذا الفتى بمنـگوري باباگوره. أما منـگور فكان متحدثاً بارعاً، وكان يتقن أثناء كلامه تطعيم لغة شطار السوق ببعض الكلمات الأنيقة اللطيفة، كان هو بالذات يقول عن نفسه إنه خلطة فريدة من الصعاليك وفقهاء الاثني عشر علماً أو من الحمقى والوجهاء. وكل من عرفه يعلم أنه يقول الحقيقة. منـگور لم يكن وحده، بل إنه منذ بداية حياته كان فرداً من عصابة تدمن الشرب وتمتهن قتال الشوارع، غير أن تجربته الطويلة الممتدة في عالم الشوارع والسياسة قد منحته عقلاً راشداً، ولكن دون أن يطغى رشده وتعقله على غريزته البدائية تلك.

في كل مرة تقع فيها عينا منـگور على كاميراني سلمى كان يقول في نفسه: «لو كان هذا في أيامي تلك لقضى نحبه سريعاً بذلك الداء». أدرك منصوري أسرين بحسه الذكي أن منـگوري

باباگوره شخصية هامة، مسبحته ذات الحبات الضخمة، عيناه الحمراوان ورائحته التي تعبق خمراً على الدوام، كانت تنبئ أنه إزاء رجل عاقل يعرف ما يقول وما يفعل. كان في سلوكه شيء ما يجعله أهلاً للثقة، ولولا ذلك لما تبعه بكل استسلام إلى هذا المكان. حين بدأ منـگور بالكلام، تسارعت دقات قلب منصور. قال منـگور: «اسمع يا عزيزي، ثمة حديث يجب أن نناقشه معاً بكل محبة... صدقني حين أقول لك إننا يجب أن نناقشه وننتهي منه بودية. نحن لا نرغب في الشجار، طوال حياتي والناس يقولون عني إن منـگوري باباگوره يحب المشاكل وشجار الشوارع لكن هذا غير صحيح، أتحدث إليك الآن أنا والأخ كاميران حول هذا الموضوع ولا نريد أن تكبر المسألة وتشيع بين الناس، يريد الأخ كاميران أن يخطب ابنة الأخ فِكرت گولدانـچـي، يريد أن يتخذها زوجة له، الجميع يعرف أنها فتاة جيدة ومن عائلة معروفة وهو يخطط لخطبتها خلال هذا الأسبوع. لقد سمعنا بعض الإشاعات التي لا نعرف مدى صحتها، يقولون إنك على علاقة بالفتاة، فإذا كان هذا الكلام صحيحاً نأمل منك أن تنسحب بسلام من هذا الموضوع... هذا هو... فإذا لم تكن لديك نية في العرقلة وإثارة المشاكل فثق بأن الموضوع سيجري بسهولة جريان الماء في المسيل، هذا هو... هذا كل ما كنا نريد قوله».

شعر منصور بتسارع نبضات قلبه منذ اللحظة التي تلفظ بها منـگور باسم فِكرت گولدانـچـي. صحيح أن منصور لم

يكن حتى تلك اللحظة من حياته قد دخل في شجار حقيقي مع أحدهم، لكنه كذلك لم يكن يجد نفسه جباناً، وفي الحقيقة فإنه لم يكن يعرف بماذا يجيب، بل إنه لم يكن يعرف في الحقيقة هل هو على علاقة بابنة فِكرت گولدانـچـي أم لا. لم يكن من السهل الإجابة على تلك التساؤلات. قبل شهرين، قدمت سوسن برفقة إحدى بنات عماتها إلى حفلة أقامتها الجامعة، وحدث أن ابنة عمتها التي تدعى مريم كانت زميلة منصور. وهكذا وتحت أنظار سائر الطلبة الحاسدين أمضى الحفلة برفقة سوسن. كانت فتاة ساحرة رقيقة وحسناء سرعان ما تعلق بها قلب منصور. أدهشه كيف أن فتاة لم تدخل جامعة في حياتها تعرف عن الطير والحيوان والنباتات النادرة في العالم أكثر مما يعرف أساتذته ومدرسوه. مع انتهاء الحفل، رجاها أن تعطيه رقم هاتفها حتى يتمكن من التواصل معها والتعرف إليها أكثر. ولأن سوسن لم يكن لديها هاتف قالت إن بإمكانه التواصل معها عن طريق ابنة عمتها. خلال تلك الفترة، اتصل بها مرتين وتكفلت مريم التي كانت من أقرب المقربين لسوسن بترتيب كل شيء وإشاعة الأخبار حول تلك العلاقة في الكلية وما حولها. كان لمريم طريقة في الكلام تحمل الآخرين على الانزعاج منها. كانت جميع الأسرار عندها تلقى رواجاً كبيراً. كان منصور قد تكلم مرتين فقط إلى تلك الآنسة، فماذا بوسعه الآن أن يقول... أيقول إنه على علاقة بها؟ كانت الفتاة على درجة من الرقة بحيث يعشقها كل من يراها، ولكن ماذا عليه أن يقول الآن. في تلكم المرتين، قضت سوسن الوقت

كله وهي تقول إنه لا يجب أن يحبها. لقد كانت من الفتيات اللواتي يبالغن في الكشف عن عيوبهن، وأضافت أن بإمكانه العثور على فتاة أفضل منها من بين زميلاته في الجامعة، ولكن لم يكن من السهل عليه التخلي عنها. ورغم أنه لم يكن يعرف الكثير عن سوسن فقد استبد به حبها إلى درجة الجنون. بعد تلك الحفلة في الجامعة، صدف أن رآها مرتين في جمعتين متتاليتين حين كانت هي ومريم بصحبة بعض بنات عماتها في السوق يتجولن بين محلات الأقمشة. وفي المرتين استوقفها بحجة مريم فسلم عليها وملأ عينيه بمرآها. وفي المرتين كانت نظرات سوسن إليه تشي بالعطف أكثر مما تشي بالحب. والآن ماذا عليه أن يقول؟ أيقول إنه سينسحب ويتخلى عنها، لأجلك... لأجل الأخ كاميران الذي لم يره قط في حياته، لأجل منگوري باباگوره الذي يطالبه بذلك. في تلك اللحظة التي كان منصور يحدِّق إلى سحنة الرجلين قفز وجه مريم إلى ذاكرته فجأة. كانت تلك عادة سيئة لديه حين تقفز إلى ذاكرته على حين غرة وجوه لا علاقة لها بالمواقف التي يعيشها في ساعته. بعد لحظات من الهدوء والتأمل، قال بصوت هادئ: لا شيء يربط سوسن بي، ولكن هناك ما يربطني أنا بها... منذ شهرين وأنا موله بها وباسم ذلك العشق الطاهر الذي ملك عليّ قلبي. أناشدكما الله أن تتركا سوسن وشأنها.

همّ كاميراني سلمى بالكلام، غير أن منـگور رفع يده مشيراً إليه بالسكوت. قبل أن يمد يده إلى جيبه ويخرج منديلاً جديداً

مطوياً بعناية، مسح به أنفه وقال: «أشعر أنني قد أصبت بالبرد، من الواضح أن شتاء السنة سيكون أطول من الشتاء السابق، وإذا كان ذلك فلا أشك أن صحتي ستتدهور... ها، ألا تشعر بذلك أنت أيضا يا أخ منصور؟». لكن منصور، وبدون أن يعير التفاتاً إلى ما قاله، أجاب: «أطالبكما أيها السيدان أن تتركا سوسن وشأنها لأنني لا أستطيع أن أفعل، أؤكد لكما أنني لا أستطيع التخلي عنها... لم تقل لي سوسن شيئاً لكني أحبها إلى درجة ليس معها لأي قوة في العالم أن تنزعها من قلبي».

هنا فقد كاميراني سلمى صبره وصرخ دون أن يهتم بأوامر منـكور: «سأقتلك، أقسم بشرف أمي أنني سأقتلك، هل سمعت؟... بشرف أمي سأقتلك وحسب».

للمرة الثانية مسح منـكور أنفه وأردف: «إنه لمن المؤسف يا أخ منصور، أنك لم تفهم جيداً ما قلته. أنا قلت إنك إذا لم تكن لديك نية في العرقلة وإثارة المشاكل فكن واثقاً أن الموضوع سيجري بسهولة كجريان الماء. الحقيقة أن القضية ليست بهذه السهولة، فالموضوع الذي يقول فيه منـكوري باباگوره كلمته، ليس لك أن ترد عليه بكلام تافه كهذا الذي قلته «أنا لا أخرجها من قلبي» وأشباه ذلك من الترهات التي لا قيمة لها عندي ولا معنى... ليس في العالم امرأة لا يمكن للرجل أن يخرجها من قلبه. نسيان امرأة أيسر من ارتداء جورب أو خلعه... أنا كنت مثلك فيما مضى أقول إنني لا يمكن أن أنسى فلانة، ولكن قبل أن ينقضي النهار كنت ألتقي بـ «قطعة» أجمل فأنسى الأولى

بكل سهولة وأسخر من نفسي وعقلي الساذج، وإذا كنت عاقلاً يا فتى فسيحدث لك الشيء عينه وتعود إلى رشدك، ستسخر في الغد من عقلك الذي يلقي على لسانك الآن بهذه الكلمات الفارغة».

تحت ضوء ذلك المصباح القديم بدت هيئة منصور أسرين أشد شحوباً مما هي عليه في الحقيقة، ابتسم ابتسامة بائسة رسمت على وجهه بعمق أسارير الوحدة والانكسار التي يخفيها في قلبه ثم قال: «أفهم ما تقولانه ولكن لا أعرف بالضبط هل سوسن فِكرت تحبني أم لا، ومع ذلك فإن ما تطلبانه مني شيء يفوق طاقتي...».

قال كاميران: «تلك الفتاة ستصبح زوجتي، أسمعت؟ ستصبح زوجتي، وليس من حق أي صعلوك أن يفكر في زوجتي ويحبها ولو سراً». فأجابه منصور دون غضب ولا خوف: «إذا حدث ذلك وأصبحت ابنة فِكرت گولدانـچـي زوجتك فإني سأغادر هذه المدينة إلى غير رجعة... أقسم أنني سأخرج من هذه المدينة ولن أعود إليها ما دمت حياً».

شعر كاميران أن في كلام منصور نبرة من الاستخفاف به، وكأنه كان يقول له إنه أحقر من أن يصبح زوجاً لابنة گولدانـچـي. وبدون أن يطيل التفكير مد يده فسحب سكينه. وفي تلك اللحظة من الذهول، كأن منـگـور كان غافلاً عن حدة طبع كاميران، لو حدث ذلك قبل عشرين عاماً لفعل هو شخصياً

الشيء ذاته، لسحب سكينه بالحماسة والشراسة ذاتها ولهاجم خصمه بالعنف ذاته، بالجنون ذاته والثورة ذاتها... لم يشأ أن يقبض على يده، فلطالما أحب أن يشهد هياج كاميران الذي يشبه هياج الجن... لم يفعل شيئاً أكثر من أنه تأهب للفرجة. كان قد شاهد كاميراني سلمى قبل هذه المرة وهو يهاجم خصومه على حين غرة وكم استمتع بذلك المشهد. كان يريد قول شيء ما، ولكن كأن قوة علوية ما أرغمته على أن يكون مجرد متفرج مستمتع. رأى كاميراني سلمى وهو يهاجم ورأى التماع نصل سكينه، ورأى كيف تهاوى منصوري أسرين عن كرسيه وارتمى على الأرض جثة هامدة. بقي منكور ساكناً حتى تناثر الدم على عينيه بالذات، فقال في نفسه: «يا إلهي العظيم، هذا اللقيط يضرب بالسكين على غير هدى، هذا الطيش خطر جداً». كان متأكداً أنه إذا استمر في التلويح بالسكين بهذا الشكل فلن ينهض هذا المسكين عن الأرض أبداً. وفي اللحظة التي كان كاميران فيها يهزُّ سكينه يمنة ويسرة ويتأهب ليغرز طعنته الثانية في جنب منصور الأيسر، استفاق منكوري باباگوره من غفلته وقبض بشدة على يد كاميران صارخاً: «يا سليل الجن يا كاميراني سلمى، لن تتعلم في حياتك الضرب بالسكين... يا حيوان».

صرخ كاميراني سلمى بدوره وكأن أحداً ما جرحه بسكين: «اتركني... دعني أقتله... إن لم أقتله الآن فسأقضي بقية حياتي متحسِّراً على تفويت هذه الفرصة».

كان منـگور ما يزال محتفظاً بقوته وما يزال أستاذاً في الحركة البدنية والصراع بالأيدي، ولذلك فسرعان ما استطاع السيطرة على كاميران. ذُهل كاميران بالسرعة والخفة التي التقط بهما منـگور السكين من قبضته. براعة منـگور في القبض على الأيدي وهز الزنود وتليين الأصابع تركت كاميراني سلمى مبهوتاً. لم يكن يظن قط أن شخصاً بإمكانه انتزاع سكين حادة من قبضته القوية بهذه الخفة والبراعة. وبصوت رجل محبط ركل ركبة منصوري أسرين بقوة وصرخ بصوت يختلط به البكاء: «يابن الكلب فقط لو أنك تركتها لي لما حدث كل ذلك...».

سارع منـگور إلى فتح يد منصور أسرين وفك على عجل أزرار سترته ليطلع على مكان جرحه. يا الله، كانت السكين قد تركت أثراً عميقاً في جنبه الأيسر بعد أن اخترقت أضلاعه. كان منـگور يعلم أن الجرح في ذلك المكان هو الأخطر والأكثر حساسية، ومن النادر أن ينجو شخصٌ أصابته مثل تلك الطعنة...

هز رأسه وكرر جملته نفسها هامساً: «لن يتعلم هذا الولد كيف يضرب بالسكين... لن يتعلم».

٢

خرج «خالدي مام صبور» الشهير بـ «خالد آمون» من منزله في الساعة الثانية ظهراً، على أمل أن يحظى برؤية سوسن إن خرجت من منزلها هي الأخرى في تلك الساعة. لو كان الوقت شتاء كما في الأيام الماضية وكان اليوم قصيراً لما عاد إلى منزله، بل لقضى سحابة اليوم في دكانه يتناول غداءه وسط تلك الروائح والعطور العابقة من ثياب النسوة اللواتي يرتدن شارع السوق جيئة وذهاباً باحثات عن الصدريات والعطور والمكياجات الحديثة. ولكن منذ أن عرف أن هذا هو خط سير سوسن فِكرت الذي يمكن له أن يراها فيه، تخلى عن جميع عاداته السابقة؛ فكان يعود في ظهيرة كل يوم إلى بيته وهو يأمل أن تقع عيناه عليها عصراً وهو راجع. قال في نفسه: «تبا للعشق، إن أسوأ ما فيه أنه يرغم العاشق على تغيير عاداته. هذا ما يميز الرجال عن النساء، المرأة لا يصيبها العشق بالجنون أبداً ولا يجبرها على تغيير سلوكها ومخالفة عاداتها... فقط الرجال من بين جميع الكائنات الأخرى هم من يذهب العشق بألبابهم».

خلال تلك الأشهر الأربعة التي علم فيها أنه قد أصيب بداء العشق، لم تتغير عاداته اليومية فحسب بل إن ثقته بنفسه قد اهتزت وانحدرت إلى مستويات خطيرة. كانت حياته فيما مضى لهواً محضاً خاصة مع أولئك النسوة اللاتي كن يترددن إلى دكانه، أما الآن فهو يعاني هزالاً مفاجئاً وآلاماً في الرأس وانخفاضاً في ضغط الدم، ويؤمن -على عكس جميع العشاق الآخرين- أن العشق يفرِّغ بطريقة غريبة الحياة من أي معنى. كان خالد آمون صاحب أكبر متجر للألبسة النسائية في مركز المدينة، وكان خيرة خطاطي المدينة قد صمموا له واجهة متجره ونقشوا عليها بخط جميل وبثلاث لغات «محل آمون لجميع البضائع العصرية».

الآن وبعد أربعة أشهر من الألم المزمن والهزال الشديد، أبصر أخيراً سوسن فِكرت برفقة ثلاث فتيات في دكانه، كانت ترتدي ثوباً من الشيفون الأبيض مزيناً بأزهار صغيرة زرقاء، كان شعرها مسرحاً بطريقة أسطورية، مجموعاً على بعضه باستثناء شعرتين شقراوين كانتا تتأرجحان كحلقتين على صدغيها. لم تكن تتجمل بأي شيء؛ لا حلق ولا عقد ولا حتى ساعة في معصمها بل ولا ماكياج ظاهر على وجهها، غير أنها كانت ساحرة ولا يمكن لمن تقع عيناه عليها ألا يترك كل ما بين يديه ويهرع لتلبية طلباتها. لم يسبق له من قبل أن رأى فتاة بهذا التواضع، ولذلك عقدت الحيرة لسانه فلم يعد يعرف ما الذي شدّه إليها: أجمالها أم تواضعها. كان في طريقة حديثها

ونظراتها وحركتها شيء من الوهن. عرف خالد آمون، منذ طفولته، حياة سهلة وميسرة إذ إنه نشأ في عائلة غنية، ومنذ شبابه الباكر وهو يتعامل مع زبائنه من النساء وخاصة مع أولئك النسوة المرفَّهات اللواتي كن يرين أنهن من طبقة متفوقة على سائر الناس. كان خالد عارفاً خبيراً بدهاليز العالم المغلق لنساء هذه المدينة، وإلى جانب هؤلاء كان يتعامل كذلك مع النسوة العاملات اللواتي كن ينفقن معظم رواتبهن في دكانه. آلاف النساء كن يترددن إلى متجره رغم علمهن أنه زير نساء ماكر، ومع ذلك، فرغم جميع ما كان يفعله ليلاً بعد انتهائه من عمله في الدكان، لم يكن خالد يقوم خلال عمله بأي تصرف مخل قد يسيء إلى سمعته في السوق. لطالما كان للمرأة دور مهمّ في حياته، فقبل عام حين قبضت عليه قوات الأمن بتهمة عدم تعليق صورة لصدام حسين في دكانه، سعت امرأة من زبائنه في إطلاق سراحه، لم يكن يعرف أن تلك الزبونة المنعَّمة كانت على علاقة قوية برجال الأمن بحيث يمكنها إطلاق سراح معتقل. في ذلك اليوم لم يكن يهمُّه سوى شيء واحد هو كيف يخرج من ذلك الجحيم.

مضت حتى الآن أربعة أشهر على حالة الكساد غير المفهوم التي يعيشها، ومنذ أربعة أشهر لم يذهب مرة واحدة كعادته إلى العاصمة لإحضار موديلات البضائع الحديثة، كان قد فقد أي رغبة في مجاملة كل أولئك المهرِّبين الذين يزودون المدينة بالبضائع من ألبسة وعطور وماكياجات. منذ عدة

أسابيع وهو يشعر بخفوت سحر متجره وانطفاء بريقه، بضاعته تقل والتجار الآخرون أصحاب المتاجر المنافسة والمخازن الكبيرة يتغامزون عليه. لكن الأصعب من بين كل ذلك كان لا مبالاته الغريبة بكل ما يحدث له. قال في نفسه: «هذا ما يفعله بك العشق، لا تعود قادراً على معرفة ما تريد».

كان قد بلغ الرابعة والعشرين من العمر. ومنذ بلوغه الثامنة عشرة، وهو على احتكاك مع جنس النساء بدءاً من بنات الهوى، وانتهاء بأولئك الفتيات اللاتي كن يقصدن الأسواق بحثاً عن عريس محتمل. خلال تلك الأربعة أشهر، حضرت سوسن فِكرت ثلاث مرات إلى دكانه، وفي المرات الثلاث لم تكن وحدها ولم تشترِ شيئاً، بدت كأنها مريضة، وارتمت بوهن على كرسي صغير. في المرات الثلاث كانت تحمل بين يديها بعض الصحف، وكان مظهرها الواهن المتعب يزيدها في عينيه جمالاً وإشراقاً. منذ الأسبوع الأول، عرف كل شيء عنها، أو هذا ما كان يخيل إليه كما هي عادة تجار السوق. خلال تلك الأشهر الأربعة، كان قد صادفها مرتين أخريين في طريقه. لم تكن سوسن تُشاهَد وحدها مطلقاً. وجميع تلك المرات التي رآها فيها خالد آمون كانت بصحبة فتيات أخريات لا يعرفهن. رغم أن خالد آمون كان قد تلقى خلال حياته الكثير من رسائل الحب من الفتيات، فلم يحدث أن كتب هو رسالة لإحداهن. كان مبدؤه في الحياة هو أن الرجل يستطيع أن يقضي حياة رائعة مع أي امرأة بشرط ألا يقع في غرامها، وكثيراً ما سمع في السوق

أحاديث وأخباراً عن رجال ضحَّوا بحياتهم وأموالهم في سبيل حب امرأة، لكنه لم يكن يصدق كل تلك الأخبار. ولكن ها هو الآن متعب ومضطرب ويشعر أن كل شيء في حياته -باستثناء صورة سوسن في خياله- عبء زائد في الحقيقة، وسيكون سعيداً لو تخفف منه... ولماذا لا يمكنه التخفّف منه، يمكنه بلا شك.

كان يخاطب نفسه قائلاً: «يا إلهي على دروب العشق، لماذا تظهر فجأة كل تلك العوائق، بل... لماذا يظهر العشق نفسه؟».

٣

حين وصل منصوري أسرين إلى المشفى، كان في حالة يرثى لها بين الحياة والموت. تحلّق حوله الأطباء والمضمدون والممرضون كما يتحلّق نفر من الأطفال حول حمامة ميتة، وكان قد نزف ساعة كاملة قبل أن يصل. كان منـگوري باباگوره قد كلَّف بعض الأشخاص بنقله إلى المشفى بسرعة وشدَّد عليهم كثيراً في الإسراع بإسعافه، لقد كان يعلم بخبرته أن الجرح قاتل؛ فمعظم حملة السكاكين ليسوا أقل خبرة من الأطباء في طبيعة الجروح ومواقع الشرايين ومدى خطورة جرح نقطة معيَّنة في البدن دون أخرى. والأستاذ الحقيقي عند منـگور هو ذلك الذي يلوح بالسكين ويجرح دون أن يقتل. كان منـگور خلال حياته الطويلة قد جرح الكثيرين وهو بذاته تلقى أكثر من إحدى عشرة طعنة في جسده. ولأنه تصرف خلال تلك المعارك ببراعة واحتراف، فقد خرج سالماً. لم يحدث له أن وجه طعنة مميتة كهذه لأحد. أما الآن فحتى يتبين مصير منصور سيقضي هو وكاميراني سلمى وقتهما في قلق وترقب. خلال ساعة، قام الأطباء بجميع ما يلزم عمله لإنقاذ

حياة منصور أسرين الذي لم يكن أحد من عائلته يعلم حتى تلك الساعة بما وقع له.

في الساعة الحادية عشرة ليلاً بلغهم الخبر، ووصل إلى المشفى والده إبراهيم أسرين وأختاه «بفراو» و«سيفان» في سيارة «لادا» قديمة وبالية. رغم رهبة الشوارع ليلاً، كان الأب قد خرج يبحث في جميع بيوت معارفه عن ولده الذي غاب أسبوعاً عن الجامعة غياباً غير مسوَّغ، ثم عاد بعدها إلى المدينة وبدون أن يذكر شيئاً لأحد. حين أبصروه على تلك الحال، انخرطت أختاه في البكاء وأصيب والده بحالة من الذهول، لبث صامتاً وهو يحدِّق إلى الضوء الباهت الصادر عن جدران المشفى المدهونة بدهان كثيف ووسخ، بالإضافة إلى منظر الممرات ورائحة الأدوية التي سببت له فجأة ألماً نفسياً عميقاً. لقد كان من النوع الذي لا يتحمل أن يمرض أبناؤه، ولذلك فقد لاذ بالصمت وتجلد خشية أن تدمع عيناه. أراد أن يتقدم فيشكر الأطباء لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة لأنه لم يكن يعرف ما الذي قدموه له بالضبط. لم يكن يريد أن يموت ولده في هذا المشفى الذي بدا له مكاناً غير لائق بالموت، وعليه أن يفعل ما بوسعه ليموت في مكان آخر. في كل مرة زار فيها إبراهيم أسرين المشفى، ظهرت أمامه حالة موت، أشخاص يبكون وآخرون يتراكضون في الممرات، لكن هذه الليلة أهدأ من أن تقع فيها حالة وفاة. كان واثقاً أنه في الغد سيفهم كل ما حدث بالتفصيل، أما الآن فلا وقت إلا للدعاء والابتهال إلى الله أن

ينقذ ولده الحبيب من براثن الموت. في تلك الليلة الشتائية الباردة، لم يكن أمام إبراهيم أسرين أي شيء آخر يفعله.

في اليوم التالي، كل شيء أصبح معلوماً، كل شيء... اسم منـگوري باباگوره كان أكبر من أن يتم إخفاؤه في سياق حدث كهذا. ذلك المساء، كان كثير من الناس قد رأوا منـگور بقبعته الشتوية الكبيرة واقفاً مع ذلك الفتى، لكن ما عجز إبراهيم أسرين عن فهمه هو ما الذي قد يدفع رجلاً مثل منـگوري باباگوره إلى الشروع في قتل ولده.

كان إبراهيم في الثالثة والستين من العمر وإن كان يبدو أكبر من ذلك، كهل نظيف وأنيق يرتدي دائماً ثوباً أبيض ونظيفاً. منذ كان في الثامنة عشر وحتى اليوم يرتدي هذا الطرز من الثياب: ثوب أبيض وجبة زرقاء. أما في الشتاء فكان يضيف إليهما عادة معطفاً أسود. لم يغير عاداته تلك حتى في أعقاب وفاة زوجته، إذ إنه اكتفى حينها فقط ولمدة ستة أشهر بإضافة ربطة عنق سوداء. وها هو الآن بثيابه النظيفة تلك وشعره الأبيض الكثيف الذي أورثه أبنائه، واقفٌ هناك غير عارف هل ما يزال ولده حياً أم لا. قضى عشرين عاماً من حياته موظفاً في البلدية، وكان مطلعاً على الكثير من خبايا هذه المدينة، لكنه الآن عاجز بالفعل عن فهم ما الذي قد يجمع شاباً ذكياً عاقلاً مثل ولده منصور بشقي مثل منـگوري باباگوره... كان واثقاً أن الناس ستتناقل هذه القصة غداً بشكل آخر مخالف بالتأكيد لحقيقة ما حدث.

جلس مع ابنتيه وسط روائح المرضى. كانت الفتاتان غارقتين في حزن شديد على أخيهما الراقد بين الحياة والموت لا يكاد يرقأ لهما دمع. ورغم أنهما لم تخرجا من البيت إلا بعد أن استكملتا وضع الماكياج، لكن ذلك لا يعني أنهما غير حزينتين على أخيهما. قال إبراهيم أسرين في نفسه: «أسوأ ما في نساء هذه المدينة هو هذا الهوس الشديد بالماكياجات، بناتي ورثن هذا الهوس عن المرحومة أمهن»، ثم تساءل في حسرة: «ماذا سيحدث لهاتين المسكينتين إن متُّ أنا وأخوهما في وقت قريب، ما يكون مصيرهما؟!». لم يكن لديه أي إجابة بالطبع عن هذه الأسئلة التي قفزت إلى ذهنه في تلك الساعة.

خُيّلَ لإبراهيم أسرين أنه يرى الملاك جبرائيل بجناحيه الكبيرين، كان واثقاً أنه هو، جبرائيل بجسده الأبيض الضخم يتجول بين الممرات ثم يخرج. لطالما كانت رؤية الملاك جبرائيل واحدة من أغلى أمنيات حياته. كان يتخيل ظهور جبرائيل مرة في الشهر على الأقل في أمكنة ومناسبات مختلفة. رغم أن إبراهيم لم يكن يصلي، إلا أن قلبه كان عامراً بإيمان لا يتزعزع. حتى خلال فترة شبابه الباكر حين كان شيوعياً، لم يغادر الإيمان بالله قلبه لحظة واحدة. الآن كان واثقاً أن رؤية الملاك جبرائيل ليست نتاج تثاؤب ويأس وأشباح خيال، بل نتاج رؤية عيانية صادقة. شعر مرة أنه بات على مقربة شديدة منه وشاهده وهو ينظر إليه، فقال يخاطب نفسه بهدوء: «لا شك أن جبرائيل يقضي شطراً من حياته ها هنا في هذا المشفى».

وعند اقتراب الفجر قال وهو يتثاءب: «كلا، جبرائيل ليس كائناً عاطلاً عن العمل»، قالها بصوت مرتفع وكانت ابنتاه قد اعتادتا على سلوكه الغريب هذا خاصة بعد وفاة والدتهما، إذ كثيراً ما كان يتكلم بغير وعي منه وبصوت مرتفع.

في اليوم التالي، انكشف كل شيء، كان هناك بعض الأشخاص الذين شاهدوا منـگور وكاميران على باب قبو خدرو دويار، وشاهدوهما يدخلان برفقة شاب مجهول إلى ذلك القبو. وبذلك أيضاً شهد أولئك الذين كلفهم منـگور بإسعاف منصور إلى المشفى... ومع ذلك فلم يكن أحد يعرف بالضبط تفاصيل ما حدث في تلك الليلة المشؤومة.

في ظهيرة ذلك اليوم، شوهد منـگوري باباگوره بقبعته الروسية في الحديقة الواقعة عند باب المشفى. كان يمكن لأي شخص فطن أن يقرأ على صفحات وجهه تاريخ المدينة بأسرها. كان البعض يطلق عليه اسم «كلب شوارع المدينة الضيقة». كان كلامه وتصرفاته في الحواري القديمة والمقاهي المظلمة قد أثمر. لم يكن أحد يتفوق عليه في فن الشتائم. ولكن لكي يدرب نفسه على الحديث إلى الشريحة المحترمة من الناس، كان قد عمل خلال سنوات على تطعيم قاموسه الأسود ذاك. وهكذا أصبح بوسعه بكل سهولة أن يغطي الوجه الحقيقي لمنـگوري باباگوره بقناع سميك من الكلمات المنمقة. لم يكن الهدف من ذلك القناع أن يخدع الناس أو يضللهم، ولكن فقط من أجل أن يظهر لهم أنه شخص محترم

مثلهم، وأن كلامه شبيه بكلامهم. كان لظهوره في ذلك المكان وذلك الوقت أثرٌ عميقٌ وجارحٌ في قلب إبراهيم أسرين. وبدل أن يتضايق من رؤية منكور ويحرك ذلك في قلبه لواعج الأبوة المكلومة، شعر بارتياح مفاجيء. كان إبراهيم أسرين جالساً على كرسي في باحة المشفى الكبيرة، حين تقدم منه منكور وعرَّفه بنفسه قائلاً إنه جاء ليوضح له ملابسات الحادث لئلا يصدق ما سيسمعه لاحقاً من أقاويل الناس. وبصوت عالٍ وبشكل بدا كافياً لإسماع جميع من كان في الجوار، قال: «لا أعرف بالضبط ما الذي قاله لك عني أولئك المفترون، ولكن كن على ثقة يا سيدي أن ولدك مدينٌ لي، فقد أنقذته من الموت مرتين، ولكن لم يتسنَّ لي أن أسعفه بنفسي إلى المشفى... لو كانت أمي نفسها في المشفى لم يكن لي أن أزورها، لقد سبق أن خيَّطت بيديَّ هاتين جرحاً لي بستِّ قطب لئلا أضطر إلى طبيب. القصة ليست كما سمعتها من بعضهم، الحقيقة هي أن ولدك واقع في هوى ابنة فِكرت گولدانـچـي، ذلك النوع من الهوى الذي يتسبب للمرء بالمغص، شيء لا يليق به كما لا يليق بالفتاة... طوال حياتي وأنا أكره هذا النوع من العشق الفارغ. أنت ترى أنني لست في تلك السن التي أصلح معها للعشق، ولذلك فلا مصلحة لي في كل ذلك... أما ابن سلمى دولان، وأتساءل إن كنت تعرفه، فقد وقع في المحذور ذاته وحاله كحال ولدك، كلاهما يسكب الدموع حتى من مؤخرته على مذبح هذا العشق. ابن سلمى يريد خطبة تلك الفتاة، ابنة گولدانـچـي، وهو جادٌّ في الزواج بها، وكما

تعرف يستطيع كلبان أن يأكلا معاً في قصعة واحدة ولكن لا يمكن ذلك لعاشقين... وهكذا كما ترى، فقد خرج الموضوع عن حده بسبب حماقة ابن سلمى وتهوّره... كلمة يسيرة كان من الممكن أن تجعل الأمور تسير على ما يرام وتصلح بين الرجلين، لكن ذلك لم يحدث، وخرجت الأمور عن السيطرة، وبالكاد استطعت أن أتدارك الطعنة الثانية التي وجهها كاميران لابنك، لقد منحني الله القوة وتمكنت في اللحظة المناسبة من إيقافه. كاميراني سلمى صديقي وأعرف جيداً أنه لا يستطيع تمالك نفسه عند الغضب، إنه ليس معتدياً بل إنه رجل بمعنى الكلمة. لقد كنتُ شاهداً على بعض معاركه ولذلك تراني أقول لك ما تسمعه مني الآن، أعرف جيداً أنه رجل حقيقي... رجل يريد الزواج بامرأة يكون هو معشوقها الوحيد ولا يريد أن يكون لها عشاق آخرون...».

في الواقع، لم يكن إبراهيم أسرين قد سمع باسم فِكرت گولدانـچـي من قبل. ورغم أنه لم يكن امرأ سريع التصديق لما يسمع، إلا أنه على غير العادة صدق كل كلمة تفوَّه بها منـگور... كانت شهرة منـگور قد سبقته إليه، وكان إبراهيم يعلم أن حامل السكاكين الشهير هذا ليس فقط الأكثر توحشاً وإثارة للرعب من بين أقرانه حملة السكاكين في المدينة، لكنه كذلك الأصدق.

٤

عزم فِكرت گولدانـچـيٍ، بعد سلسلة من الكوارث التي أصابته، على التوجه شمالاً. بقي حتى سنة ١٩٨٥ يعمل في مديرية توزيع الطحين في بغداد وكان يشرف على عدد من المخازن الكبيرة التي تؤمن الطحين للجيش. عند نشوب الحرب، قصف الطيران الايراني تلك المخازن مرتين، وفي المرتين كُتب لفِكرت گولدانـچـي النجاة من ذلك القصف، وخرج سالماً من وسط الغبار والطحين والبارود والتراب. وفي المرتين حمل بيديه جثث بعض الموظفين والعتالين وفتيات المحاسبة، ولفت انتباهه حينها المنظر الفريد للطحين المختلط بالدم. لم يكن فِكرت گولدانـچـي مجرد موظف كبير توجه في مطلع سنوات الخمسينيات إلى العاصمة بغداد بهدف الدراسة وعاد بعد خمس وثلاثين سنة، لكنه كان قارئاً مجتهداً حظي بفضل ثقافته الواسعة بإعجاب كبير في الوزارة، وعلى تقدير عظيم من رؤسائه في الوظيفة. كانت ثقافة فِكرت گولدانـچـي تشتمل على جوانب كثيرة متنوعة، منها معرفته الواسعة بأجناس النبات الغريبة النادرة والزهور العجيبة

في أرجاء الأرض، في الوقت ذاته الذي كان يمتلك اطلاعاً واسعاً في دقائق ميكانيك السيارات وطرائق تطوير المولدات الهيدروليكية وطريقة عمل الصواريخ الذكية.

كانت معرفته تحيط بكثير من الأشياء المتفرقة، بدءاً من الأدب حتى التفاصيل الدقيقة في تاريخ فن التصوير وسير الرُّحّال الكبار ومآسي العلماء والعلل النادرة التي تصيب الملوك والسلاطين. فكر خلال فترة من حياته بتأليف كتاب ضخم حول المدن الغارقة، وجمع لأجل ذلك كثيراً من المراجع المتعلقة بخراب المدن والحواضر بدءاً من سدوم وعمورة وانتهاءً بخراب المدن الكبرى في العصر الحديث مثل دريسدن وستالينغراد، غير أن مشاغل الحياة حالت بينه وبين الاستفادة من مراجعه تلك وإنجاز مشروعه. والواقع أنه كتب على امتداد حياته كلها أربع مقالات تعالج كل واحدة منها علماً مختلفاً، ونشرها في مجلات متفرقة. وكان قد كتب في مطلع شبابه مقالة مطولة حول الرُّحّال الأوربيين، وحاول مستعيناً ببعض الخرائط الدقيقة أن يصحح جملة من المفاهيم والمعلومات الخاطئة لدى كُتَّاب التاريخ الأوربيين، الذين كانوا إذا تعلّق بتاريخ الشرق وجغرافيته عالجوه بطريقة صبيانية، فخلطوا المكان بالزمان. كانت مقالته تلخيصاً وافياً عن الأدوات القديمة التي استخدمها البحارة ما بين القرنين الرابع والخامس عشر. وكان قد أرفقها بصور فريدة لشكل البوصلة القديمة، بالإضافة إلى آلة غامضة دعاها

بالأسطرلاب. أما مقالات فِكرت إحسان گولدانـچـي الأخرى فكانت إحداها عن «أثر البيئة في الموسيقى الشرقية القديمة»، والثانية عن «عقدة أوديب في شاهنامه الفردوسي»، والثالثة عن «تأثير زهرة البابونج في أنزيمات جسم الإنسان». والمقالات الثلاث نشرت في ثلاث من أشهر الصحف في ذلك العهد. أما التزامه الكلي بتجارة الطحين فيرجع إلى أواسط الستينيات، حين كلفته الدولة بمرافقة وفد منتدب إلى الاتحاد السوفياتي حيث وقعوا مع الأوكرانيين عقداً بخصوص استيراد الطحين الأبيض. وما رفع من أسهم گولدانـچـي في وظيفته تلك هو إتقانه عدداً من اللغات الأجنبية، وهذا ما جعله عضواً دائماً حتى بداية الثمانينيات في أي وفد تجاري تتعلق مهمته باستيراد الطحين. كان گولدانـچـي يستغلُّ سفراته تلك في شراء الكتب النادرة والخرائط القديمة وبعض التحف. وفي وقت قصير اجتمع لديه عشرات أطالس النباتات والمعادن وأطالس ملونة عن المحركات والمناطيد والعطور ومخلوقات البحار والشعوب القديمة. أطالس فِكرت گولدانـچـي، التي تربو على مئتي مجلد، تحولت في سنوات السبعينيات في بغداد إلى مجموعة ضخمة من الكتب المهمة والنادرة التي لا يمكن العثور على نظير لها في أي مكتبة وطنية ولا في أي مركز علمي. كانت مكتبته تلك مصدر فخره، وكل من وقعت عيناه على تلك الكتب الفريدة قال: «يا إلهي العظيم، ما هذا الذي فعلته يا فِكرت بك؟!». ولكن رغم مكتبته الضخمة تلك وطموحه الجارف بأن يصبح عالماً، فإنه لم يصبح شخصاً

بارزاً أو مشهوراً في أي من المجالات التي انشغل بها طوال عمره. لقد ألجأه همُّ رعاية عائلته وتأمين معيشة كريمة لها إلى الانهماك في تجارة القمح والطحين بيعاً وشراءً وتوزيعاً، إلى درجة لم يعد يجد معها الوقت الكافي ليلتفت إلى هواياته الحقيقية. وهذا الأمر أصابه بوجوم دائم لم يكن أحد في العائلة يعرف له سبباً. في بداية السبعينيات، أصيبت زوجته بالسل. وغير مستبعد أن يكون إعراض زوجها الدائم عنها والتفاته إلى عالمه الخاص بين تجارته وكتبه سبباً رئيسياً في ذلك المرض. لطالما كانت قمرخان تعاني من غبار أكوام الكتب غير المقروءة ومن العزلة، ولا ترى سبيلاً للتخفيف عن نفسها إلا في زيارة جاراتها، فتجلس إليهن فينقين الرز من الحصى ويقطعن أطراف حبات البامية والفاصولياء، ويجتمع إليهن الكثير من نسوة الحي، ومن إحداهن انتقل المرض الرهيب إلى قمرخان بالتأكيد. قضت قمرخان سنتين في مشفى خاص خارج بغداد منقطعة عن العالم الخارجي. حتى في تلك الفترة لم يتخلَّ فِكرت گولدانـچـي عن أسفاره واجتماعاته وتوسيع مكتبته التي أخذت رفوفها تنتشر وتغزو أرجاء المنزل. خلال ستة عشر عاماً من الزواج أعقب فِكرت گولدانـچـي وقمرخان ثلاثة أولاد، كان البكر ولداً أزرق العينين أشقر الشعر سماه نزار، وابنتين سمى الكبرى منهما پـروشه والصغرى سوسن؛ وهذه الأخيرة كانت منذ ولادتها ضعيفة البنية دائمة المرض، وتأخرت في المشي.

في السنة التي توفيت فيها قمرخان بمرض الصدر والرئة في ذلك المشفى الخاص، كان ولدها البكر في الرابعة عشر من عمره، وپروشه في الثانية عشر بينما كانت سوسن في الخامسة. بعد وفاة الأم، مرت العائلة بأوقات صعبة، وعرفت كثيراً من الأيام السوداء. قضى الأخ الأكبر معظم وقته في الخارج، وأنفق سنوات نشأته الأولى في صخب شوارع بغداد وجنونها. حين بلغ السادسة عشر كان قد أصبح مدمناً على شرب الخمر، وسرعان ما انضم إلى فرقة للدف والمزمار كانت مهمتها تشجيع بعض الفرق الرياضية على مدرجات الملاعب. كان أشدهم حماسة ونشاطاً، ولم يقف طيش نزار فِكرت الشاب حائلاً دون كونه رفيقاً حميماً لأختيه. لم يكن الفتى من ذلك النوع الذي يشغله شيء عن ارتباطاته العائلية، ولم يغب عن ذاكرته لحظة واحدة أن لديه أختين بحاجته. صحيح أنه لم يرث عن والده محبته للكتب، لكنه حين تقدم لامتحان الشهادة الثانوية سنة ١٩٧٦ حاز على درجات عالية أهلته لدراسة الهندسة التقنية. تلك الصورة التي احتفظت بها ذاكرة سوسن فِكرت عن أخيها كانت صورة فتى أشقر الشعر أزرق العينين يسير مبتسماً رافعاً رأسه ومرتدياً بذلته الجامعية. عقب وفاة الأم خطر لأولاد فِكرت گولدانچي خاطر غريب هو أن يبعثوا الحياة من جديد في حديقة منزلهم التي طالما أهملوا العناية بها، وكان نزار نفسه يقضي معظم وقته فيها حين لا يكون مشغولاً بالهتاف في الملاعب. «كنت أشعر في بعض الأيام أن كل جسمه كان يصفرُّ كالخُزامى». هكذا قالت سوسن

فيما بعد. يجب أن نذكر هنا أن العلاقة بين الأب والابن لم تكن على ما يرام، وكثيراً ما كان هذا الأخير يلقي باللائمة في وفاة أمه المبكرة على والده الذي كان دائم الانشغال عن مراعاة حالتها.

مع نشوب الحرب العراقية-الايرانية، كان نزار فِكرت قد تخرج من كلية الهندسة التقنية، وكانت المرة الأولى التي فكر فيها فِكرت گولدانـچـي بالعودة مع عائلته إلى موطنه الحقيقي في الشمال. كانت دراساته المعمقة في التاريخ قد منحته موهبة التنبؤ المبكر بالكوارث. وحين استولى «صدام حسين» على السلطة، وظهر على الناس للمرة الأولى من شرفته العالية مثل ديكتاتور يعلن عن ولادة العالم الجديد في العراق، كان فِكرت بين تلك الحشود الضخمة واقفاً يحدِّق إليه بذهول. كانت خبرة فِكرت وقراءاته الكثيرة عن سِيَر المستبدين تؤكد له أنها بداية أيام طويلة سوداء. لقد كان في داخله حدس قوي كأنه جرس إنذار يقرع ليقول إن هذه الاحتفالات الصاخبة ليست سوى فاتحة عصر مخيف ومظلم. ذلك اليوم حين كان فِكرت گولدانـچـي في باص قديم بطابقين متوجهاً من «الميدان» إلى «البياع»، وسط موسيقى الاحتفالات وصخب الشعارات، كانت تدور في ذهنه فكرة واحدة هي أن يستبق الكارثة وينقل وظيفته كيفما كان إلى قسم الأرزاق في الشمال. في ذلك الوقت كان نزار في السنة الثالثة من دراسته الجامعية وأصابه قرار والده بصدمة كبيرة، فلم تكن القضية أن يعود إلى العيش

منفرداً في القسم الداخلي، بمقدار ما كان يثقل كاهله الحرمان من ملاعبه ومفارقة أصدقائه وزملائه في بغداد. والأصعب من كل ذلك كان الافتراق عن «أسيل يلماز» الفتاة التي يحبها، والتي ستنقطع علاقته بها إن هو هاجر من بغداد إلى أي مكان آخر. لم يكن الفتى ليدرك أن والده يتصرف هكذا بوحي من حدسه بالكوارث المرعبة التي تنتظرهم، والده الذي كانت قراءاته عن تاريخ الشرق والصراعات المذهبية المزمنة فيه قد جعلته شبه متيقن من وقوع حرب ضروس، إن ظهور دكتاتور جديد مهووس بالشهرة والمجد لا يمر عادة دون وقوع حرب. خلال تلك الفترة الطويلة من إقامته في مدينة مثل بغداد أشبه بالبحر فهم أن كل شيء من حوله بات ينذر بكارثة وشيكة. ولئلا يُطلع ولده نزار على حقيقة هواجسه، فقد قال الأب إنه قد تقدم في السن ولم يعد بإمكانه متابعة العمل في المؤسسة التي يعمل فيها الآن. كان قرار الأب بمثابة إعلان ثورة بالنسبة إلى نزار وپروشه اللذين لم يخطر لهما قط، ولم يكونا مستعدين، أن يمضيا حياتهما في مدن صغيرة ميتة ونائية كتلك التي في الشمال. كانت پروشه الأكثر قلقاً وكان العشق هو السبب؛ فقد كان الوقت صيف ١٩٧٨ ولم تكن قد مضت عدة أيام على احتفالها بعيد ميلادها الثامن عشر حين تعرفت في إحدى حدائق بغداد الكبيرة إلى شاب يدعى «نشأت نعمت»، كان ابن ضابط كبير في الجيش. كان الفتى صديقاً مخلصاً وقد وعد پروشه أن يخطبها ويتزوجها في العام التالي، ولذلك فقد كانت عودة العائلة ضربة قاضية على جميع آمالها وفراقاً أبدياً عن محبوبها.

الوحيدة التي لم تبد أي اعتراض، بل قالت لوالدها إنها ستكون معه حيث يريد وإنها لن تتركه أبداً، كانت ابنته الصغرى سوسن التي كانت أحب أولاده إلى قلبه. بعد وفاة زوجته، أولى فِكرت ابنته سوسن عناية كبيرة، ولم يكن أحد ليصدق حينها أن شخصاً مثل فِكرت مهووس بالكتب قد ينجح في رعاية ابنة صغيرة فقدت والدتها. كانت سوسن منذ نعومة أظفارها نحيلة ضعيفة البنية ولم تكن عظامها بالمتانة التي تؤهلها لأداء أي عمل مجهد، وهذا ما زرع في نفسها خوفاً دائماً. لم تبدأ سوسن بالنطق والمشي إلا عقب وفاة والدتها، ولأن والدها كان دائم الحرص على التحدث إليها وتلقينها الكردية النقية فقد نشأت سوسن أفصح من سائر إخوتها. استطاع فِكرت گولدانـچـي بطريقة ما أن يزرع في قلب ابنته المسكينة تلك صوراً أسطورية عن كردستان ومدنها ومصايفها، حتى أنه كثيراً ما كان يضطر إلى المبالغة في ذلك.

كان يفتح ألبوم صور شبابه الباكر أمام ابنته ليريها مشاهد الجبال والثلوج والقرى الغافية وسط الأحراش والغابات والأنهار الممتلئة سمكاً، ولكن دون أن يحدثها عن أي شيء آخر. كبرت الفتاة على أسماء مدن مثل هولير وحلبجة وآميدي، ومصايف مثل سولاف وسرسنك وديانا كما في الأساطير والملاحم. لم يكن فِكرت گولدانـچـي يجرؤ على أن يبوح لأولاده بمخاوفه من وقوع حروب مخيفة، وتنبؤاته حول الأيام الصعبة المظلمة التي تنتظرهم، غير أنه في سياق

بعض أحاديثه همس في أذن صغيرته سوسن أن سنوات من الدم تنتظر هذه البلاد.

تزوجت «پروشه فِكرت» حين كانت طالبة في السنة الأولى من دراستها الجامعية، وكان والدها لا يرى في زواجها هذا إلا تصرفاً طفولياً، وقد أسرَّ إلى سوسن: «أعرف جيداً أنها لن تكون سعيدة»، لكن حديث والدها عن الحرب القادمة هو ما كان يشغل ذهنها أكثر. شرح فِكرت لابنته مستعيناً ببعض الكتب والأطالس الضخمة ماذا تعني الحرب، عرض عليها صور بعض المدن التي دمرتها الحرب، كتائب من الجيش في حالة مسير، بعض الجنود بخوذهم الحديدية في خنادق القتال، بعض صور سبطانات المدافع وهي تطلق من فوهتها شآبيب النيران، انفجار الرمانات في أرض المعركة، أجساد جنود ممزقة، مجازر جماعية، جنود شباب جرحى في أوحال الخنادق، رجال شجعان غائصون في الثلوج، ضباط أضر بهم الجوع وبرد الشتاء، أسرى في طوابير طويلة، مدن محترقة وجنرالات متعبون وسط الدخان والبارود...

من الصعب أن يفهم المرء سر ولع فِكرت گولدانـچـي بالتحدث إلى فتاة صغيرة ناحلة عن الحرب، لقد نقل بطريقة ما كل تلك الهواجس التي كانت تدور في رأسه إلى رأس الفتاة التي عرفت مبكراً أنها تعيش في بلاد خطرة. قبل أشهر من بداية قصف سلاح الجو الإيراني لبغداد، كان هذا الهوس قد تمكن من سوسن الصغيرة التي كانت دائمة النظر في الكتب المتعلقة

بالحرب وصور الجنود القتلى في وثائق الحرب العالمية، وقد أثر كل ذلك في نفسها وأصابها بالاكتئاب، وخلق لديها عادة قضم الأظافر والسير على غير هدى والأرق الليلي. اعتادت منذ ذلك الوقت على تجربة الغوص في داخل تلك الصور التي كانت تشاهدها، والشعور بالأحاسيس ذاتها التي تنقلها الصور. أصبحت سوسن موهوبة في الولوج بروحها عميقاً إلى داخل أي صورة تراها وسبر أغوارها العميقة، كانت تنظر في صور الحرب فتنسى نفسها وتتركها لتضيع في مجاهل تلك الصور، والأمر نفسه كان يحدث لها مع صور الطبيعة والمواقع الأسطورية. شيء واحد كان يؤلمها هو أنها لا تسمع أي صوت من داخل الصورة ولا تشم أي رائحة. بقدر ما كانت تلج بسهولة إلى أعماق تلك الصور، وبقدر ما كانت المشاهد تتجسد لها عياناً وبكل وضوح فتأخذها إلى عوالم حية وحقيقية، كانت تشعر بانعدام الصوت والرائحة. فيما بعد تحولت رغبتها العارمة في أن تشم من تلك الصور روائحها الميتة إلى هوس خفي.

كان لمشاهد الحروب وصور الضحايا تأثير قاتل في الفتاة الصغيرة اضطر معه والدها أن يريها الوجه الآخر للحياة، ففتح لها باب مكتبته وسمح لها بالاطلاع على موسوعاته النادرة عن الزهور والأسماك والطيور. شاهدت سوسن گولدانـچـي في تلك الحجرة صوراً رائعة لكثير من الموانئ والمدن والممالك الغافية في كتب أبيها، وكان تأثير اطلاعها على تلك الكتب

كبيراً لدرجة أنها بعد ذلك حتى في الليلة التي كان الطيران الإيراني يقصف بغداد حافظت على توازنها الطبيعي.

ولكن مع إعلان الحرب، تغيَّرت حياة عائلة گولدانـچـي نحو الأسوأ، ودخلت في مرحلة مظلمة غلب عليها الهم والفوضى.



في صباح اليوم التالي، كان خبر اعتداء كاميراني سلمى ومنـگوري باباگوره على طالب جامعي وجرحه بسكين قد شاع في المدينة. منذ سنتين لم يتورط منـگور في مشكلة كهذه، ولذلك سرعان ما وصل الخبر إلى الدكاكين والمقاهي وعلم به جميع من يعرف منـگور من عُمّال السوق وتجّاره.

حتى الساعة الحادية عشرة، كان خالد آمون قد سمع ثلاث روايات مختلفة من الخبر، كانت جميعها تتحدث عن منازلة بالسكاكين وقعت بين شابين يجمعهما حب فتاة بغدادية. عاش خالد آمون منذ طفولته وسط أكاذيب العمال وشائعاتهم، وكان يعلم حق المعرفة كيف يتم تحريف الحكايات وتطعيمها برغبات ناقليها وخيالاتهم الجائعة. كانت بطلة القصة فتاة بغدادية، وهذا أكثر ما أثار فضوله وبث الهواجس في نفسه، لأنه كان على معرفة بمعظم بنات المدينة ولم يكن فيهن بغدادية تستحق أن يقع لأجلها نزال بالسكاكين سوى سوسن فِكرت وأختها. بين الحادية عشرة والحادية عشرة والنصف

أجرى بعض الاتصالات ليستوثق من صحة الخبر ويطلع على تفاصيله، حتى علم أخيراً بما أكد مخاوفه. أبلغه أحد أشد المقربين من منگوري باباگوره، والذي كان في صباح يوم الحادثة قد تناول الإفطار معه، أن القضية برمتها تتعلق بفتاة هي ابنة فِكرت گولدانچي الذي قدم قبل فترة من بغداد واشترى منزلاً في المدينة ولديه ابنتان جميلتان شغف بهما الكثير من شباب المدينة. وهكذا سرد عليه «كابرا» جميع تفاصيل الحكاية كما سمعها حرفياً من منگوري باباگوره شخصياً. طلب منه خالد إعادة سرد الحكاية مراراً وتكراراً حتى تأكد أن ابنة فِكرت گولدانچي لا علاقة لها بالقصة لا من قريب ولا من بعيد، وأنها لا تعلم عنها شيئاً وليست على علاقة عاطفية بأي من أطرافها. كان كابرا يعلم أن لكلماته هذه ثمناً لن يبخل به عليه خالد آمون، ولذلك قال: «ما فهمته منه أن الفتاة المسكينة لم تسمع حتى اللحظة باسم كاميراني سلمى».

اطمأن قلب خالد آمون إلى أن سوسن فِكرت بعيدة تماماً عن هذه القضية التي استعرت بين صعلوكين من شُذّاذ الآفاق، ومع ذلك فقد بقيت بعض الهواجس تراوده. بعد أن انهى اتصاله، أغلق دكانه وعاد بسيارته الصغيرة التي كانت من ماركة فيات إلى منزله. رغم أن الطقس اليوم لم يكن بارداً كما في الأيام السابقة، إلا أنه شعر برعشة قاتلة في جسده، كأن شيئاً ما في داخله كان يجعله يرتجف، قال في نفسه: «النساء لا يقعن في الغرام بهذا الشكل، من المحال أن يدفعهن العشق

إلى الجنون». كم كان راغباً في تلك اللحظة برؤية ذلك الفتى الجريح وكاميراني سلمى عن قرب.

لم يكن خالد آمون وسيماً بما فيه الكفاية؛ فقد كان شاباً شاحباً نحيلاً وقصير الشعر، وكانت له ذقن مدببة تضفي على وجهه استطالة ملفتة وعينان لوزيتان كبيرتان، ولكن حاجبان رفيعان مستطيلان يمنحانه هيئة رجل مكتئب ودائم الارتياب. لم يكن من السهل على من يراه أن يخمن من خلال هيئته بما يشعر به، أما الشيء الوحيد الذي كان يلفت إليه أنظار النساء فكان غموض نظراته، تلك العيون التي لا يمكن قراءتها بسهولة، ولا يمكن للمرء أن يعرف أهو إزاء ملاك ماكر أم قاتل ينتظر فرصة سانحة للإيقاع به. وكل من نظر إليه مرة يعلم أن بإمكانه أن يكون في الوقت نفسه فظاً ولطيفاً. لم يكن في ملامحه أي شيء يدل على حقيقة أنه لم يعش الفقر ولم تمر به البتة أيام صعبة، بل على العكس فقد كان يخيل لمن يراه أنه حديث نعمة وأن ماضيه كان فقراً مدقعاً. كانت نظراته وسلوكه يخفيان بمهارة حقيقة أن هذا الشاب ابن واحدة من أغنى عوائل المدينة. كان سلوكه ذاك خادعاً لكثير من نسوة المدينة اللواتي كن يحسبنه أحد العمال المأجورين وليس مالك أشهر دكان في السوق، ولكن ما إنْ يفتحُ فمه ويشرع بالكلام بصوته الرنان حتى يتعلق به كل من يسمع صداه ويصدق كل ما يقوله؛ بل ويشتهي الاستمرار في الحديث معه والاستماع إليه. يعرف أولئك الذين عاشروه عن قرب وشهدوا حالات انفعاله أنه إذا

غضب خرج صوته من حلقه جافاً لا رنة فيه، لحن بارد يجعل فرائص المستمع ترتعد، ولكن لحسن الحظ فإن قلة من الناس قد رأوا هذا الوجه الآخر لخالد آمون. كانت الفتيات يرين فيه فتى هادئاً ميالاً إلى الصمت وخجولاً بعض الشيء، لكن خالد آمون لم يكن عاجزاً عن التحول إلى صورة وحش غاضب كان هو بذاته يخشاه. علّمته نشأته في السوق كيف يخفي مشاعره الحقيقية. كان يحقد على معظم منافسيه من تجار السوق، ولم يكن يحب كذلك أصدقاءه ندماء الشراب، لكنه كان بارعاً للغاية في إخفاء كل تلك المشاعر. غير أن براعته تلك تلاشت أمام سوسن فِكرت، إذ كان يشعر أن قوة ما أكبر من طاقته تتلاعب به.

حتى البارحة، كان أكبر هموم خالد آمون هو إيجاد طريقة مناسبة يبوح فيها بحبه لسوسن. أما الآن فإنه يواجه مشكلة أكبر، وهي الحقد. في المساء حمل قارورة شراب من ماركة «نادر» وعلبة بسكويت واتجه إلى المشفى، فتش جناحاً بعد جناح وغرفة بعد غرفة، وأعانه الصخب الذي كان يعم القاعات على التجول بسهولة في ما بين الأقسام وسؤال الممرضين والمضمدين. كانت المرة الأولى في حياته التي يشعر فيها أنه شاب بائس وذابل. كان يرتدي معطفاً بنياً طويلاً بعض الشيء وقميصاً شتوياً بأكمام، وكان لباسه ذاك يزيد في كشف وحدته.

حين وصل إلى سرير منصور شاهد جمعاً من الزائرين حوله. اقترب أكثر وأخذ يتمعن في وجه الشاب الجريح بعمق

وصمت حتى لفت إليه أنظار الجميع. التقت نظراته بنظرات منصوري أسرين الذي لم يسبق أن رآه من قبل، ولكن لم يكن الأمر يحتاج إلى فطنة كبيرة، فسرعان ما خمّن منصور من خلال نظرات هذا الشاب والبؤس البادي على وجهه أنه واحد من عشاق سوسن فِكرت الكثيرين. كان في نظراته شيء ما كالذي رآه البارحة مساءً في عيني كاميراني سلمى، سر أشبه بالجنون، بل أشبه بنار تتقد على حين غرة. لم يجد أحد منهم حاجة لقول شيء ما. كان خالد آمون يتمنى من أعماق قلبه أن يقضي هذا الجريح نحبه. وضع شرابه ثم قال بصوت بارد: «آملُ أن تُشفى بسرعة».

كان سبب زيارة خالد آمون هو التعرف إلى هذا الشاب. كان الشاب الراقد في الفراش ناحلاً ومتواضعاً، وقد أضفى الجرح الذي أصابه البارحة ثم العملية الجراحية التي خضع لها على وجهه صفرة تشبه صفرة وجوه الأموات. غير أن كل ذلك لم يكن قادراً على إخفاء ملامح وجهه الوسيم، ولذلك فقد استقر في نفس خالد آمون أن خصماً كهذا لا يجب الاستهانة به، وأدرك في تلك اللحظة فقط لماذا كان كاميراني سلمى حريصاً على التخلص من هذا الشاب. قال في نفسه: «يا إلهي، كم يليق به أن يكون عاشقاً». كان الشاب الراقد يمتلك نظرات رومانسية ساحرة قلما تصمد أمامها أنثى في هذه المدينة. خاطب خالد نفسه بخجل: «يبدو أن النوم مع العاهرات قد أفقدني سمات العشاق». وشيئاً فشيئاً رأى نفسه بعيداً عن سرير

المريض بسبب كثرة توافد الزوار، وكانت قاعة الانتظار تغص بنسوة كن تارة يبكين وينشجن بصمت وتارة يمطرن اللعنات على الآثم الذي تسبب بهذه الحادثة المؤلمة. كانت مجموعة من عمات المريض وبنات عمه، نسوة جسيمات بعباءات طويلة تفوح منها روائح عفنة، وتشعرك أنهن أدخلن معهن كل برد الخارج. مع تزايد أعداد الزوار، وجد خالد آمون الفرصة سانحة كي ينسل بهدوء خارج الغرفة. في قاعة الانتظار، تقدم ممرض ضخم فأزاح ستارة كبيرة وطلب من الزوار عدم إصدار أي ضجة. كان خالد آمون ما يزال يفكر لماذا لا يليق به أن يكون عاشقاً، هل للعشاق شكل معين. كان واثقاً أنه يحب سوسن فِكرت أكثر من محبة هذا الشاب لها، قال: «لو أن كاميراني سلمى لم يتصرف بذلك الشكل الأرعن، لكان من الممكن أن يتمكن منـكوري باباگوره من إقناع هذا الشاب بالتنحي عن طريق سوسن». وأضاف بعد تردد: «لم أرَ في حياتي شخصاً يليق به العشق كهذا الشاب، يا إلهي العظيم لماذا حرمتني من هذه النعمة؟».

عند بوابة المشفى، شعر مرة أخرى أن قوة ما تدفع به إلى الأمام. وفي السيارة وقبل أن يصل إلى منزله، فكر: «عليّ أن أذهب لملاقاتها قبل ليلة السبت. من يسبق الآخرين هو الذي يفوز دائماً». قال ذلك رغم أنه كان يشعر في أعماق نفسه بضعف شديد.

٦

لم تطل سعادة عائلة گولدانـچـي بتخرج نزار من كلية الهندسة. فمع نشوب الحرب تلقت العائلة أمر تجنيد ولدها برتبة ملازم في وحدة إصلاح المركبات والآلات العسكرية ضمن مرتبات الطابور الثاني. بالطبع كان بمقدور نزار فكرت، على عكس الكثير من أقرانه، تجنب التجنيد لولا أن الحب دفعه إلى عدم محاولة التفكير في ذلك، ولم يكن أمامه إلا أحد خيارين، إما المضي إلى ميدان المعركة أو القبول باقتراح والده، أي الهجرة مع عائلته إلى الشمال، حتى يتجنب الوقوع في يدي عناصر الشرطة العسكرية التي كانت تتعقب الفارين من الخدمة في كل مكان. مع بداية الحرب، حاول فكرت گولدانـچـي أن يقنع ولديه بالسفر معه إلى واحدة من مدن كردستان، لكن نزار لم يكن يتخيل العيش فاراً مختبئاً في واحدة من مدن الشمال، بل كان يريد لنفسه أن يكون أحد قرابين العشق الفريدة وكان قد أقنع نفسه أن التحاقه بتلك الحرب كان من أرفع مواثيق المحبة. استمعت سوسن فِكرت باهتمام إلى كل ما قاله نزار،

وكان من الواضح لها من خلال كلامه أن الفتى لم يكن يمتلك أدنى فكرة عما هي الحرب.

حدث قبل أيام من تكليف نزار بالالتحاق بالصفوف الأمامية في الجيش، أن تقدم الشاب نشأت طالباً يد أخته پروشه. كان نشأت شاباً خجولاً قليل الكلام، وكان نزار قد أمضى عاماً كاملاً في الجيش حين تم الزفاف الذي لم تشهد المدينة له نظيراً. كان والد نشأت جنرالاً مرموقاً في الجيش، ولذلك فقد حضر زفافَ ولده عدد كبير من علية القوم ومسؤولي الحزب. ورغم أن فِكرت گولدانـچـي شخصياً كان واحداً من موظفي الدولة الكبار، إلا أنه كان يشعر بنفسه غريباً ونكرة وسط أولئك الناس. حضر زفاف پـروشه كبار ضباط البحرية وسلاح الطيران، وكان الزفاف أشبه بزفاف أمير من الأساطير، حتى إن ذكرى تلك الليلة الصاخبة لم تفارق ذاكرة پـروشه وسوسن، غنى فيها أشهر المطربين وشرب فيها الجميع حتى انتشوا سُكراً. ورغم أن نشأت كان قد أعدَّ لنفسه منزلاً فارهاً، إلا أن ظروف الحرب اقتضت أن تبقى پـروشه في منزل والدها. كان الجنرال نعمت، وهو والد نشأت، من الضباط المتحمسين للغاية، وكان يرى أن مشاركة ولده في الحرب واجب روحي وأخلاقي، وكان الابن الأسمر ذو العينين السوداوين باراً بوالديه اللذين كان سلوكهما في المنزل أشبه بسلوك ضابطين في ساحة معركة، ولم يكن اختيار ولدهما فتاة كردية زوجةً أمراً مرضياً لهما في البداية، فقد كانا سليلي عائلة من القوميين

العرب كابراً عن كابر، ولذلك فقد كان اختيار نشأت المفاجئ محل دهشة وامتعاض بالنسبة لهما، لأن الكرد في ثقافة تلك العائلة لم يكونوا أكثر من جماعة من الهمج المتوحشين. ورغم أن نشأت كان في معظم شؤونه ضعيفاً ومسايراً لوالديه، إلا أنه قد اتخذ في قضية اختياره تلك موقفاً صارماً غير متوقع ولم يحد عنه. لعام أو أكثر، استمرت قصة حبهما عبر الرسائل والهواتف واللقاءات القصيرة العابرة، وكان إتمام زواجه من پـروشه بالنسبة إليه تحدياً للظرف السياسي الذي يسيطر على عائلته. ذات ليلة في المنزل وكان والده الجنرال جالساً مرتدياً رداء نومه الحريري وبنطاله الرمادي، اقترب منه نشأت وخاطبه بصوت واضح ولغة دقيقة: «إن كانت زوجتي كردية فلا يعني ذلك مطلقاً أن أبنائي لن يكونوا عرباً أصلاء، وها أنا أقسم لك يا أبي قسم ابنٍ بار أنني لن أدّخر وسعاً في سبيل أن ينشأ أولادي عرباً في الروح واللسان».

في الشهر الأول من زواجهما، ولأسباب تعود إلى ظروف احتدام القتال في البلاد وتوقف الإجازات، قضت پـروشه فِكرت الجزء الأكبر من وقتها وحيدة أو في منزل ذويها. أدركت سوسن من خلال ما كانت تراه كيف يمكن للحب أن يسوق المرء إلى شفير الهاوية. كانت پـروشه مهمومة جداً بشأن زوجها، حتى إنها اقترحت عليه في واحدة من إجازاته، أن يستغل نفوذ والده للانتقال إلى نقطة عسكرية بعيدة عن خط الجبهة، أو أن تتواصل هي مع بعض أقاربها في الشمال فيسهّلوا

لهما الدخول إلى إيران والهجرة من هناك باتجاه الغرب، غير أن الزوج لم يستجب لأي من الاقتراحين. كان نشأت، من جهة، يحمل بين أضلاعه روحاً نقية تتقد بالوطنية، وكان يعلم، من جهة أخرى، أن تصرفاً كهذا قد يضع مستقبل والده السياسي والعسكري على المحك، بل قد يقضي عليه تماماً. وكان خلال الأشهر الماضية التي قضاها في الجبهة الأمامية قد سمع قصصاً كثيرة حول ضباط كبار جرت تصفيتهم، وتم بعد ذلك الاعتداء على شرف زوجاتهم على أيدي رجال الحرس الرئاسي الخاص. وكانت تلك الأسباب كافية ليفضّل العريس الجديد جحيم الحرب على جحيم الفرار.

مع اشتداد الحرب، كانت سوسن فِكرت في الرابعة عشر من عمرها، وحين فرزوا أخاها نزار إلى جبهة «عيلام»، عانت من حالة أرق شديدة، ولذلك فقد كانت تقضي معظم لياليها في مكتبة گولدانـچـي، فكانت تجلس على الكرسي الهزاز الخاص بوالدها بعد أن تعد لنفسها فنجاناً كبيراً من القهوة العربية وبعض أعواد القرنفل، وتأخذ بقراءة الكتب بنهم. كانت سوسن ترى أن بإمكان الكتب احتواء العالم بأسره باستثناء الصوت والرائحة. كانت تغمض عينيها فتتجسد كل الأشياء أمام ناظريها حتى يخيل إليها أنها تراها عياناً. وكانت تصوّر في خيالها شكل وحركة كل ما تقرأ عنه في تلك الكتب. ولكن أكثر ما كان يخيفها في الحقيقة هو صمت الكتب، كان ذلك الصمت يلقي الروع بين جنبيها. ورغم أن كل كتاب

كان فيه مئات الأصوات، كلما أمسكت بكتاب وحدّقت إلى الصور وألصقت أذنها بالغلاف، لم تكن تسمع صوتاً ولا تشم رائحة. اعتادت سوسن منذ طفولتها أنها كلما أمسكت بكتاب أن تغمض عينيها فتبصر كل شيء، ترى مدناً تهبُّ فيها الرياح وخيلاً تجري وقطارات جامحة تقطع الجبال وأبطالاً على سرير الموت والدموع تترقرق في عيونهم وعشاقاً يحتضنون بعضهم بعضاً، غير أنها لم تكن تسمع شيئاً. كانت الكتب والصور عالماً فسيحاً ولكنه عالم أبكم. تعلمت سوسن من الكتب أن تكره الحرب، بل أن تتعجب من وقوعها. في تلك الفترة، تعلقت بقراءة سير كبار الرُّحّال، وحلمت أن تتزوج برحالة يروي لها في كل ليلة جزءاً مما رآه أو سمعه في رحلاته في أرجاء الدنيا.

ذات ليلة، وبينما كانت جالسة كالأطفال في كرسي والدها الهزاز، قالت لأختها پروشه: «إن كنت تحبين زوجك حقاً فامنعيه من الذهاب إلى الحرب وليذهب سائحاً في أرجاء الدنيا، فإن الحرب تجعل جميع الرجال حتى الطيبين منهم جواميس ضخمة». لقد فتح كلام سوسن هذا باباً للجدال لم يغلق بينها وبين أختها. لم يكن هناك من هو أرق قلباً من پروشه، وكانت قريبة العبرات، حتى أنهم أطلقوا عليها لقب «أميرة الباكين»، وكان والدها وأقرباؤها يعتقدون أنها ستتحسن بعد زواجها، غير أنهم كانوا مخطئين؛ فقد بقيت پروشه على حالها حتى بعد أن تزوجت. أجابت پروشه رداً على كلام

أختها والعبرة تكاد تخنقها: «إن ما يدفع بنشأت إلى الحرب هو الحب وليس الوحشية». وأضافت: «لا يذهب إلى الحروب إلا الرجال العاشقون». كانت پروشه تعتقد أن سوسن تظلم زوجها بكلامها عنه بهذه الصورة، ولذلك فكثيراً ما كان خلاف الأختين يحتدم، فيجد الأب نفسه مضطراً إلى التدخل فيما بينهما. حاول فِكرت گولدانـچـي في بعض الجلسات الخاصة أن يشرح لابنته الصغرى كيف أن الدافع إلى الدخول في حرب قد يكون الحب وليس الرغبة في القتل أو ولاءً لحاكم مستبد، قال: «في بلادنا، يفضل بعض الناس أن يموتوا أو حتى أن يظهروا كالوحوش على أن يظهروا غير مبالين بالحب». غير أن جواب ابنته العنيدة كان: «من يدخل حرباً لأجل امرأة أحمق، بل هو أشد حمقاً من جميع الآخرين». قال الأب: «يا ابنتي، إن معظم الرجال لا يدخلون الحروب طوعاً بل ربما لأن كلفة خوض الحرب قد تكون أحياناً أقل من كلفة تجنبها أو الفرار منها، وهذا هو السبب في ميل بعض الناس أحياناً إلى تفضيل الحرب. وثمة أيضاً من يدخل الحرب من أجل إنقاذ أولئك الذين يحبهم، عليك أن تصدقي أن مثل ذلك قد يحدث، وأنا واثق أنك غداً حين تكبرين وتعشقين شخصاً ما ستدركين جيداً ما أعني». غير أن جواب الابنة كان مخيباً: «لن أعشق في حياتي شخصاً إلى درجة يدفعني فيها ذلك العشق إلى تغيير رأيي في الحرب، وأنا أقسم لك أن كل من يفكر بهذه الطريقة أراه لي عدواً. حتى الآن لم يكن يزعجني سوى أولئك الشباب الذين يتناولون الثوم أو يدهنون شعورهم ويرفعونها إلى الخلف،

ولكن من الآن فصاعداً سيدخل في زمرة أعدائي جميع أولئك الذين يدخلون الحروب من أجل الحب». كانت مشاعر سوسن المعادية للحرب تتخذ شكل مبدأ صارم يتقدم على كل ما عداه يوماً بعد يوم، ولكن رغم ذلك فقد كانت الآنسة الصغيرة تظهر لهفة غريبة لسماع ومعرفة آخر أخبار الجبهة المشتعلة وكأنها كانت تجد متعة في الاستماع إلى تلك الأخبار.

في سنة ١٩٨٣، قُتل نشأت نعمت، واستغرق الأمر ستة أشهر حتى استطاعوا أخيراً العثور على جثته ملقاة في أحد أهوار الجنوب.

٧

لـم يكن كاميراني سلمى من ذلك النوع الذي يعرف كيف يعبِّر عن حبه. قال منـگوري باباگوره لِفكرت گولدانـچـي: «إن أعظم مصائب هذا الفتى هو أنه لا يعرف كيف يكتب رسالة حب، وأكثر من ذلك فهو لا يعرف كيف يقرأ رسالة أيضاً. إنه ليس أمياً تماماً ولا متعلماً تماماً، وإذا أردت الحق فإنك لو شئت أن تجنّب ابنتك مشاكل المتعلمين فلن تجد لها زوجاً أفضل من كاميران، إنه أفضل عريس لعروس جميلة كابنتكم المصون، عريس ليس لديه الكثير من الكفاءات، ولو طلبتم رأيي فإن الكفاءات الكثيرة تسوق لصاحبها المصائب. إن ابنتكم بحاجة إلى رجل يستسلم أمام جمالها. أنا أعلم أن هذا الفتى طائش، ولكني واثق أنه بعد سنوات سيكون من خيرة رجال هذه المدينة. أنا لا أكذب عليك بل أكره كل ما يصدر عن الرجال الكاذبين، وآمل ألا تؤثر سمعتي السيئة لديكم في ظن السوء بما أقول لكم الآن، فإن قول الكذب ليس في مذهبي يا سيدي. نحن الرجال نوعان في معاملة نسائنا: نوع جيد في شبابه وآخر جيد في شيخوخته، وأنا أرى أن الأفضل

هو ذلك الذي يحسن معاملة زوجته في آخر عمره. لقد سمعت هذا الكلام من كثير من النساء الناضجات، إن جميع الأزواج الذين يكونون في فترة شبابهم طيبين مساكين يتحولون عند الكبر إلى مردة وشياطين. هكذا هو الأمر، شئتَ أم أبيتَ. في حياة كل منا ثمة سنوات من الطيش، وكل فتى يجتاز مرحلة طيشه لا يلبث أن يتحول إلى رجل عاقل، وكاميراني سلمى من هذا النوع. الزمن كفيل بجعله زوجاً صالحاً... صحيح أنه أحد حملة السكاكين كما كان عليه «سادي ملا سابرين» و«كريمي دايه گلشن» و«عمر مام پپوله»، ولكن ها أنت تراهم اليوم -إذا استثنينا لعبهم القمار- من أفاضل الناس، بل إن غلامك الذي يتكلم إليك الآن هو كذلك من هذا النوع ذاته، أنا كذلك منهم يا سيدي».

لم يكن فِكرت گولدانـچـي يعلم بالضبط ما الذي يريد منـگوري باباگوره قوله، وإن كان قد استشفَّ من كلامه أن ثمة شاباً راغباً في الزواج من ابنته. كان قد مضى حوالي ربع ساعة على قدوم منـگور إلى منزل گولدانـچـي، ربع ساعة وهو غارق في تأمل ديكور المنزل: تمثال بوذا، أيقونات خشبية، أقنعة أفريقية، تماثيل للمسيح، لوحات الخط العربي على شكل آيات قرآنية، بالإضافة إلى لوحات أخرى عليها صور مختلفة من مساجد ومراقد مجهولة وسوى ذلك...

قد تكون غرابة جدران منزل گولدانـچـي هي السبب في هذا الاضطراب الذي أصاب منـگوري باباگوره وجعله، على

خلاف بلاغته المعهودة، يفتتح حديثه مع الرجل بتلك الصورة الغريبة قائلاً له إن كاميران ابن سلمى دولان لا يستطيع كتابة رسالة حب. لم يكن من المناسب أبداً تقديم عاشق ولهان إلى والد محبوبته بذلك الشكل، تباً له ولأميته، فالقسم الأعظم من رجال هذه المدينة هم مثله لا يمكنهم كتابة رسالة، ومكتب البريد هنا هو أكثر مكان لا عمل له ولا معنى لوجوده، فلماذا كان عليه أن يبدأ تعريفه لكاميران هكذا.

أدرك منكور في الحال أنه قد بدأ بداية خاطئة، ولا شك أن الدهشة التي استولت عليه والضياع الذي شعر به في هذا المنزل قد قاداه إلى ذلك، وطوال الطريق كان يفكر في هذه النقطة، ماذا لو أن كاميران كان كغيره من العشاق يتقن كتابة رسالة حب، إذن لما وقع في هذه المشكلة. إن هذا الجهل هو ما وضع منكور نفسه على هذه الطريق، طريق حملة السكاكين. وجميع العاجزين عن التعبير عن أنفسهم قد انتهوا كحملة سكاكين. شعر أن كاميران يسير على خطاه، على الدرب ذاتها التي سلكها في شبابه قبل أن يقرر في سن الخامسة والثلاثين أن يستعين بمدرس يعلّمه أصول الحديث وآداب الكلام. كان دائم الشعور باضطراب داخلي حتى أنه صارح أستاذه مرة: «إن السبب الرئيسي في معظم معارك السكاكين التي خضتها خلال حياتي كان خوفي من الكلام».
على امتداد أربع سنوات، استمر منكور في تلقي الدروس خفيةً ودون أن يعلم أحد بذلك. كانت مشكلته منذ الطفولة

هي عجزه عن التعبير عن نفسه، وكانت والدته تعلم بذلك حين كان في طفولته يشد شعره ويضرب رأسه بالجدران وجذوع الشجر... لقد كان بكماً روحياً، وكان كلما دخل في قتال ينعقد لسانه داخل حلقه حتى يستحيل إلى كرة من لحم تكاد تخنقه. ولطالما قالت له والدته إن تلك العقدة في لسانه ستقتله يوماً ما. كان يفكر، وهو في الطريق إلى منزل عائلة گولدانـچـي، بتلك الأصوات والاستغاثات الجريحة التي كانت تنطلق من حلقه أثناء معاركه، تلك الأنفاس المخنوقة والكلمات المكتومة التي كانت تحول دون تنفسه وتأبى الخروج كانت تنذره بهزيمة منكرة. في كل مرة كان يتأهب فيها لدخول معركة كان يتريث لبعض الوقت كمن أصيب بإغماء... كان شيئاً أشبه باحتباس الحلق وشلل اللسان وسقف الفم. كان قد مضى على انضمامه إلى سلك الشطّار والمقامرين في هذه المدينة أكثر من ثلاثين عاماً، ولكن دون أن يضطر إلى قتل أحد رغم كل تلك المعارك المخيفة التي خاضها، ولذلك يحق له الافتخار بنظافة يديه من الدم، فلا شيء أجمل من أن يكون المرء طاهر اليدين من دم إنسان. لا أحد يمكنه الشعور بتلك اللذة سوى من كان مثله على ذلك الخط الذي يفصل بين القتلة والبشر العاديين، ذلك الخط الذي لا يتسنى إلا لقلة قليلة من الناس الوقوف عليه مثله دون أن ينزلقوا نحو الهاوية. شعر بتعاطف كبير مع كاميراني سلمى وكم كان يتمنى في قرارة نفسه أن يقف كاميران أيضاً على ذلك الخط وألا ينزلق. كان واثقاً أن كاميران شاب صالح، قال في نفسه: «حملة السكاكين القدامى أخبر الناس بالناس،

نحن مختصون بالقلوب». فكر للحظة لو أنه كان قد تزوج إذن لكان لديه الآن ولد في سن كاميران، ومن المؤكد أن ما من أب يريد لولده أن يكون ما عليه كاميران الآن... كلا، ما كان سيريد لولده أن يدخل عالم المقامرين وحملة السكاكين. لم تكن مشاعره تجاه كاميراني سلمى مشاعر أب، كانت شيئاً آخر دون عُقدٍ ومتطلبات، فمحبة الآباء لا تخلو من العقد والمتطلبات... تنفس الصعداء وحمد الله أنه ليس أباً.

في ليلة البارحة، وعقب جَرح منصور أسرين، شعر أن الأمور تسير على عكس ما يخطط لها. كان مطمئناً لو أن كاميران عاش كعاشق مهموم ومنكسر فسينتهي الأمر به إلى شاب مخيف. قال لنفسه: «إن معدن الفتى من النوع الذي لا أحب أن أخسره، وكل من لا أحب أن أخسره يقوم بتصرفات سيئة». دس يده في جيب سرواله واكتشف أنه لا يحمل سكيناً. منذ سنتين كف عن حمل السكاكين إلا في حال الضرورة، وكان في كل مرة يدس بها يده في جيبه تتحسس يده ذلك الفراغ المؤلم. لم تعد الأمور كسابق عهدها، ولم يعد سهلاً أن يمشي المرء حاملاً في جيبه سكيناً، لكنه كان دائم الإحساس بذلك الفراغ كلما دارت يده داخل جيبه الفارغة. منذ زمن طويل لم يعد يخشى أن يتربص به عدو في شارع مظلم ويطعنه، فآخر أعدائه الحقيقيين المدعو «قلي داود» كان قد استشهد في صفوف البيشمركة قبل أربع سنوات. ولم يبق له من بعده عدو حقيقي يخشاه. أما الآن فإن عليه أن يفعل شيئاً ما لهذا

الفتى، أن يمنعه من الانزلاق. ليلة أمس قال لكاميران: «لقد أفسدت بجنونك كل شيء، ومن المحال أن تقبل فتاة ناعمة مثل ابنة گولدانـچـي الاقتران بسهولة بشخص مثلك يمضي طالباً الزواج بها حاملاً سكينه... أنت ما تزال غراً يا صغيري ولا تعرف شيئاً عن أحوال النساء، وكل تلك النعومة الظاهرة التي هن عليها ليست أكثر من قشرة رقيقة، إنها أرق من قشرة بصلة أو قشدة على سطح صحن لبن، ولا أحد يمكنه تخمين ما يجول في رؤوسهن الجميلة، ولو كنت أنا نفسي أعرف ما يفكرن فيه لتزوجتُ مئة منهنَّ. أنظر في وجوه نساء هذه المدينة وفي هيئاتهن فلا أقرأ شيئاً، لا أعرف كيف وبما يفكرن، هل تفهم؟ لا أعرف حتى ما ستفكر فيه سوسن، التي فعلتَ ما فعلتَ لأجلها، لو علمتْ بما أقدمتَ عليه هذه الليلة... الآن وبعد معركة السكاكين التي وقعت، الوضع أسوأ وليس أمامك إلا أن تتوسل إلى ربك أن ينجي ابن إبراهيم أسرين من الموت. لا أحمل في قلبي ذرة من الشفقة تجاه ذلك الشاب ولا تجاه عجائز الجامعة، فهؤلاء من طينة أخرى غير طينتنا يا صغيري، ولكن إياك أن تعتقد أن الآخرين يكنّون لنا -نحن الذين نرى لأنفسنا مقاماً في السوق- قيمة وقدْراً. الحال الآن مختلفة عما كانت عليه قبل عشرين عاماً، وحتى إذا لم يواجهونا بالتحقير فإنهم لا شك ينظرون إلى أمثالنا كأننا حيوانات وقرود. المدينة تعج اليوم بالمتعلمين، وهم ينظرون إلينا مدهوشين كأنهم قد رأوا بعيراً معمماً... ولكن، على أي حال، إذا نجا ابن إبراهيم أسرين فإن القضية ستكون قابلة للتسوية».

كان كاميراني سلمى دولان يشعر، عقب كل معركة دموية كهذه، بندم وحزن شديدين، وكان منكوري باباگوره مدركاً ذلك، فقال يخاطبه: «أنت تشعر بالحزن لأنك شخص جيد، لقد جربتُ ذلك بنفسي، يشعر الرجال الأخيار بالحزن دائماً، رحم الله «كارواني دايي» و«أولايي مام غني»، لقد كانا كذلك يأكلهما الندم والحزن عقب كل معركة، فلتهطل سحائب الرحمة على قبريهما، كان لهما قلبان من ذهب... ولكن يا ويحي، من يطعن في الجنب الأيسر!... المجانين لا تفعل ذلك... حتى «شينَيي پرخنان»، الذي لم تعرف هذه المدينة في تاريخها حامل سكين أشد جنوناً منه، لم يفعلها... بحق الشيطان، أين تعلمت القتال يا هذا؟».

كان سؤالاً بلا معنى لأن كاميراني سلمى لم يكن له معلم، وحتى الآن كان قد جرح أربعة أشخاص ودون أن يناله خدش صغير. في البداية، كان مع اثنين من أصحابه حين جرح طالباً في معهد المدرّسين كان قد دخل في نزاع مع أخيه الأكبر بشأن الإرث، وتم تكليف كاميران بتأديبه. وبعد ذلك ولأجل طالب في الثانوية الصناعية كان يعرفه معرفة سطحية، هجم كاميران على مدرّس في قسم الميكانيك وطعنه. وفي المرة الأخيرة وأثناء خروجه من قبو فندق «باوَجان» تعارك مع «أكَي گلناز» واثنين من أصحابه المسلَّحين. وقد خُيّل لهؤلاء أن كاميران فتى غر يمكنهما بسهولة أن يسلباه ما كان قد كسبه في القمار في تلك الليلة. كانت تلك هي المعركة الحقيقية الأولى التي

خاضها كاميران، والتي تعرّف فيها منـگوري باباگوره إليه عن قرب. في تلك الليلة، أدرك منـگور أن هذا الفتى يتمتّع بموهبة كبيرة، وتذكر وهو يراقب طريقة قتاله كيف كان حامل السكاكين الأشهر «يوسف كَويار» يقاتل في سنوات الستينيات، وكيف قُتل كَويار سنة ١٩٧٤ في «پـشدر» على إثر قصف جوي قامت به طائرات الدولة، وكان هذَا التشابه بين الرجلين سبباً وجيهاً رفع من مكانة كاميران في قلب منـگور. في تلك الليلة، قال منـگور: «في الحقيقة، أنا لا أعلم كم تحب سوسن فِكرت... لا أعرف، وكل ما أعرفه هو النار التي شبت بين أضلاعك حين علمتَ أن ثمة شخصاً آخر يحبها. لستُ خبيراً في شؤون الحب يا صغيري، غير أني أظن أن مشاعرك هذه لا علاقة لها بالعشق. تريد الحق، منذ وقت طويل وأنا أفتش عبثاً في هذه المدينة عن عاشق حقيقي. منذ ثلاثين عاماً لم يظهر في هذه المدينة عاشق حقيقي... لا أذكر أني التقيتُ بعاشق مثل المرحوم «أنور زيوال»... لقد كان عاشقاً عظيماً ولم أرَ من بعده من يشبهه... لقد كان واحداً من أولئك الذين تتقطر الدموع حتى من مؤخراتهم على مذبح العشق ويبذلون دمهم في سبيله. كان قد وقع في غرام «رَخشي» ابنة «عاصم آغا» واشترطت عليه الفتاة ساخرة «اربض أمام باب منزلنا كالكلب خمس سنوات متواصلة لا تتحرك فيها، فإن فعلتَ وبقيت مقعياً هكذا دون حركة خمس سنوات فإنني أرضى عندها بالزواج بك». كانت رخشي فتاة متكبِّرة ترى أن المدينة وما يحيط بها ملكٌ خالص لأبيها، بينما كان «أنور زيوال» مجرد موظف مسكين في قسم

الملاريا يجوب القرى والقصبات لتوزيع الأدوية المكافحة للبق والبعوض، وصدف في واحدة من جولاته تلك أن وقعت عيناه على «رخشي» التي ملكت عليه فؤاده... أتفهم ما أقول؟ أنا كنت حينها صبياً في الرابعة عشر من عمري حين التقيتُ به، وأدركت من النظرة الأولى كيف يجعل العشقُ المرءَ فحماً. لقد لبث ذلك المسكين خمس سنوات أمام بابها، ومن فضل الله والناس أنهم صنعوا له خلالها مظلة تقيه الشمس والمطر، وكانوا يتصدقون عليه بالخبز والثياب. حاول الجميع إقناعه بالعدول عن قراره ولكن دون جدوى، لقد استقال من وظيفته وبقي رابضاً مثل الكلب أمام باب ذلك المنزل... هذا هو العاشق. وقبل ثلاثة أشهر من انتهاء مهلة الخمس سنوات وكانت ليلة مثلجة ممطرة، وجده الناس وقد تجمَّد من البرد... مات دون أن يسعفه أحد. لا... ليس في هذا الزمان عاشق صبور مثل أنور...».

قال كاميراني سلمى بنبرة حزينة: «لو طلبت مني سوسن أن أربض أمام باب دارها خمس سنوات لفعلتُ دون تردد». في الحقيقة، كان منـگور مرتاباً منذ البداية في قصة حب كاميران، ولم يكن يرى بصيص أمل في خاتمة تلك القصة، ولكنه كان يأمل في التأثير في فِكرت گولدانـچـي ليوافق على تزويج ابنته بكاميران دون أي جلبة ولا حفلة عرس. قال لكاميران: «لا يفرّط الصياد الماهر بذخيرته ورصاصاته، وأنت لستَ ذلك الذي يتعرض للفتاة في الطرقات فيدس في يدها رسالة حب

أو يتكلم إليها. أنت لم تصبح حامل سكين أصلاً إلا لأنك عاجز عن التقرب من فتاة. في حياتي لم أتعرف إلى نوبة عشق تجعلني أشهر فيها سكيني من أجل فتاة، ولكني تعرفت إلى جميع حملة السكاكين في هذه المدينة، وكان الجميع يرتعدون خوفاً من النساء، وكانت صرخة واحدة من امرأة كفيلة أن تعيد الجميع إلى جحورهم وقد تبولوا في سراويلهم. أنا نفسي كنت أعرف يوسف كَويار العظيم، وقد عايشته، وأعرف كم كان يخجل من النساء. أنت لم تدرك زمن يوسف كَويار، ولذلك لا تعرف كم كان بطلاً عظيماً من أبطال الله، ولكن نحن أبناء هذه المدينة، نحن من وُلد في حواريها وأزقتها الضيقة والمتألقة التي منحتنا موهبة الحديث إلى النساء... أنا أعرف أنك مصاب بالعلة التي أصابت جميع حملة السكاكين المشاهير، هذه العلة المزمنة التي أصابت «ثريا مرجان خان» و«عيده سَي گل» و«فارس مجيد پـَشمك»، أولئك الذين دوخوا هذه المدينة في الأربعينيات والخمسينيات والجميع قد زوّجتهم أمهاتهم في النهاية، لأنهم كانوا أجبن من أن يتحدثوا إلى امرأة... لا أعرف، قد يكون سبب هذه العلّة هو هواء هذه المدينة وماؤها».

كان كاميراني سلمى يأمل أن يكون تقدمه للزواج بشكل رسمي مُرضياً لِفكرت گولدانـچـي وابنته. في تلك الليلة قال منـگور: «ربما يكون من الأفضل أن يَبلُغ ما حدث في هذه الليلة مسامع فِكرت گولدانـچـي وابنته، وعندها ستعرف الفتاة أن هناك من يحبها ومستعد أن يُسيل الدم من مؤخرات الناس

في سبيل حبها... أنت لا تعرف كيف تكتب رسالة حب، وقد يكون ما حدث الليلة نوعاً من رسائل الحب، وإذا كانت الفتاة مهتمة بشأنك فستقرأ تلك الرسالة حتماً بعناية. ولكن العقدة الحقيقية هي أننا لا نعرف بعد كيف يفهم البغداديون الحب... أعرف شخصاً من بغداد كان خبيراً في الحب، كان مدرّساً للغة العربية، سأستفسر منه عن ذلك. وإذا لم يكن في الموضوع ما يُريق ماء الوجه، فأنا في مساء الغد سأزور منزل گولدانـچـي».

في اليوم التالي، التقى منـگوري باباگوره بذلك المدرّس الذي كان معتاداً على الجلوس في مقهى «گلبهار» والحديث بإسهاب وبصوتٍ مرتفع عن مغامراته النسائية ووقائعه العظيمة مع فتيات العاصمة. كان ذلك المدرّس رجلاً بشاربين رفيعين وقامة طويلة يخرج كل مساء مرتدياً بزة رمادية تحت سترة سوداء. كان يصوّر بغداد بأسرها على أنها خالية من زاوية يمكن أن ييأس فيها المرء. كان المدرّس أستاذاً بارعاً في الوصول إلى مراتع الشهوة وخباياها في العاصمة. ورغم أن الكثيرين كانوا يرونه مجرد ثرثار كذاب إلا أنه حتى تلك اللحظة لم يعط عنواناً كاذباً لأحد. خلال مدة قصيرة، اشتهر أمر هذا المدرس بوصفه خبيراً لا يجارى في بيوت الهوى وأوكار الدعارة الموجودة في العاصمة. وكان كل من يقصد العاصمة يأتيه أولاً فيستشيره ويعمل بنصائحه.

بعد أن استمع باهتمام إلى قصة منـگوري باباگوره وحديثه عن طالب الجامعة الجريح، قال بصوت مرتفع: «اسمع يا

باباگوره، كان فِكرت إحسان گولدانـچـي واحداً من عقلاء رجال العاصمة، وإذا حدث وسمع ما لا يوافقه فلن يفعل ما يفعل أولاد الخنازير الذين تعرفهم، أعني أنه لن يهتاج ولن يثير فضيحة... أنا أقول لك امضِ وأنا أعلم أنك لن تعود فارغ اليدين ممرَّغ الأعطاف ولكن... كن عاقلاً بل عاقلاً جداً».

أثارت كلمات ذلك المدرّس الحميّة في قلب منـگوري باباگوره وشجّعته على القيام بزيارة عائلة گولدانـچـي.

٨

في صباح ايوم التالي، توجه خالد آمون ليس إلى دكانه، كما هي العادة، بل إلى مقهى «پـپولَي آزاد»* الذي كان كاميراني سلمى قد شوهد فيه مساء البارحة. فكّر أن كاميران يتمتع بقدر كبير من الجرأة حتى يظهر أمام الناس بعد حادثة تلك الليلة، يا له من عديم الشعور وآثم لا مكان للرحمة في قلبه. إن هذا الفتى عدو صريح، وعلى آمون أن يحسب له ألف حساب. فكّر أن كاميراني سلمى من ذلك النوع الذي لا يحني رأسه حتى بعد هزيمته، وإلا فما معنى ظهوره بهذا الشكل العلني، أن تطعن شخصاً بهدف قتله ثم تظهر بعد ذلك دون أن تحسب حساباً لشيء ولا لأحد ولا لأي عاقبة. إن إقدامه على طعن منصور إبراهيم في الجهة اليسرى من صدره لهي دليل على أنه عدو مخيف وقادر على قتل أي أحد. حين علم في المساء أن كاميراني سلمى قد شوهد مساء البارحة في مقهى «پـپولَي آزاد» وأنه قد شرب الشاي وتكلم في شأن سوسن فِكرت قائلاً إنها لن تصبح زوجة لسواه، استولت على خالد رغبة عارمة للقاء هذا الشاب.

* – «الفراشة الحرة».

في مطلع السبعينيات، كان مقهى «پـپولَي آزاد» ملتقى للشعراء الشباب الذين كانوا دائمي التردد على هذا المقهى يستمعون فيه إلى الأغاني الكلاسيكية ويغرقون وسط فيوض الأشعار الكئيبة ويأخذون بسرد همومهم وهم يرتشفون الشاي الأسود وسط دخان السجائر الذي كان يعمي الأبصار. ولكن مع مطلع الثمانينيات، تغير وجه ذلك المقهى تماماً إذ أصبح مكاناً لشرائح مختلفة من الناس كانت تضم بنّائي الآجر، سائقي باصات الأجرة، بعض المدرّسين المتقاعدين، بعض سماسرة العقارات الذين لم تكن عندهم مكاتب فكانوا يديرون من هناك صفقات البيع والشراء بالإضافة إلى نفرٍ من أخطر حملة السكاكين في المدينة. كان كاميران واحداً منهم وكان معتاداً على تمضية معظم وقته في ذلك المقهى. كان كاميران عاطلاً أبدياً عن العمل، فمنذ أن قطع دراسته الابتدائية لم يزاول عملاً في حياته، ولم تكن عائلته ميسورة حتى تعيله وتبعد عنه شبح البؤس، غير أنه كان ذا حظ عجيب في لعبة القمار وكثيراً ما هزم كبار المقامرين.

ما إنْ دخل خالد آمون إلى ذلك المقهى حتى وخزت أنفه رائحة شاي مغلي بشدة، وشعر بنسائم باردة كان مصدرها قوالب من الجليد موضوعة على خشبة مستطيلة وأحدهم منشغل بتكسيرها قطعاً صغيرة. بدا المقهى كبيراً ونظيفاً وبدا له، رغم ضجته، مكاناً هادئاً. ما إنْ جلس حتى استطاع ملاحظة وجود كاميراني سلمى جالساً وسط شاربي الشاي. كان شاباً

وسيماً بشعر ناعم وفاحم ولحية وشاربين سوداوين وبشرة حليبية وعينين نجلاوين، وكان الاضطراب والسخط والتردد واضحاً في ملامحه. قال خالد في نفسه: «ما يكون هذا؟ قد يكون فارّاً من الخدمة في الجيش أو فارّاً من الحرب». حين خطرت لخالد فكرة أن يكون هذا الفتى فارّاً من الحرب وأنه قد يبلغ عنه السلطات، شعر ببهجة مفاجئة تغمره. ولكن المشكلة أن خالد آمون نفسه كان فارّاً من الجيش، ولكنه تمكن عن طريق دفع رشوة باهظة في مكتب التجنيد العام من تزوير ختم على دفتر خدمته بشكل يستحيل أن يكتشف أحد أنه فارّ من الحرب، ولكن لو تم توقيفه لسبب ما ونبشوا في أوراقه فسيجد نفسه في ورطة كبيرة دون شك. كان كاميراني سلمى يشرب شايه وهو مستغرق بكليته في لعب النرد بشكل لم يلاحظ معه البتة عيون خالد آمون التي كانت تراقب كل حركاته باهتمام بالغ. شعر خالد آمون أن لا فرصة أمامه البتة في مواجهة هذين الشابين، فقد كان كلاهما يفوقه وسامة وجاذبية. صحيح أنهما يفتقران إلى خبرته في معاشرة النساء، ومن المؤكد أنهما لم يعاشرا قط ذلك العدد من النساء اللواتي عاشرهن هو، ولكن الصحيح أيضاً أن أولئك النسوة اللواتي كن زبائن دكانه وكان يقتنصهن لسن من النوع الذي يمكن أن يتعشّقه المرء، ولا حتى من النوع الذي يمكن لهن أن يعشقن. إن العبث مع زبائن الدكان مختلف عن التعامل مع فتاة مثل سوسن فِكرت، فهذه إما أن يعشقها المرء إلى حد الجنون وإما أن يتخلى عنها وينساها تماماً. فكّر ماذا لو أن سوسن فِكرت علمت بتفاصيل

ما حدث، ماذا سيكون رأيها في كاميراني سلمى؟ حاول في تلك اللحظة أن يتخيل وجه سوسن وهي تسمع الخبر ولكن لم يستطع.

حين دقق في ملامح كاميران وهو يحتسي الشاي ويلعب النرد بدا له الفتى وسيماً للغاية، وفي ملامحه شيء من الجموح والوحشية لا يمكن لامرأة مقاومة سحره. كان مختلفاً جداً عن منصور أسرين الذي كان شاباً حضرياً رقيقاً ورومانسياً إلى حد كبير حتى إن العشق يتقطر من عينيه، وتذكّرك كآبته ورقة عوده بأولئك العشاق البائسين على خلاف كاميراني سلمى هذا الذي لا يمكن للمرء أن يشعر تجاهه بأي شفقة أو عطف، فهذا الآخر كأنه عفريت من الجن ولكنه عفريت وسيم تكون النساء إزاءه أمام أحد خيارين: ترويضه أو الاحتماء به والدخول تحت جناحه. ولكن في نهاية الأمر، هو من يكون؟ من يكون خالد آمون؟ كان واثقاً أن قسماته لا تمتلك أي سحر أو جاذبية يمكن أن تدفع بالفتاة إلى القبول به زوجاً. كل ما في الأمر أنه أغنى من كلا الشابين الآخرين وأقدر منهما على تلبية متطلبات أي فتاة وتحقيق أحلامها، وثمة شيء خفي في عينيه يجعل النساء يقعن في غرامه، هو صموت وماكر ومستقبله أضمن من مستقبلهما معاً ومنزله أهدأ من منزل كليهما. ومن يعرف، من يمكنه التأكيد أن الفتاة غير راغبة في حياة هانئة مع زوج شاب ومقتدر؟ من يضمن أنها لن تختاره هو مباشرة؟ يمكنه أن يؤكد لها أنه غير مطلوب لخدمة العَلَم، كما هو مثبت في أوراقه، وهذه نقطة

في غاية الأهمية هذه الأيام عند التقدم للزواج. لكن آمون كان يشعر في قرارة نفسه أن هذه الفتاة لو كان باطنها شبيهاً بما يبدو عليه ظاهرها من رومانسية فستكون حياتها معه باردة ميتة. هناك من الفتيات من هي مستعدة أن تضحي بحياتها في سبيل أن تعيش ساعة من الرومانسية. أما الآن فإن العقبة الرئيسية في طريقه هي كاميراني سلمى، وحتى لو رضيت سوسن فِكرت بالزواج به فإن هذا الأمر لن يمر بسهولة، ولكنه مع ذلك أقسم لنفسه ألا يتخلى عنها.

كان يجلس بالقرب منه جصّاص عجوز يشرب لب العيران وهو يتحدث إلى رفيقه حول أجرة الجصّاصين في المدن الأخرى. أما خالد آمون، الذي كان خياله سارحاً في مكان ما خارج المقهى، فقد كان أكثر ما يشغله هو كيف يزيح هذا الشاب عن طريق سوسن فِكرت، هذا الشاب الوسيم ذا القوام الممشوق والبنية الجسدية المتينة الذي يتمتع برقبة غليظة وأكتاف متينة، والذي يبدو خالد آمون أمامه كخيال عابر. كان، وهو يحدِّق إليه، يفكر أنه إزاء منافس لا يقهر وشعر أنه يعيش أسوأ أيام حياته. قال في نفسه: «تُرى هل ثمة عشاق آخرون لسوسن فِكرت؟».

وقبل أن يلاحظ أحد وجوده، نهض وغادر المكان على عجل.

أمام باب المقهى، فكّر للمرة الأولى في حياته بقتل كاميراني سلمى.

٩

خلال مراسم عزاء زوجها، تعرضت پـروشه إلى أزمة نفسية حادة وبعض نوبات الهستيريا. ومع انتهاء أيام العزاء، عادت إلى الإقامة في منزل والدها بشكل نهائي. كانت تبدو ضعيفة ومنهكة وبائسة وكأنها لم تكن قط پـروشه التي دوّخت نصف العاصمة في حفلة زفافها قبل سنة. حين نزلت مع والدها من السيارة أمام باب المنزل وهرعت سوسن تعاونها في إنزال حقائبها وأمتعتها، بدت لها پـروشه كائناً غريباً تحمل لها وفاءً غير محدود، ولكن ذلك لم يمنعها من أن تقول لأختها الجريحة إن السبب في موت زوجها الشاب كان عشقها له، ولذلك فمن الواجب عليها أن تظل مخلصة لذكراه وألا تفكر في الاقتران بسواه. رغم أن كلمات سوسن كانت تحمل الكثير من الحقيقة إلا أن والدها رأى في تلك الكلمات قسوة لا متناهية، وأراد أن يتحدث قليلاً إلى ابنته الصغيرة وينبهها إلى تجنب القسوة في حديثها مع أختها، لكن سوسن أجابت بطريقة لا مبالية: «إن الفتاة إذا عشقت فعليها أن تهب نفسها لذلك العشق حتى النهاية». شعر فِكرت جدياً بالخوف من الطريقة التي تفكر بها

ابنته. كانت سوسن في سنوات نشأتها الأولى كثيراً ما تعاني، رغم جمالها الخلاب، من عوارض الضعف ووجع الرأس، ولذلك فقد كانت تبدو في غالب وقتها حزينة ووحيدة. كثيراً ما كانوا يرونها مرتدية بيجامتها الوردية وجالسة وحدها في غرفتها أو في مكتبة والدها الضخمة منهمكة بالقراءة. لقد كان لديها خيال خصب، وقد حُبّبَ إليها الاطلاع على كتب الطيور والزهور والصروح والمعالم الأثرية في العالم حتى، إنها بلغت في بعض تلك المجالات درجة عالية من العلم والمعرفة. نادراً ما كانت تستمع إلى الأغاني. أما في المساء فكان يطيب لها أن تتفرج في التلفاز وهو يعرض جثث قتلى الحرب. كانت سوسن تظهر، في كثير من المواقف، كفتاة مفعمة بالقسوة وكأنها كانت تتلذذ بشكل ما في أعماقها بمعاناة أختها. ورغم أمراضها غير الظاهرة إلا إنها كانت تمتلك إرادة حديدية، لقد كانت من النوع الذي يستطيع بسهولة اتخاذ القرار ولكن يعجز عن تغييره بعد ذلك، ولم تكن تلك القوة والصرامة متناسبة البتة مع وجهها الطفولي البريء. صحيح أنها كانت تبدو في الغالب مريضة، إلا أن جسدها الضعيف وسحنتها الطفولية تلك كانا يشتملان على قوة مخيفة. كان جسدها جسد ملاك مريض، شعر أشقر قصير، وجه صغير وعينان براقتان وواسعتان وبشرة بيضاء عاجية. لقد أضفى عليها الشحوب والنحول جمالاً غير معتاد، وكان كل من يراها يفكر أن ماء هذا المدينة الكبيرة وطقسها الحار الخانق لا يناسب هذه الفتاة مطلقاً. حين عاد نزار من جبهة القتال إلى البيت في واحدة من إجازاته وشاهد أخته الحبيبة

في الحديقة تسقي الورد، لاحظ في الحال أنها قد كبرت ولم تعد تلك الطفلة التي في ذهنه، بل صبيَّة حسناء، وطلب من أبيه أن يوليها عنايته لأن هذا النوع من الجمال غالباً ما يكون شؤماً على أصحابه. لاحظ الأب أن ولده نزار يبالغ في أمر أخته. كان نزار يجلس إلى سوسن في بعض الأمسيات في غرفة الجلوس أو في الحديقة أو على شرفة الطابق العلوي من المنزل، فيأخذ بتحديثها عن الحرب وحياة الخنادق وليالي الهجوم ومشاهد الأسرى والقتلى، ولم تكن سوسن تستوعب بقاء أخيها حتى الآن في ذلك الجحيم. لقد كانت ترى العشق وما يشبهه كذبة كبرى فقط، فلم تكن تؤمن بالعشق على الإطلاق. ذات يوم، دعت سوسن أخاها إلى المكتبة وحاولت أن تقنعه عبر الصور والخرائط والمعلومات الجغرافية، أن العالم واسع فسيح إلى درجة سيكون من الغباء والعبث أن يرى المرء نفسه أسير بقعة ما. كانت سوسن ترى أن العالم كبير ومنفتح وما من شيء يعيق حركة الإنسان وتنقلِه في أرجائه سوى الإنسان. حاولت عن طريق الخرائط والكتب والموسوعات أن تجعل نزار يفهم أن العظمة تكمن في الاتحاد بسحر الكون، لا في التضحية بحياته من أجل فتاة جميلة. عرضت عليه كتباً ضخمة عن أسماك نادرة، كتباً تعرض الصروح العظيمة في العالم، خفايا الكون وأسراره، كتباً خاصة بلوحات عظماء الفنانين العالميين، مجلداً ضخماً من ألف صفحة عن التماثيل الأثرية النادرة، كرّاس من ست عشرة صفحة محفوظ في غلاف جلدي يتحدث عن المدن الغارقة والمنهارة، وعشرات الأشياء الأخرى التي تُظهر

لانهائية العالم التي لطالما سحرت سوسن. كانت سوسن ترى الإنسان كائناً صغيراً جداً ويمكنه بسهولة الاختباء في هذه الغابة الكبيرة، وكان يُضحكها أن ترى كيف أن حبَّ امرأة قد جعل الدنيا صغيرة هكذا في عيني أخيها. كانت جميع عروض سوسن الصغيرة دون جدوى. وقبل أن تنتهي إجازة نزار، قال مخاطباً أخته: «اسمعي يا أختي، ثمة حقيقة يجب ألا تغيب عن ذهنك، إن سحر الإنسان أعظم من سحر الكون بأسره».

في نهاية عام ١٩٨٥ أُقتل نزار وجيء بجثمانه ملفوفاً بالعلم العراقي إلى باب منزل گولدانـچـي.

قلبت حادثة موت نزار حياة عائلة گولدانـچـي رأساً على عقب. وبعد مضي شهر على العزاء شعر گولدانـچـي أن ليس له بعدُ في بغداد الكبيرة ما يعيش لأجله، وليس لبناته كذلك ما يربطهن بهذه المدينة، فعزمت العائلة على ترك بغداد والسفر إلى الشمال. وكان الشيء الوحيد الذي يمكن أن يخفف من أثر موت نزار في نفس الأب هو أن يعود إلى مسقط راسه بين أهله وإخوته، مهد طفولته القديم ومرابع شبابه البكر. خلال الأسبوع الأول، شعر گولدانـچـي براحة نفسية وهدوء روحي وكانت پـروشه كذلك سعيدة بعالمها الجديد وأقاربها الودودين. لقد التف أقاربهم من حولهم وآزروهم في محنتهم تلك بحيث لم يعودوا يجدون وقتاً يشعرون فيه بالوحدة أو يسترجعون فيه أحزانهم الماضية، ولكن رغم كل هذا التعاطف فقد شعرت سوسن بعد مرور الأسبوع الأول أن هذه المدينة

منفى كبير، مجرد مدينة قصيّة غارقة في عواصفها وحرارتها وغبارها وعجاجها، وأنها مرمية في زاوية مهملة لا طريق تؤدي إليها. لقد أدركت منذ أسبوعها الأول أن قدرها أن تعيش في هذه المدينة ككائن أُلقي به خارج الحياة.

١٠

بدا لِفكرت گولدانـچـي أن منـگوري باباگوره ليس إلا مجنوناً مخيفاً، وكان من الواضح أنه يحاول، طوال الوقت، إخفاء وجهه الحقيقي. ولكن نظراته كانت تحمل كمّاً من المكر لا يمكن إخفاؤه بسهولة، وكان قد سبق لِفكرت، على امتداد حياته الطويلة، أن واجه مثل هذه النظرات وسمع ما يشبه هذه الكلمات من أفواه مسؤولين كبار في الدولة الذين كان معظمهم في الأصل أشخاصاً على شاكلة منـگور أمكنتهم الظروف من تعلم بعض أصول اللباقة. شعر أن منـگور يفعل ما بوسعه ليبدو له شخصاً لطيفاً، ورغم ذلك فقد لقي فِكرت صعوبة بالغة حتى استطاع أخيراً أن يفهم منه أنه قد كلف نفسه الحضور إلى هنا حتى يمهد الطريق أمام شاب راغب في الزواج بابنته. شعر فِكرت بالدهشة، وكان من الطبيعي أن يتملكه غضب مفاجئ، ولكنه كان رجلاً حليماً ولم يزد على أن هز إصبعه على استحياء وقال بنبرة خجولة: «أرغب برؤية كاميراني سلمى، أرغب برؤيته ولا يمكنني قول شيء قبل ذلك... يجب أن أراه، وبعد ذلك يا روحي، بعد ذلك يمكننا أن

نتكلم في الموضوع، فأنا لا أشتري سمكاً في الماء».

كان منـگوري باباگوره واثقاً أنه قد نجح في إثارة فضول صاحب الدار لرؤية كاميران شخصياً، وهذا ما أسعد منـگور ولكن كان من الواضح امتعاض الرجل من فكرة أن يزوّج أرق بناته عن طريق شخص مثل منـگور. كان في هيئة منـگور شيء مخيف لا يدعو إلى الطمأنينة والارتياح. في تلك الليلة حين علمت سوسن فِكرت بأمر خاطبها، شعرت كأنها ستدخل في لعبة من السخرية والفكاهة، قالت ببرود: «أنا واثقة أنني لن أتزوج به ولكني مع ذلك أرغب في رؤيته». ثم إنها قالت لأختها پـروشه: «ادعي لي الله أن يكون شاباً وسيماً حتى يستحق أن ألعب معه لعبة طويلة». وحين قالت ذلك لم تكن تعلم شيئاً حول طعن منصوري أسرين.

عاد منـگوري باباگوره سعيداً إلى بيته. في الطريق، كان يفكر في «حسني پـوري مهتاب» الذي كان من قدامى حملة السكاكين في المدينة. لم يكن لحسن زوجة، ومع ذلك فقد كرس عمره وهو يخطب للشباب من حوله حتى أنه قبل وفاته كان قد اكتسب سمعة طيبة كأشهر خاطب في المدينة. كانت تدور في رأس منـگور كلمة لطالما سمعها من حسن في بداية كل حفلة عرس: «ملعونةٌ هي الفتاة التي تولد في هذه المدينة وملعونٌ هو الشاب الذي يتزوج فيها وملعون كل زوجين يقضيان حياتهما حتى الممات فيها». شعر أن سوسن فتاة مسكينة وغريبة لا تعرف شيئاً عن هذه المدينة، ولا بد أن سعيه

بين هذين العاشقين الأحمقين سيجلب له الكثير من وجع الرأس. قال: «لم يظهر في هذه المدينة عاشق بعد أنور زيوال. الجميع يكذبون، أقسم بالله أنهم جميعاً يكذبون ولكني مع ذلك سأمضي معه حتى النهاية لأرى ما يكون من أمره، لا أعرف أي سر في ذلك اللقيط يجعلني مصمماً بهذا الشكل على مساعدته...». لم يكن منگور قادراً أن يكون مثل حسن يقضي حياته كلها في الخطبة لفلان وعلان، ولكنه قادر على السير في موضوع كاميران حتى النهاية. كان متعاطفاً، لسبب لا يعرفه، مع هذا الفتى. في تاريخ الكثير من شيوخ حملة السكاكين في هذه المدينة أنهم كانوا يتبنّون شاباً أو شابين ويرعونهم رعاية الآباء المخلصين، ولو لم يعتنِ به يوسف كَويار في شبابه فما الذي كان سيحدث له؟ كان سيُقتَل أو سيقتل أحدهم ويقضي بقية عمره فارّاً متوارياً عن الأنظار... يا إلهي، ولكن أين هو من يوسف كَويار العظيم. ها هو شخصياً وقد بلغ الخامسة والأربعين من عمره وما يزال يرى كَويار في أحلامه، كيف كان يقبض على سكينه، كيف كان يبتسم وهو يقاتل، طريقة مشيه في الشارع، أخلاقه وعدالته، ذلك الوشاح الأسود الذي كان يعقده على خصره، تلك النظرة التي كان يرشق بها خصومه في لعبة الدومينو... كل ما يمكنه فعله الآن هو ألا يتخلى عن كاميران. حياته عبثية فارغة من المعنى لم ينبت فيها شيء منذ زمن، والشيء الوحيد الذي يمكن أن يمنحها معنى هو أن يساعد كاميراني سلمى على تحقيق حلمه هذا. لكن فِكرت گولدانـچـي بدا له شخصاً غريباً، بدا واحداً من أولئك الآباء

الذين يخاطبون بناتهم: «اتخذي قرارَكِ بنفسك، اختاري شريك حياتكِ بنفسكِ». يا رب العرش! ما أغرب هذا، لو لم يكن الأمر هكذا لربما كان أسهل، فإقناع فِكرت گولدانـچـي يبدو أسهل من إقناع ابنته. لم يكن منـگور واثقاً إن كانت جميع الفتيات يرغبن في اختيار أزواجهن بأنفسهن لأن معظمهن بطبيعتهن عاجزات عن تمييز الرجل الصالح من الطالح «أقسم باسم الله الأعظم أنهن عاجزات عن ذلك»، قال منـگوري باباگوره يخاطب نفسه.

في تلك الليلة حين عاد إلى منزله ونام، رأى في أحلامه طيلة الليل وجوه يوسف كَويار وحسني مهتاب وكاميراني سلمي. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، فوجئ بكاميران يرفع اللحاف عن وجهه ويصرخ: «حدث أمر سيئ... الشرطة تبحث عني في كل مكان، مساء البارحة اقتحموا بيتي». فنظر إليه منـگور وهو ما يزال نصف نائم: «اهدأ، اهدأ... منذ عشرين عاماً والشرطة تبحث عن «حسين قره» و«رسول مام جاويش» ولم يقبضوا عليهما بعد... نصف سكان هذه المدينة لهم ملفات عند الشرطة. في هذه المدينة، إن أخفقت الشرطة في القبض عليك خلال الساعة الأولى فلن يقبضوا عليك حتى تموت. إن أفضل ما في شرطة هذه المدينة هو أنهم يتناسون القضية بمجرد مرور يوم واحد عليها. أقسم برحمة أمواتي وأمواتك أنهم ينسون بسرعة، يحملون فوق أكتافهم رؤوساً فارغة من المخ كرؤوس السناجب».

لم يكن كاميراني سلمى من أولئك الذين يخافون من الشرطة، ولكنه لم يكن كذلك من الذين يسلِّمون أنفسهم لهم. لم يكن منـگور يحسب أي حساب للشرطة، وفي حياته كلها لم يصدف أن رأى شرطياً تمكن من حامل سكين أو رامي مسدس حقيقي. كان على يقين ثابت أن الجبناء وحدهم يتطوَّعون في سلك الشرطة.

أردف منـگور: «المهم الآن أن فِكرت گولدانـچـي يرغب برؤيتك، الرجل يريد أن يرى الشاب الذي يطلب الزواج بابنته». لم يكن كاميراني سلمى يريد أن تسير الأمور على هذا النحو، كان يريد أن يمسك الفتاة من يدها ويجعلها زوجة له، هكذا فقط، ودون المرور عبر هذه الطريق الطويلة من الخطبة والتذكر والتردد.

المهم أنهما أمضيا ذلك كله ومنـگوري باباگوره يحدّث كاميراني سلمى عن تفاصيل ما جرى بينه وبين فِكرت گولدانـچـي:

«گولدانـچـي رجل عاقل، اسمع ما سأقوله لك، إنه رجل ذكي والرجل الذكي لا يحب أمثالنا، وأنا لم يسبق لي قط أن التقيت برجل ذكي أحبني، وذلك لأنهم يظنون أننا دون مستوى فهم ذكائهم. انظر... إن أخشى ما يخشاه أمثالنا هو أن يُعرَف عنهم الخوف، إن تلك السمعة تدمّرنا بل، تصيبنا بالجنون، أليس كذلك؟ وهكذا هم هؤلاء الأذكياء يصيبهم الجنون حين

يشعرون أن الآخر لا يستوعب مدى ذكائهم، أقسم برؤوس الصحابة أن الأذكياء عندها يصيبهم إحباط قاتل لا يعودون معه يميزون أيديهم من أرجلهم... آه يا كاميران دولاني... في تلك اللحظة، يتحولون إلى حمقى، في تلك اللحظة نصبح أنا وأنت أذكى منهم. لقد رأيت فيما مضى من حياتي أشخاصاً أذكياء جرى لهم مثل ذلك... هكذا هم البشر، يقع لأذكاهم أحياناً ما يجعله كأشدهم حمقاً. إن هذه النقطة تذهب بصواب الأذكياء، أعني حين يشعرون أنك لا تدرك كم هم أذكياء».

ثم إنهما انشغلا في البحث والاستعداد واختيار اللباس المناسب ليوم الغد. وفي تلك الليلة في منزل «مصطفى سَوزه»، سكرا معاً حتى الثمالة برفقة بعض أصدقائهم من المقامرين والمخمورين حتى وقت متأخر من الليل وتحدثوا في كل شيء وكان حديث الحرب بالطبع على رأس تلك المواضيع. كان رأي منـگور كالتالي: «السياسة قذرة وسيئة لكن الإنسان لا يمكنه أن ينظف مؤخرته منها». وكان، كلما تذاكر ندماؤه حديث السياسة، رفع كأسه قائلاً: «تكلموا عن اللعب... عن بنت الديناري وولد الكوبا ودعوكم من حديث السياسة. تحدث منـگور بصوته الأخنّ عن امرأة قال إنها تتعشّق الرجال في خفية عن زوجها. فقال أحد الحاضرين: «أقسم بقبر أبي أن زوجها يعرف لكنه لا يعترض على سلوكها»، فأجابه منـگور: «كلا، أنت مخطئ، نحن الرجال قطيع من الحيوانات الواثقة من نفسها، قطيع من الحيوانات الحمقاء التي تأبى تصديق كل

ذلك... «شهابي بَهَ» كان أشجع شباب هذه المدينة وكانت زوجته تخونه، وكان شهاب يرى بعينيه ولا يصدق، حتى هربت زوجته في النهاية مع أحد أبناء الزنا ولم يرها أحد بعد ذلك... أقسم بقبور جميع أعزائنا، لسنا سوى حيوانات حمقاء. الإنسان مجرد حيوان يرى نفسه الذكي الوحيد على هذا الكوكب ولذلك فهو أغبى من أي حيوان آخر».

تطرقوا في تلك الليلة أيضاً إلى مسألة زواج كاميراني سلمى، ولاحظ منـگوري باباگوره الحماسة ظاهرة على كاميراني سلمى، قوة صافية لم يكن قد لمسها من نفسه شخصياً في حياته. نهض منـگور فتوسط أصحابه السكارى وقال: «أقسم باسم الله الأعظم، إذا اضطررت أن أخوض في بحر من الدماء حتى يتحقق حلم هذا الفتى فسأفعل... لنشرب نخب خيرة شباب مدينتنا كاميراني سلمى». صفّق له الحاضرون ورفعوا كؤوسهم عالياً واستمر قصفهم وصخبهم حتى ساعة متأخرة من الليل. في تلك الليلة، شعر كاميراني سلمى بقوة هائلة وثقة لا حدود لها، وهذا ما أثلج صدره فسكر كثيراً وضحك كثيراً وهو يشرب الكأس تلو الكأس...

١١

بعد خمسة أيام قضاها في المشفى، عاد منصور إبراهيم أسرين إلى منزله. ومع رؤية زقاقه وشارعه وعصافيره الصغيرة ثانية، عادت إليه روحه من جديد. غير أنه كان يشعر بوهنٍ شديدٍ، وهنٍ جعله يشفق على نفسه. شعر أنه أضعف من أن يفهم حتى نفسه، كما شعر أنه أضعف كائن على وجه الأرض.

حين أمسكوا بيديه لمساعدته على النزول من السيارة، تأكد لديه أن ضعفه ليس مرتبطاً بالجرح الذي في جسده فحسب ولكن بروحه، روحه التي كانت ما تزال حية حتى الآن جعلته يشعر بحزن عميق. لم يكن يفكر البتة في أخذ ثأره من كاميراني سلمى بل كان يفكر فقط كيف يملأ فراغ روحه. كانت رائحة تلك الحارة الملعونة وصمت ذلك الشارع الذي يبدو رطباً طيلة الشتاء يُشعرانه أنه جالس داخل غيمة. وكانت رائحة الصنوبر الرطب ومناظر أشجار التين المريضة التي تتدلى كالأموات من فوق أسيجة باحات البيوت تخلق في داخله شعوراً مفاجئاً بالاختناق، شعور باضطراب ناجم عن عدم فهم

العالم، ولم يكن كل ذلك ليُشعره بألفة أو طمأنينة. كان معظم أولئك الذين استقبلوه أمام الباب من أقاربه، أعمام وأخوال وأبناء أعمام وأبناء أخوال، عائلة كبيرة، غير أنه كان على يقين بأنها عائلة لا يُعتدُّ بها. فكّر بأنه لا يمتلك في هذا العالم صديقاً حقيقياً. تعرّف، من بين ضيوفه، إلى «ساقي محمود» ذلك المغني المعروف الذي كان الشيب قد بدأ يغزو رأسه. لقد كان منذ طفولته محباً لهذا المغني، ليس لأجل صوته ولكن لأنه كان لا مبالياً بعمق لا مبالاة مخيفة، وكان في كثير من الأحيان يشعر كيف ينمو في داخله عِرق تلك اللا مبالاة ذاتها. في تلك اللحظة، لم يكن يريد من الدنيا سوى أن يضطجع في مكان ما ويأخذ بالتأمل. كانت ضجة المكان تجعل قلبه منقبضاً. زاد يقينه أن لا أحد في هذه المدينة بأسرها قادر على مد يد العون إلى تعيس مثله، ولذلك فلم يكن احتفال أقاربه به بهذا الشكل إلا ليزيد من تعاسته وإشفاقه على نفسه. خامره فجأة إحساس أن كل ما في بيته غريب عنه، باحة داره، مزهريات والده الضخمة، عصافيره، أشعة شمس الشتاء وهي تتسلل إلى غرف منزله. في السابق، كانت مشاهدة المزهريات ومراقبة الأشجار المثمرة والثياب المنشورة على الأسلاك إشارات عميقة على الحركة والحياة، إشارات على استمرار البشر بالحياة، وكان ذلك مما يسرّ خاطره. أما الآن فكان يشعر بنفسه كائناً ضعيفاً غير قادر حتى على الاستمرار في الحياة. حين دخل إلى الغرفة وقعت عيناه على لوحة كبيرة، كانت لوحة قديمة تصوّر عدداً من الطيور جاثمة فوق قفص فارغ وهي تحدِّق إلى الأفق البعيد، وكانت

المرة الأولى التي يتساءل فيها: «هل الطيور المصوّرة في اللوحة تفكر في الطيران بعيداً أم تفكر في العودة إلى القفص». منذ سنوات، وتلك اللوحة أمام عينيه حتى إنه أصبح يراها جزءاً أصيلاً من الجدار نفسه. كانت اللوحة ملتصقة بالجدار، ومثل جميع الأشياء التي تغرقها أمواج الاعتياد، كانت تلك اللوحة قد غرقت تحت أمواج المشاهد الأبدية المكررة والقاتلة. وفي لمحة عين، رأى منصور نفسه شبيهاً بتلك اللوحة... كشيء بقي دائماً وسط أشياء دون أن يلحظه أحد، لأنه كان قد أصبح جزءاً من كل تلك الأشياء، جزءاً من هذه الحارة، من هذه المدينة ومن ناسها، قطرة آدمية كسواها من القطرات. كان في أعماقه يشعر بالسرور لإصابته بتلك الطعنة. شعرَ أن ذلك الخنجر قد طعن الفراغ في حياته، طعن العبثية التي كان يتمرغ فيها. كان السبب في شعوره بالضعف هو جهله بما يجب عليه فعله. شعرَ أن حكاية عشقه قد شاعت في المدينة بأسرها، ودون أن يكون هو بالذات متأكداً من الحال التي هو فيها. حين رأى نفسه وسط جلبة الأخوات والعمات وزوجات الأعمام وأبناء العمات وبناتهن وبنات أخوال والده وأبنائهم، وحين شعر بكل تلك الروائح وهي تعبق رطوبة وبرودة داخل الغرفة، باغتته دوخة وخيل إليه لوهلة أن البساط الأزرق المفروش عند قدميه حوض مملوء بالماء ومغطى بأزهار طافية على سطحه. رائحة الدجاج المسلوق والفاصولياء التي كانت تعدها إحدى عماته وتفوح من القدور زادت من اكتئابه. شعر أن جرحه يسبب له نوعاً من اللذة وليس الألم، ذلك الجرح الذي سيبقى

حتى آخر عمره يذكره بضعفه. كان واثقاً من محبته لسوسن فِكرت، ولكن ليس إلى الدرجة التي يشهر فيها سكيناً من أجلها. لقد تأكد لديه الآن أن عشق الضعفاء يختلف عن عشق الشجعان، كما تأكد أنه من الضعفاء بل الضعفاء جداً، ضعيفٌ إلى درجة لا يعرف معها ما الذي عليه فعله في حياته. حتى إن مسألة تخرجه من قسم البيولوجيا في الجامعة شيء يدعو إلى السخرية، أن يفتتح مخبراً أو ينتهي مدرِّساً ضعيفاً لمادة البيولوجيا أو موظفاً في قسم حماية الثروة الحيوانية في مديرية الزراعة. وفي جميع تلك الاحتمالات كان يرى نفسه شخصاً يُرثى له، بل جديراً بالسخرية. أما ما كان أليق بروحه فهو أن يعيش ويتدحرج في الحياة كعاشق ضعيف، كشخصٍ منكسرٍ يجر خلفه آلامه. وبينما كان أقاربه يثيرون كل تلك الضجة والقرقعة في غرف البيت، كان البعض منهم يتناول البقلاوة في آنية سَفَريّة، والبعض الآخر وقوف وفي أيديهم كؤوس شراب، بينما كانت النسوة منشغلات في جدال محتدم حول كيفية صنع قالب كعك كبير بالفانيلا والكريمة، كان منصور أسرين غائباً عن كل ذلك الجو، يتساءل في نفسه إن كانت محبته لسوسن فِكرت من العمق بحيث يموت من أجلها. تجول قليلاً بين غرف المنزل مرتدياً معطفه القديم، ولا يعرف كيف قفز كاميراني سلمى فجأة إلى ذاكرته، فكّر أنه من المستحيل أن يطعن أحدهم بسكين في سبيل الحب، ثم قال في نفسه: «إنه عاشق أعظم مني وأنا لا شيء إزاءه، هو أفضل مني بألف مرة». كان متأكداً أن سوسن حين تعلم بأمر تلك القصة ستسخر منه

بدل أن تعطف عليه. لقد كان يتمنى من أعماق قلبه ألا تبلغ حكاية تلك الليلة مسامع سوسن.

حين جلس على ذلك السرير الذي كان معدّاً له، شعر بكف ثقيلة تلامس كتفه، وحين التفت ورأى رجلاً وقوراً طويل القامة بشاربين وَخَطَهما الشيب ووجهٍ ذي خدين صافيتين مع مِسحة من التجاعيد عرفه على الفور، لقد كان «ساقي محمود» بعينيه الزرقاوين اللتين يشعّ منهما بريق الحياة العميق. سأله: «ما حال جرحك؟»، ولم يعرف منصور بما يجيبه. كان ساقي مطرباً مشهوراً بأغانيه التي سجَّلها مع فرقته الشعبية، وكانت كلمات أغانيه من جملة الكلام الدارج في الأسواق، وكان وجود رجل مثله قادرٍ على العيش بوصفه شاعراً في هذه المدينة سبباً كافياً ليحترمه منصور، لأن هذه المدينة المحترمة لم تكن تتقبل بسهولة أن يصبح المرء فيها شاعراً.

رفع منصور رأسه وسأل: «ساقي، هل رأيتَ من قبل عاشقاً أقدم على القتل من أجل حبه؟». فأجابه ساقي: «كل شيء في هذه الخرائب أمسى مزيفاً، اسألني أنا، منذ زمن بعيد لم تقع حادثة كهذه التي وقعت لك، ولهذا السبب فإن حكايتك قد تركت أثراً كبيراً في قلبي». ثم إنه انحنى وقرّب فمه من أذن منصور وهمس: «أقومُ بالتحضير لعملٍ سيترك حكايتك هذه مطبوعة في أذهان الناس زمناً طويلاً، عليك أن تدخل تاريخ هذه المدينة كعاشق حقيقي... اسمع جيداً، لا أكون ساقي محمود إن لم أنجز عملاً عظيماً لأجلك». شعر منصور برعشة

داخلية عميقة، فالاشتهار كعاشق حقيقي في هذه المدينة كان أمراً مخيفاً بالنسبة إليه، وحتى بعد أن يشيخ ستبقى هذه الحكاية خالدة على ألسنة الأجيال اللاحقة. تأكد لديه الآن أن تلك الطعنة قد قلبت حياته رأساً على عقب. كان راغباً بشدة أن يتوسل إلى ساقي محمود أن يتركه يعيش وحيداً مع جراحه وألا يقوم بعمل أي شيء لأجله، غير أنه لم يستطع قول شيء لأنه لم يكن يعرف ما الذي ينوي ساقي محمود فعله بالضبط.

١٢

في مساء اليوم نفسه الذي غادر منصور المشفى، كان خالد آمون قد جمع ثلاثة من أقربائه حتى يقصَّ عليهم حكاية عشقه. كانوا ثلاثاً من الشخصيات المعروفة في عشيرة آمون: «سلامي آسنگر»، «قلندر آمون» و«لطيف آمون»، والثلاثة كان لهم ماضٍ حافل وحياة ملأى بالمغامرات؛ فسلامي آسنگر كان واحداً من أكبر تجار السلاح في المدينة وكان يتاجر سراً بالسلاح الخفيف، وقلندر آمون كان مسؤولاً في الماضي عن مدفعية الثورة وأشهر من نارٍ على علم في كردستان خلال سنوات الستينيات والسبعينيات. أما لطيف آمون فكان معلماً للمرحلة الابتدائية، وهو يعمل، بعد أن ترك الوظيفة قبل سنوات، في تجارة السيارات المستعملة. كان خالد آمون يعلم أن اجتماع هؤلاء الثلاثة يعني تشكيل قوة ضاربة ومخيفة، لأن الثلاثة من أهم العقول في عشيرة آمون كلها، وعلى صدر كل منهم عدد من الميداليات غير المرئية تقديراً لما قدموه من خدمات جليلة ومتواصلة للآمونيين. وكان الثلاثة متفقين على نقطة رئيسية هي أن عشيرة آمون أفضل من جميع العشائر الأخرى، وأن

شيوخ عشيرة آمون في الطبقة العليا من عظماء التاريخ. قبل أن يستدعيهم خالد آمون كان قد فكر كثيراً وانتهى إلى أن اختار هؤلاء من بين عشرات الأسماء التي خطرت له، لأن هؤلاء الثلاثة بالذات كانوا من القبليين المتعصِّبين، وكانوا يرون أن ما يصيب كرامة أي آموني إنما يصيب كرامتهم الشخصية. في غرفة صامتة فيها مدفأة كبيرة متقدة، حدثهم خالد آمون بدقة ووضوح عما في قلبه وروى لهم قصة عشقه المفاجئ لسوسن فِكرت، وكذلك قصة الشجار الذي وقع في القبو ومنافسَيه العنيدَين القويَّين اللذين يقفان عقبة في طريقه. كان واثقاً أن لا أحد من هؤلاء الثلاثة سيأخذ الموضوع على محمل السخرية، لكنه كان واثقاً كذلك أن لا أحد منهم طائش متسرع في قراراته وأفعاله. بعد تفكير طويل قرر الثلاثة معاً أن أفضل ما يجب القيام به هو التقدم وطلب يد الفتاة من والدها والنظر بعد ذلك في ما يمكن القيام به، وكان رأي الثلاثة هو أن هذا التصرف هو ما يجب أن يقوم به أي شخص عاقل.

في الليلة التالية، كان أكثر من خمسة وعشرين رجلاً من وجهاء الآمونيين مجتمعين حول سفرة ممدودة، عليها أطايب اللحم المشوي والدجاج المحشي بالرز وأصابع الكفتة الكبيرة وجفنات اللحم المطبوخ باللوز وقدور ضخمة من الرز. وبعد أن فرغوا من الطعام، استقر رأيهم على اختيار خمسة رجال يكونون وجاهة في طلب يد سوسن فِكرت، وكان الترتيب أن تتشكل الوجاهة من الثلاثة المذكورين آنفاً بالإضافة إلى ممثل

خاص عن زعيم العشيرة «سَي كَرَمي آموني»، أما خامسهم فكان «فوزي بـگـي» خطيب العشيرة المفوَّه والمعروف بوقاره وبلاغته.

كانت تلك الليلة واحدة من أكثر ليالي خالد آمون إثارة. منذ سنوات، ودائماً في الليالي التي تسبق مواضيع الخطبة أو الزواج، كان الرجال يجتمعون حول سُفرة ممدودة ثم يختارون وفد الوجاهة، وخلال تلك السنوات حدث أن حضر خالد آمون تلك الاجتماعات عدة مرات، وكان في جميعها يتكوَّر على نفسه في زاوية من زوايا الغرفة يتفرَّس في وجوه الحاضرين دون أن يتفوه بأي شيء مهم. كان الآمونيون عشيرة كبيرة. في مطلع القرن العشرين، هجروا تربية الدواب وصناعة الجبن ويمموا شطر المدينة، ولكنهم ظلوا مع ذلك على قلب رجل واحد ولم يخسروا وحدتهم العشائرية وظلوا محافظين، حتى بعد أن عاشوا في المدينة ردحاً من الزمن، على تقاليدهم العشائرية بشكل كان مثار حسد من العشائر الأخرى. كان لرؤساء العشيرة ووجهائها كلمة مسموعة لدى الدولة كما لدى الأحزاب السياسية، وعُرِف عنهم أن رجال العشيرة يجتمعون كل أسبوع في دار أحدهم حول موائد عظيمة. خلال تلك الولائم الكبيرة كانت الآنية تتطاير والصحون تنتقل من يد إلى يد وأباريق الشراب المتنوعة رائحة غادية، وكانت مشاعر الفخر والثقة بالنفس تملأ قلب خالد آمون حينها، ثقة أن له من يحميه ويسند ظهره عند الحاجة. والآن جاء وقتها،

وعلى الآمونيين أن يثبتوا أنهم كذلك. على امتداد ثلاثين سنة مضت، لم يحدث أن فشلت مساعي الآمونيين في مسألة خطبة أو زواج، فقد كان ثقلهم في السوق وفي الوسط السياسي معاً عاملاً مساعداً لنجاحاتهم المتواصلة، خاصة أن «سَي كرمي آموني» رئيس العشيرة كان متميزاً بحكمة ودبلوماسية كبيرتين.

في تلك الليلة حين توجه وفد الآمونيين إلى منزل فِكرت گولدانـچي، تقدَّمهم «فوزي بـگـي» في هيئة شيخ متعلِّم لا في هيئة رجل قبيلة. كان فوزي بـگـي مشهوراً بفصاحته، حذِراً في انتقاء كلماته بعناية شديدة، حريصاً على إبراز معرفته بالكردية وبإظهار نفسه مختلفاً عن الآخرين. وكان الجميع قد سمع عن فِكرت گولدانـچي كرجل متعلِّم، غير أن اعتزاز فوزي بـگـي بنفسه كان يجعله لا يرى أحداً في العالم أعلم منه، وكان واثقاً أنه سيتفوق حتى على گولدانـچي نفسه. كان على ثقة أن گولدانـچي لم يقرأ مثله كتاب «شاهنامه» ثلاث مرات، ولا يحفظ مثله معظم أجزاء «رسالة الغفران» للمعري. صحيح أن ثقافة فوزي بـگـي ومعارفه كانت كلاسيكية وقديمة جداً، غير أنه لم يكن يؤمن بوجود ثقافة جديدة يمكن لها أن تتجاوز عمر الخيام وحافظ الشيرازي وجلال الدين الرومي. لم يكن لدى فوزي بـگـي أدنى اطلاع على العلوم والمعارف المستجدة في الغرب، لم تكن القضية أنه لم يكن يعرف أو يفقه منها شيئاً، لكنه كان مؤمناً أن علوم الغرب تنحرف بعقل الإنسان عن الطريق القويم.

في تلك الليلة، كان فِكرت گولدانـچـي خارج منزله، وحين عاد ورأى ذلك الجمع من الرجال الذين لا يعرفهم بانتظاره، بقي لوهلة مدهوشاً من رؤية كل أولئك الضيوف المفاجئين. ولكن لم يلبث رجال عشيرة آمون، وهم المتكلمون وأهل الخبرة، أن أدخلوا إلى نفسه الألفة والطمأنينة وسرعان ما أشركوه معهم في نقاشات ودية حول بعض الأوضاع العامة والمهمة.

أصغى فِكرت گولدانـچـي باهتمام بالغ إلى حديث فوزي بـگـي الذي كان يتكلم بأسلوبه الكلاسيكي المعتاد عن وحدة جميع البشر وضرورة تآلفهم مطعِّماً حديثه بين الفينة والأخرى ببعض أبيات الشعر الفارسية. أدرك فِكرت گولدانـچـي بعد دقائق قليلة من إصغائه إلى فوزي بـگـي أنه إزاء رجل أهم مراجعه الثقافية هو حكايات «كليلة ودمنة» التي رواها «بيدبا» قبل قرون، كما استطاع الاستنتاج كذلك أن هؤلاء القوم ما قدموا إلا لخطبة إحدى بناته. وحين علم أنهم جاؤوا يطلبون يد الصغيرة، أطرق هنيهة ثم صارحهم دون تردد أن ثمة شاباً آخر قد تقدَّم خلال هذا الأسبوع لخطبة ابنته الصغرى، وأن المسألة بهذا الشكل لم تعد سهلة، ولذلك فهو يحتاج إلى وقت لا بأس به للتفكير. أظهر الآمونيون الخمسة أنهم مسرورون بذلك ولا مانع لديهم البتة أن يأخذ وقتاً للتفكير، وكانت تلك عادة رجال الآمونيين أمام الناس في جميع المناسبات العامة. كانوا قد سمعوا باسم كاميراني سلمى، وذاك هو سبب استعجالهم طمعاً

في أن يقطعوا عليه الطريق، ومع ذلك لم يظهر على وجوههم خلال مقابلتهم مع فِكرت ما يشي بذلك على الإطلاق.

بعد مغادرتهم، جلس فِكرت گولدانـچـي يفكر في فوزي بـگـي ورأى فيه كائناً مستحقاً للشفقة لا شخصاً مثقفاً. لطالما سخر فِكرت خلال سنوات حياته من أمثال هؤلاء الأشخاص الذين يحاولون بكل جهدهم أن يظهروا كمثقفين.

أخيراً، حين آوى إلى فراشه، وقبل أن يشدَّ اللحاف على نفسه، هز رأسه وغمغم بهاتين الكلمتين: «كلهم أمّيّون».

١٣

مع نهاية الأسبوع وعودة مريم من الجامعة، سمعت سوسن للمرة الأولى بحادثة طعن منصور أسرين. دخلت مريم وهي ما تزال بلباس الجامعة منزل گولدانـچـي كأنها عاصفة مفاجئة، كانت واثقة أن هذه الفتاة الساذجة لا تعرف شيئاً بعدُ عن الحادثة. وبنبرتها المهدِّدة التي ورثتها عن والدتها «معصومة گولدانـچـي»، وصوتها الرجولي الأجش، كانت قد انتهت، خلال دقائق قليلة، من إخبار سوسن وپـروشه بالحادثة من ألفها إلى يائها. ثم التفتت إلى سوسن وقالت: «يا لك من فتاة ساذجة وحمقاء، يتشاجر الشباب في الخارج بالسكاكين من أجلكِ وأنت جالسة هنا بين كتبك هذه لا علم لك ولا خبر... لم أرَ في حياتي شخصاً لامبالياً مثلكِ. هيا أخبريني يا ابنتي، أأنتِ مريضة أم إن في قلبك هماً يصعب على الدراويش أمثالنا التكهن به، أنا بالفعل لا أفهم، وكلما فكرت فيكِ يكاد يصيبني الدوار».

كانت مريم وهي تروي ما حدث لمنصور أسرين لا تنسى

تطعيم الحادثة بأشياء من خيالها، فذكرت أن الشاب قد بقي أربعة أيام غائباً عن الوعي حتى يئس الجميع من شفائه وأعلن الأطباء عجزهم عن إعادته إلى الحياة، ولولا أن معجزة إلهية قد بثت الحياة في جسده من جديد لكان الآن ميتاً. ثم أضافت أن الشاب الذي طعن منصور أسرين واحد من أشقياء المدينة وهو أمّيّ ومن حملة السكاكين ويدعى «كاميراني سلمى».
ودون أن تنشغل سوسن بالرد على مريم، قالت ببرود شديد: «ولماذا عليّ أن أعرف ما يفعل الرجال، ولماذا برأيكِ يجب أن أنشغل بشجار وقع بين اثنين من الحمقى لا أعرفهم أصلاً؟».
وكان جوابها ذاك لمريم يتجاوز حتى حدود اللا مبالاة وأظهر قسوة لا تحتمل، حتى إن مريم هزت يديها بقوة وصرخت: «منصور أسرين شاب رقيق جداً، أنتِ لا تفهمين، سأذهب الآن إليه وأبلغه تحيتك، لأنني أعلم جيداً أن أي كلمة منكِ ستريح قلب ذلك البائس... أتفهمين؟ يجب أن تشعري بتأنيب الضمير أن ذلك الكائن الرقيق كاد أن يُقتل بسببكِ... لو كانت أي فتاة أخرى مكانكِ لطوقت عنق الفتى بيديها ولقالت له يا حبيبي تعال فخذني لأنني علمت كم أنا غالية عندك، فأنا لك... أما أنتِ، السيدة المبجلة سوسن... أنا بالفعل عاجزة عن فهم ما يدور في رأسكِ، مطلقاً لا أفهم...».

كانت سوسن فِكرت متعبة كثيراً. قالت بصوت حاولت ألا تستنتج منه الفتاتان شيئاً ما: «يا رب السموات... لماذا الرجال حمقى... أنتِ قولي لي يا مريم، لماذا الرجال بكل هذا

الحمق... لماذا تقصّين عليّ كل هذا؟ أنا التي لا تعرف شيئاً... ولكن اعلمي أن ذلك الشاب الذي طعن منصور أهم عندي من منصور، إنه الشاب ذاته الذي أرسل قبل أربع ليالٍ صديقاً له لخطبتي... هو الآخر جاهز للتضحية مثل منصور... أليس كذلك... كلاهما سواء... سواء».

حين سمعت مريم بقصة تقدم كاميراني سلمى لخطبة سوسن، اضطربت بعض الشيء واستغربت أن تضع سوسن الشابين في ميزان واحد. حين كانت سوسن تتكلم كان المرء يشعر برقتها كأنها قطعة أثرية من الكريستال تكاد تنكسر. ولكن رقتها تلك لم تكن منسجمة مع قسوة قلبها. قالت بصوت يشوبه مزيج من الحزن والسكينة: «آه يا مريم... دعكِ من هذا، لن أتزوج بواحد من هذين اللذين يتشاجران من أجل الحب... أتفهمين... أنا لا أفهم ما معنى أن يتقاتل الرجال من أجل الحب. أشعر أن المسألة غير مرتبطة بي لكنها مرتبطة بجهلهما، إنهما لا يعرفان ما هي الدنيا... آه يا مريم، إن الرجل الذي يعرف ما هي الدنيا لا يقاتل من أجل امرأة مطلقاً... الرجل الذي يعرف كم هي كبيرة هذه الدنيا لا يشهر سكينه من أجل فتاة مريضة مثلي... أليس كذلك؟».

كانت پروشه متأكدة أن سوسن قد استوحت «فكرة عظمة الدنيا» من تلك الموسوعات والقواميس والأطالس المتنوعة التي تعيش بينها منذ طفولتها، لكنها كذلك استشفّت من كلماتها مكراً أنثوياً لا يخلو من الشر. كان جميع أفراد عائلة

گولدانـچـي يعلـم أن بإمكان سوسن الرقيقة الناعمة أن تتحول متى شاءت إلى امرأة قاسية. وعلينا أن نذكر هنا أن پـروشه المعروفة بإخلاصها وولائها لوالدها كانت تبلغه بكل أخبار سوسن أولاً بأول، ومنذ قدومهم إلى المدينة وبعد أن اتخذت سوسن قرارها المؤلم بهجر الدراسة بات من الواضح أنها تمتلك شخصية غريبة، فقد كانت تقضي الليالي الطوال في مكتبة والدها، وكانت أحياناً توصي والدها أن يحضر لها كتباً معيّنة؛ طلبت مرةً أن يشتري لها أطلس العالم القديم من مكتبة بريطانية، أطلس يشرح مواقع الممالك الغارقة والخزائن التي ابتلعتها المياه والأمم البائدة، وأوصت مرة على قاموس عن معدن الذهب والأحجار الكريمة واليواقيت النادرة. من حسن الحظ أن فِكرت گولدانـچـي كان له صديق قديم مقيم في الخارج، فكان يرسل إليه في كل مرة طالباً تلك الكتب وكانت تأتيه خلال بضعة أسابيع، حتى إن وجه فِكرت گولدانـچـي قد أصبح، خلال أشهر قليلة، من أكثر الوجوه ألفة لدى موظفي مكتب البريد في المدينة، ذلك الرجل الوقور ممشوق القامة بلحيته وشعره الأبيض الذي كان يزور مكتب البريد قبل أسبوع أو أكثر من ميعاد وصول كتبه ليعيد تنبيه الموظفين وتذكيرهم بـ «الطرد المهم» الذي يترقب وصوله. في البداية، ظن الوالد أن ابنته من ذلك النوع المتشدد من الفتيات اللواتي يرغبن في سلوك طريقهن الخاص للتعمق في بحار المعرفة، لكن سوسن قالت له يوماً: «أبي، المعرفة لا تعني لي شيئاً، لا الآن ولا حتى في المستقبل، هدفي هو أن أرى ماذا في هذا العالم فحسب».

كانت الفتاة صغيرة، ومن البدهي ألا يجرؤ والدها على إرسالها وحيدة إلى الخارج، ولكن لئلا يبدو لها أباً فظاً ومثبِّطاً قال لها مرة وهم على مائدة الغداء: «اسمعي يا ابنتي، إن كنتِ تستطيعين تحمل الغربة فأنا مستعد أن أفعل ما بوسعي لأحصل لكِ على إذن بزيارة إلى الخارج، إن كنتِ تعلمين أن ذلك سيريحكِ فاذهبي وهناك ستشاهدين الدنيا كما ترغبين. أنا لستُ ضدك ولا أريد أن أكون عثرة أمام طموحاتكِ». فابتسمت الفتاة وأجابت: «أنت تفهمني يا أبي ولكنني أضعف من ذلك... أنت تنسى أنني فتاة مريضة، فضلاً عن أن ذلك سيكلف مالاً كثيراً لا أظنك تمتلكه. وحتى لو تيسّرت الأمور فما الذي سيقولونه لك، ماذا سيقولون لك وأنت تترك فتاة صغيرة مثلي وحدها، أنسيتَ أين نعيش نحن؟ هل فكرتَ كم سيجرحونك بكلامهم. إن سافرتُ وحدي فإن ذلك سيضع شرف وكرامة جميع آل گولدانـچـي بين المطرقة والسندان، ولو ذاع اسمي بين الناس كفتاة سوء فأنت تعلم عندها ما الذي سيحدث، لن يتقدم أحد لخطبة أختي پـروشه، وقد يقف ذلك حتى في طريق زواج بنات أعمامي وعماتي أليس كذلك يا أبي؟ إن سافرتُ فلن يمكنني بعد ذلك رؤيتك أنت ولا حتى المكتبة». كان والدها يدرك في قرارة نفسه أنها على حق، وكان يعلم أن لا قدرة لسوسن على قضاء باقي حياتها متنقلة في البواخر والطائرات والقُطُر.

في اليوم ذاته قالت سوسن لوالدها: «فِكرت گولدانـچـي، أنا أعرف كيف هو العالم الحقيقي خارج الأطالس والصور

الموجودة في الكتب، ولكنني أريد فقط أن أفهم كيف يرى الناس هذا العالم... العالم ليس مكاناً جيداً، ولكن الحياة مع أولئك الذين رأوا العالم والجلوس معهم يبث الطمأنينة في قلبي. أنا فتاة مريضة يا أبي وإن لم أكن قاسية على نفسي فلن أتمكن من البقاء على قيد الحياة».

كانت سوسن فِكرت تكثر من استخدام هذه العبارة «أنا فتاة مريضة، أنا فتاة مريضة». وكان الجميع يعلم كم تقسو على نفسها. ذلك اليوم، وبطبيعتها الصاخبة، صرخت مريم بانفعال في وجه سوسن: «أنتِ في سن يجب أن يكون في قلبك شيء من الوفاء والأحاسيس، عليكِ أن تشفقي على نفسكِ، لا أعرف في عشيرة گولدانـچـي فتاة أشد منكِ بروداً ولا مبالاة... يا إلهي، فقط لو أنني أعرف ما الذي يدور في داخل قلبكِ الخالي هذا؟ ولكن قولي لي يا پـروشه، أغيثيني، ممَّ تشكو هذه الفتاة بالضبط؟ هل جميع الفتيات اللواتي ينشأن في بغداد هن على هذه الصورة؟ كلهن مصابات بهذه العلة؟ كثيراً من الأحيان يكاد يصيبني الإغماء حين أرى لا مبالاتها هذه».

ذلك اليوم حين همّت مريم بالانصراف لزيارة منصور أسرين، نادتها سوسن عند الباب ثم قطفت زهرة بيضاء من إحدى مزهريات والدها الكبيرة وناولتها إياها قائلة: «أعطيها إلى منصور أسرين ولكن أخبريه ألا يعقد عليها أي آمال ولا يسيء فهمها، فأنا أعلم أن بإمكان الرجال أن ينسجوا قصصاً طويلة مضللة من زهرة صغيرة كهذه... وإن استطعتِ فحاولي

إقناعه أن ينساني إلى الأبد لأنني في النهاية قد لا أكون من نصيبه».

وكانت تلك هي الزهرة الأولى والأخيرة في حياتها التي تهديها سوسن فِكرت إلى أحدهم...

١٤

سرعان ما شاعت في المدينة مفاجأة أن واحداً من الآمونيين قد تقدم لخطبة سوسن فِكرت. من الجائز أن تكون شهرة حكاية سوسن فِكرت راجعة في الأصل إلى تلك الخطبة والأحداث التي تمخضت عنها بعد ذلك، ولكن بغض النظر عن موضوع الخطبة، فإن حدثين مفاجئين قد وقعا في ساحة منصور أسرين جعلا قصة الآنسة سوسن فِكرت وخطّابها المولعين تجري على كل لسان. أحد الحدثين كان قصيدة رقيقة كتبها شاعر شاب معاصر ونشرها في مجلة أدبية، ووصف فيها حال عاشق كاد أن يقضي نحبه في قبو قذر في سبيل الحب. وأهدى ذلك الشاعر قصيدته بشكل واضح ومعلن إلى «منصور أسرين». أما الحدث الثاني، والذي وقع في الأسبوع نفسه، فكان أغنية قدمها المطرب الشعبي «ساقي محمود» بأسلوب (لاوك وحيرانوك) القديم، وسرد فيها الحادثة عينها على شاشة القناة المحلية الوحيدة التي تبث برامجها لتلك المنطقة. ذكر «ساقي» في أغنيته اسم «سوسن فِكرت» عدة مرات، وأنشد أكثر من مرة «سوسنتي... يا سوسة قلبي... سوسن أمان... يا سوسنة

أجدادي». كانت أغنيات «ساقي محمود» شعبية ورائجة في مزادات جميع مدن كردستان. كان يتم تسجيلها على كاسيتات وبيعها للعامّة سائقو الحافلات الداخلية وتلك التي تتنقل بين المدن والتي تعمل على الخطوط الخارجية، كانوا جميعاً جمهوراً لساقي محمود. يجب أن أقول هنا إن أغنية ساقي محمود وقصيدة «مصطفى هجار» قد جعلتا من قضية خطبة سوسن گولدانـچـي شأناً عاماً شغل سكان المدينة وقتاً طويلاً.

أما بالنسبة إلى منـگوري باباگوره فقد سبب له ذلك الخبر كرباً وقلقاً كبيرين، وبدا له أن الأمر يتعقد يوماً بعد يوم، وحظوظ كاميراني سلمى تتقلص شيئاً فشيئاً. بعد ساعات قليلة من ذيوع خبر خطبة الآمونيين، بلغ الخبر كاميراني سلمى نفسه. ذهل كاميران لدى سماعه الخبر وأيقن أن الأمر قد أصبح أصعب، لكنه كان واثقاً من نفسه أنه لا يستسلم بسهولة. حين بلغه الخبر، كان يلعب الدومينو في مقهى «پـﭘولَي آزاد»، فأقسم أمام جميع الحاضرين بأنه سيحارب بكل قوته ما دام حياً، وأنه مستعد أن يحارب حتى النهاية. ثم إنه وضع أحجاره وغادر ذلك المقهى بهدوء متجهاً صوب منزل منـگوري باباگوره. في الحقيقة، إن القوة الداخلية التي أظهرها كاميراني سلمى عقب سماعه الخبر لم تكن جدية وحقيقية لأنه حينها شعر بضعف شديد لم يكن قد شعر به من قبل. ما إنْ وقعت عليه عينا منـگوري باباگوره حتى أدرك من قراءة ملامح وجهه أن شيئاً ما قد حدث، وأن روح هذا الفتى المسكين تعاني للمرة الأولى في حياته خوفاً عميقاً.

حاول كاميراني سلمى جاهداً أن يبدو رجلاً شريراً وصلباً، لكن منكوري باباكوره قال له: «اسمع يا صغيري، الآمونيون عشيرة كبيرة وقوية وأنا أعرف خالد آمون شخصياً وأعلم أنه لقيط ومحتال وابن حرام... منذ سنوات وهو في السوق، ومن الغريب أن يقع في هوى سوسن فِكرت. لقد كنت أظنه شخصاً لا ينفع لشيء. أقسم بقبور أمواتنا جميعاً أنني لم أكن أرى فيه إلا شخصاً نكرة مثل سروال متعفن لا نفع فيه. لطالما رأيته مجرد شاب فاسد يُشبع نزواته في خلفية دكانه، مع أولئك النسوة الرخيصات اللواتي كانت قارورة عطر لا رائحة لها أو حُمرة رخيصة الثمن أو بضعة دنانير كافية ليتمرغن معه على أكياس الألبسة التركية. ولكن أن يتحول هكذا فجأة إلى شخص عارف بقيمة الجمال ويمد نظره إلى سوسن فِكرت... لا، هذا ما لم يكن ليخطر لي على بال. إنه لا يشبه البتة عارفي الجمال بقدر ما يشبه مهرباً أنكر عليه أحدُهم بقية ماله. ثمة شيء ما في نظراته وفي وقفته يصيب المرء بالمغص، ولا يمكن أن أقتنع أن فتاة مثل سوسن فِكرت قد تحب شخصاً كهذا... أو... في الحقيقة لا أعرف، ربما تحبه. إن معظم ما قلتُه عن المرأة طوال حياتي كان خاطئاً. ولكن المخيف في الموضوع أن يقف الآمونيون بكل قوتهم وأسلحتهم إلى جانبه. طوال اثنين وثلاثين عاماً الماضية لم يرجع آموني واحد خالي الوفاض من خطبة خطبها، فعلى ما أعلم ويعلم جميع أهل السوق أن الآمونيين ما سعوا في خطبة فتاة وعادوا منها خائبين، ولذلك فإذا نحن دخلنا معركة ضدهم فعلينا أن نعرف حق المعرفة أنها معركة

ضارية ستحرق الأخضر واليابس؛ فالآمونيون ليسوا جميعاً كهذا اللقيط الضعيف الجامعي... إنهم عشيرة ضخمة ولديهم عدد كبير من المحاربين البواسل الذين يمكنهم حتى أن يغرزوا أصابعهم في مؤخرات الكلاب. أنا أقول لك، إذا نحن لم نكن مؤهلين لخوض هذه الحرب فعلينا ألا نذهب لالتقاط السمك وإلا ابتلّت مؤخراتنا... عليك أنت أن تخبرني بما علينا القيام به... نصمد أم ننسحب».

قال كاميراني سلمي: «ما الذي تقوله يا منـگور! أنت لو كنتَ مكاني فما الذي كنت ستفعله؟ يستحيل أن أستسلم بهذه السهولة». قال منـگور: «كان المرحوم يوسف كَويار يقول: القتال لا يطيب دون خوف... وفي القتال الحقيقي فإن الرجال أمثالنا تصطك رُكبُهم في البداية، ويمكن لها كذلك أن تصطك في النهاية. ثم من يعرف ما قد يحدث، قد تختارك سوسن فِكرت وعندها ستذهب كل حسابات الآمونيين أدراج الرياح. من المؤسف أن نطوي أجنحتنا في منتصف الطريق كغربان قذرة ونقول إن الأمر قد قُضي... أن ننسلّ إلى جحورنا كالقطا المريضة. صحيح أن الآمونيين أقوياء، ولكن الطرف الأقوى هو ذاك الذي ستنحاز إليه سوسن. وإن كانت سوسن ميّالة إليك أنت فكن واثقاً أن جميع حساباتهم هباء، ولذلك علينا أن نستمر، أن نرسل خطّابنا ونتصرف كأننا لم نسمع بشيء. أقسم بشرف أمي وأمك أن أذناً صمّاء خير من سكين قاطعة أحياناً... في البداية سنُعير الآمونيين أذناً صمّاء ولنرى بعد ذلك ما يكون».

كان كاميراني سلمى في داخله كائناً جريحاً رغم محاولاته أن يبدو متماسكاً ولا مبالياً، لكنه في الواقع كان على الحال ذاتها التي سبقت حادثة طعن منصور أسرين. كان كاميران، على خلاف منـكور، مؤمناً أن على خالد آمون أن يفهم أنه بإمكانهم أن يرفعوا أيديهم في وجهه وأنهم على أهبة الاستعداد للحرب. ثمة شيء ما كان يدفع بكاميران إلى الحركة وإعمال اليدين والتقدم إلى الأمام. لكن منـكور كان متأكداً أن التعرّض بهذا الشكل المتهور للآمونيين أشبه بأن يدسَّ المرء إصبعه في عش الدبابير. تعب كثيراً حتى استطاع إفهام كاميران أن المقاتل الحقيقي كائن صبور، قال: «لقد قضيتُ كل عمري مع المقاتلين، ولا أحد بحاجة إلى الصبر كحاجة حملة السكاكين إليه، أولئك هم المحاربون الحقيقيون. اسمع يابن سلمى دولان، أنت تعلم كم أحبك، ولكن حمل سكين والملاعبة بها عبء ثقيل يا بني، كان يوسف كَويار العظيم رجلاً لا مثيل له في إطلاق النار، ومع ذلك كان يستحي من إشهار مسدسه في وجه عدوه. في القتال لنا أخلاقنا، وأنت لم تفهم بعد طبيعة صنعتنا هذه. في ذلك الصباح حين قتلوا «عُنيلي سَبَي قَيماغيان»، وضع مسدساً من نوع «برليلي» في حزام أخيه وأوصاه أن يحتفظ به قائلاً: «لا أحد يقاتل اليوم بهذه السكاكين ذوات الحلقات غير المجدية، أتفهم؟ سيقتلونك في النهاية، إنها كأن تذهب إلى المعركة ولا سلاح معك». يجب أن أقول إن عُنيل كان واحداً من أمهر حملة السكاكين، كان مثل يوسف كَويار، بل أكاد أقول إنه كان أمهر منه، والسكين عند هؤلاء كانت أثمن من أي سلاح على

وجه الأرض؛ ففي أعرافهم أن الرجل الحقيقي لا يقاتل عن بُعد، فالقتال يعني أن تلتحم الأجساد، أن ترى دم عدوك وهو ينزف، أن تراقبه وهو يقترب منك رويداً رويداً، أن تلتقط أذنك نئيم أنفاسه. كان عُنيل يعلم أنهم سيقتلونه ذلك اليوم، وكلنا كنا نعلم أن عُنيل لو كان حاملاً معه ذلك المسدس لما تجرؤوا على الاقتراب منه، لقد كان فتى تهابه الجبال. ولكن حين أصبح في الخارج، خاطبهم واحداً واحداً معلناً أن لا يحمل سلاحاً سوى سكينه. لقد قتلوه عند زاوية دكان «مام شاهير»، أطلقوا عليه النار من ثلاثة مسدسات... ثلاثة، نعم، هذا ما حدث، قتلوه في رابعة النهار... عدد كبير من خيرة حملة السكاكين تم قتلهم بهذه الطريقة وكانوا جميعاً يعلمون أنهم سيُقتلون، جميعهم كانوا يعلمون أن زمن السكاكين قد ولّى لكن عِرق الرجولة الحامي كان هو ما يحركهم. لم يحمل معظمهم في كل حياته من سلاح سوى السكين، وأنا من ذلك الصنف بالذات، بل إن جميع من أعرفهم من هذا الصنف نفسه، وأريدك أنت أيضاً ألا تحمل في حياتك مسدساً، البنادق أسلحة الجبناء، وإذا كان تعاملك دائماً مع أشخاصٍ فارغي الأيدي فأقسم بقبور أمواتنا جميعاً أن لا شك عندي في رجولتك... الملائكة تعرف كم أكنُّ من التقدير والاحترام لهذا النوع من الرجولة. لكنني أقسم عليك بشرف أمك سلمى ألا تجعل أشخاصاً مساكين مثل ابن إبراهيم أسرين مقياساً، الآمونيون رجال أشدّاء واللعب معهم يتطلب الكثير من الصبر والمكر. لا أريد أن يقتلوك كما قتلوا «عُنيل» و«سِمَي داده»... إن سني تقترب من الخمسين وحين

أقول لك إنني سأفعل ما بوسعي من أجلك فإنني أعني ما أقوله ولا أكذب عليك، بلغتُ هذه السن ولم أتزوج ولم أخلّف أبناءً وأنا أحسبك ولداً لي، وقضيتك هذه عندي قضية حياة أو موت وأنت تعرف هذا جيداً. إن شئتَ فإنني أستطيع أن أجمع لك خلال أربع ساعات عشرين رجلاً من خيرة حملة السكاكين في هذه المنطقة، ولكن لكل شيء موعد وأوان. أعرفُ جيداً إذا أصابك مكروه فإن ذلك سيحطم قلبي أكثر مما تحطم عند مقتل يوسف كَويار. ليس لنا من هذه الدنيا يا صغيري سوى رؤوسنا وهذه السكاكين التي نحملها، والآمونيون خطرون للغاية، ولذلك علينا أن نحذر ونحن نقترب من النار ألا تحترق مؤخراتنا. أنا أتكلم بكل جدّيّة، يجب أن نلاعبهم لعباً نظيفاً واحترافياً، سنلبث ونراقب، وكلما سنحت لنا فرصة ضربنا ضربتنا بكل ذكاء. أنا واثق أننا بشيء من الصبر سنكسرهم في النهاية، أما الآن فعلينا التفكير في قلب سوسن گولدانـچـي وألا نُقدم على شيء يجعلنا في نظرها أشباه حيوانات مفترسة وطليقة».

لا بد أن نذكر هنا أن الصبر والتمهل كانا من أبعد الصفات عن طبيعة كاميراني سلمى، فقد كان من ذلك النوع من البشر الذين يستفزّهم أي شيء، ومن الصعب جداً ترويضهم، لكن كان لمنـگور تأثير كبير فيه، وكان الوحيد القادر على شد لجامه عند الحاجة، لأن كاميران كان يعلم جيداً أن خروجه على منـگور سيضعه لا محالة في مواجهة أخطار لا قِبل له بها.

في ذلك المساء وبعد أن انصرف من منزل منـكور، توجه في الحال إلى حانة صغيرة. نادراً ما كان كاميران يشرب وحيداً، لكنه كلما شعر بحالة من الضعف كان يأتي إلى هذه الحانة فيجلس فيها كأي سكير مجهول. لم يكن من أولئك الأشخاص القادرين على وصف أحوالهم أو التأمل الداخلي في طبيعة وعودهم، فإن أحبَّ شخصاً شعر به ذلك الشخص، وإن كرِهَ شخصاً كان من المستحيل أن يخفى ذلك الكره على ذلك الشخص، وكان غضبه يراوح بين هذين القطبين. لم تكن لديه القدرة على وصف ما يعتمل في داخله، ولذلك كانت أفراحه وتعاساته تتجلى بكل هذا العنف. وكان يأمل، والحال هذه، أن تترك مقابلته مع فِكرت گولدانـجـي وابنته هذا الانطباع لديهم حتى يتسنى له بعد ذلك أن يخوض حربه برغبة حقيقية. ولكن إن ألقت به سوسن مباشرة خارج الحرب، أو إذا اختار قلبها منصور أسرين، أو مالت نفسها إلى ثروة الآمونيين وشهرتهم وهيبتهم، فعندها سيقضي ما تبقى من حياته جريحاً ولن يبقى له سوى أن يتدخل كمجنون في كل شجار بالسكاكين يصادفه حتى ينتهي به الأمر يوماً أن يقتله أحدهم ويريحه من عذابه هذا. لم يكن يعلم في الحقيقة مقدار حبه لسوسن، لم يكن لديه مقياس لمثل هذه الأمور لأنه لم يكن يعرف كلمة واحدة يمكن أن يتحدث بها عن قلبه، لكنه كان يعرف أن الشيء الوحيد الذي سيفعله، إن تزوجت سوسن بسواه، هو أنه سيسعى بكل قوته حتى يُقتل في أسرع وقت على يد أحد حملة السكاكين في شجار ما ويرتاح إلى الأبد.

١٥

شاعت قصيدة «مصطفى هجار» وأغنية «ساقي محمود» بين الناس، وخلال أيام كان منصور أسرين قد تحول إلى بطل أسطوري. منذ زمن بعيد لم تعرف المدينة قصة حب حقيقية. في عصر كهذا كانت المدينة بحاجة إلى صورة عاشق رقيق يضحي بنفسه في سبيل محبوبته. خلال وقت قصير أصبحت أغنية ساقي محمود على كل لسان، وأصبح اسم منصور أسرين -رغماً عنه- معروفاً لدى الجميع. تلك الشهرة المفاجئة وذلك الانتشار السريع لحادثة طعنه، جمعت حول منصور لفيفاً من الرفاق والأصدقاء المخلصين، حتى إن بعض الشعراء والموسيقيين قد أتوا خصيصاً لزيارته. حين ذهب كاميراني سلمي وخالد آمون لخطبة سوسن كانت المدينة بأسرها تترقب أن يسارع منصور أسرين أيضاً إلى إرسال خطّابه. لكن لا مبالاة منصور وتراخيه خيّبت آمال الجميع، وهذا ما دفع والده إبراهيم وعمه فريد إلى الجلوس معه كلٍّ على انفراد من أجل إقناعه بالموافقة على التقدم لخطبة سوسن كما فعل أقرانه. في الحقيقة بعد زيارة مريم، تولد عند منصور شعور أن كل ما

يمكن أن يقوم به في هذه المسألة عبث غير مجدٍ، ولكن حتى شعراء المدينة الشباب ضغطوا على منصور لكي ينضم بكل قوته إلى المتبارين في ذلك المضمار المجيد. ولأيام عديدة لم تهدأ الضجة في منزل عائلة أسرين والكثير من المثقفين وطلبة الجامعة كانوا متضامنين مع منصور ويزورونه بشكل متواصل، ولو أن منصور أظهر التخاذل بعد ذلك لأصيب الجميع بإحباط شديد، ولذلك فقد اطمأن جميع أقارب عائلة أسرين إلى أن لا طريق أخرى أمام منصور، وعليه أن يمضي في هذه القصة حتى نهايتها.

ولولا كل ذلك الضغط الذي وقع عليه لما أرسل منصور أسرين بخطّابه في ذلك الوقت من أجل خطبة سوسن فِكرت.

كانت وجاهة آل أسرين أكبر من وجاهات الخاطبين الآخرين؛ فبالإضافة إلى إبراهيم أسرين وأخيه، كان هناك شاعران معروفان ومعهم ساقي محمود ومدرِّس في الجامعة، وبرفقتهم عدة أشخاص آخرين. ومع ذلك لم تحصل هذه المجموعة الكبيرة على أي وعد صريح من لدن آل گولدانـچـي.

خشي فِكرت گولدانـچـي، الذي فوجئ بتداعي كل هؤلاء الخاطبين على ابنته، أن تخرج الأمور من بين يديه وتسير على غير ما يرام، فعزم على أمر ما. ففي تلك الليلة وعقب انصراف وفد عائلة أسرين مباشرة، دهمه خوف مفاجئ، وسرعان ما طلب إلى بناته أن يحزمن أمتعتهن على عجل، لأنه قرر أن

يغادر هذه المدينة سراً ودون تأخير عائداً إلى بغداد. فالتفتت إليه سوسن، وكانت ترتدي فستاناً أزرق ماكسي، وقالت بصوتها الهادئ المعتاد في كل أحوالها: «اطمئن يا أبي، دع الأمر لي وأنا سأعرف كيف أجد حلاً لكل ذلك». أثارت قوة سوسن وجرأتها دهشة الأب وهو الذي يعلم أنها لم تدخل من قبل في أي تجربة حقيقية، وشعر أنها تريد أن تخوض تجربتها الأولى، ولذلك فقد عزم على إتاحة تلك الفرصة لها.

كانت لدى منصور أسرين الجرأة أن يصارح المحيطين به أنه لا يعلم شيئاً في الحقيقة عن مشاعر سوسن تجاهه عقب حادثة الطعن. كان يشعر في نفسه بضعف عميق لم يسبق له أن شعر به، وكأن حادثة طعنه قد جعلته ينظر إلى محبته لابنة گولدانـچـي بشكل آخر. حين علم أن ابن رجل آموني يطلب يد سوسن، أدرك أن هذا العشق يتحول شيئاً فشيئاً إلى حرب كبيرة: كم هو صعب أن يكون المرء عاشقاً ومحارباً في الوقت نفسه، أن يكون عاشقاً وفي الوقت نفسه ممتلئ القلب بمشاعر الحقد والغضب. لكنه كان يرتعد من فكرة التصريح بهواجسه هذه. ماذا سيحدث لو أنه أعلن أنه غير مستعد أن يدخل حرباً في مواجهة عشاق سوسن الآخرين... ماذا سيحدث؟ في هذه المدينة على من يريد أن يكون عاشقاً أن يصبح رقيباً على عدة أشخاص آخرين. أذهله هذا الارتباط الغريب والعميق بين العشق والحقد. كان واثقاً أنه لا يحب كاميراني سلمى دولان، ولكن كانت في كاميران جمرة من الحقد ليست فيه هو. استعاد

في خياله تلك اللحظات حين هجم عليه كاميران بعينين تتقطران حقداً بشكل غير طبيعي، حقد لا حدود له ولا يمكن أن ينشأ إلا عن العشق، وشعر أنه لا يمكن أن يكون عاشقاً حقيقياً ما دام لا يمتلك في داخله تلك الكمية من الحقد. كان واثقاً من محبته لسوسن فِكرت. ولكن كيف؟ نصف المحبة يتكون دائماً من الحقد وهو يرى نفسه مفتقراً إلى هذا النصف، ليست لديه روح المحارب المتوثبة، بل لو كان الأمر بيده لأدار عجلة الزمن إلى الوراء ومنع ساقي محمود من إنشاد تلك الأغنية التي تُظهره شهيداً. قرر أن يتوقف عن الدوام في الجامعة، شعر أنه بحاجة إلى الراحة فترة لا تقل عن السنة. قضى معظم لياليه في غرفته الصغيرة لا يفعل شيئاً، كان بإمكانه أن يستلقي على سريره هكذا لفترات طويلة دون أن يفعل أي شيء. كان يسمع أصوات أخواته وهن يتحدثن في موضوع ما لا يعرف ما هو، ولكن كان واثقاً إنهن يتحدثن عنه. في البيت والجامعة وبين الأقارب وفي الحي، فتيات المدينة والشعراء ورجال الشرطة... الجميع...
كم هو مؤلم أن يتحدث عنك الناس طوال الوقت دون أن تعرف ما الذي يقولونه. كان يعرف أن الكلام الذي يتحدثون به أمامه مختلف تماماً عن الذي يتحدثون به من خلف ظهره، ولكن ما من وسيلة ولا قدرة تتيح له الاستماع إلى ما يقولونه في الخفاء. قال في نفسه: «الجحيم هو أن يتحدث كل الناس عنك دون أن تعرف ماذا يقولون». هكذا كان يرى الأمور، كأن كل ذلك التضامن الكبير الذي يبديه الجميع إنما يذهب إلى شخص آخر لا يمتُّ إليه بصلة. قال في نفسه: «ساقي محمود

لا يعرفني وكذلك مصطفى هجار، وكلاهما لا يعرف بالضبط ما الذي حدث في تلك الليلة...». كان أهم شيء في تلك الليلة هو ذلك الحقد الأعمى في عيني كاميراني سلمى، ذلك الحقد الذي لا يحمله هو في قلبه. ولكن لكي يراه الناس عاشقاً حقيقياً فإن عليه أن يثبت لهم أنه مستعد أن يحارب في سبيل حبه، عليه أن يستمر، فلا سبيل آخر أمامه، عليه أن يُظهر لهم حقداً لا يحمله في قلبه وإرادةً لا تمتلكها نفسه.

١٦

لو نظرتَ من بعيد إلى منزل سوسن فِكرت لبدا لك هادئاً، ولكن مهلاً، فجميع البيوت تبدو للناظر من الخارج هادئة وأما ما الذي يجري في داخلها فلا يمكن لأحد أن يعرف بالضبط.

في ذلك المساء حين ركب فِكرت گولدانـچـي وابنتاه سيارة تاكسي متجهين إلى زيارة «خَنده گولدانـچـي» عمة سوسن، كان الثلاثة هادئين متماسكين لا يبدو عليهم البتة أي مظهر من مظاهر القلق أو الاضطراب. كانت خطواتهم ثابتة ونظراتهم إلى ما حولهم هادئة ويردون بابتسامات صفراء، ولكن رقيقة، على كل من يبتسم لهم. أما سبب الزيارة فكان الاحتفال بمناسبة عيد ميلاد أحد أحفاد خَنده والذي بلغ الثانية من عمره، لكنها كذلك كانت فرصة جيدة حتى يناقش آل گولدانـچـي في اجتماع عائلي أمر خطّاب سوسن الثلاثة. رغم أن آل گولدانـچـي يقيمون منذ وقت طويل في المدينة، لكن لم يحدث أن ذاعت سيرتهم بين الناس كما حدث مؤخراً. أما أن تشغل سيرة هذه الفتاة الضعيفة العليلة التي لا تنفك تشكو

فقر الدم وآلام الرأس المدينةَ بأسرها خلال وقت قصير، فهذا ما كانت تمتعض منه معظم بنات عائلة گولدانـچـي الأخريات اللواتي لم يكنَّ يرين في سوسن سوى مخلوق هزيل باهت غير مستحق لكل هذا الاهتمام وكل تلك الضجة. وعلينا أن نذكر كذلك أن قدوم فتاة غريبة بشكل مفاجئ من مدينة أخرى، ثم تسببها في حدوث عراك بالسكاكين بين اثنين من شباب المدينة لأجلها، كان مثار غيرة وحسد معظم نساء المدينة اللواتي كن يرين في ذلك طعناً في جمالهن وانتقاصاً من أنوثتهن. غير أن روح سوسن فِكرت كانت أنقى من أن تخمّن ما يدور في خواطرهن. لم تكن القضية أن سوسن غافلة عن أمثال تلك المشاعر، ولكن حتى لو شعرت بها لما ظهر منها أي رد فعل عدائي تجاه ذلك. حين قدموا من بغداد، كان معظم أقاربها من آل گولدانـچـي يرون فيها فتاة متعالية، ولكنهم سرعان ما أدركوا أن منشأ صمتها وتوحدها ليس هو التكبر بقدر ما هو عجزها عن العثور بسهولة على موضوع مناسب يمكن التحدث فيه. وكانت كلما أرادت الكلام جاء صوتها خافتاً فيه موسيقى خفية، وتراها تحدثت مثلاً عن الأنواع المختلفة من ورد الجوري أو ألوان بعض أسوار المدن القديمة أو أنواع السفن عبر التاريخ أو الأزياء القديمة التي كان يرتديها المحاربون من الفرس والعرب. كانت الفتاة في الواقع قادرة على التحدث في جميع تلك المواضيع التي لم يكن مَن حولها يعرفون عنها شيئاً، بل على العكس من ذلك فلم تكن ترى في كل ما يعرفه الآخرون أي شيء ذي قيمة. كانت غرفة الجلوس

في منزل العمة خَندة گولدانـچـي كبيرة وقد توزعت على جدرانها صور مشايخ آل گولدانـچـي وأسلافهم من النساء والرجال، بدءاً من تلك الملتقطة أيام سقوط الخلافة العثمانية، وانتهاءً بتلك الملتقطة بأحدث الكاميرات الملونة. وعلى بعض الرفوف كنت ترى مزهريات كبيرة وطيوراً زجاجية وأباريق من الكريستال موضوعة بأناقة. منذ صباها الباكر، كانت خنده گولدانـچـي مولعة بهواية جمع الأباريق، ولطالما مازحها زوجها: «ألم يكن من الأفضل لكِ أن تتزوجي بصاحب مقهى».
كان في الغرفة شيء ما يشدُّ أنظار سوسن إليه، ربما كان عبق الماضي الجميل المحفوظ هنا بكل نقائه، وكانت سوسن كلما دخلت هذه الغرفة تقول: «آه يا عمة، أتعلمين... علينا جميعاً أن نخفض أصواتنا حين نكون في هذه الغرفة... أشعر أن كائنات قديمة تنام هاهنا». أرائك كبيرة قديمة، طاولات خشبية بدا كأن يداً خفية كانت تتعهدها بمسحة من الكحول كل يوم، صفان من السيراميك الفيروزي يسبغان على الغرفة عظمة وجمال عصر مضى، كل ذلك جعل من جو الغرفة أشبه بجو متحف حيث العطر عابق من كل مكان حتى من الأبواب. كان زوج العمة خَنده رجلاً قليل الكلام دائم التفكير، ويبدو أن الصمت في أعماق ذلك الرجل قد طغى على تلك الغرفة حتى جعلها مثله. في المرة الأولى التي زاروا فيها منزل العمة خَنده، باحت سوسن لوالدها، وهم في السيارة على طريق العودة، بمشاعرها تلك، فقال والدها: «لا غرابة في الأمر يا ابنتي، فكثيراً ما تتأثر روح ساكن المكان بشكل المكان، والمكان نفسه كذلك لا

يلبث أن يتأثر بصاحبه». أما اليوم فقد بدت لها الغرفة أكبر، وكلما ازداد عدد الأشخاص فيها كانت تتسع أكثر فأكثر. طوال أسبوع وعائلة گولدانـچـي منشغلة بقضية عشاق سوسن الثلاثة، ولذلك فقد اجتمعوا كلهم في ذلك المساء بناءً على طلب فِكرت گولدانـچـي لمناقشة ذلك الأمر. منذ عدة أيام وبعض شباب عائلة گولدانـچـي، شيرزاد عزت گولدانـچـي وهوشيار ابن العمة خَنده ونبيل ابن العمة معصومة، يسألون ويستفسرون في السوق عن الخطّاب الثلاثة، وكانت سوسن ترى أن السؤال بهذه الطريقة عن هؤلاء أمرٌ يدعو إلى السخرية، إذ ليس من اللائق البتة أن يتنقل ثلاثة شباب بطولهم وعرضهم بين دكاكين السوق يتحرّون عن أحدهم. إنه أمر مخجل. لم تكن سوسن تستطيع استيعاب فكرة أن ينوب هؤلاء الشباب عن عينيها، ثم كيف للمرء أن يقيّم شخصاً تبعاً لما يقوله فيه أهل السوق لا سيّما أن معظم سكان هذه المدينة متشابهون بشكل أو بآخر. كان أبناء عمات سوسن الثلاثة طوال القامة كسائر رجال عشيرة گولدانـچـي، وكانت على سيماهم مسحة طبيعية من الهيبة. كانوا معتادين على ارتداء البدلات الرسمية وربطات العنق. عاد الثلاثة بالمعلومات عينها، وبدأ كل منهم حديثه بأن كاميراني سلمى لقيط وحامل سكين لا رحمة في قلبه، وأن المدينة بأسرها تعرف أنه مقامر سكّير لا خير فيه ولا مروءة، وأنه يقضي حياته بين المقاهي وأوكار القمار في الفنادق. كان شيرزاد عزت گولدانـچـي، الذي كان طالباً في السنة الرابعة في كلية الحقوق، يحاول بكل جهده، وهو يتكلم،

أن يبدو مثل محامٍ حريصٍ على مصلحة ابنة عمه، فكان يقول: «ابنة عمي العزيزة، نحن إنما نفعل ذلك حرصاً عليكِ وخشية أن تقعي في حبائل شخص لا يقدّر قيمتكِ». كان لدى البعض من بنات عم سوسن وبنات عماتها ميل كبير نحو منصور أسرين؛ فسمعته كعاشق مُضحٍّ كانت قد طبقت الآفاق حتى وصلت إليهن، وكنّ يرين فيه مثال العاشق المولَّه الذي يُلهب خيال أي فتاة. أما مريم فلم تكن تخفي ذلك الميل، بل كانت تتدخل بجلبتها المعتادة وصوتها الطوفاني لمصلحة منصور بشكل مباشر ومعلن، حتى إنها فرضت على الجميع أن يفكروا جيداً في الحجج الدفاعية التي كانت تقدمها، وكانت حقيقة أن منصور شاب وسيم ومتعلم وعاشق وذو مستقبل مضمون هي أقوى أسلحة منصور في تلك المعركة.

ولكن كان لعجائز العائلة وللبعض من شبابها رأي آخر؛ فقد كانوا يرون أن خالد آمون هو الأنسب كزوج لفتاة رقيقة كسوسن. وكان عزت گولدانـچـي بدوره يرى أن مصاهرة الآمونيين سترفع من مكانة جميع أفراد عائلة گولدانـچـي بشكل كبير، ناهيك عن أن المعلومات الواردة تؤكد أن خالد يمكنه أن يوفر لابنتهم حياة كريمة ولائقة بها، فضلاً عن أنه قد تقدم خاطباً دون اللجوء إلى لغة السكاكين والقتال، أي على عكس الخاطبين الآخرين. طوال الاجتماع، كان لمريم گولدانـچـي رأي معاكس، فقد كان من رأيها أن الرجال الذين يعملون في تجارة اللوازم النسائية لا يكونون في العادة أزواجاً

صالحين، ومن الأفضل للفتاة العاقلة ألا تفكر فيهم، لأن معظمهم غير أهل للثقة لأنهم لم يختاروا العمل في تلك المهنة طلباً للربح وحسب بل إن لهم مآرب أخرى. كان الجميع يدرك ما ترمي إليه مريم، ولذلك علت أصوات ضحكاتهم فجأة.

كانت أنظار الجميع مركزة على سوسن التي كانت، رغم ضعفها ورغم أن الحديث كله كان عنها، أشبه بينهم بظلٍ لا يكاد يبين. كان قد مضى على وجود سوسن في هذه المدينة حوالي السنة، ومع ذلك فقد كانت ما تزال غريبة بالنسبة إلى معظم أقاربها الذين كانوا يعجزون حتى الآن عن تخمين ما يدور في رأسها. صحيح أنها غالباً ما كانت تخرج بصحبة فتيات من العائلة ولكن، باستثناء ضعف تحملها للجهد وآلام الرأس التي تلازمها، لم يكن أحد منهن يعرف عنها شيئاً. كان الجميع يعلم أن عليها مراجعة الطبيب مرتين في الشهر وما عدا ذلك فما من شيء يعرفونه. علينا أن نذكر هنا أن جميع آل گولدانـچـي كانوا يفضّلون پـروشه على أختها سوسن، لأنها كانت أكثر منها تواضعاً وانفتاحاً وطبيعية، ولكن كل من صحب سوسن في جولة واحدة إلى السوق كان يلمس في الحال جاذبيتها الغريبة التي تخلب ألباب الرجال. في الحقيقة، لم تكن سوسن من ذلك النوع من النساء اللواتي يجتذبن الرجال بقاماتهن الفارعة وأجسادهن الممتلئة وأفانين الماكياج التي يُتقنَّها، بل إنها كانت هزيلة بشكل كبير وبالكاد يمكن رؤية أن لها صدراً نافراً كسائر النساء. كان سحرها كله مجتمعاً في

وجهها، في طريقة وقوفها، في ظلال الوحدة التي تتراءى في ملامحها. كان الناظر إليها يعلم في الحال أنها فتاة مريضة وذلك ما خلع عليها سحراً لا يقاوَم، خاصة إذا أضفنا الجمال الخلاب الذي يضفيه عليها مشهد انعكاس وجهها الطفولي الصغير مع شعرها الكثيف جداً، وشعور المرء أن هذه الفتاة الماثلة أمامه على وشك أن يغمى عليها، وهذا ما كان يجعل من سوسن آية في الرومانسية. قبل عدة ليالٍ، وفي جمعٍ من الفتيات، قالت نشميلة ابنة العمة فضيلة بصوت سمعته سوسن: «آه لو يخبرني أحد ما الذي يجذب الرجال إليها، حتى الملقط لا يمكنه أن يمسك منها بقطعة لحم. تباً... كأنها ميتة تمشي على قدمين». كثيراً ما كان يبلغ أسماع سوسن أمثال هذا الكلام فلا تعيره اهتماماً.

في تلك الليلة ذاتها، وكانت سوسن قريبة من جميع الفتيات، قالت بصوتها الرقيق: «الرجال حمقى، إنهم يحبون المرأة التي تبدو على وشك الموت... لا تهتمي كثيراً يا ابنة العمة فإن منهم من لا يحبني لكنهم يحبون فيَّ ذلك الموت الذي يرونه وشيكاً».

تلك الليلة في منزل العمة خَنده، حين شرعت سوسن في الكلام، ساد صمت مطبق، وما كان لصوتها الرقيق أن يكون مسموعاً إلا في حالة من الصمت التام حولها، قالت: «أنتم جميعاً تنظرون إلى كاميراني سلمى كأنه شيطان وأنا لا أعرف بالضبط كيف هو كاميراني سلمى لأنني لم أره مطلقاً، لكن

نظرتكم هذه إليه ورؤيته بمثابة شيطان نظرة خاطئة، ومخطئ من يتحدث عنه بهذا الشكل وكأن الآخرين أفضل منه. وإن كان تعاطيه القمار وملاعبته السكاكين ذنباً فنحن جميعاً مذنبون... وأنا أثقلكم ذنوباً لأنني لا أستطيع الزواج بسهولة من أحدهم، ولا أستطيع في الوقت نفسه التخلي عنهم... ليس الأمر كذلك... كلنا مذنبون ولا أحد فينا أفضل من كاميراني سلمى».

لم يستطع فِكرت گولدانـچـي أن يكتم صوت ضحكته، فلم يحدث من قبل أن تجرأ أحد وقال لأخيه عزت گولدانـچـي «أنت مذنب، بل أنت لست أفضل من حامل سكين سكّير»، فتلك كانت وقاحة كبرى تحطم سلسلة الاحترام والتوقير المتوارثة في عائلة گولدانـچـي.

تابعت سوسن بهدوئها اللافت للأنظار: «جميع الرجال في هذه المدينة سواء، ثمة أشياء صغيرة لا قيمة لها تميز أحدهم عن الآخر... نعم، أشياء تافهة وإن كنتُ لا أعرف ما هي... ولكن لا أحد منهم رأى في حياته مدينة غير مدينته هذه، كلهم سواء، أولئك الثلاثة عندي سواء، وأنا أحب الثلاثة معاً بدرجة واحدة».

صرخت العمة معصومة بصوتها الأجش كالرعد، والذي كان رجولياً أكثر من أصوات جميع رجال عشيرة گولدانـچـي، متوعّدة: «لكن لا يجوز لكِ أن تتزوجي بالثلاثة معاً، أتفهمين؟

يمكنك اختيار واحد منهم فقط».

كان الجميع واثقاً أن ذلك الصوت الشبيه بالرعد كفيل بكسر شوكة سوسن في الحال، لكن هذه الأخيرة نظرت إليها بكل هدوء وأجابت: «أنا لن أتزوج بأي منهم الآن، أما في المستقبل فلا أعرف... عمة معصومة، المستقبل نفسه هو من سيقرر بكم شخص سأتزوج».

أطرق الجميع كأن على رؤوسهم الطير عند سماعهم ذلك الجواب الغريب. كان الجميع يعلم أن هذه الفتاة ليست مجرد دمية بلاستيكية مريضة ونحيلة، بل هي كذلك إرادة صلبة وعزيمة لا تلين، وكانوا يعلمون كم يعني لِفكرت گولدانــچــي أن تكون كريمته الصغيرة قوية بهذا الشكل. عزا الجميع وقاحة الفتاة إلى ضعف والدها أمامها، ولكن الجميع كان يعلم كذلك أن بين الأب وابنته احتراماً عميقاً ومبطّناً يحرص كلاهما بدقة على صيانة حدوده.

في ذلك اليوم، سارت حفلة عيد الميلاد على ما يرام، وعندما حان وقت إطفاء الشموع وتناول الكعك وتقديم الهدايا، كان الجميع في حالة هرج باستثناء سوسن... وحدها كانت غارقة في بحر من الصمت، لا أحد يعلم بما تفكر، لا أحد من عائلة گولدانــچــي ولا أحد من خطّابها السكارى، بل ولا أحد من العالم كله.

١٧

اتخذت سوسن فِكرت قراراً بأن تلتقي بخطّابها الثلاثة في يوم واحد، الأول في الصباح والثاني في المساء والثالث ليلاً. كان خالد آمون أول من طلبت سوسن لقاءه في منزلها في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم معلوم. وقبل دقائق من ساعة اللقاء، توقفت سيارتان ممتلئتان برجال الآمونيين أمام باب منزل فِكرت گولدانـچـي، نزل خالد من إحداها ثم مضت السيارتان بعيداً. منذ عدة أيام والآمونيون يعملون جادين في حشد الأنصار لقضيتهم حتى يضعوا آل گولدانـچـي تحت ضغط هائل لا يمكنهم معه الرفض. كانوا قد توسطوا لدى المحافظ وكذلك لدى القائممقام الذي قام باستدعاء فِكرت گولدانـچـي وتحدث إليه. لقد فعلوا كل ما بوسعهم من أجل هذه اللحظة، ولذلك فقد كان الجميع يترقبون أن تسفر المقابلة عن نتائج طيبة ثمرة لمساعيهم تلك.

حين دخل خالد آمون إلى القاعة الكبيرة في منزل گولدانـچـي، دُهش حين وقعت عيناه على تلك الأرائك

الجميلة وذلك الديكور المتميز وكثرة الكتب والطاولات والتماثيل وبعض التحف القديمة. لم يكن في حياته قد رأى منزلاً كهذا. وأدهشه كذلك ألا يكون فِكرت گولدانـچـي شخصياً في استقباله، بل فتاة شابة تقوم بإرشاده إلى غرفة أخرى في الطابق العلوي. كانت الغرفة عبارة عن مكتبة كبيرة خمّن أن عدد الكتب التي تحتويها ليس أقل من عشرة آلاف كتاب، بل إن ديكور السقف نفسه كان على صورة الكتب المعلقة المربوطة بشرائط ملونة تتدلى من الأعلى نحو الأسفل. كانت الغرفة مظلمة بعض الشيء. في نهاية الغرفة، كانت سوسن جالسة بانتظاره على كرسي جلدي قديم وكبير مرتدية ثوباً أصفر فاتح اللون تتخلله خطوط بيضاء ناعمة. لم تكن ترتدي من الزينة والحلي سوى عقد أسود ولا شيء آخر ولا حتى قرطاً رخيصاً. كانت قد مضت أكثر من خمس وأربعين ليلة على آخر مرة وقعت فيها عينا خالد آمون على سوسن. بدت له في غاية الجمال لدرجة أحس معها بقلبه يحترق. كان من الواضح أن هذا المكان قد تم إعداده بعناية فائقة حتى تنجز فيه سوسن لقاءاتها الثلاثة المصيرية. لم يكن في الغرفة أحد سوى سوسن، لكن خالد آمون شعر بوجود شخص آخر لا يراه، لكنه يراهم، كان ذلك مجرد وسواس داخلي لا دليل على صحته، ومع ذلك فقد وضع في حسابه أن يكون في الغرفة ثمة مراقب خفي. كانت سوسن آية في اللين واللطف، وبدت كأنها قد أعدت نفسها سابقاً لكل حركة أو كلمة تقوم بها، ورغم ذلك فقد بدت له رقيقة جميلة إلى درجة أنه مستعد أن يضحي بكل

شيء في سبيلها. حين جلس على الكرسي شعر أن سوسن تتفرس فيه بدقة فقال في نفسه: «لا شك أنها ستراني شاباً غير وسيم، لن تراني فتى أحلامها بالتأكيد». لكنه حاول بشدة تمالك نفسه والسيطرة على انفعالاته. ابتسم لها ابتسامة كبيرة قلما شوهدت على وجهه. كانت سوسن جالسة بكل هدوء في كرسيها الجلدي، وكان من المستحيل التنبؤ بما تنطوي عليه طريقة جلوسها ونظراتها تلك.

قالت بطريقة تركت خالد آمون مذهولاً: «سيد خالد آمون، لقد أردتُ أن تكون أنت أول من أقابله، لأن معظم أفراد عائلتي راضون عنك ويتحدثون في شأنك بالخير. لكني لا أعرف من أنت بالضبط... لا أعرف عنك شيئاً... لا شيء... أنا فتاة مريضة ويجب أن أعرف معلومات كافية عن الشخص الذي قد أتزوج به». فأجابها خالد آمون بكل تأدب: «آنسة سوسن، من حقكِ دون شك أن تعرفي كل شيء عنا». لم يكن يريد أن يتكلم كثيراً، فقد كان يخشى أن تفضح بعض كلماته أشياء لا يجب أن تطلع عليها سوسن. قالت سوسن: «من الغريب أن تسخّر أقاربك الآمونيين ومحافظ المدينة ونائبه... كل هؤلاء، وأنت تعلم أن تصرفات كهذه تكسر قلب فتاة مريضة مثلي. لستُ تلك الفتاة التي يمكن أن تصبح زوجة لأحدهم رغماً عنها...».

أطرق خالد آمون برأسه وفكّر: «إنها رقيقة إلى درجة أن كل من يفكر في أخذها غصباً عنها قد يحصل عليها ولكن مكسورة.

إنها كائن رقيق يجب أن تُترك له حرية الحركة، أي شيء يقع بالقرب منها قد يكسرها». ثم قال باستحياء: «آنسة سوسن، أنا ابن عشيرة آمون، وهم يعلمون كم أنتِ مرغوبة، والقضية كلها هي أنني لا أريد أن أخسركِ... قبل خمسة أشهر حين رأيتكِ للمرة الأولى قلتُ في نفسي هذه هي الفتاة التي أبحث عنها، ولكن حينها لم أجد طريقة أحدثكِ بها عن نفسي... لقد رجوتُ الآمونيين أن يساندوني لأنها المرة الأولى في حياتي التي أجد نفسي فيها عاشقاً. معظم الآمونيين يعرفون أنني لستُ على ما يرام، وأن عملي في الدكان منذ أربعة أشهر لم يعد جيداً». سألت سوسن: «لا أعرف، إن كان بإمكاني سؤالك عن العلاقة بيني وبين كساد تجارتك؟». فأجاب خالد آمون -وكانت المرة الأولى في حياته التي يحرص فيها على أن يبدو عاشقاً أمام شخص ما: «العلاقة هي أنني من شدة تفكيري فيكِ لا أستطيع التفكير في أي شيء آخر، رغبتي في العمل لم تعد كما في السابق حين كانت لذتي الكبرى هي العمل في دكاني. لقد تغيرتُ حتى لم أعد أعرف نفسي، لم أعد أستطيع الاهتمام بجلب بضائع جديدة، وعلاقتي مع المهرِّبين قد تقلصت، منذ أربعة أشهر لم أذهب إلى بغداد، منذ أربعة أشهر لم يدخل دكاني ثوبٌ جديد ولا عطر جديد... لا شيء... لا شيء يا سيدتي، لأنني أفكر في شيء واحد فقط هو أنتِ». فعادت سوسن إلى سؤاله بهدوء: «ولكن كيف تفكر بي؟». كان خالد آمون يتوقع سؤالاً كهذا، ومع ذلك شعر بأنه عاجز عن الإجابة عليه. قال بعد أن فكر قليلاً: «شيء في غاية الصعوبة، إنه كأن

تشعر أن ثمة شيئاً ما يخنقك على الدوام، شعوراً لا يغادر خيال المرء، إنه شيء لا يوصف، يشبه أن تبحث عن شيء ولا تجده».
كان واثقاً أنه عاجز عن شرح لواعج قلبه بدقة، لكنه كان يعلم كذلك أن سوس فِكرت لم تستدعه إلى هذا المكان لتسمع منه إجابة على هذا السؤال. من الواضح أنها كانت ترغب في رؤيته وحسب، لترى هل هو وسيم مثل منافسَيه الآخرين أم لا، أو لتطّلع على طريقة كلامه، أو ربما لشيء آخر قد لا يخطر له على بال. أدركت سوسن أنه لم يفهم المقصود من سؤالها، فغيّرت قليلاً في نبرة صوتها وعادت إلى سؤاله ثانية: «خالد آمون، أريد أن أعرف هل سمعت بحادثة شجار السكاكين التي جرت في القبو أم لا؟».

- وهل بقي أحد يا سيدتي لم يسمع بتلك الحادثة؟!

- أريد أن أعرف هل أنت مستعد أن تطعن أحدهم بسكين لأجلي أم لا؟

لم يكن خالد آمون يتوقع سؤالاً كهذا، فرفع رأسه ليتمكن أن يرى بوضوح وجه سوسن الذي كانت ظلمة غرفة المكتبة تلقي عليه ظلاً كثيفاً. ولما شعر أنه عاجز عن قراءة أي شيء في ذلك الوجه، أجاب بهدوء:

- لا شك عندي في ذلك مطلقاً. أنا مستعد أن أقاتل وأن أموت لأجلكِ آنسة سوسن. أنتِ الوحيدة التي يمكن أن أصبح لأجلها شريراً لا رحمة في قلبه.

- وهل يمكنك أن تقتل شخصاً لأجلي؟

- يمكنني... بلا تردد... وبلا تفكير.

فعادت سوسن إلى سؤاله بنبرة غلب عليها الحزن:

- وما الذي يجعلكَ مستعداً أن تقتل إنساناً من أجل فتاة مريضة مثلي، ما السبب يا ترى؟ ألا تشعر أن هذا مرتبط بحقيقة أن الحياة في هذه المدينة تخنق المرء؟ ألا تشعر أن هذه المدينة صغيرة وأن الساكن فيها منقطع عن العالم، وأن قدرة فتاة ما على سلب ألباب عدة رجال معاً أمر مرتبط بالمدينة، أعني بهذه البقعة الصغيرة التي تزهق قلب المرء؟

أطرق خالد آمون برأسه وقال:

- هذا لا يغير من الأمر شيئاً، أعني حقيقة أنني مستعد أن أصبح لأجلكِ رجلاً لا رحمة في قلبه.

نهضت سوسن واقفة، وعندها استطاع خالد، بفضل الضوء المتسلل من خلال الكتب، أن يرى الوشاح الأصفر المحيط بعنقها والمشبك الأبيض الذي يثبت وردة صغيرة في شعرها، أن يرى عنقها الجميلة، ذلك العقد الأسود الذي كانت بعض حباته تتلألأ كأنها حمّة عقرب. أراد أن ينهض بدوره إلا أن شجاعته خانته. بعد أن تجولت سوسن قليلاً بين الكتب، وقفت خلف الكرسي الذي كان يجلس عليه خالد وسألته: «هل يمكنك لأجلي أن تقتل كاميراني سلمى ومنصور

إبراهيم؟». صُعق خالد آمون بهذا السؤال، لم يعد يعرف إلى أين تريد أن تصل به هذه الفتاة وماذا تريد وإلى ماذا تريد أن تصل؟ لم يكن يعرف بما يجيب بالضبط. عدّل قليلاً من معطفه الرمادي الرسمي، سمح لجيده أن يرتخي في عمق الأريكة، فقال بدون إرادته: «أنا حاقد على كليهما، كم أتمنى لو أنهما لم يُخلقا، سأبقى أكرههما ما حييت، وأظن أنهما يحملان لي المشاعر نفسها».

كانت الكلمات تخرج من فمه مضمخة بالحقد، وهو بالذات كان مدهوشاً من كمية الحقد التي تصبغ كلماته. كان واثقاً أنه يستطيع قتل كليهما. منذ اللحظة التي سمع فيها بهما شعر أن في داخله طاقة هائلة للقتل، ولكن لم يحدث أن قال مثل هذه الكلمات حتى في دخيلة نفسه. كان واثقاً أن كلماته تلك قد صعقت سوسن فِكرت، لكنه شعر بسكينة عميقة. كانت تلك حقيقة كامنة في أعماقه. كان واثقاً أن سوسن فِكرت قد قرأت في وجهه النية على القتل وحرّكت في داخله رغبته الدفينة بالقتل، ومن يعرف فقد يكون لذلك الجواب أثراً في تحسين صورته في عيني سوسن فِكرت. شعر أن كلماته تلك قد ساعدت سوسن فِكرت على فهمه بشكل أعمق وأوضح، وأنه أقوى، ولكن رغم كل ذلك فلم يكن يتوقع من فتاة بكل هذه الرقة سؤالاً بكل تلك القسوة.

تجوَّلت سوسن قليلاً في الغرفة. بدت كأنها غير مبالية بأي شيء في العالم، كانت تشغل نفسها بالنظر إلى الكتب، وكانت

تتخلل كلماتها فسحات من الصمت العميق والممتد. ولما كانت عند باب الغرفة، نادت تلك الفتاة الصغيرة طالبة منها أن تحضر الشاي للضيف. كانت أسئلتها مختلطة جداً ومعظمها حول أمور لا يستطيع خالد آمون أن يقدم لها أي إجابات. لم تطرح عليه أي سؤال يتعلق بالثروة والعقارات والشقق المستقلة والذهب، بل تركَزت كل أسئلتها حول علاقته بالطبيعة، علاقته بالنجوم، رأيه حول الحياة على الكواكب الأخرى، اعتقاده في الحياة ما بعد الموت، وأسئلة أخرى مشابهة. لم يكن خالد آمون يعرف كيف يدير حوارات كهذه، شعر بنفسه ضعيفاً للغاية. كانت طريقة الفتاة في إلقاء الكلام وحركاتها الرقيقة قد ذهبت بلبّه تماماً. كان واثقاً لو أن شخصاً آخر في حالة أخرى سأله مثل هذه الأسئلة ذاتها لعرف كيف يجيب عليها بشكل أوضح، أما الآن وهو مأخوذ بسحر هذه الفتاة وروعة هذه المكتبة ورقة أجوائها وأنفاسها فلم تكن لديه طاقة للتفكير في أجوبة هذه الأسئلة الكبيرة.

وأخيراً كان السؤال الذي غيّر حياة خالد آمون وقلبها رأساً على عقب، ذلك السؤال الكبير الذي كان أكثر ما يشغل ذهن سوسن والذي كانت ستطرحه على كل من يتقدم طالباً يدها. قالت بصوت هادئ: «خالد آمون، اسمع... سأطرح عليك سؤالاً، ولجوابه أهمية عظمى في حياتي وحياتك. ثمة أشياء كثيرة في حياتي ومنها هذه القضية التي نحن بصددها متوقفة على إجابة هذا السؤال: لو أنني أرسلتك في سفر إلى مكان

بعيد، بعيدٍ جداً عن هذه المدينة، سفر يستغرق عدة أعوام، سفر ستعود منه دون أي ضمانة أنني سأكون زوجتك أو أنني سأكون لك أو أنني حتى سأكون ما أزال على قيد الحياة، فهل ستذهب؟ فكر في هذا الأمر جيداً، حين ستعود لن تكون متأكداً أنني سأكون زوجتك أم لا، سأتزوج بك أم لا، فهل ستذهب أم لا؟». أراد خالد آمون أن يقول شيئاً ما، لكن سوسن قاطعته بالقول: «كلا يا خالد آمون، لا أريد منك الآن أي إجابة، إنه سؤال يتطلب تفكيراً... كثيراً من التفكير، لهذا استدعيتك اليوم. خالد آمون امض إلى بيتك، بإمكانك أن تمضي عدة أيام أو عدة أسابيع في قرية ما أو في أي مدينة أخرى أو حتى في فندق في بغداد وتفكر في الموضوع، امضِ الآن، ومتى استقر رأيك على إجابة نهائية فاكتبها في ورقة وأرسلها إليّ مع شخص ما، أما الآن فأريدك أن تفكر في ذلك وحدك».

بدا خالد آمون وهو خارج من منزل فِكرت گولدانـچـي متعباً وشاحب الوجه. رأى الجميع مسحة اليأس الرهيب التي كانت تصبغ وجهه. وطوال سيره في الشارع كانت كثير من الأنظار الخفية تراقبه من بعيد. وفي رأس الشارع، توقف كمن فقد طريقه. ربما كانت برودة الشتاء السبب في الرعدة التي اعترته. وفجأة، وكأنه أراد أن يختفي عن الأنظار، غيّر طريقه واتجه شمالاً. وفي شارع صغير وضيق، توقف وأوقف سيارة أجرة وركب بتردد بالغ. تحدث إلى السائق وهو ما يزال تحت تأثير مشاعر الدهشة. لم يكن أحد يعرف ما الذي كان يدور في

ذهنه في تلك الساعة. ولا أحد حتى صبيحة اليوم التالي سمع حرفاً مما جرى في تلك المقابلة.

بعد أربع وعشرين ساعة حين بدأ منكوري باباگوره بسرد الحكاية، فهم الجميع ما الذي جرى بالضبط بين سوسن فِكرت وخُطّابها الثلاثة.

١٨

في قبو فندق «باوه جان»، قص علينا منگوري باباگوره الحكاية كلها، وقف في وسطنا بقفاه المنحنية وقال بصوته الأخن:

-كما تعلمون جميعاً، فإن كاميراني سلمى كان الشخص الأخير المقرر أن يذهب لمقابلة ابنة گولدانـچـي، وكان الخاطبان الآخران قد سبقاه. فأقسمتُ لنفسي بقبور أمواتي أننا قد هُزمنا، وبشرف جميع من نحبهم ظننتُ أن الفرصة قد فاتتنا، ولولا ذلك لما وضعتنا الفتاة في الترتيب الأخير. ثلاثة أيام وأنا أسمع أخباراً سيئة، ثلاثة أيام وأنا لا يقرّ لي قرار. كان الجميع يقول إن عائلة گولدانـچـي قد حسمت أمرها لصالح خالد وكان الجميع يتحدث وكأن المسألة منتهية. وحين بلغني أن الآمونيين قد وسّطوا المحافظ في الموضوع أصابني يأس رهيب... وأي أمل يمكن أن أرجوه بعد ذلك، وأين أنا من المحافظ؟ ولكن لا أحد يحمل همَّ كاميراني سلمى سواي... وأنا لستُ ذلك الشخص الضعيف. ولكن لو أنهم

قد بتّوا في الأمر وكانت الفتاة راضية بقرارهم ذاك فقد انتهى الموضوع بالفعل، ولا يمكن صيد الجِمال في جبال قنديل كما تعلمون... أليس كذلك يا أحبتي. كان يوسف كَويار يقول إن الرجل الحقيقي لا يدخل حرباً خاسرة.

سرت جلبة وسط الجمع وعلت أصواتهم: «هيا يا منكور، قل لنا يا رجل ما الذي قالته سوسن لكاميراني سلمى؟». ولما كان منكور يعلم أن كل ما يقوله سرعان ما سيصبح على كل لسان في المدينة، فقد تابع بحماسة كبيرة:

- حين مضى كاميراني سلمى إلى زيارة تلك العائلة، كان قلبي على كف يدي. لقد رافقته ولم أتركه إلا أمام باب منزل فِكرت گولدانچي. كان الوقت ليلاً. أقسم بشرف جميع الملائكة كان البرد ينخر عظامي وكاميراني سلمى لا يشعر به، لم يكن يبالي بالبرد مطلقاً. كنتُ أشفق عليه... لا يغرّنّكم ما هو عليه، فليس له أي تجارب سابقة مع النساء، وفي مسائل كهذه فإن كل لقيط منكم يبرع فيها أكثر منه. كان الفتى خائفاً وسعيداً في الوقت نفسه. حين نظرتُ إليه وهو أمام الباب، بدا لي وسيماً بشكل غير مسبوق... ولا تسألوا، لقد كانت وسامته تلك دون شك من النوع الذي يجب أن تغفر له النساء جميع ذنوبه، وتعلمون أن الرجل القبيح لو كانت ذنوبه بحجم نملة فإنها في عيون المرأة تكون كالجبال، ولكن وحده الله يعلم كم هن متسامحات مع الرجل الوسيم... وحده الله يعلم. حين ولج في الداخل كانت عيناي ممتلئتين بالدموع لأجله،

لقد كنت أريد أن أكون معه لأكون في عونه... ولكن الشرط كان أن يأتي الخاطب منفرداً ليس برفقته أحد، ومن يخرق هذا الشرط يفقد فرصته.

صرخ فيه الجميع بصوت واحد: «هيا يا منـگور، نريد أن نعرف ما الذي جرى في منزل فِكرت گولدانـچـي... هذا ما نريدك أن تطلعنا عليه. وكفَّ عن حشو كلامك بكل هذه الإضافات والكلام الفارغ». فتابع منـگور:

-اسمعوا، حين ولج كاميراني سلمى في البيت... أنتم تفهمون ما أعني، حين أصبح في الداخل، لم يكن في استقباله فِكرت گولدانـچـي، بل فتاة جميلة أشارت له بأن يتبعها، وصعدا معاً عبر درج جميل إلى غرفة في الطابق العلوي. أنا شخصياً سبق أن رأيت ذلك الدرج، لقد رأيته وأعلم كم هو جميل وأنيق... وأخيراً وجد كاميراني سلمى نفسه داخل مكتبة كبيرة. وكما روى لي، فقد كان فيها آلاف الكتب، مجلدات ضخمة. في تلك الغرفة، استقبلته سوسن، كانت ترتدي ثوباً أصفر تتخلله خطوط بيضاء. وبكل احترام سلّمت الفتاة على كاميراني سلمى، وباحترام زائد طلبت له الشاي والفواكه. قالت لكاميراني سلمى: أنت مولود في مدينة صغيرة ولو أنك ولدتَ في مكان آخر من العالم ما كنتَ لتطعن شخصاً من أجل فتاة مثلي، آنسة مريضة مثلي. لقد وبخت سوسن كاميراني سلمى توبيخاً شديداً ولكن، بحسب ما فهمت من كلامه، أن كل ذلك الزجر والتوبيخ إنما كانا من باب المعاتبة والمحبة. قالت الآنسة

الصغيرة من جملة مآخذها على كاميران إنه لو كان مطّلعاً على اتساع هذا العالم لما رفع سكينه في وجه أحد... اسمعوا ما أقول، في تلك اللحظة بالذات، نهضت سوسن وسحبت من المكتبة أطلساً ضخماً يحتوي على معلومات وصور كل ما على الأرض من أصغر قرية إلى أبعد كوخ في العالم، وراحت التعيسة تشرح لكاميراني سلمى جاهدة عن رحابة هذه الدنيا. أطلعته على جميع البحار الكبيرة، جميع الممالك، بعض المدن العجيبة التي ما زالت تحتفظ ببعض الأطلال القديمة. ثم إنها سحبت كتاباً آخر عن السفن القديمة وطرائق صناعتها وأخذت تطلعه عليها. أما كاميراني سلمى الذي كان العشق يقطر من مؤخرته فقد جعلته رقة الفتاة ولا حول له ولا قوة. حين أظهرت الفتاة كل تلك الرقة واللباقة والأصالة العائلية، انهار كاميراني سلمى... في الحال، تخاذلت ركبتاه ووقع أرضاً وشرع بالبكاء كطفل صغير، أخذ يتوسل إليها أن تقبل بالزواج به لأنه لا يستطيع أن يتخيل مطلقاً أن يراها زوجة لسواه. قال لها: أنا لست غنياً، أنا مجرد مقامر، حامل سكين وغد، شقي، ولكني معك سأكون زوجاً صالحاً. ولكن وبدون أن تضطرب الفتاة وكأنها كانت قد هيأت نفسها لكل ذلك، أمسكت بيده وأنهضته... أقسم بشرف أمي أن هذا ما فعلته، هي بذاتها أمسكت بيده وأنهضته، ولوقت طويل بقيت أيديهما متشابكة... انظروا، كان «جمال عنبر»، وليذكره الله بالخير، يقول لو بقيت يدك في يد فتاة مدة دقيقتين فاعتبر الأمر منتهياً، يعني أن الأمر محسوم. لقد قال لي كاميراني سلمى إن يد الفتاة

بقيت لأكثر من دقيقة في يده.

صمت منـگور هنيهة فصرخنا به كلنا، نحن المجتمعين في قبو الفندق: «نعم... وبعد ذلك يا منـگور، ما الذي جرى؟... هيا». فتابع يقول:

- كان يوسف كَويار يقول: القتال يبدأ بالسؤال وينتهي بالسؤال، وقد انتهت ليلة كاميراني سلمى تلك بشيء لن تتوقعوه مطلقاً، شيء لا يمكن أن ينتظر أحد حدوثه. طرحت الفتاة سؤالاً عنى كاميران وقالت له: هل أنت مستعد أن تذهب في زيارة إلى مكان بعيد جداً، سفر إلى بلاد أخرى قد يستغرق عدة سنوات وبشرط أنك حين تعود لا شيء يضمن لك أنني سأقبل بالزواج بك، أو سأستطيع الزواج بك، أو أنني سأكون ما زلت على قيد الحياة؟

هتف أحد الحاضرين: يا إله الكون، إلى ماذا تريد أن تصل هذه؟ إلى أين تريد أن ترسل بهذا الشقي. وعقّب آخر: ما الذي يدور في رأس هذه الفتاة يا منـگور، قل لنا ما الذي ترمي إليه هذه؟

فتلقف منـگور السؤال على عجل وأردف:

- وها هنا بالذات، قام كاميراني سلمى بتصرف حكيم لم أكن لأتوقعه منه، فقد التفت إلى ابنة گولدانـچـي وسألها: قبل أن أجيب على سؤالك، اسمحي لي يا سيدتي أن أسأل هل وجَّهتِ

هذا السؤال عينه إلى منافسيَّ الآخرين، أم أن سوء حظي قد جعله من نصيبي أنا وحدي. فأقسمت له الفتاة بالأرض والسماء أنها حتى الآن لم تميّز واحداً من خُطّابها عن الآخر، وأن الثلاثة عندها سواء، وأنها لم تختر واحداً منهم بعد، وأنها قد طرحت هذا السؤال ذاته على الجميع، وأن هذا الشرط هو الفاصل الوحيد في هذه القضية. ثم إنها رجته أن يفكر جيداً قبل أن يقول لها إجابته. ما رأيكم... ها... هذا كل ما حدث. وأقسم بشرف الأولياء جميعاً أن كاميران سلمى قد بقي وقتاً طويلاً لا ينبس بشيء، وأنا الذي قضيت كل ذلك الوقت أنتظره في الخارج رغم ذلك البرد القارس. ما لم أكن لأتخيله كان هذا الذي رويته لكم. كنت أتصور أنها ستسأل الفتى المسكين عن بيته وسيارته وعمله ومورد رزقه لتوبخه بعد ذلك بعبارات من قبيل «لم يكن ينقصني إلا أن يأتي صعلوك بائس مثلك ويطلب الزواج بي»، أما أن تسأله سؤالاً كهذا الذي ذكرته لكم فلم يكن ليخطر لي على بال.

فسألناه بحماس، نحن المجتمعين في قبو فندق باوَه جان: «طيب يا منكور، وما قولك أنت، ما الذي تفهمه أنت من هذه المسألة، ما هو رأيك؟».

فسحب منكور كرسياً وجلس أمامنا بالضبط وقال: «رأيي هو أن هذه الفتاة مختلفة عن جميع فتيات هذه المدينة. ليست من ذلك النوع الذي يرمي نفسه من شدة اللهفة عند قدمي أول خاطب. في رأسها أشياء لا يمكن لأمثالنا فهمها. وما زال الوقت

مبكراً على معرفة حقيقة الأمر، ولكن المهم في هذه المرحلة أن أحداً من الخُطّاب الثلاثة لم يحصل بعد على شهادة النجاح في هذا الامتحان. الفائز الوحيد في كل هذه اللعبة حتى الآن هي ابنة گولدانـچـي الماكرة».

١٩

فكَّر منصور أسرين كثيراً في تفاصيل مقابلته تلك، وقارنها بجميع تلك المعلومات التي كان «ساقي محمود» قد جمعها له مما سمعه من أحاديث السوق بشأن مقابلات خصومه. وكان كاميراني سلمى، والآمونيون كذلك، قد قصّوا في كل مكان تفاصيل ما جرى مع صاحبهم في مقابلة سوسن فِكرت. أما ساقي محمود وبعض مستشاري منصور الآخرين فقد كان من رأيهم أن تبقى مجريات مقابلتهم طيِ الكتمان، لأن من شأن ذلك أن يبث في معسكر الخصوم شيئاً من التردد والاضطراب فيدفعهم ذلك إلى الوقوع في الأخطاء.

دُهش منصور في ليلة المقابلة حين علم أن سوسن كانت قد سمعت أغنية ساقي محمود التي أنشدها عنه، كما كانت قد قرأت قصيدة مصطفى هجار. كان معظم حديثها مع منصور عن «اتساع الكون»، عن الجزر البعيدة التي تغطيها الأشجار من أدناها إلى أقصاها، عن المروج الخضر التي لا تكاد سماؤها تُرى لكثرة طيورها المحلقة. ولما لم يكن منصور من

أولئك العشاق الذين يتقنون الكذب فقد قال لها باحترام بالغ: «آنسة سوسن، اتساع الكون يخيفني بشدة، أنا من الأشخاص الذين تعجبهم كثيراً الحياة في هذه المدينة ولا أفكر مطلقاً في الابتعاد عنها». قالت سوسن: «كم هو بائسٌ القلب الذي لا يرى اتساع هذا الكون». لكن منصور كان عاشقاً طفولياً، ولذلك فقد أجاب: «في الحقيقة، سيكون العالم واسعاً وكبيراً فقط حين تكونين أنت إلى جانبي، وخلاف ذلك فالأرض كلها لن تكون شيئاً مذكوراً». لم تجد تلك الكلمات أي صدى في نفس سوسن گولدانـچـي، وكان من الواضح أنها على خلاف جميع الفتيات الأخريات لا تأبه كثيراً لكلام عاطفي كهذا، ولذلك جاء جوابها: «وهذا هو سبب محبتك لي، هو أنك لم ترَ من العالم شيئاً، لم ترَ شيئاً عن قرب من تلك المدن البعيدة والحدائق والشعوب الأخرى. العشق كلمة عقيمة وفارغة إذا أنت لم تطّلع على ما في هذا العالم الواسع من فرص كبيرة أخرى لحياة أخرى وعشق آخر. عليك أن ترى مدناً جديدة وتتعرف إلى نساء أخريات، وعندها ستعرف هل تحبني في الحقيقة أم لا». كانت ابنة فِكرت گولدانـچـي مؤمنة أن الرجال إنما يتزوجون ليغمضوا أعينهم عن اتساع العالم ولا يجربوا أي مشاعر أخرى. لم يكن منصور، من خلال لقاءاته القليلة الماضية بسوسن، ليعرف شيئاً عن هذا الجانب القاسي لهذه الفتاة الرقيقة، فلذلك حين كان يتأملها وهي جالسة أمامه بثوبها الأصفر تتحدث بكل هدوء وسكينة، شعر أن هذه الفتاة غير مستعدة للزواج، عرف بتجربته أن الفتيات المستعدات

للاقتران يكون فيهنّ شيء ما ليس في سوسن. إن برودة سوسن وهدوءها مما يتناقض تماماً مع ما يكون عادة لدى الفتيات الراغبات في الزواج من ذهول وحياء، مكاشفات غير متوقعة، انبساط مفاجئ أو انقباض مباغت. وفي تلك المقابلة، طرحت ابنة گولدانـچـي على منصور السؤال عينه الذي طرحته على الآخرين.

لم يعد منصور يعرف ما الذي عليه فعله. شعر، وهو عائد، أنه يعشق هذه الفتاة بشكل غريب يقترب من حد الجنون، يحبها إلى حد أنه مستعد أن يجلس فينتحب ساعات من أجلها. لكن الفتاة كانت تبدو له، من جهة أخرى، غامضة معقدة وبعيدة المنال، فتاة يجذبك كل شيء فيها، رقتها المفرطة، نحولها وشحوبها ونظراتها الذابلة المريضة. ومع ذلك ففيها شيء ما غامض، شيء يدفعك إلى التفكير أنك إزاء فتاة باردة ولا مبالية بأي شيء في الدنيا.

كانت الساعة الخامسة مساءً والظلام في أوله، حين رأى «ساقي محمود» منصور على تلك الحال، فأشفق عليه كثيراً. أراد أن يجلس إليه في مكان هادئ. ولذلك بدل أن يصطحبه إلى المنزل، أوقف سيارة أجرة وأمر السائق أن يذهب بهما إلى «قاعة فرقة هرزال للموسيقى الشعبية». كان الاضطراب واضحاً على هذا الفتى البائس، لم يكن يعرف أي قرار عليه أن يتخذ. كان يشعر في داخله أن الفتاة قد استبعدته تماماً، وأنها لا تصلح له مطلقاً. علينا أن نضيف هنا أن تدخل ساقي محمود

في مسألة منصور إنما كان إكراماً لوالده إبراهيم أسرين، ومن جهة أخرى بسبب مقته الشديد والقديم لمنـگوري باباگوره وعصابته من الأشقياء وحملة السكاكين. في آخر سنوات الخمسينيات ومطلع الستينيات وحين كان كلاهما شاباً، حدث أن تعاركا أكثر من مرة في الحفلات. كان منـگور في تلك السنوات يرى نفسه عدواً لدوداً للشيوعيين، وكل الناس كانت تعرف أن ساقي من أنصار الشيوعية. لم يستحِ منـگور أن يواجهه برأيه فيه «أنت مجرد لوطي شيوعي». لكن التربية الحزبية وروح الفنان في داخله منعتاه من الرد عليه بالمثل. صحيح أنه بعد انهيار ثورة البارزاني قد هرع نحوه، في إحدى الحفلات، وعانقه طالباً الصفح عما مضى، إلا أن ساقي لم ينسَ قط تلك الإساءة. أما الآن فلا «ساقي محمود» بقي شيوعياً ولا «منـگوري باباگوره» عاد إلى الحديث في السياسة. لكن إصبع منـگور في قضية طعن ابن إبراهيم أسرين قد نكشت جراح ساقي وأيقظت في قلبه كل تلك الأحقاد القديمة من جديد. أما سؤال ابنة گولدانـچـي فكان هماً آخر في قلب ساقي. كان على وجهه بشاربه الأبيض وعينيه الزرقاوين مسحة عميقة من الحزن والتردد. قال له منصور: «إن عشقي لتلك الآنسة عظيم للغاية، ولو أنك رأيتها اليوم كما رأيتها أنا، وعاينتَ رقتها عن قرب، ولمستَ ذلك الضعف السحري في عينيها ونبرة صوتها وقيامها وقعودها، لعرفت عما أتحدث لك بالضبط. إنها روح عجيبة، كأنها أخذت من الماء صفاءه ومن الضباب رقته ومن الظلمة أسرارها وخفاياها. حين تقع عيناك عليها يستحيل ألا

تحبها. سألتني: هل يمكنك في سبيل محبتك لي أن تُقدم على قتل شخص ما كما فعل كاميراني سلمى؟ فأجبتها: إن عشقي لك يحول بيني وبين التفكير في أذية أي أحد. فعادت إلى سؤالي: حسناً، فإن اضطررت من أجلي أن تذهب إلى الحرب بمثابة جندياً، أن تفقد صوابك وتشارك في مجازر ضد الإيرانيين، أتذهب أم لا؟. لم أعرف بمَا أجيبها. وهي قد شعرت بحيرتي تلك فقالت: إن من يدخل في لعبة كهذه عليه أن يعرف الإجابة على هذه الأسئلة وهل هو مستعدٌّ أن يموت في سبيل عشقه أم لا؟ مستعدٌّ أن يمضي إلى الحرب أم لا؟ مستعدٌّ أن يذهب في سفرٍ بعيدٍ أم لا؟ مستعد أن يظل عاشقاً ولو كان بلا أمل؟ ثم إنها أردفت بكل رقتها: حسناً... تخيّل أنني طلبت منك أن تقتل كاميراني سلمى وخالد آمون معاً فماذا يكون جوابك؟ كانت الكلمات تنساب من خلال شفتيها الناعمتين بشكل ساحر وكأنها كانت تتحدث عن شيء آخر غير القتل. وبدون أن أعرف أو أفكر أجبتها بالجواب ذاته الذي يجيب به عادة جميع العشاق عبر العصور: إن عشقي إياكِ أهم عندي من نفسي ومن الدنيا بأسرها، وأرجو من الله ألا تجعلي من هذا شرطاً. ومع ذلك فلو علمتُ أن في ذلك تأكيداً لحبي لك فأنا مستعد لفعل أيّ شيء مهما كان. لا أعرف يا صديقي كيف خرجت تلك الكلمات من فمي، ولكن عليك أن تصدق أن الكلمات في تلك اللحظة إنما كانت تخرج من أعماق قلبي».

كان منصور في تلك الليلة في أضعف حالاته، يتكلم بصوت يختزن نبرة هائلة من الاضطراب، وفي تنفسه وحركات يديه من الضعف ما يرثى له. كان من الواضح أن رياح الشتاء تلاعبت بشعره، وكان منظره يوحي كأنه قد عبر لتوّه من مكان شديد البرودة، وكأن ثلجاً كان يهطل في داخل روحه. صحيح أنه كان قد عاد للتو من أهم مقابلة في حياته، لكن ثيابه كانت متواضعة للغاية، وكانت لحيته قد نبتت قليلاً، والتمزق والاضطراب يشوب كل شيء فيه. كان ساقي محمود راغباً في فعل كل ما بوسعه من أجل بث القوة فيه وإعادة السلام إلى هذه الروح المضطربة، لكنه لم يعرف من أين يبدأ. كانت قاعة فرقة هرزال مكاناً بارداً ولم ينجح الموقد الصغير الذي أشعله ساقي في أن يبث الدفء في أرجائه. شعر منصور أسرين أن برودة المكان تضاعف الهم في قلبه، وذكّرته تلك البرودة بتلك التي كانت في قبو «خدرو دويار»، حين شعر بذلك الألم الذي تسببت به سكين كاميراني سلمى وهي تنغرز في صدره. ورغم أن ساقي محمود كان مغنّياً وغالباً ما كان يؤدي أغانيه برفقة الناي والطبل ومعظم أغانيه صاخبة وحماسية، إلا أنه كان في حياته الشخصية رجلاً هادئاً. مدَّ يده فأخرج من مكان ما قارورة خمر كان قد شرب منها شيئاً قبل ذلك وقال: «قد تساعدني هذه في التفكير بشكل أفضل، ما لم يظهر السُّكر في عيني ساقي محمود فلن يتلفظ بشيء مفيد. اسمع يا بني، أنت الآن رمز من رموز العشق والتضحية. في كل عصر وأوان لا بد أن يظهر شخص يكون رمزاً للعشق والتضحية. إن تلك الحادثة

المشؤومة في قبو خدرو دويار قد صنعت منك شخصاً آخر. إن هذه المدينة بفتيانها وفتياتها في حاجة إلى شيء ما، شخص ما يتحدثون عنه ويقتدون به... والآن إن قلتَ عن نفسك «إنني عاشق وحسب، وسأقعد في بيتي، إن عشقي لا يتعدى حدود باب داري وهذا يكفيني» أتعرف ما الذي سيحدث؟ سيتبخر كل ذلك السحر الذي يرافق اسمك الآن».

ملأ ساقي لنفسه كأساً ثم رفعها وأردف: «ابنة گولدانـچـي ليست من النوع الذي يبحث عن زوج. معظم بنات هذه المدينة لا يرغبن إلا في الزواج، أي زوج والسلام... لكن هذه الفتاة ليست من ذلك الصنف. ولو أنك أظهرتَ لها أنك متردد وغير قادر على تقديم تضحيات كبيرة في سبيلها فستفقدها إلى الأبد». ثم عبَّ رشفة أخرى، فأشعل سيكارة وتابع: «ولكن يا منصور أسرين، قل لي الحقيقة... أتحب هذه الفتاة بالفعل؟». فأجابه منصور بنبرة حزينة: «أحبها إلى درجةٍ أخشى معها أن يخونني طالعي وتقصر عنها طاقتي. وأخشى أن يفضح هذا العشق كل عجزي وضعفي. أخشى أن أدخل في حالة من الضعف أعجز معها عن القتال من أجلها، أن أمتلئ بالعشق حتى لا تعود في روحي ذرة من الحقد الضروري لكل عاشق». مدَّ ساقي يده فألهب الموقد قليلاً، ثم قال والسيكارة ما تزال بين شفتيه: «القضية لم تعد قضية عشق، إنها حرب كبيرة. منذ أن سمعت بحكايتك أدركتُ ذلك وقلتُ لنفسي إنها ليست مسألة حب بل مسألة حرب... كل طرف يحارب بطريقته. منـگوري

باباگوره وعصابته سلاحهم هو السكاكين، ذلك القرد لا يفقه في شيء إلا في الضرب بالسكين، إنه مجرد كلب ضارٍ لا ضمير له، ولو أنك سألتني لأخبرتك عن أفعاله في تلك الأيام التي لا يعلم بها غير الله، كم عذَّب أهل هذه المدينة وكيف... أتفهم ما أقول؟ لقد حاولوا قتلك وهذا ما لن أنساه أبداً، أنت ابن أعز صديقٍ لي فكيف يجرؤ شمبانزي قذر مثل منكور على طعنك بالسكاكين... هكذا بكل سهولة ويسر... وعلى ماذا؟ فقط لأنك أحببت فتاة تشبهك. عصابة القرود تلك لا تتقن من شيء في الدنيا سوى الطعن بالسكاكين. أنا واثق أن ابنة فِكرت گولدانـچـي تفكر الآن أنها قد جاءت إلى مدينة جميع رجالها مثل الكلاب... أنا لا ألومها البتة لو فكرت بهذا الشكل ورأت فينا جميعاً مجموعة من الغيلان والعفاريت. تلك الآنسة، على ما فهمتُ منك، قد نشأت وسط الكتب والمعارف والعلوم، ولم يسبق لها من قبل أن رأت سوق الكلاب هذا ولم يخطر لها أن شخصاً قد يأتي هكذا ويقلب كل شيء إلى حفلة قرود، ويجعل من مسائل النساء والزواج حفلة عراك بين قطيع كلاب».

كان ساقي محمود إذا غضب تلتمع عيناه أكثر. أصغى منصور باهتمام إلى ما قاله ساقي ثم أجابه بحزن: «أعلم أن عليّ أن أكون أقوى من ذلك، بل أن أكون ضارياً، أن أرفع قبضتي وألوِّح بها، وإن لم أفعل فلن أحصل على ما أريد». تحمَّس ساقي أكثر من ذي قبل. وضع سيكارته وزفر كمن يحاول تنظيف صدره قبل أن يردف: «هؤلاء الآمونيّون... أنت

تفهمني، هم ليسوا أكثر من عبدة مال، إنهم عشيرة تصلي على سجادة الدرهم والدينار، والله وحده يعلم كم هم مقرَّبون من رجال الدولة وكم هي عميقة علاقاتهم مع أجهزة الأمن. أنا مجرد مطرب يسير ببطء نحو آخر عمره، ولكن عندي عقل، وحين أؤدي الأغاني أتفحص جميع الحاضرين بعين ثاقبة، أنت تفهم ما أعني، في الحفلات مهما بلغت بي الحماسة فإنني أظل محتفظاً بعقلي. الناس يقولون إن صوتي قد شاخ، إن نبرتي لم تعد كالسابق ولم أعد أقوى على النهوض كما كنتُ... كل ذلك صحيح لكن القضية هي أنني لا أغني دائماً وفق هواي، وحين يستدعيني أمثال أولئك القرود لأغني في حفلاتهم فإنني أكون مضطراً إلى ذلك لتدبير قوت يومي... لا أغني لهم من صميم قلبي، أنا إذا لم أجد ما يحرك مشاعري لا أستطيع أن أغني بصدق. أنا أراهم... أرى جميع هذه العشائر المزيَّفة في هذه المدينة. معظم نسائهم المصونات ورجالهم الصالحين مقربون من رجال الأمن العرب... لا ينبغي لسوسن أن تسقط في شباكهم».

في كل مرة كان ساقي محمود يتكلم فيها من قلبه كانت أعماقه تتألق بطهارة عجيبة، وقد أسبغ عليه شعره الأسود المختلط ببعض البياض، وتلك البحّة الصغيرة في صوته الناتجة عن تدخينه وطبيعة طعامه، وذلك الانحناء الناتج عن تقدمه في السن، خصوصية فائقة ومفرطة. لقد أمضى حياته مرتدياً الزي الكردي، ولم تكن رائحة التبغ والسكائر والخمر

تفارقه، عرفه الجميع مطرباً لا يختلج وجهه بابتسامة أو ضحكة أثناء غنائه. وكلما كانت الحماسة تذهب برؤوس مستمعيه، كان يعلن عن استراحة يتناول خلالها جرعة من زجاجة الخمر التي كان حريصاً على أن تكون موجودة دائماً خلف الستارة التي كانوا يعلّقونها في خلفية المنصّة عادةً. صحيح أنه كان مدمناً على الشرب، ولكن لم يحدث البتة أن اشتكى أحد منه أو قام بعمل سيئ وهو ثمل، غير أنه كان سريع الانفعال ولا يعرف المرء متى يصعد الدم إلى رأسه، والجميع كان يقول إن الشيخوخة قد جعلت ساقي محمود أجمل من ذي قبل، فتلك التجاعيد العميقة في وجهه قد خلعت عليه سيماء مطرب حقيقي. في تلك الليلة قال: «في أغلب الحالات، نحن لا نعرف ما نريد بالضبط، لكن ابنة فِكرت گولدانـچي تعرف ما تريد. من الطبيعي ألا تصدق ذلك مني الآن، لكن هذه الفتاة تبصر شيئاً ما قد فقدناه نحن من حياتنا... هذه الفتاة تعرف ما تقول وما تسأل. إنها أول امرأة أراها في حياتي تعرف ما تريد. لقد أنفقتُ كل عمري في هرج هذه القرود، وكذلك معظم أهالي هذه المدينة لا يمتلكون عقولاً عارفة ولا يعرفون ما يريدون. في هذه الحفلة القذرة لا أحد يعرف لما يرقص... لكن سوسن گولدانـچـي من صنف آخر، ولذلك فإن أصغر خطأ من طرفنا قد يجعلنا نخسر ودها نهائياً. هذه الفتاة تفتش عن لحنٍ ما بعينه، ولا ينفع البتة أن نعزف لها لحناً آخر غيره. يجب أن نعرف ما النغم الذي تشتهيه أذنها، وإن أخفقنا في ذلك فنحن أول الخاسرين».

حتى وقت متأخر من تلك الليلة، استمر الحديث بين الرجلين، واستقر رأيهما في النهاية على أن يقول منصور لسوسن إنه مستعد أن يذهب من أجلها إلى أبعد نقطة من الأرض ودون أن يأمل أو يشترط عليها الزواج به عقب عودته.

كانت تلك هي الإجابة السحرية التي تنتظرها سوسن، والتي كان على منصور أسرين أن يقولها من كل قلبه.

٢٠

في ذلك الأسبوع، كانت المدينة تترقب على أحر من الجمر وقوع أحداث هامة، وكنا جميعاً منشغلين بشكل أو بآخر بتحليل معاني كلمات ابنة گولدانـچـي. ولكن في تلك الفترة لم يصدر عن العائلة أي شيء ذي بال. شَهَد أكثر من شخص أنه رأى فِكرت گولدانـچـي مع ابنته في مديرية البريد مرتين وكانا يطلبان الاتصال برقم خارجي. وفي المرتين، كانت سوسن ترتدي ثوباً أبيض وتضع حول عنقها عقداً أسود. وفي المرتين، حضرا بسيارة قديمة، نزلا عند مديرية البريد ثم عادا بالسيارة نفسها. في ذينك الأسبوعين، كان الجميع يترقب أن تعود سوسن إلى سابق عهدها بالخروج برفقة بنات عائلة گولدانـچـي إلى أسواق المدينة وشوارعها ومحلات بيع التحف فيها، ولكن يبدو أن جميع بنات عائلة گولدانـچـي قد أجّلن طلعاتهن بسبب البرد وهبوب العواصف في ذلك الفصل من السنة. حاول البعض، ممن كانوا يعدّون أنفسهم أصدقاء مقربين من العائلة، أن يستقصوا بعض المعلومات عن نيّات سوسن أو قراراتها من بعض معارفها، ولكن كل جهودهم ذهبت هباءً،

لأن لا أحد في عشيرة گولدانـچـي كلها كان يعرف بما تفكر سوسن، ولا حتى أختها پـروشه لم تكن تعرف شيئاً ذا قيمة مما يدور في رأس أختها. كل ما هناك هو أن سوسن، عقب تلك المقابلات، قد انسحبت إلى غرفة المكتبة وأصبحت تُفرط في شرب الشاي، وازداد اهتمامها بالمزهريات وأصبحت تستمتع أكثر فأكثر بالسكر والهيل. كانت تقضي معظم وقتها تعمل في المكتبة على بعض الخرائط الكبيرة، عشرات الموسوعات الضخمة والأطالس الخاصة بجغرافية جميع ممالك الأرض كانت مكوَّمة فوق طاولتها. كانت تحسب، باستخدام المسطرة والفرجار وبعض التقاويم القديمة أشياء لم يكن أحد يعرف ما هي بالضبط. لقد أصبحت آلام الرأس تدهمها أكثر من السابق، وأصبحت تفرط في تناول الحبوب وشحبت أكثر من السابق. كانت تقضي لياليها وحيدة حتى يغط الجميع في نوم عميق فتأوي بدورها إلى فراشها. طوال ذلك الأسبوع، كان فِكرت گولدانـچـي حريصاً على مراقبة جميع تصرفات ابنته بدقة، وكان، على خلاف عادته، قلما يخرج من البيت. لا شك أن برد الشتاء كان أحد الأسباب التي كانت تجعله يفضّل المكوث في البيت، ولكن بالتأكيد كانت رغبته في البقاء قريباً من سوسن، التي أصبحت تشكّل شيئاً فشيئاً لغزاً كبيراً حتى بالنسبة إليه، سبباً إضافياً. بعد مرور أسبوع، قرر فِكرت گولدانـچـي الصعود إلى غرفة المكتبة. في كل مرة كان فِكرت گولدانـچـي يقف فيها أمام ابنته، كان يتخيل أنه أمام دمية بلاستيكية هو نفسه من بثّ الروح فيها. عَلِم فِكرت بشأن الأسئلة التي طرحتها ابنته على

خُطّابها. بعد مرور يومين على تلك المقابلات، أوصت سوسن والدها أن يؤمّن لها عن طريق صديق له في إنكلترا، واحداً من أضخم وأهم القواميس الخاصة بالطيور في العالم، إضافة إلى بعض الأطالس الثقيلة القيّمة التي توضّح أماكن توزّع تلك الطيور. ولأن الوالد لم يكن يعرف بالضبط ما الذي تريد ابنته، فقد اصطحبها معه في اليوم التالي إلى مديرية البريد حتى تتكلم هي بنفسها مباشرة مع ذلك الصديق في إنكلترا وتطلب منه ما تشاء.

حتى تلك اللحظة، لم تكشف سوسن لوالدها شيئاً بشأن ما يدور في رأسها، وكان من الواضح أن الفتاة تريد بشكل قاطع أن تُبقي أشياءها الخاصة طي الكتمان. ولكن فِكرت گولدانـچـي أخذ يشعر يوماً بعد آخر أن الأمور قد تسلك منحًى خطيراً.

في تلك الليلة حين صعد إلى غرفة سوسن وجلس مقابلاً إياها على أريكته الجلدية المفضلة، لم يُظهر البتة أنه قد جاء بهدف أن يسمع منها شيئاً خاصاً. بدأ بقراءة عدة صفحات من كتاب قديم عن «ملوك بلاد فارس القدماء» قبل أن يتوجه إلى ابنته بالحديث قليلاً عن آخر أخبار الحرب العراقية الإيرانية. كان كل منهما يستمع على حدة من جهاز الراديو الخاص به إلى نشرات الأخبار. كانت لدى سوسن عادة الاستماع إلى نشرات الأخبار من الإذاعات الأجنبية، وهي عادة لطالما أثارت حفيظة والدها، لأن تلك العادة كانت خاصة بالرجال المسنين.

كانت سوسن مختلفة في كل أمورها عن أختها پـروشه

اختلافاً يليق بعدوَّتين لا أختين. كانت پروشه قد اختارت بذكاء عدم الإصغاء إلى الأخبار العالمية، فقد كانت فتاة رقيقة القلب جريحة الروح، لم تكن تحب الأخبار ولا أن تعرف ما الذي يحدث في العالم. وباستثناء تلك المجريات الصغيرة التي تدور حولها، لم تكن تعير اهتماماً لأي شيء آخر. منذ أن انتقلوا للعيش في المدينة، كان كل ما يشغلها هو تجميل ديكور المنزل والحفاظ على نظافة القطع الأثرية القديمة الخاصة بوالدها. كان التنظيف اليومي للمنزل والغسيل المستمر للستائر، والحفاظ على نظافة الباحة والردهة، جزءاً من طقوسها النفسية العميقة التي كانت تبعث البهجة في نفسها رغم تناقض ذلك العمل الشاق مع شبابها وجمالها. حين تذهب پروشه في جولة إلى السوق يكون كل اهتمامها منصباً على البحث عن الصحون الجميلة وموائد الطعام المميزة واللوحات الغريبة النادرة، ناهيك عن أنها كانت ما تزال محتفظة بجميع الثياب العسكرية وكذلك المدنية العائدة لزوجها الشاب وأخيها نظيفة كما هي في خزانة مخصصة كانت تسميها «خزانة الذكريات المرة». كانت پروشه حسّاسة للغاية، وكان أكثر ما يؤلمها ويدفعها إلى البكاء في كثير من الأحيان شعورها أن أختها الصغرى تتعالى عليها لأنها لم تقرأ مثلها كل تلك الكتب ولا تستمع مثلها إلى نشرات الأخبار ولا تعرف شيئاً عن تاريخ العالم، ولذلك فقد كانت سوسن لا تفوّت فرصة تعييرها بكل تلك النواقص. وكثيراً ما قام فِكرت گولدانـچي بمحاولات جادة ومستمرة لإصلاح الأمر بين الأختين ولكن دون جدوى.

في تلك الليلة، وبعد أن فرغ فِكرت گولدانـچـي من مناقشة ابنته في مستجدات أخبار العالم، سألها هل توصلت إلى قرار بشأن خطّابها فكان جوابها:

- إن أهم قرار توصلت إليه هو أن عليّ أن أمنح أولئك البائسين الثلاثة حريتهم. يجب أن ينسوني وينسوا هذه المدينة وهذا العالم الصغير الذي يعيشون فيه. الثلاثة يستحقون أن أساعدهم، إنهم يحبونني بشكل جنوني، ما زالوا فتية وقلوبهم نابضة بالدفء والحماسة، وأنا واثقة أن زواجي بأي منهم سيكسر قلب الاثنين الآخرَين، وهم يحبونني فقط لأنهم لا يعرفون شيئاً عن هذا العالم. وفي اليوم الذي سيتعرفون فيه جيداً إلى هذا العالم سيكفون عن حبي وكذلك عن كره بعضهم البعض.

كان فِكرت گولدانـچـي يفكر بعمق في ما كانت تقوله ابنته، ثم قال وهو يصالب بين ساقيه:

- لا تموت الكراهية في قلب الإنسان أبداً. إن قلب الإنسان قادر على الاحتفاظ بالكراهية أكثر من قدرته على الاحتفاظ بالحب. أعرف من خلال تجربتي في الحياة أن الحب يولد ويموت، لكن الكراهية لا تموت البتة، وإن ماتت فبصعوبة هائلة. قد تغيّر شكلها لكنها لا تزول.

عقبت سوسن بابتسامة مرة:

- سبب ذلك هو بقاء الإنسان في مكان واحد... گولدانـچـي،

إن بقاء الإنسان لوقت طويل في مكان بعينه ينمي مشاعر الكراهية داخل قلبه. إن الإنسان الذي يهاجر والذي يسافر ويطلع على رحابة العالم لن يكون لديه وقت لمثل هذه المشاعر التافهة.

- بالطبع يا ابنتي، إن معلوماتك عن الإنسان ليست عميقة كما يجب. الإنسان ليس كائناً جوّالاً، ومهما ابتعد عن موطنه لا يلبث أن يعود إليه. أخبريني: لماذا كان سندباد عقب كل سفرة يعود ثانية إلى بغداد؟ لماذا عاد يوليسيوس إلى بيته؟ أنت سمعتِ بهذه الحكايات منذ أن كنتِ طفلة... يعود الإنسان دائماً إلى حيث يكون الحب والكراهية.

وضعت سوسن كتابها جانباً ثم مسحت صدرها هنيهة كأنها كانت تستشعر ضيقاً في التنفس. سحبت نفساً عميقاً ثم لوحت بيدها كمن يحاول إبعاد شيء عن وجهه:

- گولدانـچـي، اسمعني جيداً... إن بقي أولئك الرجال الثلاثة في هذه المدينة فهم لا محالة سيشتبكون في صراع دامٍ. أنت تعلم كم يبغضون بعضهم بعضاً. يمكنني رفض الثلاثة معاً فأنا لا أميل إلى أحد منهم. أنا لا أقول لك هذا الكلام حياءً منك أو لأنك والدي، بل لأن قلبي بشكل ما خالٍ تماماً. الثلاثة شباب جيدون، ولدى كل منهم ميزة ما تجعله جميلاً وبإمكان الثلاثة أن يكونوا أزواجاً أوفياء. گولدانـچـي، أنا أؤكد لك أن الثلاثة أزواج صالحون ولكن من أجل نساء غيري... لبنات عمتي أو بنات عمي مثلاً، ولكن... گولدانـچـي، أنا مجبولة

من طينة مختلفة، ولو أنني الآن اخترت واحداً منهم فإنني بذلك أقتل الاثنين الآخرين حسرةً وغماً. قد تبقى معهم هذه الحسرة إلى النهاية، ولكن من الأفضل لهم أن يذهبوا، فقد يعثرون في بقعة ما من الأرض على ما يطفئ لهيب قلوبهم. لعل كلّاً منهم يلتقي، في جزيرة ما أو مدينة ما، بامرأة يحبها فيقيم معها في ذلك المكان وينساني نهائياً. لا أعرف هل سيعودون أم لا، ولكن من الأفضل لهم الآن أن يبتعدوا. هذا كل ما يمكنني القيام به لأجلهم... إبعادهم. لعلهم إذا ابتعدوا واطّلعوا على ما في هذه الدنيا الواسعة يعودون لي منها بهدية ما تسعد قلبي... أم إنك تراني غير مستحقة أن يسافر أحدهم من أجلي إلى مكان بعيد في العالم ويعود لي منه بهدية قيمة... ألا تراني أهلاً لذلك؟

مال گولدانـچـي برأسه وأجاب:

- بلى! بالطبع يا ابنتي، فأنت تستحقين ذلك. ولكني كنت أتساءل لماذا لا تتركين مسألة الزواج هذه وتسافرين إلى حيث تريدين بنفسكِ... اخرجي من بين جدران هذه المكتبة وانطلقي. أنا والدك وأعدك أنني سأتكفل بكل ما يضمن لكِ الوصول إلى حيث تريدين.

ودون حتى أن تفكر، أجابت سوسن في الحال:

- گولدانـچـي... أنا حين أناجي الله في بعض الأحيان أسأله: يا إلهي لماذا خلقتَ الأرض بكل هذا الاتساع، لماذا

كل هذه الممالك الكبيرة وهذه البحار التي لا حدود لها؟ لماذا على الإنسان أن يقضي حياته في هذا الكون الفسيح أسير بقعة صغيرة من الأرض، أسير منزل واحد، مدينة واحدة ومكان واحد؟ أعرف يا أبي أنني سأقضي كل عمري داخل هذا القفص ليس لي أجنحة. لا أريد التفكير كثيراً في الأسباب، ولكن انظر إليَّ... أنا مجرد فتاة مريضة وبلا جناح. إن فتاة مثلي لا تملك من الدنيا سوى أب تعِس وعجوز لا يمكنه رؤية هذا العالم... لا يمكنني أن أتركك وأترك هذه المكتبة وراء ظهري وأمضي بعيداً... لا أستطيع. ما أريده، بدلاً عن ذلك، هو أن أقترن برجلٍ تفوح منه رائحة العالم، رائحة هذا الكوكب. حين تلمس يدي يده، يجب أن أشعر أن تلك اليد قد لمست من قبل أزهاراً غريبة، أن أشعر أنه قد غسل وجهه من قبل بماء بحار بعيدة، أن أشعر وأنا ألمس صدره بعبق الجنان البعيدة يفوح منه... أن أشعر أنه قد عاش على هذا الكوكب بالفعل. إنني أشفق عليهم يا أبي ولذلك يجب أن يذهبوا... يجب أن يتركوا هذه المدينة خلفهم. ولو أنهم مكثوا حتى الممات في هذه المدينة الصغيرة فإن قلبي عندها سيحترق شفقةً عليهم... يتحطم قلبي أن أراهم مرتدين الزي العسكري ومتجهين إلى الحرب معتقدين أن هذه هي الحياة. إن من يدخل في حرب ولو يوماً واحداً فلن تفارقه رائحة البارود طوال حياته. أبي، منذ مدة طويلة وأنا أفكر في هذا الأمر، لو عاش هؤلاء هنا فما الذي سيحدث لهم؟ سينتهون موظفين صغاراً، أو أصحاب دكاكين يقضون أعمارهم مع المساحيق والعطور، أو أنهم سيقضون

نحبهم في شجار عبثي بالسكاكين. أبي، لقد فكرت في الأمر كثيراً ولا يمكنني ارتكاب هذه الجناية في حقهم، لا أستطيع أن أقضي عليهم بالسجن في حياة كهذه. إن ذهبوا في الغد أو بعد غد أو في أي يوم آخر فإن كل ما أرجوه من الله هو أن يسيحوا في الأرض حتى يكلّوا، وحتى ولو لم يرجعوا فإنني سأدعو لهم بالسعادة من أعماق قلبي. إنهم لا يدركون مدى تفاهة هذه الحياة التي يحيونها، لا أحد في هذه المدينة يعرف كم هي تافهة حياته فيها... لا أحد. ولكن يا أبي... إن مضى هؤلاء واطّلعوا على ما في هذه الدنيا فسوف ينسونني، وهذا ما أرجوه من أعماق قلبي. وحتى وإن لم ينسوني فسأكون سعيدة لأنني حينها سأكون متأكدة أنني أمتلك عاشقاً عظيماً، عاشقاً شاهد الدنيا والتقى بنساء جميلات ومع ذلك لم ينسني. وإذا أسكرتهم، في تلك المدن البعيدة، رائحة ترابها أو أشجارها، فعندها يا گولدانـچـي، ستتغير ألوانهم وحيواتهم وسيعودون إلى هنا أشخاصاً آخرين. أنا واثقة أن الكثيرين لا يفهمون ما أقول، لا هنا ولا حتى في الخارج، معظمهم لا يفهمونني يا أبي. ما يهمني هو نظرتهم إلي بعد أن يكونوا قد اطّلعوا على الدنيا، هل أنا تلك الفتاة التي يمكن أن يُخلص لها رجل طاف الدنيا ورأى ما فيها أم لا؟ هذا هو السؤال الأهم. لا أعرف كيف يمكنني قبول محبة إنسان لا يعرف عن الدنيا شيئاً؟

كان فِكرت گولدانـچـي يصغي إلى ابنته مذهولاً بما يسمع، فلم يحدث له أن سمع من قبل بامرأة تهتم هكذا بصورتها في

عيني حبيبها، امرأة تريد أن تعرف كيف يراها عاشقها بعد أن يكون قد طاف الدنيا ورأى ما رأى. كان أغرب امتحان يمكن أن يكرّس له المرء نفسه. كل اللواتي رآهن في السابق لم يكنَّ يولين صورهن كل هذه العناية، أو إنهن كنَّ راضيات بصورتهن الأولى ويعشن على ذلك طوال عمرهن. ولكن أفكار سوسن حول عجز الأشخاص الذين لم يروا الدنيا عن الحكم على أي شيء كانت أفكاراً غريبة. لطالما اعتقد فِكرت گولدانـچـي أن العالم مرآة كبيرة، وأن على المرء لكي يرى صورته فيها أن يلج في داخلها. مرآة لا يجب أن ننظر إلى صورنا فيها من جهة واحدة، ولكن علينا الذهاب إلى الجهة الأخرى والسباحة فيها. إن من يغوص في داخل المرايا يرى الأمور بطريقة مختلفة تماماً عن طريقة أولئك الذين لم يذهبوا إلى ذلك الطرف. لكن ابنته سوسن تعيش، منذ ولادتها، في تلك المكتبة ولا يمكنها التعامل مع الدنيا بشكل مباشر. لقد أصبحت مثله أسيرة تلك المكتبة الضخمة، ولا سجن أظلم ولا أمنع ولا أسمك جدراناً من هذا السجن. وكل من دخل هذا السجن مرة حكم على نفسه أن يبقى داخله إلى الأبد. قال في نفسه: «الكتاب هو السجن الوحيد الذي لا يخرج منه الإنسان». ثم فكّرَ أن ابنته تريد التعرف إلى هذه الدنيا بأسرها من خلال الكتب، وأنها تريد زوجاً شبيهاً بكتاب كبير حسبها أن تنظر في عينيه حتى تبصر العالم من أدناه إلى أقصاه.

في تلك الليلة قرر فِكرت بينه وبين نفسه أن ابنته، لكي

تعيش حياتها، ينبغي أن تخرج من ذلك السجن. وأن السبيل الوحيد لكي تعود سوسن شخصاً طبيعياً وتحيا حياة طبيعية في منزل طبيعي هو تدمير هذا السجن. بعد كل تلك السنوات، كانت المرة الأولى التي يشعر فيها فِكرت گولدانـچـي بكراهية تجاه مكتبته الضخمة، بدأ ينفر منها. شعر أن هذه المدينة قد قتلت في داخله حب الكتاب والرغبة في التعلّم. تأكد لديه أن لا جدوى من كل تلك العلوم والمعارف التي جمعها طوال حياته سوى أنها قد حبسته داخل سجن كبير. في هذا المدينة، لا نفع من الكتب.

في تلك الليلة، شعر بكراهية سوداء تجتاح كيانه تجاه الكتب والعلوم. كراهية تجاه مكتبته الضخمة جعلته يفكر في لحظة ما أن يقوم فيضرم فيها النار.

٢١

كنا جميعاً نعلم أن الثلاثة سيجيبون سوسن فِكرت بالجواب ذاته. وكان كل من سمع بالقصة من أهل المدينة واثقاً أن أحداً من الثلاثة لن يندم. ولكن في ذلك الوقت، كنا جميعاً نظن أن سؤال الآنسة گولدانـچـي واضح ولا يخفي شيئاً. وخلال عشرة أيام وضمن أوقات متفرقة، كان العشاق الثلاثة قد كتبوا إجاباتهم في رسائل منفردة وأرسلوها إلى سوسن. لم يطّلع أحد غير سوسن على النصوص الأصلية لتلك الرسائل. استلمت الرسائل مغلقة وقرأتها على انفراد ثم خبأتها بعد ذلك في حرز أمين. بقي مضمون رسالتي خالد آمون ومنصور أسرين سراً إلى وقت طويل أما رسالة كاميراني سلمى فسرعان ما علم بها السوق كله، حتى إن بعض الأشخاص كانوا يتناقلون نسخاً من الرسالة فيما بينهم، وكانت تُقرأ على الملأ في حارة الحلاجين وعند باعة العصير وفي المزادات الكبيرة، حتى لقد حفظها الكثير من الناس عن ظهر قلب. لم تكن رسالة بليغة بل كان تواضعها يدمي القلوب.

كان كاميران قد كتب بخطه الرديء:

«الآنسة سوسن: سأذهب إلى أي مكان في العالم ترسلينني إليه ولو كان آخر العالم، وحتى إن لم تتزوجي بي فسأذهب إلى حيث تأمرين... مهما طلبتِ مني فسأنفذه، سأنفذ كل ما من شأنه أن يثبت لكِ صدق حبي. لن أتردد في الذهاب إلى أي مكان تريدينه. حتى تعلمي كم يحبكِ كاميراني سلمى وكم قلبه متعلق بكِ. سأستعير أجنحة الطيور وأذهب إلى أي مكان تريدينه. بدون أي شروط، أنا مجنون بكِ، وبدون أي شروط مهما تطلبين مني فسأحققه لك. ليلة البارحة حين كنا ساهرين في منزل «صدّيق سيدايَن»، قلت ذلك لأصحابي، قلت لهم إن المسألة لا تحتاج حتى إلى التفكير فيها، لأنني لا أعرف كيف أفكر ولا بماذا أفكر. كنتُ أحبكِ قبل أن ألتقي بكِ في تلك القاعة الكبيرة الممتلئة بالكتب، وازداد حبي لكِ بعد أن علمتُ بأنكِ قد قرأتِ كل تلك الكتب. لقد قلتُ لجميع أصحابي إن من الأفضل لي أن تجربيني على ألا تجربيني. لا أريد أن أفكر في هذا الموضوع بعقلي. صديقي منكور يقول إن العقل كذاب وسيبقى كذاباً، وهو يقول كذلك إن العقل يفسد كل شيء، ولذلك أرفض أن أفكر في هذا الموضوع بعقلي. سألبّي كل ما تطلبينه مني باستثناء شيء واحد وهو أن أُبعدكِ عن خيالي. أعاهدكِ أن هذا لن يحدث ما دمتُ حياً. لن أنسى الآنسة سوسن في حياتي، وعدا هذه النقطة فإنني مستعد لتنفيذ أي شيء».

كان الجميع يعلم أن منـگوري باباگوره قد قدَّم لكاميراني سلمى مساعدة كبيرة في كتابة هذه الرسالة، وهو من أصرَّ بلا شك أن يرد اسمه في نص الرسالة. كانت سوسن منقبضة النفس من تلك الرسائل. أما سبب انقباضها فلم يكن فقط بسبب تلك الصيغ الحادة التي كُتبت بها الرسائل ولكن -كما علمنا منها بعد سنوات- هو أن الشبان الثلاثة قد أخذوا الموضوع بحماسة وتهوّر ورفضوا الانسحاب. لم يكن أحد منا في ذلك الوقت عالماً بحقيقة عدم رغبة سوسن في الزواج بأي من أولئك الشباب، وكنا جميعاً نعتقد أنها قد اختارت في نفسها واحداً منهم، لكنها بسبب الخوف من شيء ما لا تعلن عن اسمه.

بعد عدة أيام من وصول الرسائل، شاهدنا فِكرت گولدانـچـي وسوسن أمام مكتب البريد، دخلا معاً واستلما طردين كبيرين ثم ركبا سيارة قديمة عائدين إلى البيت. وسمعنا بعد ذلك أن الطردين كانا يحتويان على اثنين من أضخم المعاجم عن طيور العالم. في تلك الفترة، خصص الآمونيون من جهتهم بعض الأشخاص لمراقبة منزل فِكرت گولدانـچـي ليلاً نهاراً. وكان منـگوري باباگوره أيضاً قد كشف لنا أنه قد كلّف من يراقب منزل آل گولدانـچـي ويأتيه بأخبارهم باستمرار، لكن معظمنا لم يصدق ما قاله. لا شك أن قوة منـگور لا تُقاس البتة بقوة الآمونيين المعروفين بنفوذهم الواسع، ولكن بالمقابل، كان لدى منـگور رجال يعملون لحسابه أمثال «قَـپوز جُقلي»

و «لـچ قوقِز» اللذين كانا من أنشط أجلاف المدينة، وكان كلاهَما بارعاً في عمله وقادراً على استخراج الخبر الخفي ولو كان في جحر ثعبان.

ذات مساء، قام عزت گولدانـچـي ومعه خَنده گولدانـچـي وأختها عصمت بزيارة خاصة إلى منزل فِكرت، لعلهم يتمكنون من الاطلاع على نية الفتاة أو معرفة قرارها. كان من الواضح أن آل گولدانـچـي بدورهم قد نفد صبرهم خاصة بعد أن أصبحت قضية زواج سوسن على كل شفة ولسان في المدينة، وهذا ما كان يقلقهم، فقد رأى البعض منهم أن تلك الإشاعات والأقاويل تشكل مصدر تهديد كبير لمستقبل أبنائهم وبناتهم. كان ذلك أول لقاء بين أفرادٍ من آل گولدانـچـي ينتهي بجلبة كبيرة، فمنذ عودة فِكرت من بغداد كانت علاقاته بأقاربه متواضعة وهادئة، لكن جيران بيت گولدانـچـي قد سمعوا صوت عزت گولدانـچـي وأخته معصومة اللذين خرجا بمعطفيهما ومظلتيهما الكبيرتين غاضبين من منزل فِكرت وهما يصرخان بصوت مسموع «لقد جُنّت... الآنسة جُنّت وأفسدت عقل فِكرت أيضاً». ولكن حتى بعد مرور يومين لم يعرف أحد ما الذي جرى في منزل گولدانـچـي بالضبط. في الليلة التالية، شاع في المدينة أن سوسن قد طلبت رؤية الخُطّاب الثلاثة معاً، وأن يصطحب كل منهم شخصاً من أهل ثقته. بدا الأمر في البداية كأنه دعوة عادية، دعوة على العشاء يجتمع فيها الجميع وبحضور سوسن نفسها. فهِم البعض من

تلك الدعوة أن الفتاة تريد أن تتشبه بأميرات الحكايات القديمة وتجرّب خُطّابها مباشرة وعن قرب، ورأى البعض الآخر أنها تنوي أن تراقب سلوكهم ولباقتهم في أحوال الجلوس وتناول الطعام، بينما رأى آخرون أنها تريد رؤية الثلاثة معاً حتى يتسنى لها إجراء مقارنة جسدية مباشرة فيما بينهم، حتى إذا استوثقت من الأطول والأقوى والأصح فيهم أعلنت عن اختيارها إياه في الحال. يجب أن نذكر هنا أن ذيوع خبر تلك الدعوة المشتركة قد خلق اضطراباً واسعاً على جميع الجبهات، فلم يكن تاريخ المدينة ولا تقاليدها يتقبلان بسهولة حدوث أمرٍ كهذا، ولم يسمع أحد من قبل أن عائلة لديها عددٌ من المرشحين لخطبة ابنتهم يُقدمون على دعوة الجميع معاً وإجلاسهم على سفرة واحدة. ولكن لأن الدعوة كانت رسمية، مكتوبة على بطاقات خاصة وموجَّهة باسم فِكرت گولدانـچي وأخته الصغرى خَنده گولدانـچي لا باسم سوسن، لم يرَ الناس بأساً في ذلك. كان من الواضح أن فكرة تلك الدعوة قد جاءت عقب وقوع ذلك الخلاف داخل عائلة گولدانـچي. رأى عزت گولدانـچي، الذي كان يرى نفسه الحامي الأول لميراث آل گولدانـچي العريق والمعروفين بالسمعة الطيبة والأصالة والتحفظ، أن في توجيه دعوة كهذه خرقاً للأصول وخروجاً على التقاليد، بينما بدا معظم آل گولدانـچي مسرورين بقدوم كل هؤلاء الخاطبين معاً لطلب يد ابنتهم، وفي ذلك دليل على سمعة بناتهم الطيبة. لم تكن عصمت گولدانـچي أقل حساسية من أخيها الأكبر؛ ففي اليوم الذي وقع فيه الخلاف خبطت هي الأخرى بقبضتها

طاولة القاعة الكبيرة في منزل فِكرت وصرخت: «يا للعار... ما يكون حالنا إذ يقول الناس إن بناتنا يجمعن حولهن الرجال». علينا أن نضيف هنا أنه لولا تلك الوقائع الغريبة التي حدثت فيما بعد، فلربما اجترأ كثيرون غيرهم على الخوض في سمعة فِكرت گولدانـچـي وابنته. لكن تلك الوقائع الأخرى كانت خيالية وعجيبة، وجعلت الناس ينسون بسرعة أمر تلك الدعوة الجماعية الشاذة. كان الخُطّاب الثلاثة معاً متوجسين من أمر تلك الدعوة، وكان كل منهم راغباً في جلسة أخرى على انفراد مع سوسن لأن كلاً منهم كان يضمر الكراهية لمنافسيه الآخرَين، ولكن في يوم الدعوة، حاول كل منهم الاحتفاظ بهدوئه والظهور بمظهر الحليم.

قال منـگوري باباگوره لكاميراني سلمى: «إنها فرصة جيدة حتى نضارب على خصومنا». كان كاميراني سلمى هو الخاطب الوحيد الذي حضر الدعوة بالزي الكردي. الجميع كان يعلم أن منـگور هو من يشير عليه وهو من سيبقى معيناً مخلصاً له حتى النهاية. وكذلك سبق أن أفشى بعض المقربين من منصور أسرين أن مستشاره الأمين سيكون ساقي محمود، ولكن حتى يوم الدعوة لم يكن أحد قد عرف اسم المستشار الذي اختاره الآمونيون لمرافقة خالد. كانت ساعة الدعوة هي الثانية عشرة من يوم الجمعة. وما بين الثانية عشرة والثانية عشرة والربع توافد على التوالي الخُطّاب الثلاثة مصطحبين رفاقهم الثلاثة إلى منزل گولدانـچـي. أربعة منهم وصلوا في سيارات أجرة،

أما خالد آمون ومستشاره قلندر آمون فقد نزلا من سيارة تويوتا حديثة عند باب منزل گولدانـچـي. كان اختيار الآمونيين قلندر بدل فوزي بـگـي أو سلامي آسنـگـر مثار استغراب الكثيرين لا سيَّما أن قلندر مشهور بشقاوته وسرعة غضبه. لقد كنا جميعاً على يقين أن الآمونيين كانوا ينظرون إلى الموضوع على أنه حرب، ولذلك فقد اختاروا قلندر كي يكون نداً لمنـگـور. لم نكن نعرف حينها مدى تأثير ذلك الاختيار على مجريات الأحداث. استقبل فِكرت گولدانـچـي وأخته خَنده الضيوف في القاعة الكبيرة وكان الجميع قد حضروا في أحسن هيئة ويحاولون جهدهم إظهار أكبر قدر من الهدوء والرصانة. وفي ذلك الصالون بالذات، كان من المنتظر أن يعانق فِكرت گولدانـچـي كاميراني سلمى ثم يشده من يده طالباً منه أن يسلّم على منصور أسرين، وكانت تلك المصالحة أول وأهم حدث في بداية تلك الجلسة. كان الكثير من الحضور مترقبين أن يقوم فِكرت گولدانـچـي بتلك الحركة حتى يظهر للناس أن آل گولدانـچـي أهل سلم ومصالحات. ولكن في الواقع فإن تلك المصالحة لم تترك ذلك الأثر الكبير المأمول، لأن ما حدث من مستجدات عقب حادثة طعن منصور في قبو خِدرو دويار جعل معظم الناس تنسى تلك الحادثة. في قاعة منزل گولدانـچـي، مرت دقائق من الصمت الثقيل، وكان تقديم پـروشه للماء والعصير والشوكولا اللذيذة مما ساعد على استمرار ذلك الصمت في القاعة. الوحيد الذي كان يجيل عينيه في القاعة ويختلس النظر إلى المدعوين دون توقف كان

خالد آمون، الذي لم ينجح تظاهره بالهدوء في إخفاء الكراهية الكامنة التي كانت تملأ قلبه. طوال جلوسهم في تلك القاعة، لم ينطق أحد بشيء باستثناء بعض الكلمات القليلة التي تبادلها ساقي محمود ومنگوري باباگوره حول برودة هذا الشتاء ولا شيء آخر. وحين تطرقا إلى خطبة صلاة الجمعة الأخيرة والتي هدد فيها الشيخ النساء السافرات بنار جهنم، علق منگور: «وما شأن الشيخ بهن حتى يهددهن بمثل هذا الكلام!؟ كل امرئ سيدخل قبره بمؤخرته هو». أثار ذلك التعليق ضحك فِكرت گولدانچي. وبالمحصلة فقد كان الوجوم في تلك الجلسة أشبه بالوجوم الذي يسود داخل حافلة لا يعرف ركابها بعضهم البعض.

أشار فِكرت گولدانچي إلى الضيوف ليتبعوه إلى غرفة الطعام. في الغرفة، كانت مائدة كبيرة مزينة بأنواع الطعام. دُهش الجميع من تنوّع الأصناف المعدّة لهم وغرابتها. غير أن ما لفت انتباههم كان، على خلاف الأعراف والتقاليد، خلو المائدة من لحم أي طير. اكتفى الضيوف باتخاذ مقاعدهم ودون أن يأتي أي منهم حتى على الإشارة إلى تلك الملاحظة.

بعد مضي وقت طويل على جلوس الجميع، دخلت سوسن إلى الغرفة، وكانت ترتدي ثوباً أبيض وبنطال جينز فاتح اللون. شعر الجميع أنها نازلة لتوها من غرفة المكتبة بعد أن قرأت ما عليها قراءته اليوم. كان الجميع يتوقع أن تتزين وتتبرّج وتعدَّ نفسها لمناسبة مهمة كهذه على الأقل لتبدو في أفضل حالاتها

في عيون خُطّابها، ومع ذلك، فقد بدت سوسن في غاية الجمال والرقة وطاشت ألباب عشاقها الثلاثة حين وقعت عيونهم عليها، رغم كل ذلك الضعف والإرهاق والشحوب البادي عليها، وهي تحيي ضيوفها فرداً فرداً بنظراتها المتعبة وصوتها الهادئ داعية إياهم إلى الجلوس ثانية. كان لحضور سوسن على المائدة هيبة كبيرة جعلت ضيوفها أحرص ما يكونون على إظهار ما عندهم من أصول الكياسة واللباقة. أكّدت سوسن على الجميع أكثر من مرة أن يأخذوا راحتهم بعيداً عن أي تكلف، لكن ذلك لم يغيّر من الأمر شيئاً. تناول الخُطّاب الثلاثة المحرجون قليلاً من الطعام، كانوا يريدون أن يظهروا لها أن من طباعهم قلة الأكل، بل حتى منـگور الذي كان مبهوراً بأنواع الطعام تلك تناول القليل منها، وسرعان ما كفَّ يده.

بعد الانتهاء من تناول الطعام، عاد الجميع إلى غرفة الجلوس الكبيرة حيث كان الشاي بانتظارهم. كان الصمت الذي سبق شرب الشاي وأعقبه ثقيلاً مخيفاً. لم يحدث خلال تناول الطعام ولا أثناء شرب الشاي أن دققت سوسن النظر في وجه واحد من خُطّابها الثلاثة.

ما إن فرغوا من شرب الشاي، حتى التفت فِكرت گولدانـچـي إلى ضيوفه وقال:

– كما تعرفون جميعاً ويعرف جميع أهل المدينة فأنتم الثلاثة قد تقدمتم لخطبة ابنتي، وقد رضيتم بالشرط الذي اشترطته

عليكم وهو أن تذهبوا في رحلة بعيدة وأن تنفذوا جميع ما تريده منكم. أريد أن أقول لكم إنني أنا شخصياً لا أعرف حتى هذه الساعة ما الذي تفكر فيه ابنتي وما هي نواياها، ولذلك فإنني بناءً على طلبها أدعوكم إلى زيارة مكتبتنا في الطابق العلوي، وأنتم تعرفونها بالطبع لأنكم سبق أن التقيتم بسوسن هناك، وأنا واثق أن سوسن ستشرح لكم كل شيء هناك.

كانت دقائق عصيبة. سار الضيوف الستة بهدوء خلف فِكرت گولدانـچـي الذي قادهم إلى الطابق العلوي. في غرفة المكتبة، كانت جميع الأرائك قد صُفّت بطريقة يمكن معها للضيوف الستة رؤية بعضهم البعض ورؤية سوسن في الوقت نفسه. أخذ كل واحد من الرجال مكانه وقلوبهم تغلي حماسة وفضولاً. لم ينبس أي منهم ببنت شفة. كانوا مأخوذين بهيبة غريبة، وكأنها كانت المرة الأولى التي تطأ فيها أقدامهم هذا المكان حتى إن غرفة المكتبة بدت أمام أعينهم أكبر وأوسع من ذي قبل. حين جلس الخُطّاب الثلاثة مقابل سوسن، شعر كل منهم أن اللحظات القادمة هي الأهم في حياته كلها، وأن هذا اليوم من حياتهم هو الأخطر. لم يكن تحفظهم وسكونهم وحركاتهم في غرفة المكتبة أمراً عادياً. وقفت سوسن بهدوء أمام الجميع وشرعت بالكلام، قالت وعلى شفتيها طيف ابتسامة خفيفة لا تكاد تظهر:

– وأخيراً حانت الساعة التي يجب أن يعلم فيها كل واحد منكم ما أريد...

ثم إنها اتكأت على الأريكة وتابعت بنبرة حزينة:- ولكن قبل ذلك... قبل ذلك، أرجو مـمَّن كان يشعر منكم بالتردد أن ينسحب في الحال، وأنا لن أشعر بالخيبة من تصرفه ولا بالكراهية تجاهه، بل على العكس سأكون مسرورة راضية لأجله لأنني في نهاية الأمر لا أريد شيئاً سوى راحتكم، كما لا أريد أن تحملوا الضغينة تجاه بعضكم البعض.

قال منـكور بابتسامة كبيرة:

-آنسة سوسن، المسألة مسألة سهم انطلق من قوس ومن المحال أن يرجع إليها. لقد خرج الأمر عن مجال الندم والتراجع، إنه سهم فارق قوسه، ولم نعد نملك شيئاً سوى مراقبته لنرى أين سيسقط.

دون أن تلتفت إلى منـكور، أجابت سوسن وأنظارها موجهة إلى خُطّابها الشباب الثلاثة:

- قد تقولون إن الوقت قد تأخر الآن، ولكني أقول لكم إنه ليس متأخراً. ولكي يتراجع المرء عن خطبة لا يكون الأمر متأخراً أبداً، ويمكن لأي منكم أن ينسحب في اللحظة التي يختارها ويترك كل شيء خلفه... أنا لا أجبر أحداً منكم على شيء لا يريده... ليس متأخراً البتة... لا الآن ولا غداً ولا بعد غد ولا في أي وقت...

ثم أغلقت عينيها بوهن وأضافت:

- كلا، مطلقاً... لم يفت أوان أي شيء... لا نهاية للزمن.

تجمدوا جميعاً عند سماع عبارتها الأخيرة.

قال ساقي محمود بشيء من التردد والعصبية:

- صحيح، لا نهاية للزمن...

نظرت إليهم سوسن بهدوء. كان منـگور بدوره يريد قول شيء ما لكنه لم يكن يعرف ما يجب أن يقول. وبعد هنيهة، تشجع ونطق بهذه الكلمات المبتسرة:

- كان المرحوم يوسف كَويار يقول: الزمن جسر وكلنا نعبر من فوقه. وكان يقول كذلك: إن الإنسان يظن مخطئاً أنه يعيش في منزل ويسير على طريق، والصحيح أن للإنسان منزلاً واحداً هو الزمن... هكذا كان يقول يوسف كَويار...عادت سوسن إلى تفحص خُطّابها الثلاثة بهدوء وتابعت القول بالإيقاع ذاته:

- متى رغبتم فسيكون بإمكانكم جميعاً الانسحاب من هذا الاتفاق، ولكن قبل أن أختار واحداً منكم شريكاً لحياتي المستقبلية سيكون عليكم أن تروا الدنيا. أنتم ثلاثة شباب، لا تعرفون شيئاً عن هذا العالم... لا شيء... تعتقدون أن العالم يبدأ من حارتكم وينتهي عندها. لقد أصبحت هذه المدينة بالنسبة لكم كالقفص... يجب قبل كل شيء أن تنفلتوا منه وتطيروا وتحلقوا عالياً... عالياً، وبعد ذلك ترجعون إلي. أنا لا يمكنني الطيران فأنا مريضة... أنا مجرد فتاة مريضة تريد أن تقضي باقي حياتها مع شخص مطّلع بشكل حقيقي على العالم.

خلقت كلماتها تلك جواً طاغياً من الصمت في المكان. كانوا جميعاً ينظرون إلى سوسن وهم في حالة جمود تام، لا حركة ولا حتى صوت تنفس باستثناء نحنحة خجولة صدرت عن قلندر آمون.

أردفت سوسن:

- أعرف كم هو كبير هذا العالم... منذ طفولتي وأنا أعرف... عرفتُ ذلك من كل هذه الكتب والموسوعات والأطالس، أعرف كم بحراً يوجد وأعرف كم باخرة ترسو على شاطئ كل بحر. أما في هذه المدينة الصغيرة، بين أفرعها الملتفة علينا، فنحن لا نعرف شيئاً البتة. المدن الصغيرة تُنسي المرء كم هو كبير هذا العالم، غير أن رحابة هذا العالم لم تغب يوماً عن عينيَّ.

ثم افترّت شفتاها عن ابتسامة غامضة، وأجالت طرفها بين خُطّابها الثلاثة وسحبت نفساً قصيراً قبل أن تقول:

- الأرض كوكب عظيم ونحن في هذه المدينة الصغيرة كأننا لسنا على هذا الكوكب، لا نعرف كم في هذا العالم من حديقة كبيرة أو نهر عظيم أو صحراء شاسعة. إن كنتم بالفعل تحبونني فعليكم قبل كل شيء أن تنطلقوا لرؤية هذا العالم. لا أستطيع التأكد من حبكم إياي إن لم تروا الدنيا، إن لم تزوروا أماكن مختلفة وتجرّبوا بلداناً أخرى. حين ترون الدنيا ستتغير نظرتكم إلى الأشياء، سترونني بشكل مختلف عما ترونه الآن.

الشخص الوحيد الذي يعرف بشكل أكيد لماذا يعيش، هو الشخص الذي سافر وشاهد رحابة العالم واطّلع على عظمة الدنيا. أول ما عليكم فعله هو الابتعاد عن هذه البلاد، الابتعاد عن كل هذه المعارك والشجارات والمذابح المتواصلة... هذا هو شرطي، أن تهجروا هذه البلاد. امضوا وجوبوا العالم. ثمة فتيات يطلبن مهورهن ذهباً وخرزاً وألماساً، أما أنا فأطلب منكم مئة طائر مهراً لي... مئة طائر فريد يعيش كل منها في بلد مختلف... مئة طائر من كل منكم. وإني أمنحكم مهلة ثماني سنوات تجوبون خلالها العالم. ومع انتهاء هذه المهلة سأراكم. بإمكانكم بالطبع، وفي اللحظة التي تشاؤون، قطع رحلتكم تلك وترك كل شيء والعودة إلى مدينتكم. بإمكانكم كذلك ألا تعودوا بالطبع... يمكنكم الإقامة في أي بلد من تلك البلدان والزواج بامرأة والعيش معها هناك. يمكنكم بالطبع أن تختاروا الحياة والمدينة التي تلائمكم وتنسوني إلى الأبد... سأكون بانتظاركم... سأنتظركم ثماني سنوات، فإن عدتم فسأتزوج بأحدكم... سأختار واحداً من بينكم. سأنظر في قلوبكم وأرى كم فيها من النور، كم فيها من عبق... عندها سأتخذ قراري. أما الآن فلا يمكنني اختيار واحد منكم لأنكم الآن عندي سواسية... ثلاثتكم متشابهون... جميع رجال هذه المدينة متشابهون، أليس كذلك؟ كلهم متشابهون.

كانت الجملة الأخيرة هي أقسى ما قالته سوسن في ذلك اليوم الغريب الذي تركت فيه عشاقها مذهولين.

٢٢

في مساء اليوم نفسه، شاع في المدينة كلها خبر ما اشترطته سوسن على خُطّابها. في البداية، لم يصدق معظمنا ما سمع. لم يعتقد أحدٌ منا أن أحداً من الخُطّاب الثلاثة قد يقع في فخ كهذا، بل كنا جميعاً واثقين أن ذلك الشرط ما هو إلا مكيدة من الفتاة حتى تتخلص من الشبان الثلاثة وتزيحهم عن طريقها. كنا جميعاً مهمومين ومضطربين بشكل أو بآخر، وكانت كل كلمة تخرج من الشفاه مبطّنة بمئات الشكوك الحادة. وما زاد من اضطرابنا كان أن كل واحد من الثلاثة قد استلم من سوسن مظروفاً خاصاً فيه صورتها وأسماء عشرات الطيور النادرة والغريبة، مرفقة ببعض الخرائط. وكان على كل خاطب أن يوكّل شخصاً يستلم صوره ورسائله ويوصلها إلى يد سوسن طوال تلك السنوات الثماني. واتفق الجميع على ألا يكتب أي منهم رسائل خاصة إلى سوسن خشية أن يحاول أحد منهم التأثير في سوسن بواسطة اللعب على الكلمات العاطفية ونصب الفخاخ اللغوية لها، فينتفي بذلك عنصر المساواة والعدالة بين الخصوم.

كان الآمونيون هم الأشد سخطاً والأقل تقبلاً لذلك الشرط، وقد ثقل على نفوسهم أن يخاطر فرد منهم بنفسه في سفر ثماني سنوات لأجل فتاة. في ذلك اليوم وبعد مغادرة الضيوف منزل آل گولدانـچـي، بدا خالد آمون أكثرهم تعباً، كان يشعر أن عشقه لهذه الفتاة يدمره شيئاً فشيئاً، ولم يكن من السهل عليه البتة أن يترك خلفه مدينته وعمله وسهراته مع أقربائه ويهاجر بعيداً عنهم. لم يفكر خالد آمون في حياته يوماً إن كانت الدنيا صغيرة أم كبيرة، وقد تربى منذ طفولته أن يفكر فقط فيما ينفعه، والعالم خارج مدينته ليس أكثر من ظلال كالحة ليس فيها ما يستحق العيش لأجله. إنه لعار كبير أن يقضي حياته مشرداً عدة سنوات في سبيل حب امرأة، فذلك مخالف تماماً لأعراف قبيلته وما عُرف عنها من المروءة والرجولة، كما أنه مخالف للشريعة التي لا يجب لامرأة فيها أن تملي على الرجال ما يفعلونه، ما الذي عسى الآمونيون يقولونه عنه؟ كان واثقاً أنهم مثل كل مرة لا بد أن يساندوه في النهاية، ومع ذلك فلن يعدم منهم من سينظر إليه نظرته إلى شخص ضعيف ارتضى لنفسه التشرد في الأرض من أجل هوى امرأة. بقي طيلة تلك الليلة حبيس غرفته الصغيرة وهو يجوسها جيئة وذهاباً حتى وقت متأخر من الليل. كان يشعر بألم كبير في نفسه كلما فكر في ذلك الشرط. شعر أنه أمام اختبار قد يخلق في داخله روحاً جديدة. لم يكن موضوع رحابة العالم ووجود مدن أخرى مجهولة وغريبة ليحرك في داخله أي شيء. شعر أن هناك كثيراً من الأشياء التي لا يفهمها في مدينته هذه رغم أنه قد قضى عمره كله فيها، وكان يفضّل،

لو أن الأمر له، أن يتعمق أكثر في حياة مدينته لا أن يهيم في عالم لا يعرف أين تنتهي حدوده، لكنه كان يعرف أن كل هذا الكلام لم يعد يجدي شيئاً الآن. فإن كان راغباً في سوسن فعليه أن يمضي في هذه المغامرة حتى نهايتها. لم يكن يريد التفكير كثيراً لعلمه أن طول التفكير لن يهديه إلى شيء. لم يؤمن طوال حياته بجدوى التفكير، بل على العكس كان موقناً أن التفكير في الأمور لا يحلها بل يزيدها تعقيداً وتشابكاً.

في الليلة التالية، ذهب لزيارة قلندر آمون وأعلمه بقراره أن ينطلق في تلك الرحلة طلباً لتلك الطيور. وصادف تلك الليلة اجتماع كبير للآمونيين في منزل «فوزي بـگـي» الذي كان الوحيد الذي سرَّه ما حدث في منزل گولدانـچـي، وكان معجباً بشروط سوسن على عكس سائر الآمونيين المنزعجين الذين كانوا في حيرة من أمرهم ويريدون سماع الخبر الأكيد من فم خالد ومستشاره. كان منزل فوزي بـگـي في تلك الليلة وعلى خلاف العادة يضج بالحركة؛ فمنذ سنوات لم يجتمع الآمونيون بهذا العدد في مكان واحد. كانت غرفة الاستقبال تغص بالحضور إلى درجة يضيق معها نفس المرء، وكانت أطباق الطعام تتوالى واحداً تلو الآخر، وسقاة الماء لا يكادون يرتاحون لحظة في خدمة أولئك الضيوف الكثيرين في تلك القاعة الواسعة، حتى إن الواحد منهم كان يسمع بصعوبة صوت الشخص الجالس إلى جواره. وحتى لحظة وصول خالد وقلندر كانت القاعة تضج بالحركة والجلبة. نهض فوزي

بـگـي بنفسه لاستقبالهما هاتفاً بصوته الجهوري: «خالد... صغيري خالد... كن واثقاً أنك اخترت فتاة لا مثيل لها، أميرة من أميرات الحكايات القديمة... من بنات النبلاء الأولين. طوال حياتي وأنا أرجو لقاء فتاة من هذا النوع، كنتُ أعتقد أن هذا النوع قد انقرض من الدنيا قبل ثلاثمئة سنة، ولكن الله القدير شاء لي أن أرى قبل موتي وفي هذه المدينة فتاة تشبه الحوريات الموصوفة في الكتب القديمة. الله العلي شاء ذلك بدون شك». أثارت كلمات فوزي بـگـي ضجة كبيرة بين الحضور. بعد أن اتخذ الضيوف الجدد أماكنهم، عاد بعض الهدوء إلى القاعة. وبعد أن التقطا أنفاسهما، توجه قلندر آمون إلى من كان في القاعة بالقول: «ما سمعتموه صحيح، تلك الفتاة تريد أن يهاجر قريبنا خالد إلى خارج الوطن. تقول إنها قبل أن تقترن بواحد من الثلاثة عليهم أن يسافروا لرؤية العالم. إنها تريد أن ترسل ولدنا في طلب بعض أجناس الطيور... طيور غريبة ونادرة. عليه أن يجمعهم طائراً طائراً من مختلف مدن العالم ويعود خلال ثماني سنوات. وحين يعود الخُطّاب الثلاثة، ستقعد معهم ثلاثة أيام ثم ستقرر بعد ذلك من يقع عليه الاختيار. تلك هي القصة باختصار، نعم، تلك هي ولا شيء آخر... أبداً، لا شيء آخر. هذا بالضبط ما سمعناه البارحة في منزل فِكرت گولدانـچـي». أثناء ذلك، كان ثلاثة من الشبان يطوفون على الحضور بأكواب الشراب.

لم يكد قلندر ينهي كلامه حتى سرت في القاعة ضجة

هائلة، ويبدو أن كلماته قد تسببت بإغضاب الكثيرين فقد صرخ أحدهم فجأة: «ومن هذه الفتاة... من تحسب نفسها؟». وأعقب آخر: «حتى ولو كانت ملاكاً مجنحاً فلا تستحق أن يتشرد المرء من أجلها ثماني سنوات متواصلة». وأردف ثالث من آخر القاعة: «أقسم أنها حيلة من حيل آل گولدانـچـي الذين طالما حاولوا التظاهر بالوداعة والمسالمة. أقسم أن الأمر ليس أكثر من حيلة لكي يجبرونا على دفع مهر باهظ، أن ندفع لهم مبلغاً من المال لم ندفعه من قبل مهراً لعروس، حتى يتباهوا بعد ذلك بين الناس ويقولوا: انظروا كيف استطعنا تركيع الآمونيين. أقول ذلك ويدي على القرآن. الكل يعلم أننا لا نقصّر في دفع المهور وأننا لنحصل على بغيتنا ندفع كل ما في جيوبنا، ولذلك فهم طامعون في أن يحلبونا».

أمرهم سَي كَرَم بالسكوت وقال: «تعلمون أن احترامنا لكلام بعضنا البعض هو السبب الرئيسي في بقائنا حتى اليوم، نحن نحترم بعضنا البعض، أتفهمون؟ إن الكلمة في هذه القضية هي لصاحب الشأن وليس لأي أحد آخر... لنسمع ما يقول خالد».

نهض خالد، الذي هالته كثرة الحاضرين، وقال بدون أي تردد أو اضطراب: «بالإذن منكم جميعاً... أرجو قبل كل شيء من الشباب السقاة أن يتوقفوا قليلاً... أيها الأعزّاء، أنتم آمونيون وأنا كذلك آموني وكلنا نفتخر بأننا دائماً في عون بعضنا بعضاً... كلنا نفتخر أن أسلافنا حين انحدروا من القرية

إلى المدينة قد ظلوا محافظين على هذه الرابطة التي ما زالت بيننا... أليس كذلك؟... لم نضيّعها». كانت عينا خالد تلتمعان، وكان وجهه أنحل من أي وقت آخر، أما نظراته فكانت تحمل قسوة وغموضاً غريباً. لم يكن أحد من قبل قد سمع منه مثل هذه النبرة الدافئة، كان الحزن يندفع من حلقه، وكل من عرف العشق مرة في حياته يعلم أن هذه كلها من مظاهر العشق وتباريحه.

تابع خالد: «أرجو من جميع الإخوة ألا يطلقوا سهامهم هباءً. تعلمون جميعاً أن أي عروس في الدنيا لها شروط تطلبها، ولن تجدوا على هذا الكوكب بأسره امرأة واحدة تزوجت دون شروط. إن من طبائع النساء في كل زمان ومكان فرض الشروط على طلاب ودّها. كلنا رجال ونعلم كم هي ثقيلة على أنفسنا تلك الشروط، فالبعض منهن تطلب الأموال الطائلة والبعض ذهباً كثيراً، لكن سوسن من نوع آخر، صدّقوني إنها غير طامعة البتة في أموالنا وثرواتنا... أؤكد لكم ذلك... إنها لا تريد سوى أن تقضي حياتها مع شخص شاهد الدنيا. وأنا قد اتخذتُ قراري بأن أنفّذ لها ذلك الشرط. قررتُ أن أذهب، أن أطوف العالم بحثاً عن تلك الطيور التي طلبتها مني. أعلم أن الكثير منكم يراني مجنوناً، ولكني منذ اليوم الأول الذي وقعت فيه عيناي على هذه الفتاة قررتُ في نفسي أن تكون لي... وبأي ثمن. أنا لا أفكر هل كان قراري صائباً أم لا... الآمونيون عادةً هكذا، لا يفكرون كثيراً بالصواب والخطأ... ومثل جميع الآمونيين

عليّ أن أكون سبّاقاً حيثما كنتُ... في القرية أو في المدينة... أن نكون هنا في دكاكيننا ومتاجرنا أم نكون في قرى الحدود نعمل في التهريب... سواء أكنّا في المدن أم في الجبال... مهما كان الأمر فنحن لا نفكر سوى في الانتصار. هذا الأمر يجري منا مجرى الدم، هذا ديننا. والآن أنا لا أفكر في أي شيء آخر سوى النصر».

كان في نظراته برود مخيف لا ينسجم مطلقاً مع الحرارة التي كانت في صوته. نهض فوزي بـگـي ثانية وقال: «لقد وقع اختيارك على امرأة لا مثيل لها بين النساء. أنصتوا إليّ جميعاً... لقد اخترتَ امرأة هي محل احترامي، وهذا ما يغضب كل هؤلاء الرجال الطيبين لأنها مختلفة عن نسائهم. أتفهم ما أقول، كل ما يهم نساءنا هو أن يَسُقن رجالهنَّ كالدجاج المريض نحو القن. نساء حمقاوات لا شيء يشغل بالهن سوى التفكير ليلاً ونهاراً في طريقة يحبسن بها أزواجهن. لكن هذه الفتاة تمنح زوجها أجنحةً. لقد عشتُ طوال عمري أفكر في رؤية امرأة تمنح زوجها أجنحة وتعلمه كيف يطير. المرأة هي الكائن الوحيد الذي باستطاعته تعليم الرجل الطيران أو تعليمه كيف ينسى الطيران. منذ أربعين سنة وأنا أبحث عن امرأة كهذه حتى يئست من وجودها، والآن لي رغبة واحدة قبل أن أموت وهي أن أرى تلك المرأة. إنني أبارك لك يا خالد. أنا رجلٌ عجوزٌ ولا أظن أنني سأكون على قيد الحياة عند عودتك من تلك الرحلة، ولكني أقول لك افعل كل ما بوسعك حتى تحظى بهذه

المرأة... امرأة كهذه تستحق أن يغترب المرء سنوات لأجلها. إياك أن تفكر أنك تقوم بالأمر الخاطئ. آلاف من الرجال قبلك ماتوا أو سُجنوا في سبيل نساء غير مستحقاتٍ التضحية. إنها ترسل بك بعيداً حتى تشاهد الدنيا، فإياك أن تخشى شيئاً أو يزعجك شيء... امضِ في طريقك ولا تلتفت لقول أحد».

نادراً ما ظهر فوزي بـگـي أمام الناس متحمساً بهذا الشكل وكأن هذه الحادثة قد أيقظت حسرة غافية في حياته. كانت شفتاه ترتعشان. ظهر حماسُه هذا أمام الجميع، ونادراً ما شُوهد يتكلم بمثل تلك الحماسة في شأن ما. أصغى «سَي كرمي» الآموني باهتمام إلى ما قاله فوزي بـگـي، ثم التفت إلى أحد السّاخطين وقال: «ماذا تقول... وما الذي يزعجك أنت؟». فأجابه الساخط الذي كان رجلاً ضئيلاً يدعى «أسعد آمون» بصوت عالٍ: «ها... ما الذي يزعجني... لستُ وحدي المنزعج على أي حال... ليست القضية هي أن نساءنا قد وضعن أقدامنا في القيود، ولكن المسألة أننا نخشى أن نفقد خالد إلى الأبد. الحروب في كل مكان من العالم وحيثما اتجه الفتى فسيجد الحرب في وجهه. تعلمون جميعاً أن الحروب موجودة في كل دول العالم. والأمر الآخر هو أن بعضاً من أنواع الطير يستحيل القبض عليها، ليس كل الطيور يمكن صيدها... وهذا أمر فوق طاقة الإنسان. تلك الفتاة تلقي بخالد إلى التهلكة... لم يسبق لأحد أن أوقع آمونياً في فخ كهذا». فأجابه فوزي بـگـي غاضباً: «اصمت... إياك أن تتكلم، نحن

جميعاً مثل طيور الحجل مقصوصة الجناح نجلس فوق ذرقنا، ولا يجرؤ أحدنا على المضي متراً واحداً أبعد من باحة داره. لقد أُلقي في روعنا أننا لو أخرجنا رؤوسنا من الباب فسوف تنهال علينا جميع مصائب الدنيا. اصمت، أنت لا تجرؤ على النوم فوق سطح دارك حتى في الصيف لأن زوجتك تخشى عليك أن تطير وتحلق بعيداً... ها... أتفهم... لقد هرمنا ولم تعد بنا طاقة على الطيران، فدعوا الفتيان يعيشوا حياتهم. لا تكسر أجنحة الفتى بذريعة المحبة». فقال أسعد آمون: «ها... أنا أحب زوجتي، ولذلك هي لا تتركني أنام فوق السطح صيفاً. لستُ مثلك... إن غبتَ عن دارك ستة أشهر لا يشعر بغيابك أحد. ولكن هيا أخبرني يا فوزي بـگـي، إذا تشرَّد هذا الفتى ثماني سنوات بين بلدان العالم وفي النهاية تزوجت الفتاة برجل آخر فماذا ستفعل حينئذٍ، هل ستمدح ابنة گولدانـچـي كما تفعل الآن؟». في تلك اللحظة، نهض خالد آمون وقال: «أنا لا أريد أن أرى الدنيا... أنا أنظر إلى القضية بمثابة عمل يجب أداؤه فحسب. سأرسل الطيور تباعاً إلى هذه المدينة، ولكن إذا شعرتُ أن ظلماً ما قد وقع عليّ فإنني أقسم بالله العظيم أنني لن أعفو عن أحد... لا عن سوسن فِكرت ولا عن ذلك الذي قد يتزوجها. أقسم أنني لن أسامح أحداً».

حتى اليوم، لم تزل تلك الكلمات التي خرجت من أعماق خالد آمون ترنُّ في أذني كل آموني كان حاضراً في ذلك الاجتماع.

في اليوم التالي، كان خبر اجتماع الآمونيين قد شاع في السوق كله. أقسم الآمونيون جميعاً في تلك الليلة على مساندة خالد، وعلى ضمان تكاليف سفره وأن يقدموا له العون حيثما كان. وهذا الأمر بث القوة في نفس خالد، فشعر مع انتهاء الاجتماع بأن الحظ يقف إلى جانبه. قبيل انتهاء الاجتماع، قال خالد بصوت مسموع: «قبل أن تنقضي السنوات الثماني سأكون هنا مع طيوري... بعد ثماني سنوات... ثقوا بي وكونوا بانتظاري». وفي نهاية الاجتماع استودع خالدٌ جميع الحاضرين وقال إنه سيستغل الليالي المتبقية له قبل سفره في إعداد نفسه وأمتعته جيداً.

كان خالد آمون أول الثلاثة في مغادرة وطنه سعياً خلف تلك الطيور...

٢٣

كانت ليلة وداع منصور أسرين ليلة مميزة حضرها عشرات من الشعراء والموسيقيين والرسامين والمطربين، وكان من الواضح أن اجتماعهم بهذا الشكل ردٌّ على اجتماع الآمونيين الأخير. كان إبراهيم أسرين في غاية السرور وهو يرى ما يتمتع به ولده من تقدير واحترام بين الناس. ودون أن يكون لها أي برنامج حقيقي معدٍّ سلفاً، تحولت تلك الليلة إلى حفلة صاخبة غير متوافقة البتة مع طبيعة منصور أسرين التي يغلب عليها الهدوء والحزن. كان من النادر في تاريخ المدينة إقامة حفلات من هذا النوع خلال النصف الثاني من عقد الثمانينيات، ومع ذلك فقد كانت ليلة وداع تاريخية ودّع فيها كل أولئك الشعراء والموسيقيين بطريقتهم البوهيمية شخصاً كانوا يرون فيه رمزاً حياً من رموز العشق. كانت عائلة أسرين قد استأجرت صالة كبيرة وتمت دعوة العديد من الأهل والأقرباء، غير أن العدد الأكبر من الحضور كان من محبي الفن وهواة الأدب في المدينة. واتت الجرأة إبراهيم أسرين فأرسل بطاقة دعوة إلى سوسن فِكرت ووالدها راجياً منهم التفضل بحضور حفل

وداع ولده، لكن سرعان ما جاءه الجواب مشفوعاً بالاعتذار بكل احترام وتهذيب عن عدم الحضور بسبب وعكة صحية خفيفة ألـمّت بِفكرت. كنا جميعاً نعلم بالطبع أن تلك مجرد حجة لأن حضور فِكرت أو ابنته إلى حفلة كهذه سيكون إشارة سيئة وتصرفاً غير سليم له أثر سلبي كبير من الناحية النفسية على المنافسَين الآخرَين. لقد كنّا جميعاً نفضّل أن تبقى سوسن، حتى نهاية السنوات الثماني، على مسافة واحدة من المتنافسين الثلاثة، وكان عدم حضورها قراراً في محله. استغلّ البعضُ فرصة حضور مريم گولدانـچـي حتى يقذف ببعض الكلمات الطائشة هنا وهناك، لكن معظمنا كان يقظاً وحريصاً على عدم إفساد تلك الليلة الجميلة التي أُنشدت فيها أشعار الغزل وبعض القطع الموسيقية العذبة. أتحفنا ساقي محمود وبعض المطربين الآخرين ببعض أغنياتهم القديمة التي أثارت الحماسة في الحضور، وكان منصور حريصاً طوال الحفلة على أن يظهر بمظهر السعيد المبتهج الذي لا يحمل في داخله أي همٍّ، لكنه فشل رغم أنه كان يشارك المطربين في أداء أغانيهم ويصفق مثل الجميع بحرارة للشعراء لكن الاضطراب لم يكن يفارق عينيه. لم يكن يبدو مثل شخص سيسافر في الغد ولكن كان أشبه بشخص تائه ويائس في شارع طويل لا آخر له. كان يرتدي معطفاً أسود وسترة حمراء لا أكمام لها على خلاف رغبة أخواته وعماته اللواتي ألححن عليه أن يظهر في الحفلة في هيئة عريس، أو أن يرتدي الزي الكردي. كان يريد مغادرة هذه المدينة بدون ضجة ودون حتى أن يعرف أحدٌ برحيله. كان

يريد أن يلقي بحقيبة صغيرة فوق كتفه ويمضي في سبيله، لكن والده إبراهيم أصر على أن يقيم له حفلة الوداع هذه على شرفه، لأنه لم يكن واثقاً من قضية هل سيعيش لثماني سنوات أخرى حتى يرى ابنه عائداً. وكان ذلك السبب الذي دفع بمنصور إلى الموافقة على إقامة هذه الحفلة. كانت ليلة أنشد فيها الشعراء الشباب وهم سكارى أكثر أشعارهم بوهيمية وصعد فيها العازفون ثملين على المنبر، أما المغنون فكانوا يختارون من أغانيهم أشدها حيوية وحماسة فيغنونها. وفي نهاية السهرة والطاولات مزدحمة بأطباق السَلَطة وبقايا الطعام وزجاجات البيرة الفارغة وأقداح العصير، ألقى منصور أسرين كلمة وداعية قال فيها: «ما أنا متأكد منه هو أنني أحب هذه الفتاة، تلك هي الحقيقة الوحيدة التي أعرفها، وأعرف أنها ليست قليلة. أنا راحل في الغد، سأغيب ثماني سنوات وأعود بعدها. أعلم أن أمامي رحلة شاقة وأن طواف العالم ليس بالأمر السهل، ولكن ليس في الدنيا شيء أصعب من عشق امرأة». عند سماعهم هذا الكلام، صفق له الجميع ونهضوا احتراماً له وقدموا له الشكر. احتضنته عماته بزيّهن الكردي وبكين. ودّعه أقاربه فرداً فرداً وهم يتمنون له التوفيق في رحلته. وتقدم البعض من الشعراء والعازفين السكارى فشدوا على يديه بحرارة قائلين: «هذه المدينة بحاجة إليك... المدينة ستفتقد شخصاً مثلك، وحيثما تكون فلا تنس هذه الحقيقة». البعض عانق منصور بدفء والبعض الآخر قال: «كان شرفاً كبيراً لنا أن نمضي هذه الليلة معكم... إنها ليلة لا تُنسى».

بقيت ذكرى تلك الليلة عالقة بشكل أو بآخر في أذهان الجميع، ليس فقط بسبب بهجتها وتنوعها ولكن بسبب أحداث ستقع فيما بعد. فقد كانت تلك الليلة انطلاق شرارة صراع بين عائلات الخُطّاب الثلاثة وأنصارهم؛ ففي تلك الليلة شجَّ قلندر آمون بعقب مسدسه رأس «مصطفى هجار» الشاعر. جرت الحادثة على الشكل التالي: بعد الانتهاء من حفل توديع منصور أسرين، انصرف مصطفى هجار ثملاً برفقة صديقه الشاعر «سعيد بيمار»، فصادفا قلندر آمون عند عربة بائع خضار. لم يخرج قلندر آمون في حياته، ومنذ أن كان في الرابعة عشر من العمر، من منزله بدون مسدس. رأى مصطفى هجار، المعروف بإدمانه على شرب الخمر، الفرصة سانحة: «هيه... قولوندر... هل كنتم تظنون أنكم تستطيعون شراء سوسن گولدانـچي بأموالكم؟ خاب سعيكم هذه المرة. أنا متأكد أن رجلكم أعجز من أن يقبض على صوص دجاجة... هل تفهم أيها الأصلع الأمخط. أقسم أن فتاكم غير قادر على اصطياد طائر قطا مريض». في البداية، لم يلقِ قلندر إليه بالاً، وتابع فصفصة بذور باقلاء كان يحملها متظاهراً أنه لم يسمع شيئاً. ولو كنتم تعرفون قلندر آمون جيداً لعلمتم جيداً قيمة الصبر الذي ألزم نفسه به في تلك اللحظات. كان قلندر ضخم الجثة رفيع الوجه طويله. لم يكن في رأسه كله شعرة واحدة، والأدق أن ذلك الزغب الخفيف الذي كان يغطي فروة رأسه لم يكن يخفي البتة جلدة رأسه السمراء. كانت شهرته بوصفه مسؤولاً عن سلاح المدفعية خلال الثورة في السبعينيات قد

تركت في نفسه شعوراً أبدياً بالفخر، وكان معتاداً حيثما كان أن يحلف بقبور الشهداء وقبر البارزاني. وكان من عادته، بعد أن يشرب، أن يخرج مساءً ويأتي إلى عربة بائع البقلة هذا أمام باب نادي الضباط ليشتري منه ويتسلى به في الطريق. كانت له هيبة وفيه افتخار لطالما أزعج منه حتى أقاربه من الآمونيين الذي كانوا يعلمون جيداً مدى شراسة طبعه. ولولا أنه كان ثملاً لما جرؤ مصطفى هجار حتى على المرور بقربه في تلك الليلة. حين لم ير مصطفى من قلندر أي ردة فعل على ما تفوه به قبل قليل، تمادى في المعايرة والشتيمة. وبعد أن تلفظ بكثير من السباب والألفاظ النابية، صرخ بصوت سمعه كل من كان في الجوار: «انظر يا قولوندر... ليس هناك آموني واحد تزوج عن حب. أنتم عشيرة جبلية لا تستحون حتى اليوم من خطف النساء، ليس في عشيرتكم كلها رجل أحبته امرأة. أقسم أن زوجتك نفسها لا تحترمك. أقسم بإله العشق أن زوجتك تنظر إليك نظرتها إلى كلب شارد... كلب كبير الرأس وذليل». وبالطبع، كانت تلك الإهانة أكبر من أن يسكت عنها أي رجل، ناهيك عن قلندر آمون. شهد الذين حضروا ذلك الشجار في ما بعد أن قلندر آمون رمى بباقة الباقلاء التي كانت في يده أرضاً بكل هدوء ونفض يديه، ثم، وبدون أن يقول شيئاً أو يُظهر أنه على وشك أن يدخل في شجار، انقض فجأة بكل قوته، وبلا تردد ولا تفكير، على مصطفى هجار الذي ارتمى أرضاً في الحال. حين شاهد سعيد بيمار ما حدث فر إلى الجهة الأخرى من الطريق وأوقف أول سيارة أجرة صادفته وهرب لا يلوي

على شيء. شهد الجميع أن قلندر أشهر مسدسه علانيةً ووضع فوهته في رأس مصطفى هجار الذي أخذ يبكي ويتوسل: «أيها الآموني قلندر... لن يغفر لك إله العشق». ظن الجميع لوهلة أن قلندر لا محالة سيقتل مصطفى هجار، ولكن في لحظة ما بدّل قلندر رأيه واكتفى بأن يخبط بعقب المسدس رأسه ووجهه. لا أحد يعرف كم استمر ذلك المشهد ولكن في النهاية رفع قلندر مسدسه بهدوء، وبدون أن ينبس ببنت شفة وكأنه لم يرد أن يداخله أي فخر بأنه قد ضرب صعلوكاً مثل مصطفى هجار، بل كأنه كان يشعر بخجل شديد مما فعل، إذ مسح بعض حبات العرق عن جبينه ثم نهض فسار لا ينظر خلفه قاصداً حي الحدادين.

في تلك الليلة، ذهب منصور أسرين برفقة ساقي محمود لزيارة مصطفى هجار في المشفى. وفي الطريق جرى بينهما حوار رواه لنا ساقي ولكن بعد سنوات كثيرة، إلا إنه يستحق أن نروي منه فصلاً ها هنا؛ فقد سأله ساقي: «اسمع يا منصور، أنا وكيلك إلى حين عودتك... سأقوم بشيء يجعل ذكراك محفوظة في رؤوس الناس ولن ينساك أحد، ولكن في هذه الليلة كلما نظرتُ إليك أدركتُ كم أنت شقي في حياتك. أنت مسافر بعد يومين فقل لي الآن بم تشعر؟». فأجاب منصور بعد تفكير: «ساقي... في الحقيقة إن أكثر ما يخيفني هو أن تجرفني الدنيا. لا أعرف سبب شعوري أن سوسن تطلب مني أن أذهب في رحلة لا عودة منها. قرأتُ ذلك في عينيها، قرأتُ أنها ستكون

في قمة السعادة إن لم يرجع أحد منا من تلك الرحلة، وكأنها تدرك أن تحررنا هو في طواف الأرض والضياع في مجاهلها. كلا يا ساقي، القضية ليست أنها تريد إزاحتنا عن طريقها، بل بالعكس فأنا أشعر أننا نذكّرها بالظُّلمة، وذاك هو سبب خوفها منا. منذ عدة أيام وأنا أفكر... إنها تخاف من كل رجل نشأ في هذه المدن. نحن جميعاً نذكّرها بالظُّلمة، كلنا نذكّرها بظلمات هذه المدينة وهذا العالم».

نظر إليه ساقي محمود متعجباً وقال: «وأنت... أتعتقد أن هذه الرحلة ستدوم إلى الأبد؟». فأجاب منصور بهدوء: «لا أعرف... ما يهم الآن هو أن أرحل. لا شك أننا، نحن الثلاثة، حين عشقنا سوسن لم نكن نفكر في السفر. إن الحب في هذه المدينة مرتبط برغبة كبيرة في الاستقرار وبناء بيت. لم يفكر أحد منا في الموضوع بهذه الطريقة. كان هذا الحب بالنسبة لي، في البداية، تطهّراً من ذنب خفي. نحن رجال هذه المدينة نريد أن نتطهَّر من ذنوبنا بالحب، ثمة شعور بالخطيئة في أعماقنا وفجأة نريد أن نتخلص من ذلك الشعور بالذنب عن طريق حب امرأة ما لنقول هيا تعالوا وانظروا كم نحن طاهرون، كم نحن بشر ونستطيع أن نعشق امرأة. لماذا طعنني كاميراني سلمى، قل لي لماذا؟ لأنه يريد أن يتطهَّر عن طريق حبه لسوسن. إن الحب يمنحه طهارة تمكّنه من ارتكاب ذنوب أخرى جديدة. وأنا بدوري أردتُ من خلال تضحيتي بنفسي في سبيلها أن أتطهّر. تلك الفتاة ترى ما في أعماقنا جميعاً، لكنها تعلم أن

تلك الطهارة التي ننشدها لا يمكن الحصول عليها عن طريق حب امرأة... الحب وحده لا يطهّر المرء... نعم يا أخي، تلك هي المسألة. سوسن محقّة، فلا يمكن لواحد مثلي أن يدرك صعوبة العشق إلا بعد أن يفهم مدى رحابة هذا العالم».

قال ساقي: «إذن، فأنت تفهم المسألة على أن هذه الرحلة كلها درس لكم جميعاً حتى تفهموا المعنى الحقيقي للعشق؟». فأجاب منصور: «درس؟! لا... إنه شيء أعمق من أن يكون درساً. اسمع يا ساقي، أنا أدرك جيداً أنه ما من امرأة على الأرض لم تتمنّ في وقت من الأوقات أن يموت زوجها ثم يُبعث إلى الحياة بشكل آخر، ومعظم الرجال لديهم الأمنية ذاتها، وسوسن من ذلك النوع، غير أنها تريدنا من البداية أن نذهب فنموت ثم نُبعث إلى الحياة في غابات هذا العالم ودروبه وجباله... هي لا تريدنا بالصورة التي نحن عليها والتي ربّتنا هذه المدينة على أن نكونها. نحن رجال لا نمتلك طاقة على العشق. إن ما يميّز سوسن عن سائر نساء هذه المدينة هو علمها أن جميع المشاعر التي تعتمل في صدر رجل تجاه امرأة ليست هي الحب، بل شيء أقل منه قيمة. أتعرف ما الذي يخيفني من هذه الرحلة؟ ما يخيفني هو علمي أنني في هذه الرحلة سأرى نفسي بشكل أوضح. شيء يفوق رغبتي في رؤية نفسي ويفوق جرأتي على رؤيتها في الوقت نفسه».

قال ساقي: «إن أذنتَ لي، فأنا قد فهمتُ أنك قد هربتَ من نفسك لوقتٍ طويل، وأنك تخشى الآن أن تُخرج هذه الرحلة

من أعماقك شيئاً لا تريد له أن يخرج».

قال منصور بحزن: «انظر إليّ يا ساقي، أنا لستُ طفلاً بل إنني بعد تلك الطعنة أشعر أنني قد شِختُ. منذ أن وقعت عيناي على سوسن وأنا أشعر بالخوف من هذه المدينة. تخيّل أن كل جدران هذه المدينة مرايا وأنك تقف أمامها وتسأل: من أنا؟ مرة وعشر مرات ومئة مرة تسأل «من أنا؟»، ومن الطبيعي أنك لن تسمع جواباً من تلك الجدران. أشعر أن سوسن قد جرَّبت قبلنا ذلك الصمت، لا أحد هنا يمكنه معرفة من هو بالضبط. لا يستطيع المرء اختبار نفسه في هذه المدينة، وإذا لم يرحل عنها لن يمكنه اختبار نفسه ومعرفة من هو بالضبط. وذاك كان سبب عيشي المطمئن في هذه المدينة... كنتُ مرتاحاً للغاية، لأن هذه المدينة كانت تساعدني على ألا أختبر نفسي... ما من مكان كهذه المدينة يساعد المرء على الهروب من نفسه. هذه المدينة كانت جنتي الحقيقية. أخي ساقي محمود، إن جهنم أهون من الاختبار، وأنا منذ أن خُلقت لا أكره شيئاً كرهي للاختبار. أنا من ذلك النوع الذي يحب أن يهرب من نفسه، وجميع الذين يحبون أن يفروا من أنفسهم يميلون عادةً إلى العيش طوال حياتهم في مكان بعينه، ولقد كنتُ، حتى البارحة، من هذا النوع من البشر... أما الآن فلا... لا أستطيع أن أكون ما كنتُه البارحة. لقد انتهى ذلك نهائياً، وأنا الآن متشوق إلى تسليم نفسي إلى الدنيا، إلى الطرقات والأنهار، إلى أي مجهول وأي مصير قد يصادفني».

٢٤

كانت أكبر مشكلة واجهها كاميراني سلمى هي تأمين المال من أجل القيام بتلك الرحلة. كنا جميعاً نعلم أن رحلة كهذه تكلّف مبالغ من المال لا يمتلكها أحد من أقرباء كاميران. من هذه الناحية، كان خالد آمون ومنصور أسرين محظوظين؛ فقد كان لكليهما أقارب أغنياء يتكفلون بنفقاتهما. كان من الغريب ألا يظهر على منـكور وكاميران ما يوحي أنهما قلقان من مسألة التكاليف. اعتقد البعض منا أن ذلك الاطمئنان مرجعه إلى اتفاق سري بين الاثنين يقضي بألا يتخلى منـكور عن كاميران في أوقات السفر أو الشدة، بينما رأى البعض الآخر أن سبب اطمئنان كاميران من هذه الناحية هو ثقته اللا متناهية بنفسه وببراعته في لعب القمار بحيث يمكنه أن يجني المال في أي مدينة من مدن العالم يجد نفسه فيها. ومع ذلك فعلينا أن نذكر أنهما لم يتطرقا البتة إلى هذا الموضوع، وحتى حين سألناهما هل أعدّا لهذا الأمر عدّته أجابا بمرح أن لا أحد يموت من الجوع، وأن الله هو من يتكفل بالغرباء.

حين ذهبنا في ذلك اليوم لاستطلاع آخر أخبار واستعدادات كاميراني سلمى لرحلته، كان قد شاع في المدينة لتوه خبر الشجار الذي وقع بين قلندر آمون ومصطفى هجار. صرخ منكور: «كان يوسف كَويار العظيم يقول أن لا أحد يدخل في شجار بعد الحادية عشرة ليلاً سوى الأنذال. لم أره في حياتي يقاتل بعد الساعة الحادية عشرة ليلاً، كانت تلك الساعة عنده ساعة النوم، وأنا أرى ما يراه، وعلى جميع الكائنات بعد الحادية عشرة ليلاً أن تضع رؤوسها على مخداتها العفنة وتخلد للنوم. الفتاة محقّة، يبدو أنها قد سمعت ببعض هذه القصص، ولهذا فهي تريد إبعاد هؤلاء الشباب عن هذه المدينة إلى الخارج. في الحقيقة، لو كان الأمرُ بيدي لأرسلتُ بجميع سكان هذه المدينة ليطوفوا العالم. لقد فكرتُ كثيراً في حكمة تلك الفتاة من فرضها ذلك الشرط، إنها تمتلك حكمة ورصانة لا مثيل لهما. حين جلستُ مقابلها شعرتُ بما شعر به أي رجل التقى بها، وعلمتُ أن وقوع الرجال في غرامها أمر لا يتعلق بكونها جميلة... لا يا صاحبي، إنك حين تقع عيناك عليها قد تتساءل في نفسك: لماذا يا ربي، لماذا مخلوق كهذا، كائن كهذا، تحفة إلهية كهذه، يجب أن تمكث على هذه الأرض زمناً قصيراً ثم تفنى؟ حين رأيتها للمرة الأولى، شعرتُ بقلبي يتحطم وقلتُ: أيها الإله العظيم، لماذا تحكم على جمال كهذا أن يعيش بيننا زمناً قصيراً ثم يزول في آخر الأمر؟ لا أعرف لماذا ساقني خيالي نحو التفكير في الموت. وبعد ذلك حين رجعتُ إلى البيت، أخذت ألطم نفسي وأقول: يا ولي الله الخضر الحي، ما

الذي دعاني في تلك اللحظة إلى ذلك الخيال التعس وأنا الذي لم يسبق لي في حياتي أن فكرتُ مرة بالموت بعد اللقاء بامرأة؟ أقسم بشرف جدي، كانت تلك المرة الأولى التي يحدث لي فيها مثل ذلك الأمر... المرة الأولى. لا تفهموني خطأً... أنا لا أقصد أنني أتمنى الموت العاجل لهذه الفتاة، إنما قصدتُ أن تلك الصورة البهية يجب أن تبقى إلى الأبد. كلما رآها المرء تمنى أن يراها جميع الناس في كل مكان وزمان... كم هو مؤسف أن تزول مثل تلك الصورة من الوجود بتلك السهولة. يشتهي المرء أن تتاح رؤيتها حتى لأولئك الذين سيولدون بعد مئة عام ليقولوا: ربّاه، ما كان أسعدَ أهلَ زمانها بها وما أجملَ أناسَ ذلك العصر!».

كان كلام منكور موجهاً إلى جميع الحاضرين، على أنه كان بين الفينة والأخرى يلتفت إلى كاميراني سلمى الذي كان يرتشف شايه. سألنا منكور: «لماذا تفعل الفتاة كل هذا، لماذا لا تختار واحداً من الثلاثة وينتهي الأمر، لماذا تقضي على هؤلاء الشباب بالتشرد، وما تلك المحبة التي تمنح صاحبها الحق في فرض شروط مجحفة كهذه؟».

نظر منكور إلى الجميع نظرة ساخرة وأجاب: «أظن أن الفتاة تحب الشبان الثلاثة كلهم ولا يمكنها تفضيل أحدهم على الآخر. سأقول لكم شيئاً: ذات مرة، عشق «فَره يَك چاو» امرأتين معاً، وبالطبع فإن محبته لم تكن من ذلك النوع الذي يحرق قلوب المحبين لتصل رائحة قلوبهم إلى بيوت

جيرانهم... كلا، فَره لم يكن من ذلك النوع، ولكنه في الحقيقة كان قد أحبّ كلتيهما وكان عاجزاً عن اختيار واحدة منهما، فما كان منه إلا أن جرّ مؤخرته خلفه واتجه إلى إيران. مكث في إيران ثلاثة عشر عاماً. وحين عاد كانت كل منهما قد تزوجت وخلّفت رهطاً من العيال. بعد عودته، كان في قمة السعادة... لا تسألوا... كان يشعر أنه خلال سنوات الغربة تلك قد استعاد حياته، وكان يقول بعد ذلك: إن أفضل طريقة للتغلب على أي امرأة هي السفر؛ ففي تلك الحالة يسقط في يدها ولا تعود قادرة على فعل شيء، السفر يتركها مشلولة وعاجزة. وبرأيي فإن سوسن فِكرت هي كذلك، لا يمكنها اتخاذ قرار. وبما أنها عاجزة عن السفر فقد فرضت على خُطّابها أن يسافروا». سأل أحدنا منكور: «ولكن يا منكور، هل ذلك عادل، هل يجوز حدوث ذلك؟». فأجاب منكور: «لا شيء عادل، وهل من العدالة مثلاً أن يولد المرء في مكان قذر كهذه المدينة؟ حين تعبر السوق، تزكم أنفك رائحة الشمندر والقرنبيط المتعفن. الفتاة محقّة... إنها تريد من هؤلاء الشباب أن يشدوا أحزمتهم وينطلقوا. إن الظلم الأكبر هو ولادتنا في مثل هذه المدينة. أقسم بشرف جدي أن هذه الفتاة تريد أن تصحح خطأً إلهياً. قولوا لي، لو كان الخيار لكم في مكان ولادتكم فمن منكم كان سيختار أن يولد في هذه المدينة؟ أكنتم ستختارون هذا المكان أم لا؟ أنا واثق أن أي جاموس منكم ما كان ليختار هذه المدينة. لو أن الإله العظيم سألني: يا منكور، يا عزيزي، يا ولدي... هذه خريطة العالم، هيا اختر لنفسك مكاناً، اعثر لنفسك على مكان

ترتاح فيه مؤخرتك، ما كنت لأختار هذه المدينة بل إن آخر بقعة سيخطر لي اختيارها ستكون هذه المدينة. ولكن الباري تعالى حين رآني وأنا طفل ورأى رأسي وجثتي، وضع الخريطة وقال لي: انظر بنفسك، لم يعد ثمة أي مكان فارغ، أتفهم... لم يبق مكان، وإذا أردت أن تدخل إلى سينما الحياة هذه فليس أمامك من خيار سوى هذه المدينة القذرة التي أنا شخصياً لا أعرف أهي في شمال العراق أم في جنوب كردستان. قال لي: منـگور، هذا هو المكان الوحيد الشاغر، فإن رغبتَ فيه فلا بأس، وإلا فإن لديّ أشغالاً أخرى ولا يمكنني أن أهمل العالم لأجد مكاناً مناسباً لمؤخرتك. وهكذا وجدتُ نفسي وقد ولدتُ في هذه المدينة».

قال أحد رفاقنا، وبدون حتى أن يفكر في ما قال منـگور: «ولكن إذا حدث وأحب هؤلاء الفتية نساءً أخريات في تلك البلاد البعيدة فإن الحكاية تنتهي عند هذا الحد، وعندها أنا متأكد أن ابنة فِكرت گولدانـچـي ستندم على كل هذه الجلبة التي أثارتها».

قال منـگور: «في تلك الليلة حين غادرنا منزل گولدانـچـي قلت لنفسي: ليت الرب أرسل لي، حين كنتُ ما أزال شاباً، امرأة تبث في نفسي مثل هذا الحماس لأترك هذه المدينة. إن أغرب ما ينساه الإنسان في هذه المدينة هو أن ثمة شيئاً يدعى العالم. أقسم بقبور أمواتي، حين يولد الإنسان هنا تُنتزَع منه هذه المعرفة فلا يعود يفكر في وجود العالم إلا كما يفكّر في

حجم مؤخرته. وماذا إن أحب كاميراني سلمى امرأة من تلك البلاد البعيدة؟ أنت حر يا أخي... أنت حر ولكنني لا أرى ذلك عدلاً ولا إنصافاً. لنأمل جميعاً بأن يعود. يمكنه أن يتجول قدر ما يشاء ولكنه لا يجب أن ينسى أن كل رفاقه بانتظاره».

لم يعلّق كاميراني سلمى بشيء، كان غارقاً في التفكير وهو يصغي إلى منـگور. التفت إليه منـگور وقال: «هيه... يا أخي، لماذا لا تقول شيئاً... ليس سهلاً أن تنسى أصدقاءك وأصحابك خلال ثماني سنوات. أنا أعلم أن مهمتك شاقة وأن العثور على تلك الطيور ليس بالأمر السهل. أقسم أن تلك الفتاة تعرف بالضبط أين تعيش تلك الطيور وكيف يمكن للمرء اصطيادها... كل شيء مذكور في كتب تلك المكتبة الكبيرة، ولكنك ستتعب كثيراً وستضطر إلى المرور بأجناس مختلفة من الشعوب والأقوام، والأصعب من كل ذلك هو أن تحافظ على طيورك. أسأل الله أن يمنحك الفرصة. ذات مرة قال والد «شيرواني حَبسَ خان» لولده: امكث في بيتك يا ولدي فهو أكثر الأماكن أمناً بالنسبة لك. وأذكر أن شيرو أجابه: يا أبي، إن الجنة والجحيم كليهما خارج هذا البيت، فإذا أنا لم أخرج اليوم من البيت طوعاً وأسلك أحد هذين السبيلين، فغداً سيأتي من يجرني من ناصيتي إلى خارج هذا البيت، ولذلك فإن من الخير لي أن أخرج طوعاً. يا أخي، مهما كان البيت آمناً فلا بد للإنسان يوماً أن يفتح الباب ويخرج، لا بد من فعل ذلك. هيه يا أخي، أنا أفهم صمتك هذا فأنت أيضاً ابن هذه المدينة. أقسم

أن كل من خرجت مؤخرته من البيضة في هذه المدينة لو ذهب إلى آخر الدنيا فسيبقى ثمة خيط يربطه بها... ارجع يا أخي ارجع، كلنا بانتظار عودتك. بعد ثماني سنوات إن كنا ما نزال باقين، نحن وهذا الفندق المأفون، أقسم باسم الله أنني عندها سأقيم لك حفلة لم يرَ أحد مثلها. فإن كانت سوسن فِكرت من نصيبك فخير وسلامة، وإن لم تكن فإنك على كل حال لم تخرج خالي الوفاض... أتفهم ما أعني... ستكون قد كسبتَ الدنيا. كان يوسف كَويار العظيم يقول: في القتال، لا يغلب المقاتل عدوه بل يغلب نفسه... كذلك قال المرحوم. وإن لم تقبل تلك الآنسة بالزواج منك فإن ذلك لن ينقص من احترامي لها ذرة، تلك الفتاة تريد النصر لكم أنتم الثلاثة. فإذا رجعتم من تلك الرحلة بعقل مستفاد تكونون أنتم الثلاثة منتصرين».

قال أحدنا لمنـگور: «هيه يا منـگور، لقد نسيتَ شيئاً... العمر. لم تحسب تلك السنوات الثماني التي ستمر من عمر هذا الفتى». فقال منـگور: «بالطبع لم يغب ذلك عن ذهني يا عزيزي... أكنتَ تظن أنني أغفل عن حساب ثماني سنوات من عمر شاب مثل كاميراني سلمى؟ أقسم بمؤخرات أحبابنا جميعاً، حين سمعت كلمات سوسن فِكرت للمرة الأولى، شعرتُ برعشة تجتاح كياني حتى تصل إلى أطراف أصابع قدميَّ. ما أسهل قول «ثماني سنوات!»، ولكن إذا أنت فكرت فيها جيداً فسترى أنها من مصلحة كاميران. فإن بقي كاميران هنا وبقي هذا الفندق في مكانه فسيظل هاهنا جالساً في وجهنا.

ماذا سيفعل هذا الفتى هنا خلال ثماني سنوات؟ هيا قولوا لي... لا شيء سوى أنه قد يغلب عدة مرات بعض الجواميس من أمثالكم في لعبة الشدة، قد يطعن بسكينه هذا أو ذاك من الناس، ومن الجائز كذلك أن يقبضوا عليه ويسوقوه إلى الحرب... من يعرف؟ أقسم بقبور جميع أنبياء الأرض أن خياره الثاني أفضل له. إن كرّس هذه السنوات الثماني من حياته في فهم خفايا هذا الكوكب اللعين وسبر أغواره، فلا شك عندي أنه سيفهم الحياة أفضل مما لو قضاها متنقلاً بين قبو هذا الفندق العفن ومقهى «پـِپولَي آزاد»، هذا الذي ترتع فيه اثني عشر شهراً في السنة أسراب الذباب والبعوض الحر بدلاً عن الفراشات. إن ذهب في تلك الرحلة فسيجرّب على الأقل أنواعاً جديدة من الأشربة، ويرى مقاهي أخرى، وعندها لن يلتفت إلى حمقى هذه المدينة الذين يقضون سحابة أعمارهم في الأنين والتأوه من أجل هذه الفتاة أو تلك... على الأقل سيرى ما ليس موجوداً في هذه المدينة. أنار الله قبر «جمالي خَسَ كوم» هذه الليلة بالذات أكثر من سواها، كم كان يحب كلمة (على الأقل) هذه ويقول عنها إنها أهم كلمة في الدنيا... بلى، كذا كان يقول. على الإنسان أن يهتم كثيراً بهذه الكلمة الثمينة. ولو أنني قلت لنفسي وأنا في شرخ الشباب «فلأتعلم علماً نافعاً فهو على الأقل أفضل لي من هذه المشاكل» لكانت حياتي سلكت مساراً آخر حينها. وإن بقي كاميراني سلمى هنا فلن يتعلم شيئاً، وسيقول بعد مضي ثماني سنوات «لو أنني سافرتُ لكان خيراً لي على الأقل من قضاء كل حياتي هنا أمام أنف منـگوري باباگوره». حين تزوج

المرحوم جمال أول مرة، كانت زوجته قبيحة المنظر، بل إنني أقسم بمراقد الأولياء أنني لم أصادف في حياتي حتى اليوم امرأة أقبح منها، لكنه قال حينها: «الزواج بامرأة قبيحة أفضل على الأقل من عدم الزواج». وحين تطوَّع في البيشمركة قال: «هذا أفضل على الأقل من أن يسوقوني إلى الجيش». وحين انتحر وجدوا إلى جانبه ورقة مكتوباً فيها «الموت أفضل على الأقل من هذه الحياة اللعينة التي لا طعم لها».

ضحكنا جميعاً لكن منكور قطع ضحكاتنا وقال بانفعال: «وفي نهاية الأمر، إن لم يسافر هذا الفتى، ولنفترض أنه لا يريد السفر، فعندها لن يبرأ قلبه من حسرة الحب الأول حتى آخر عمره. قد يقول أحدكم «هيه يا منكور... لا تهوّل الأمور هكذا فالدنيا فيها آلاف الفتيات، وشاب مثل كاميراني سلمى لا بد أن يجد في النهاية زوجة تناسبه». وأقسم أن واحداً منكم على الأقل قد حدث نفسه بهذا الكلام. ولكني أقول غير ذلك، أقول إن الفتيات قلة... نعم... كان يوسف كَويار يقول إن الرجال الحقيقيين والنساء الحقيقيات نادراً ما يلتقون ببعضهم البعض... الرجال والنساء الحمقى هم من يرون أن الحب موضوع يستحق السخرية. إن لم يجتهد كاميراني سلمى في أمر هذه الفتاة فما الذي عليه فعله؟ لا يمكنه بالطبع أن يأخذ تلك الفتاة عنوة. أقسم بشرف أمي أنني ضد أخذ النساء عنوة، ومن يكون صاحبي لا يقوم بتصرفٍ أكرهه. لو قالت له تلك الفتاة صراحةً إنها لا تريد كاميران، صدقوني، لسالت الدماء من

أحشائي ولاحترق قلبي أكثر من قلب كاميران نفسه. ومع ذلك فمن المستحيل أن أفكر ولو لحظة في انتزاع سوسن فِكرت عنوة من فراشها ومن مكتبتها واختطافها... لا... قسماً بالله... وكل من كان لمنـگور أخاً لا يقوم بذلك الفعل المنكر. أقسم بشرف الأولياء الصالحين أن شخصاً يفعل ذلك لا يستحق حتى أن أصافحه... مهما كان عزيزاً عندي... حتى وإن كان أمام عينيّ فإنني قد أنظر إليه ولكن لا ألقي عليه التحية. أنا أعرف أين تنتهي الحدود الحقيقية للرجال وكاميراني سلمى كذلك يعرفها... أليس كذلك يابن سلمى؟ هيا قل...».

نظر إليه كاميران وقال: «منـگور، لقد تعلمتُ منك أشياء كثيرة... أشياء لطالما استفدتُ منها في حياتي، ولكن لا أعرف مدى فائدة ما تعلمته منك إن أنا انتقلتُ للعيش في مكان آخر غير هذا وفي ظروف غير هذه. ولكن ثق أنني حيثما رمت بي الأقدار فسأكون بانتظار رسائلك، بل رسائلكم جميعاً. أنت ذكرتَ قبل قليل مَثل الطائر الذي حيثما طار وحلّق تبقى قدمه معلّقة بخيط إلى هذه المدينة... أنا هو ذلك الطائر يا منـگور... حين أذهب لن يكون في ذهني سوى شيء واحد هو متى أرجع. سأعود بصورة تجعلكم جميعاً فخورين بي. هذا فقط هو ما يهمني، أن تكونوا فخورين بي».

رفع منـگور، وهو مبتهج، يد كاميران عالياً وقال: «هيه... أيها الفتى... يا أخانا الجميل، لا يحتاج الأمر إلى كلام، فأنا أعرف طبيعة معدنك. إن رحيلك بعيداً عنا أمر محزن لنا بالطبع،

ولكن طوافك في العالم فرصة جيدة لك. أخي الحبيب، سأرافقك حتى الشريط الحدودي... لي معارف كثيرون في الطرف الآخر من كردستان، يمكنك من هناك ومن أي مكان في العالم أن ترسل لنا الرسائل، لعل الله يمد في أعمارنا ويكتب لنا اللقاء من جديد. يحدث أحياناً أن يمر ثماني مئة عام ولا يحدث في العالم شيء مهم، وأحياناً خلال ثمانية أشهر تنهار ثماني ممالك... لا شيء ماكر كالتاريخ... لا يمكن التنبؤ أبداً بحركات مؤخرته. ولكن يا أخي الحبيب، لتكن سكينك دائماً معك، لا تذهب إلى أي مكان في العالم بدون سكينك، وحين ترى نفسك متعباً اجلس وتأمل تلك السكين وتذكرنا. لقد سمعتُ «عُنيلي سَبَي قَيماغ» مرة يُقسم أن الأخوّة في السكين بين اثنين، أقوى من الأخوّة في الدم. كان عُنيل مؤاخياً «ياسيني شُكه»، وبعد مقتل عُنيل ظلماً لم تمض ستة أشهر حتى فاضت روح ياسين قهراً وكمداً عليه. كان عُنيل قد أوصاه أنهم إذا قتلوه بمسدس ألا ينتقم له منهم. كان ياسين رجلاً شديد المراس ولولا وصية عُنيل تلك لما أبقى واحداً من قتلته على قيد الحياة، تلك الوصية كانت قيداً في يديه ورجليه. وأنت يا كاميراني سلمى، الله وحده يعلم إلى كم ستبقى حكايتك هذه على ألسنة الناس. ولكن يا أخي الصالح، إذا شعرت في أي بلد بالهمِّ أو الوهن فتأملْ سكينك فقط. مهلاً، هاكَ سكيني، احتفظ بها كذكرى لعلها تخفف عنك بعض آلام الغربة. للسكاكين لغة نفهمها نحن جميعاً، إنها أفضل من تلك البلابل التي تغرد بلغة لا أحد منا يفقه منها حرفاً. بلى، السكاكين أفضل كثيراً

من البلابل. أقسم لك بقبر يوسف كَويار أنني لم أدّخر جهداً، وسأفعل أي شيء في سبيل مساعدتك على قهر خصومك... أي شيء... ولذلك امضِ ولا تخشَ شيئاً».

٢٥

مع حلول ربيع عام ١٩٨٧، حصل كل واحد من الخُطّاب الثلاثة بطريقته الخاصة على «جواز سفر» بعد أن استعان بمزوِّر محترف لتثبيت صورته عليه. ثم خرجوا، في أيام متفرقة، عبر ثلاثة معابر حدودية مختلفة عن طريق مهرِّب. كانت جوازات السفر الثلاثة مزوَّرة بإتقان شديد لا يمكن لأفضل الخبراء كشفها. وفي ثلاث أمسيات متفرقة، قام المستشارون الثلاثة، بكل احترام، بزيارة منزل گولدانـچـي وأعلموا سوسن برحيل الفتيان الثلاثة، وأهدى كل واحد منهم إلى سوسن فِكرت آخر صورة لصاحبه وهو على الشريط الحدودي بين الوطن والخارج. أخذت سوسن الصور ووضعتها بعناية شديدة في ألبوم خاص. في الصور الثلاث كان الشبان الثلاثة واقفين بالقرب من البوابة الحدودية مرتدين زيهم الكردي وعلى شفاههم جميعاً ابتسامات واسعة، كانت، على الأغلب، من أجل بث بعض التفاؤل في نفس سوسن.

بعد رحيل الشبان الثلاثة، ساد الصمت والهدوء حياتنا.

ولكننا جميعاً، شيباً وشباباً، كنا متعطشين إلى رؤية سوسن وتقصّي أخبارها ومراقبة كل حركة تقوم بها، فقد كانت الفتاة الوحيدة في المدينة التي كنا جميعاً على علم بحكاياتها، ولذلك كان من المهم بالنسبة إلينا متابعة أحوالها وعدم تفويت شيء منها. مرت فترة لم نرَ سوسن إلا خلال زياراتها إلى عيادة الدكتور «رفعت رمزي»، وهو طبيب شاب كان يرى أن لا سبب في نحول سوسن وآلام رأسها إلا وحدتها القاتلة والهدوء الذي يحيط بحياتها.

بعد رحيل الشبان، أخذت سوسن تمضي وقتاً أطول في المكتبة، وركزت خلال السنوات اللاحقة بشكل موسَّع على دراسة علم الطيور، وكانت تهتم بشكل كبير بكل ما يختص بأنواع الطيور وتصنيفاتها. وقد طلبت من أجل ذلك عدة كتب جديدة من الخارج سرعان ما حصلت عليها، كما أنها استطاعت عن طريق المراسلة أن تصبح عضواً في بعض جمعيات علم الطيور وحماية الطيور في أنحاء العالم. ومنذ ذلك الوقت، تغيّرت علاقتها بالطيور. أصبحت لا تقبل البتة أن يُذبح في حضورها أي طائر مهما كان نوعه، ولا أن تجلس على مائدة عليها لحم طائر، ولا تسمح لأحد أن يطرد الطيور من أيوان بيتها أو باحته أو سطحه. أصبح ذلك قانوناً في حياة عائلة گولدانـچـي. ولكن، رغم كل ذلك، لم يكن أحد منا يشعر أن في حياة سوسن گولدانـچـي شيئاً ما تعيش من أجله في حالة عشق عميق ورغبة جارفة، لا شيء سوى البرود والعقم الذي

لم نكن نعلم في الحقيقة مدى ارتباطه بحياة سوسن الخفية.

في ذلك الوقت، أصبحت العلاقة بين سوسن وأختها پـروشه تبرد شيئاً فشيئاً، ويوماً بعد آخر كانت تتقلص مساحة الحديث فيما بين الأختين. كانت پـروشه، كأي أرملة شابة، تصرف الكثير من الوقت في شؤونها اليومية؛ تستقبل الضيوف، أو تخرج للتسوق أو التنزه. أما سوسن فكانت تقريباً بلا أصدقاء. بعد انتهاء زوبعة الخُطّاب الثلاثة وعودة الهدوء إلى الأرواح القلقة، عادت علاقات فِكرت گولدانـچـي بأقربائه إلى مسارها الطبيعي. لم يكن فِكرت من ذلك النوع الذي يمكن للمرء أن يخاصمه لفترة طويلة. لقد كان الجميع يجلّه ويقدّره وكأنه قائد كبير يعيش في مدينة صغيرة. لم يكن فِكرت يعاني من أي مشكلة في إقامة العلاقات مع من هم في مثل سنه، وكان يقول إن صداقة المسنين أسرع وأمتن لأن مطامعهم الدنيوية تكون عادةً في أدنى مستوياتها. وكثيراً ما كان يكرر في مجالسه وحواراته «فقط عند الاقتراب من الموت تتكون لدى الإنسان القدرة على إقامة صداقات حقيقية». في تلك الفترة، استنتج فِكرت من خلال مراقبة دقيقة لسلوك ابنته ونمط حياتها، أن هذه الشابة العنيدة بحاجة ماسة إلى الخروج من المنزل، ولكن إلى أين؟ فليس في المدينة كلها مكان مناسب يمكن الذهاب إليه، ناهيك عن أن الفتاة لم تكن قادرة على تكوين صداقات. عدة مرات، شاهدْنا فِكرت گولدانـچـي يصطحب ابنته إلى مكتبة المدينة رغم عدم احتوائها على كتب مهمة، ورغم أن

القاعة المخصصة للفتيات عادة ما تكون خالية تماماً. اعتادت سوسن على الذهاب إلى تلك المكتبة مرة في الشهر أو مرتين والجلوس هناك، من الصباح وحتى وقت متأخر، وحيدة في تلك القاعة الفارغة. لم يرها أحد تستعير كتاباً لأنها كانت معتادة على اصطحاب كتبها معها. لم تكن تنظر إلى أحد، حتى إن كل عابر في الجوار وكل فتاة جالسة بالقرب منها كانوا يشعرون أنها لا تراهم. كان فِكرت گولدانـچـي، في بعض الأحيان، يوصلها ويعود بها في سيارة، وفي أحيان أخرى، كانت تأتي وترجع بنفسها. وبوصفها بطلة حكاية غريبة، فقد كانت الأنظار تتبعها في كل مكان تذهب إليه، ولكن دون أن يؤثر ذلك البتة في طبيعتها أو سلوكها، فكان وجهها ونظرتها إلى الأشياء دائماً كما هي. كان ترددها إلى المكتبة فصلاً جديداً من فصول وحدتها ومظهراً جديداً من مظاهر سلوكها، ولكن دون أن يكون لذلك، كما أسلفنا، أي أثر يذكر في حياتها. كان ترددها إلى المكتبة يثقل كاهل موظفيها، ليس لأنها فتاة متطلِّبة بل على العكس لأنها كانت بدون أي طلبات. غير أنها بحضورها كأميرة إلى ذلك المكان كان الجو ينقلب مباشرة إلى حال الهدوء والصمت، وهذا ما كان يزعج الموظفين. أما ما كان يزعج الموظفات ويدهشهن ويغضبهن في الوقت نفسه، فهو غرابة أطوار هذه الفتاة التي تركت عشاقها الكثيرين في الخارج وجاءت لتجلس وحيدة هنا في قاعة القراءة. كانت سوسن أهدأ من أن يثور في وجهها أحد دون سبب واضح، ولكن الجميع في المكتبة كان يعلم في قرارة نفسه أن كل واحد منهم يبحث عن

حجة ما حتى يكشف لها عن وجهه الشرير والعدواني. كانت سوسن حيثما حضرت يحضر معها الاضطراب والدهشة في المكان. شيئاً فشيئاً، أصبحت هي ذاتها تشعر بعقم ترددها إلى المكتبة وعبثيته، فتوقفت عن الذهاب إليها نهائياً.

في تلك الفترة كذلك، أصبحت سوسن ترى باستمرار في منامها أحلاماً كئيبة، ومن ذلك ما أصبح طقساً اعتيادياً في مناماتها كرؤية أخيها الميت وخُطّابها الثلاثة. كان الأربعة يأتونها دائماً معاً في المنام، كل مرة في هيئة مختلفة وفي مكان مختلف وبيئة مختلفة. لا تمر ليلة دون أن تراهم، مرة في قطار مغبرّ يعبر صحراء مقفرة، ومرة بثياب ضباط القيصر القدماء جالسين في عربة قديمة يحدِّقون إلى بعضهم بعضاً، ومرة في سيارة «جيب» أمريكية في كرم عنب أو حقل كبير لأزهار تبّاع الشمس. دائماً كانت ترى في أحلامها أنهم ينظرون إليها بكل صمت وهدوء وكأنهم يعاتبونها على شيء ما. كانت نظرات الرجال الأربعة تكشف عن اليأس والضياع الذي في أعماقهم. كل ليلة، كانوا يزورونها بتلك الملامح وتلك النظرات ذاتها. لم يكن أحد منهم يتكلم على عكس أحلامها الأخرى التي لم تكن تخلو من الكلام بشكل أو بآخر... أحلامها هذه بالذات كانت أحلاماً صامتة... أحلاماً خرساء. الرجال الأربعة يحدِّقون إلى عينيها بعمق دون أن يقولوا شيئاً، وكانت دائماً تستيقظ مباشرة عقب تلك الأحلام. طيلة تلك السنوات الثماني، لم تمر ليلة واحدة دون أن ترى ذلك الحلم وتستيقظ منه فزعة خائفة.

في الصباح حين كانت تقصُّ حلمها على مائدة الإفطار، كان الصمت يسود المكان عدة دقائق حتى تنتهي من سرد حلمها. كان فِكرت گولدانـچـي يعلم أن تلك الأحلام ما هي إلا إشارة إلى الحالة النفسية السيئة التي تمر بها ابنته، وهي التي اعتادت، منذ طفولتها، التظاهر بالقوة والتماسك.

مع نهاية ربيع ذلك العام، وكانت قد مضت ثلاثة أشهر على بدء الرحلة، فكرت سوسن أن يكون على أحد جدران غرفة المكتبة منظرٌ طبيعيٌّ كبيرٌ للطرف الآخر من العالم، مما رأته أو قرأت عنه في بعض القواميس والكتب والمجلات الجغرافية لعل ذلك يكون سبباً في الاقتراب مما تريد رؤيته، خاصة أنها كانت ترى الرجال الأربعة دائماً في أحضان أماكن طبيعية غريبة. وحين عبّرت أختها پـروشه عن معارضتها لتلك الفكرة، بحجة أن محاولة الاقتراب بهذا الشكل ما هي إلا خيال خادع، أجابتها سوسن بكل هدوء: «لا يوجد في هذا العالم شخصان قريبان من بعضهما البعض بشكل حقيقي... بالخيال فقط نقترب من بعضنا بعضاً، هكذا نحن مصمَّمون ألا نستطيع الاقتراب من شيء. علينا أن نكون سعداء إن استطعنا أن نكون قريبين من أنفسنا أو من شيء ما».

كان فِكرت يعلم أن سوسن قادرة، بشكل أو بآخر، على إيجاد العلل والمعاني الفلسفية لكل ما تريد، حجج وبراهين عميقة تستخدمها لتسويغ رغباتها الطفولية. كان فِكرت يرى أن تنفيذ تلك اللوحة على الجدار قد يساعد سوسن على القيام

بذلك التغيير في حياتها، والذي عجزتْ عنه حتى الآن. كانت تلك فكرة طيبة ستجعل الفتاة تشعر بشيء من التغيير في ما حولها، وعلى الأقل قد يخفف ذلك من أعراض فقر الدم وآلام الرأس التي لا تفارقها. بالطبع لم تكن تكلفة إنجاز لوحة كتلك قليلة، فليس في المدينة سوى اثنين أو ثلاثة من الصُّنّاع المهرة القادرين على تنفيذ اللوحات الجدارية الكبيرة. اثنان منهم لم يكونا من الفنانين النشيطين في عملهم، أما الثالث فكان، في العادة، يطلب لقاء عمله مبالغ باهظة لا تتناسب البتة مع ميزانية شخص مثل فِكرت. رغم كل ذلك فقد كان فِكرت دائم العناية برغبات ابنته الصغرى وكأن القدر قد اختار له هذه المهمة. وأخيراً، حالفهم الحظ وعثروا على فنان شاب يدعى «آريان جودت» يعمل بأجر معقول، ووافق الشاب على أن ينجز تلك اللوحة خلال فترة محددة. في زيارته الأولى إلى منزل فِكرت گولدانـچـي قالت له سوسن بصوت رقيق: «أسمح لك بدخول هذا المنزل بشرط واحد، وهو أن تقسم لي أنك لن تحبني ولن تفكر أن تحبني. وكذلك إن تحدثتَ إلى أحد عما تراه داخل هذا المنزل ألا تتحدث إلا بالحقيقة، وهي أنك هنا من أجل تنفيذ لوحة جدارية لا أكثر... وإلا فإنني سأموت كمداً». فأقسم أمامها الشاب أنه لن يحبها وأنه سيفعل كل ما في وسعه لئلا يفكر بالحب، ثم أضاف بنبرة حزينة: «أنا أعرف حكايتك يا سيدتي، سمعتُ بكل ما جرى بينك وبين خُطّابك الثلاثة، فكيف يمكنني بعدها أن أحبك؟! وأعاهدكِ أنني، حتى ذلك اليوم الذي سأتزوج فيه، سأرسم لكِ كل ما

تطلبين ولا أفعل إلا ما يريح خاطركِ، ولكن... إن حدث وتزوجتُ فسيكون القرار عندها بيد زوجتي، وهي من ستقرر هل عليّ متابعة العمل عندكم أم لا». لم تكتفِ سوسن بذلك بل استكتبته ورقة يقسم فيها أنه لن يعشق في حياته سوسن فِكرت، ثم أردفت: «لا يمكن تقييد رجال هذه المدينة إلا بعهد مكتوب كهذا». كانت ورقة صغيرة أطلقت عليها سوسن اسم «عهد عدم المحبة»، أي شيئاً معكوساً عن «عهد المحبة» الذي كان يقدسه شباب المدينة وبناتها ويمهرونه معاً. كانت سوسن فِكرت تعتقد أن ورقة كهذه يجب أن تكون مع كل امرأة في هذه المدينة، وأن تكون ممهورة من قبل جميع الرجال المحيطين بها، حتى يمكن لتلك المرأة أن تنعم بحياتها.

كانت أول لوحة رسمها آريان جودت عبارة عن منظر خريفي موحش فيه أشجار منحنية إلى اليسار بفعل رياح عاصفة، سماء متجهمة فوق بحيرة مغطاة بأوراق مصفرّة. كانت تلك اللوحة بداية جيدة أعجبت بها سوسن؛ ففي ذلك الفصل كانت رغبتها الرئيسية في لوحات حزينة وخريفية. وفي الوقت عينه، كانت في اللوحة طيور كثيرة، طيور غريبة ونادرة كانت سوسن فِكرت قد استخرجت صورها من كتب مختلفة ومراجع متميزة، وأمرت آريان جودت برسمها على الجدار.

لم تكن مراقبة ذلك الفنان وهو يعمل كافية لملء الفراغ العميق في حياة سوسن. وكانت پـروشه هي أكثر من تقاسي آلام ذلك الصمت، وكانت ترى أن تعمق سوسن المستمر

في بحر كل تلك الكتب والمعاجم هو السبب في صمت هذا المنزل، وأن هذا الصمت ما هو إلا استمرارٌ لروح سوسن وبدنها، شكل من أشكال نفوذها في هذا البيت، صورة من صور سلطتها الخفية على كل شيء يحيط بها. وكان على پـروشه، حتى تكسر جدار الصمت ذاك، أن ترفع باستمرار صوت التلفزيون الذي كان يعرض بكثرة في تلك الفترة الأناشيد الحماسية البعثية، والتي كانت تشيع أجواء الحرب في طول البلاد وعرضها. كانت سوسن لا تتفرج على التلفزيون إلا في المساء، وقد اعتادت على مشاهدة بعض البرامج الخاصة بالحرب. كانت كل ليلة تتفرج على جثث الجنود الإيرانيين، وكانت تلك المشاهد في التلفزيون هي الشيء الوحيد الذي لا تتحمل پـروشه رؤيته، فقد كانت الأجساد المحترقة ومشاهد شباب بسحنات مغبّرة على الجبهات تذكّرها بموت أخيها وزوجها، ولذلك فقد كانت تلح على سوسن خلال عرض تلك المشاهد من أجل إطفاء الجهاز، لكن سوسن كانت ترد قائلة: «الصراع هو الشيء الوحيد الحقيقي في هذه البلاد... علينا أن نعتاد على رؤية الحرب». لم تكن پـروشه قادرة على التعايش مع تلك المشاهد وكانت تشعر، لما وقعت عيناها عليها، أن المنزل كله بات عابقاً برائحة الموت، بل كانت تشعر، حتى بعد انتهاء البرنامج، أن رائحة الموت ما زالت عالقة بجهاز التلفزيون نفسه، فكانت تجري إلى غرفتها فتغلق بابها وتأخذ بالبكاء. تلك الرائحة كانت تلاحقها. علي أن أضيف هنا أن أحد الأسباب الرئيسية التي دفعت پـروشه إلى التفكير في

الزواج هو تلك الرائحة المرعبة. لم يعد بإمكانها تحمّل رائحة المنزل، وليس هناك ما هو أسوأ من ألا يتحمل المرء رائحة بيته، فإن ذلك كفيل بأن يحيل حياته كلها إلى جحيم. ذات ليلة، توسلت پـروشه إلى والدها أن يجد حلاً لهذا الصمت وتلك الروائح المخيفة التي تشعر بها داخل البيت. أصغى فِكرت گولدانـچـي إلى ابنته وهو جالس على أريكة في الصالون ومن حوله التماثيل والكرات الزجاجية ومجسمات زجاجية لبعض الطيور، ثم نظر إليها بيأس، فأدرك أن ابنته الكبرى تعاني شيئاً يفوق خطورة ما تعانيه أختها الصغرى. إذا كان الإنسان عاجزاً عن التكيف مع الصمت فهو بلا شك على حافة الجنون. الخوف من الصمت وشعور المرء بوجود روائح وهمية إشارات مخيفة إلى الجنون. كان فِكرت واثقاً في عدم قدرته على فعل شيء سوى أن ينصح ابنته برش ماء الورد في أرجاء المنزل كل صباح، فلعلّ ذلك يقضي على تلك الرائحة. نصحها كذلك أن تذهب في فترة الصيف مع عماتها بعيداً عن المدينة لبعض الوقت. أما بشأن الصمت فقد أجلس ابنته أمامه وقال لها: «پـروشه يا ابنتي، ثمة حقيقة عميقة في الحياة ويجب أن تعرفيها: إذا أراد المرء أن يكون صادقاً مع الدنيا فعليه أن يتقبل الصمت. إن أكبر مشكلة تواجه البشر هي عدم وجود شيء عظيم يمكن قوله... هذا ما أعرفه... إن لمعظم ما يقوم به بنو البشر هدف واحد، هو الهروب من الصمت. السياسة والحرب والحب، كلها مرتبطة بحاجة الإنسان إلى الهروب من الصمت وامتحان قدراته على الكلام. مشكلتنا نحن البشر

هي أننا نريد أن نحمّل اللسان فوق طاقته. حين أستمع كل ليلة إلى الأخبار أو الأناشيد التي يبثها البعثيون في التلفزيون لا أشعر أن تلك الأناشيد قد وُضعت من أجل ذلك الصراع الكبير بل، على العكس تماماً، أشعر أن هذه الحرب إنما قامت لأجل هذه الأناشيد. إن من أعظم هواجس الإنسان المخيفة هي رغبته أن يصغي إلى صوت نفسه وهو يزأر، أن يجرب لسانه ويرى إلى أي مدى يمكنه، بواسطة الكلام وهتافات الحرب، أن يسوق الآخرين أمامه. لا تؤاخذيني يا ابنتي، كثيراً ما يغلبني الصمت وأتحول إلى شخص لا يمكن لكلام الآخرين وضجيجهم التأثير فيه... أشعر أنني، مثل سوسن، أعيش على ذلك الصمت. يجب أن تعرفي أن قلبي يتمزق حزناً لأجلكِ. صحيحٌ أنني وسوسن متشابهان في ذلك، وأنا أتفهَّمُ شعوركِ بالغربة في وسطنا، ولكن اعلمي يا ابنتي أنني لا أملك أن أفعل لكِ شيئاً سوى أن أرجو منكِ أن تقاومي وأن تتحلي بالصبر والجلَد. وسأكون في غاية السعادة حين أراكِ تتزوجين وتنتقلين إلى منزل جديد يكون منزل راحتكِ وسعادتكِ».

كانت كلمات گولدانـچـي تلك، إلى حد ما، تمهيداً لطرد پـروشه من المنزل.

٢٦

بعد مضيّ ثلاثة أشهر على رحيل كاميراني سلمى، بدأت آثار غيابه تظهر على منگوري باباگوره بشكل واضح. لقد كانت تلك الفترة التي كان فيها رفيقاً لكاميران مرحلة خاصة من حياته، مرحلة كان خلالها أقل شراً وعدوانية من أي وقت آخر، وكان شعوره حينها بوجود شخص ما أصغر سناً إلى جانبه عليه أن يساعده ويحميه قد غيّر كثيراً من طباعه. في الحقيقة، لم يسبق له من قبل أن شعر باليأس مطلقاً وهو يرى الكثير من أصدقائه القدامى وقد أصبحوا آباء ولديهم أبناء بالغون، بينما هو لا أولاد له. كما لم يداخله في حياته شعور بالحسد تجاه أولئك المتزوجين الآباء بل إنه، على العكس، كان يرى نفسه محظوظاً أكثر منهم في حياته بهذه الطريقة.

لم يكن هو نفسه يعرف طبيعة مشاعره تجاه كاميراني سلمى؛ أهو شعور أبوي حقيقي، أم إنه شعور من سار على نهج شيوخ صنعته من كبار حملة السكاكين فتبنى شاباً ناشئاً وتعهده بالرعاية ثم ها هو قد فقده؟ مهما كانت الأسباب فإنه الآن يشعر

بوحدة لم يكن يعانيها قبل رحيل كاميران. صحيح أن جلسات منـكور كانت حافلة على الدوام سواء أكان في مقهى «پـپولَي آزاد» أم في قبو فندق «باوه جان»، لكننا جميعاً كنا نشعر، بشكل أو بآخر، أن نزعة الشر والعدوانية قد بُعثت في أعماقه من جديد وبشكل مفاجئ.

بعد رحيل كاميران، توثقت علاقاته مع اثنين من الشُطّار وأرباب المشاكل هما «مَريواني مَمه» و«ساماني كسرى». في تلك السنوات كانت القوات الحكومية تهاجم القرى المحيطة بالمدن، وكان القرويون ينزحون بشكل جماعي إلى المدن. كان منـكور يشعر أن الحياة تضيق يوماً بعد يوم في هذه المدينة، لقد كان يشعر أكثر من أي أحد آخر كم هي ضيقة حدود هذه المدينة. ويوماً بعد يوم، كانت الحسرات العالقة في حلقه تكاد تخنقه، فيقول: «هذه المدينة كالسلحفاة تنزلق يوماً بعد يوم إلى داخل قوقعتها، لا تعلم شيئاً مما يدور حولها، وأي مستقبل لمدينة تنغلق على نفسها؟! المدن، كالبشر، تعيش على المشاعر والأحاسيس، فإن ماتت فيها تلك المشاعر والأحاسيس، ولم تعد ترى ما حولها، فإنها تموت لا محالة ولا شيء يمكن أن ينقذها من هذا المصير». في تلك الفترة كان سلوكه يسوء يوماً بعد يوم. شعر البعض أنهم لم يعودوا قادرين حتى على التحدث إلى منـكور أو مرافقته. كانت نزعة الشر والميل إلى الشجار تتفاقم في داخله، وكان هو نفسه قلقاً من ذلك. خلال فترة قصيرة، دخل في عدة مشاحنات كبيرة.

وللمرة الأولى بعد كل تلك السنوات، عاد إلى حمل السكين معه. وللمرة الأولى في ساعة من ساعات اضطرابه وعصبيته، سمعناه يقول إنه قد ملّ منا جميعاً وإن كل ما حوله يزعجه. كان شعوره بضيق المدينة يدفعه تلقائياً إلى التفكير في سوسن، كان يشعر أن تلك الفتاة قد أبصرت بنظرة أعمق من الجميع مدى ضيق هذه الدنيا. ذات يوم، وبوصفه مستشار كاميراني سلمى، ذهب إلى زيارة سوسن فِكرت. في ذلك الوقت كانت قد مضت حوالي أربعة أشهر على رحيل الخُطّاب الثلاثة، ولم يكن ثمة أي خبر جديد عن كاميراني سلمى، وكنا جميعاً نعلم أن سبب انقطاع الأخبار كان الوضع السيئ على الحدود.

طلب منـگوري باباگوره من فِكرت گولدانـچـي، وبلهجة أقرب إلى التوسل، أن يسمح له بلقاء سوسن ساعة واحدة. في ذلك الوقت، لم يكن أحد يعلم في الحقيقة لماذا كان منـگور متلهفاً بذلك الشكل لرؤية سوسن، ولكن علمنا بعد ذلك أنه أراد من ذلك اللقاء أن يقول لسوسن شيئاً واحداً، ألا تأخذ كاميراني سلمى بجريرة سمعته هو.

ذات يوم في أواخر شهر يوليو، خرج منـگور بثوب أحمر قصير الأكمام وقبعة مدوَّرة غليظة، وهو لباس لم يكن مناسباً للخروج في مثل ذلك الفصل الحار. كان يقصد منزل فِكرت گولدانـچـي وليس في رأسه سوى فكرة واحدة؛ هي أن يقابل سوسن فيشرح لها عن حالته السيئة ويتحدث معها عن عظمة الدنيا. منذ مدة وهو يشعر بتغير سلوكه وتبدل أخلاقه، وكان

يعتقد أن سبب هذا التحول هو فساد علاقته بهذه المدينة. ولكي يستوثق من صحة رأيه كان لا بد من التحدث مطوّلاً إلى تلك الفتاة سوسن گولدانـچـي التي كان يؤمن إيماناً عميقاً أنها تعرف الكثير من خفايا هذه الدنيا.

حين وصل إلى منزل گولدانـچـي، ورغم أنه كان قد أعدَّ مسبقاً في ذهنه كل ما سوف يقول، لم تكن جمله التي صاغها خلال الحديث مطابقة لما كان قد أعدّه، فقد انحنى أمامها مثل غلام وخاطبها:

– آنسة سوسن، لم نلتقِ منذ مدة طويلة. يؤسفني بشدة أن أقول إنني لا أحمل أي أخبار عن كاميراني سلمى. ومنذ أن سافر لم نسمع عنه شيئاً لا أنا ولا أحد من أصحابه، ولكن لا تقلقي يا آنسة سوسن لأن السبب في عدم ورود أي أخبار هو وضع الحدود السيئ؛ فمنذ اليوم الذي رحل فيه والأوضاع تسوء أكثر فأكثر...

أشارت إليه سوسن أن يتبعها إلى غرفة المكتبة حيث أجلسته في مكان مناسب، ثم قالت له إن عدم ورود أخبار من الخُطّاب الثلاثة لا يسبب لها أي قلق. وضع منـگور قبعته على ركبته وقال:

– بالطبع لا داعي للقلق يا آنسة، ولكن دعيني أقُلْ شيئاً: كلنا نعلم أن الأوضاع تسوء يوماً بعد يوم، وكان المرحوم يوسف كَويار يقول «الحياة تفاحة، فإن لم تأكلها في وقتها فسُدت».

نعم يا آنسة، هكذا هي الحياة.

قالت سوسن والإرهاق العميق ظاهر على وجهها:

- لم أفهم ما تقصدون يا سيدي، ماذا تريدون أن تقولوا بالضبط؟

فاتكأ منـگور وأجاب:

- أنا من أولئك الأشخاص الذين لم يتناولوا الحياة في وقتها. نحن كلنا هكذا، أعني من يعيش في هذه المدينة، معظمنا يشعر أنه لم ينل من الدنيا ما يشتهي. ولكن في الحقيقة ليس هذا هو سبب زيارتي، بل لأسألك هل لديك أنتِ أيضاً هذا الشعور بأن هذه المدينة تصغر يوماً بعد يوم؟ منذ أن رحل كاميراني سلمى وأنا أشعر أن هذه المدينة تتقلص شيئاً فشيئاً. في السابق، لم أكن ألاحظ ذلك. ولكن ما يثير دهشتي الآن هو أن هذه المدينة تبدو لي كأنها ذيل سلحفاة تنسلُّ إلى داخل الصَّدَفة. أرجو أن تغفري لي يا سيدتي فأنا قد نشأت في بيئة متواضعة وسط حملة السكاكين، لكني أعلم أنكِ تفهمين ما أقول. صحيح أنني أكبر منكِ سناً لكن ما اكتسبتِه من علم ومعرفة من هذه المكتبة يكفيكِ لتدركي بسرعة كل ما أقول. معظم من أعرفهم لا يحركون مؤخراتهم ليفهموا مني ما أقول... آه، اغفري لي يا سيدتي... سامحيني لأنني قبل أن آتي إلى هنا كنتُ قد أقسمتُ ألا أستخدم كلمات بذيئة... ألا أتلفظ بكلمات سوقية. ولكن صدقيني يا سيدتي، إن هذه الكلمات تخرج من تلقاء نفسها، إنها

تنزلق إلى حافة لساني حتى بدون أن أشعر. كلنا هكذا، جميع سكان هذه المدينة يعيشون على هذه الكلمات. ولو سلبونا هذه الكلمات... لو أن أحداً قام بنزعها من ألسنتنا وحرقها، فهذا سيعني أننا جميعاً سنصبح صُمّاً بُكماً. ولكن على أي حال، أطلب منكِ العفو. لقد أتيتُ فقط لأسألكِ سؤالاً: لماذا أشعر أن هذه المدينة، منذ رحيل كاميراني سلمى، قد أصبحت مدينة حمقاء، مدينة فقدت عقلها؟ أريد أن أسأل، هل هذا الأمر حقيقي يا سيدتي، هل المدينة تصغر وتتقلص بمرور الزمن أم إن ذلك خاطر سوء قد تسلط عليّ وحدي؟

جاءت إجابة سوسن وكأنها إجابة شخص على وشك الموت وهو يدلي بوصية مخيفة تكشف أسراراً غير معلنة:

- المدينة لا تصغُر على الإطلاق بل على العكس، فهي دائمة التمدد. ولكن ما يحدث هو أن العالم أيضاً يكبر ويتمدد، ومهما بلغت سرعة نمو المدينة فلن يمكنها بلوغ سرعة نمو العالم وتمدده، وكلما كبُر العالم بدت لنا المدينة أصغر.

قال منـگور:

- آنسة سوسن، انظري إلى سكان هذه المدينة، إنهم غافلون عن كل شيء. أنا أعلم أن جنود حكومة البعث وقوات أمنها وجواسيسها الرابضين منذ عشرين عاماً فوق مؤخراتنا، قد تسببوا في جعل كل شخص لا يفكر إلا بنفسه. لقد كنا، في الماضي، أكثر اتصالاً بالعالم، أما الآن فكأن المدينة قد عميت،

حتى إنها لا ترى أبعد من مؤخرتها. قبل عدة ليالٍ، كنت بصحبة ساماني كسري راجعاً من اللعب، قلتُ له: «إن تلك الفتاة تعرف ما لا نعرفه، هي تعرف أن ثمة كارثة على وشك الوقوع ولذلك أرادت أن تنقذ، بحجة ما، أولئك الشبان الثلاثة». أنا أشعر الآن أن هذه المدينة تغرق رويداً رويداً في روثها. أريد أن تخبريني الحقيقة إن كنتِ تعرفين شيئاً لا يعرفه الآخرون. آنسة سوسن، الفضول يقتلني لمعرفة هل هناك شيء مخيف في طريقه إلى الحدوث. إن كانت حاسة شمك كامرأة أقوى من حاستنا نحن الرجال فأخبريني عن ذلك الشيء من فضلكِ؟

بدا لسوسن أن منظر منـكور أشبه بمنظر خانٍ تَتَري كانت قد رأت صورته في أحد الأطالس التي قرأتها. نظرت إليه وأجابته بصوت أكثر حرارة وحيوية:

- لا أعرف يا جناب الأخ منـكور. ما الذي يجعلك تظن أنني أعرف شيئاً لا يعرفه أحد من الناس؟ في الحقيقة، أنا لا أعرف أي شيء خاص يمكن أن تصفه بأنه سر خفي. كل ما أعرفه هو أن الإنسان في المكان الصغير عاجز عن التفكير في الأماكن الأخرى. إن الإنسان في مدينتنا الصغيرة هذه ينسى عظمة الدنيا واتساعها، تلك هي الحقيقة التي أعرفها منذ طفولتي. أنت ابن هذه المدينة، أما أنا فلستُ ابنة أي مدينة، وأبحث عن زوج لا يكون مقيماً في أي مدينة. إن العثور على رجل غير مقيم بأي مكان ليس بالأمر السهل، ومع ذلك فأنا أحاول جناب الأخ منـكور، أحاول. أنت قلتَ إن الأمور تسوء يوماً بعد يوم،

وإن كنتَ تريد الحقيقة فأنا قد سعيتُ إلى إرسالهم بعيداً عن هذا المكان حماية لهم من القتل. أنا أعرف شيئاً ما... نعم، أعرف... ولكنه ليس بالأمر الخطير. لا يتوقف القتال والصراع في هذه البلاد... لا يتوقف ولا ينتهي ولكن، يا جناب السيد منـكور، أنت تعرف أن هذه ليست معلومة خطيرة... أليس كذلك؟ ليست شيئاً مهماً.

سحبت نفساً عميقاً، وبدت كشخص ينتظر الاستجابة لرجائه. ثم نظرت إلى منـكور بصمت وتابعت:

- أيها الأخ منـكور. حين طعن كاميراني سلمى منصور أسرين بالسكين، ظن الجميع حينها أنني فتاة لامبالية، لا أشعر بأي شيء. ولكن هذا ليس صحيحاً. إن أفضل الرجال، في نظري، هو ذلك الذي لا يعرف كيف يقاتل. لقد فكّرتُ في هذا الأمر طويلاً، ورأيتُ أن السبيل الوحيد الذي يمكن أن يُبعد رجال هذه المدينة عن جميع تلك الأشياء التي يتقاتلون من أجلها هو السفر. إن أكثر البشر مسالمة هم أولئك الذين اعتادوا السفر من مكان إلى آخر.

وبدون أن يفهم جيداً ما قالته سوسن، أجاب منـكور:

- أقسم بقبور أمواتي يا سيدتي أن حياتنا مثل شراب مر. ورغم أنه مر، لا يمكننا التخلي عنه، لأن أجسادنا قد اعتادت على تجرّع ذلك السم. ولكني يا سيدتي، أقسم بقبور جميع أعزائي أن الإنسان حيوان كسول، فإن لم يكن يبحث عن شيء

كبير برك في مكان واحد لا يبرحه، وأنا كذلك لطالما رأيتُ نفسي مجرد حيوان كسول. وأقسم لو أني كنتُ محل أحد خُطّابكِ لما استطعت أن أهجر هذه المدينة على الإطلاق، لطلبتُ منك أن تعفيني من ذلك. ثمة رابط خفيٌّ يشدني إلى هذه المدينة. لا يا سيدتي، ما كنتُ لأفعل ذلك أبداً، إن تعلقي بها شيء كالمرض. كان «قاسمي عنبرخان» في الستينيات من أشهر حملة السكاكين في هذه المدينة، كان من الصعب رؤية يده حين يقاتل لخفتها، لقد كان أسرع حامل سكين في ذلك الوقت. حوَّلت له والدته خمسة عشر ألف دينار إلى دولارات من أجل أن يترك هذه المدينة ويسافر إلى أي مكان آخر. قلتُ له: قاسو، خذ المال من الحاجّة عنبر وسافر. لقد كنا جميعاً نشعر بشكل أو بآخر أن مصيبة ما ستحل على قاسم. قلتُ له: هذه المدينة الملعونة ستحرقك فامضِ بعيداً وانجُ بنفسك. والحاصل أنه قبض المال من أمه ومضى، وكنا جميعاً موقنين أنه لن يعود. ولكن بعد أقل من أسبوعين، كان قاسو يتسكع عند دور السينما من جديد. قال لي رحمه الله: «منگور، لا يمكنني العيش في أي مكان آخر، لا يسوغ في حلقي ماء أي مدينة أخرى ولا يطيب لي خبزها». وبعد أن قال لي ذلك بشهرين، ولأنه كان قد شتم عرض أحد السياسيين الكبار، هجم عليه خمسة رجال طعناً بالسكاكين في أحد ممرات مجمَّع تجاري صغير. جرح اثنين منهم، غير أن قوته لم تكن كافية ليقاوم أكثر من ذلك. لقد كان المرحوم فتى شجاعاً، قتلوه هناك. وحين وقفتُ أنظر إلى جثته، شاهدت آثار ثماني عشرة طعنة... يا

إلهي العظيم، لم أرَ في حياتي قبل ذلك شخصاً مطعوناً بكل هذا العدد من الطعنات. وأنا الآن أشعر يا آنسة سوسن أنني مصاب بذلك الداء نفسه، الداء الذي تسبب في مقتل قاسمي عنبرخان. أنتِ قولي لي يا سيدتي... قولي هل يمكنني العيش في أي مكان آخر في الدنيا غير هذه المدينة... أتعتقدين أن بإمكان حيوان كسول مثلي بالكاد يقدر على هزِّ مؤخرته أن يسافر إلى مكان آخر؟

نظرت إليه سوسن بحزن وأجابت بهدوء:

- سيد منكور، من لا يسعى خلف شيء ما لا يمكنه السفر. يسعى المرء خلف شيء ما، وبينما هو في طريقه إلى هدفه يشاهد الدنيا كلها بمحض المصادفة. إن سافرت اليوم ووصلت في الغد إلى قمة جبل عالٍ أو وجدتَ نفسك وسط تلال من الثلج أو وقفت على ساحل بحر عظيم، فلا بد أن تسأل نفسك في النهاية: ماذا أفعل هنا، لماذا لا آخذ قسطاً من الراحة، ولماذا لا أستقر في مكان واحد؟ فإن استطعت ألا تسأل نفسك هذا السؤال فأنت عندها جاهز للسفر. الأفضل ألا يكون للإنسان منذ البداية مكان يذهب إليه ولا مكان يعود إليه، ذاك هو المسافر الحقيقي في نظري. ولكنك تعلم أن ذلك أمر غير ممكن، فها أنا ذي ليس عندي مدينة أنتسب إليها، ولكن عندي ما هو أخطر من المدينة: مكتبتي.

- سيدتي، في الواقع، أريد التحدث معكم بصراحة أكبر.

برأيي، إن القضية تتجاوز قدرات الإنسان. فإذا أنتِ ولدتِ في مدينة عمياء فستكونين عمياء دون شك. سيدتي، قليلة هي الأشياء التي تستفزني في الحياة، أعني أن كل ما قد يحدث أراه عادياً. ولكن جوهر المسألة هي أنكِ أصبتني بداء... لا يا سيدتي، أنا أقول ذلك مع كامل احترامي لشخصكِ... ليس أنا فحسب، بل هناك كثيرون قد أصيبوا بهذه المصيبة. في البداية، كانت هذه المدينة هي كل عالمي، نعم، أقسم بقبور أمواتي أنها كانت كل دنياي، لم أكن أعرف أن ثمة شيئاً خارج حدود هذه المدينة اسمه العالم، عالم واسع وعظيم، حتى جئتِ أنتِ أيتها الآنسة المحترمة وذكّرتِ بائساً مثلي أن ثمة شيئاً يدعى العالم. ومنذ تلك اللحظة، اشتريت خريطة صغيرة للعالم لأضعها في جيبي، إنها دائماً في جيبي وحيثما كنت تكون هي معي... دائماً أحدِّق إليها. لا يا سيدتي، لا يذهب بكِ الظن بعيداً، فلا يمكنني الذهاب إلى أي مكان، وحتى الآن هي مجرد خواطر شاذة. ولكن بما أنني عاجز عن السفر وعاجز كذلك عن تحسين وضعي هنا أكاد أتحوَّل إلى إنسان آخر. أقسم أنني، بعد شهر واحد من سفر كاميراني سلمى، أُصبتُ بهذا التغير. تكاد هذه المدينة، من جهة، أن تخنقني، وأعرف من جهة أخرى أنني لا أستطيع تركها، وهذا ما يصيبني بحالة من الغضب الشديد، بل يكاد يذهب بعقلي... تلك الحالة تخيفني كثيراً. البارحة يا سيدتي، وعلى سبيل المثال، كنتُ أسير في الشارع كأي إنسان عادي، وفجأة شعرتُ كأنني داخل قفص، قفص ليس مكوناً من الشجر والجدران والشوارع فحسب ولكن كذلك

من الناس المحيطين بي، وهذا ما أشعرني بكراهية لا يمكن وصفها. تخيلي أنني للمرة الأولى بعد ست سنوات وفي مقهى پـِولَي آزاد، كدتُ أن أهجم على «قارَماني عُسَي كافور» وأشبعه طعناً بالسكاكين، رغم أنني، وأقسم بقبور أمواتي، لم أكن حتى أحمل سكيناً. في الحقيقة يا سيدتي، إن شيئاً واحداً هو ما دفع بي اليوم إلى زيارتك هذا اليوم، واغفري لي إن كنت ألجأ إلى المراوغة لإخفاء نواياي والتظاهر أني هنا لأمر آخر، ولكن الحقيقة هي أنني هنا فقط من أجل أن أقول لكِ إنني أتحول إلى الأسوأ. ثمة شيء ما يجري مجرى الدم في شراييني لا أستطيع منعه. نعم يا سيدتي، باختصار، أنا أسير باتجاه الشر. قد تسأل الآنسة المحترمة: وماذا يعني أن تعرف أنك تسير نحو الأسوأ ولا تستطيع الحيلولة دون ذلك؟ ولكن يا سيدتي، أنا هكذا، أنا هكذا منذ طفولتي أعلم أن القيام بالفعل الفلاني عمل سيئ، ومع ذلك أراني أُقدم عليه، غالباً ما أجد لنفسي عذراً من أجل ارتكابه. ولكن الذنب كله لا يقع على عاتقي وحدي. يوسف كَويار، الذي كان معلمي الحقيقي، كان يقول: «ما من بشر سيئين، بل أمكنة سيئة». ولكن مع ذلك فأنا هنا لأرجوكم، لأقول لكم إنني في قادمات الأيام قد تصدر عني تصرفات سيئة. قد تسمعون عني أنني ارتكبتُ أعمالاً مشينة، ولكني سأكون ممتناً لكم إن لم تحمّلوا كاميراني سلمى عواقب سلوكي المشين... لا ذنب لكاميراني سلمى البتة في سلوكي المشين، ولا علم له بأي عمل سيئ قد يصدر عني.

قالت سوسن:

- سيد منـكور، رغم معرفتي السطحية بك، ولكني لا أريد لك بالتأكيد أن تقضي حياتك كلها وكأنك داخل قفص. وكونك ممثل كاميراني سلمى لا يمنحني الحق أن أطلب منكم شيئاً، ولكن كن على ثقة أنني لا أحمّل شخصاً أوزار شخص آخر.

لم تكن سوسن على علم أنها بكلماتها تلك تمنح منـكور ضوءاً أخضر حتى يتمادى في غيّه وأفعاله الشريرة.

نهض منـكور وأحنى رأسه عدة مرات وباحترام زائد مُظهراً لها حقارة شأنه أمامها:

- سيدتي، لم أكن أريد سوى ذلك، كنتُ أريد سماع هذه الجملة من فمك. كلمتكِ هذه مهمة عندي للغاية وكلّي أمل أن تميزي بضميركِ بين أفعالي وبين صورة كاميراني سلمى في ذهنكِ. هذا هو مطلبي سيدتي ولا مطلب آخر لي سواه.

لوقت طويل لم نفهم حاجة منـكور إلى موافقة سوسن گولدانـچـي الضمنية على أفعالٍ قد يقوم بها فيما بعد، ولكننا كنا نعلم أن منـكور لولا تلك الموافقة لما قدر على تسويغ الكثير من الأفعال المشينة التي ارتكبها فيما بعد بالفعل. كانت تلك الموافقة مهمة عنده للغاية وكانت تستحق أن يقوم من أجلها بتلك الزيارة الخاصة. ذلك اليوم، قامت سوسن عدة مرات، ودون أن تعرف ما الذي تفعله، بطمأنته أنها لن تخلط بينه وبين كاميراني سلمى. حين تناول منـكوري باباگوره قبعته

وغادر منزل گولدانـچـي، كان في منتهى السعادة. عند الباب، كرّرت سوسن قسمها له بأن أفعاله مهما كانت فلن تكون سبباً في تغيير رأيها في كاميراني سلمى. وكان ذلك كافياً لمنـگور ليشعر بارتياح عميق. ولكننا بعد سنوات طويلة، شعرنا أن ذلك الوعد قد قطع حبل العلاقة بين سوسن ومنـگور لسنين طويلة، وكان الأمر بحاجة إلى أن تدور الأرض آلاف المرات وتتغير كثير من الأشياء حتى تعود المياه إلى مجاريها ويجتمع كلاهما في مجلس واحد.

٢٧

لم يمرَّ اعتداء قلندر آمون على مصطفى هجار مرور الكرام، لأن هذا الأخير كان لا يفتأ يتحدث في كل مكان يذهب إليه أو يجلس فيه عن وحشية الآمونيين، بحيث لم يبق مجلس أو صحبة لم يتطرق فيه بالتفصيل إلى أحداث تلك الليلة الحزينة له مع قلندر. من جهتهم، شعر الآمونيون أن ظهور مشكلة كهذه، خلال الأسبوع الأول، كانت إشارة سيئة في غير مصلحتهم، خاصة أن أخبار الاعتداء على مصطفى هجار قد بلغت مسامع فِكرت گولدانـچـي وأغضبته بشدة. وقد رآه الجميع وهو ذاهب إلى زيارة مصطفى في المشفى حاملاً معه علبة بسكويت.

في الحقيقة، كان فِكرت گولدانـچـي يبذل كل ما في وسعه من أجل أن يسود السلام ما بين الغرماء، لأنه لم يكن يعلم، في حال خروج الأمور عن السيطرة، ما ستؤول إليه حاله هو وابنته. لكن الأمور كانت تسير نحو الأسوأ؛ فبعد مضي أسبوع على زيارة منـگوري باباگوره، سجّل ساقي محمود شريط كاسيت

بصوته، وكان شرارة أولى لنارٍ عظيمة. كنا جميعاً نعلم أن ساقي كان يذكر منصور أسرين في أغانيه بوصفه «العاشق الذي يطوف العالم من أجل حبه ويسعى لاصطياد طيور الحب...». أما الذي فاقم المشكلة في الحقيقة فهو أن ساقي في جميع أغانيه كان يهجو تلميحاً جميع أولئك «العشاق الكاذبين في عشقهم وحملة السكاكين المتوحشين والأغنياء العملاء». ورغم أن الأغاني شعراً ولحناً كانت لفنان لا يملك قدرات فنية كبيرة، ولكن لأن غالبية الناس لا قدرة لها على إجراء تقييم حقيقي، فقد كان لأغنيات ساقي المتخمة برموز سياسية فاقعة جمهور عريض، وكان عتاولة الآمونيين يستمعون معاً إلى أغنيات ساقي. ردة فعل قلندر آمون كانت هستيرية جنونية، ولكن بناءً على اقتراحات فوزي بـگـي الذي كان يخشى أن تتلوث سمعة الآمونيين أكثر من ذلك، فقد اتفقوا جميعاً على أن يكظم قلندر غيظه وألا يفكر مطلقاً بالثأر. كان ضغط الآمونيين والوجهاء القبليين كبيراً إلى درجة اضطر معها قلندر على التوقيع على تعهد خطي بألا يُقدم على أي تصرف قبل الرجوع إلى كبار رجال العشيرة، وأن يقابل كل ما يرى أو يسمع بالابتسام والضحك.

في معسكر منـگور كذلك، كان لذلك الكاسيت صدى كبير. كانت كلمات الأغاني تصف منـگور بأنه جرذ قاسٍ وخصم قذر ورجل من مخلّفات الذئاب ومياه المجاري. وكان وصفاً لاذعاً للغاية فتح الباب أمام الكثيرين من خصوم

منـگور حتى يسخروا منه ويتندروا عليه. شعر منـگور أن هناك من يريد تحقيره وإذلاله وجعله محط سخرية الناس، وهذا الأمر سبّب له جرحاً نفسياً بالغاً وعزز نزعات الشر في داخله. لم يكن منـگور من أولئك المغرمين بالاستماع إلى الأغاني، فلم يكن يحب الموسيقى كثيراً، ولكن بعد أن طرقت مسامعه بعض تلك السخريات وفعلت فعلها في أعصابه قرر الاستماع إلى كاسيت ساقي. وفي منزل «حسن نرمين» الذي كان شخصاً ضئيلاً ومسالماً ولكنه كان يحب مجالسة منـگور، استمع منـگوري باباگوره بصحبة عدد من أصدقائه المقربين إلى تلك الأغاني. حتى ذلك اليوم، لم يكن منـگور يرى في ساقي خصماً عنيداً، بل إن ما كان يخيفه ويحسب له حساباً أكبر هو معسكر الآمونيين. ولكن في تلك الليلة شعر جميع الحاضرين في منزل حسن نرمين بمقدار الجرح الذي تسببت به كلمات تلك الأغاني في نفس منـگور، وبهول النار التي أوقدتها في أحشائه.

بعد أن شرب كأساً من الخمر، قال لمن حوله من ندمائه السكارى: «أقسم بجميع ملائكة السماء أن هذا العجوز الخرِف لم ينسَ بعد ما حدث في الماضي، حين كان هو شيوعياً وكنت أنا نصيراً في الحزب الديمقراطي الكردستاني، إن شتائمه صريحة واضحة تتمزق لها نياط القلوب. لم يحدث قط أن تجرأ أحد قبل هذا على السخرية من منـگور بهذا الشكل العلني الفاضح. لقد عملتُ بجهد، حتى تعرّقت مؤخرتي، من

أجل اكتساب سمعة طيبة بين الناس. أقسم بقبر جدتي أنني مع شروق شمس الغد سأفعل شيئاً لم أكن أحب أن أفعله ثانية، شيئاً لم أكن أحب حتى أن أفكر في فعله ثانية».

بعد يومين، استيقظنا في الصباح على خبر حدوث حرائق كبيرة. كانت النار قد شبت خلال الليل في منزل ساقي محمود ومركز فرقة هرزال وثلاثة من أكبر مراكز التسجيل الموسيقي في المدينة. كان الشخص الذي قام بتلك الفعلة بارعاً؛ فقد كان إشعال تلك الحرائق متقناً إلى درجة لم يستطع أحد أن يرى في أحدها دليلاً أو أثراً لأصابع منكور، ولكننا جميعاً كنا نعلم أن له يداً في الموضوع. كنا نعلم أنه في نهاية سنوات الستينيات قام منكور في حادثة مشابهة بحرق منزل «فريايي بابه علي»، الذي كان في وقته قصراً من أجمل قصور المدينة، وكان فريا شاباً وسيماً من الصعب العثور على شاب بوسامته في شوارع المدينة وحاراتها، لكنه كان قد ارتكب فعلاً مشيناً. وحين قام منكور بإحراق قصره حمدنا له جميعاً ذلك الفعل، ورأينا فيه صنيع صديق لا يتخلى عن أصدقائه في أوقات الشدة. في تلك الأيام كان فريا قد أقام علاقة مع «نشميل» زوجة «بهاء الدين بوكي» الذي كان صديقاً مقرباً من منكور. كانت نشميل مُهرة لا مثيل لها، لكنها كانت راغبة في الرجال بشكل لا يمكن وصفه. وكنا جميعاً -باستثناء بهاء الدين بوكي وأمه حبسخانه- نعلم بشأن تلك العلاقة بين نشميل وفريا. لم يكتفِ فريا بتلك العلاقة، بل إنه قد التقط لها بعض الصور وهي عارية

كيما يعرضها على بعض أصدقائه ويتفاخر أمامهم بعلاقته مع نشميل الحسناء. كانت الصور حقيقية لا شك فيها، امرأة بيضاء ممشوقة القوام بشعر أسود وخال كبير أسفل حلمتها اليسرى وهي مستلقية على سرير كبير. كانت هي نشميل بدون أي شك.

كانت سابقة في تاريخ هذه المدينة أن يقوم شخص بالتقاط صورٍ لامرأة وهي عارية. فحتى ذلك الوقت لم يكن أحد في مدينتنا قد استخدم الكاميرا لأغراض كهذه. في الحقيقة كانت تلك الصور بداية لسلسلة من الصور والأفلام الإباحية القصيرة كوّنت فيما بعد أرشيفاً للبورنوغرافيا في هذه المدينة. حين عرضوا تلك الصور على بهاء الدين، كان أول ما فكر فيه هو أن يقتل نفسه، ثم عدل عن ذلك وقرر تمزيق نشميل إرباً إرباً، لولا أن عماتها هرعن إلى نجدتها فخبأنها في مكان آمن، ثم ألبسنها زي الرجال وقمن بتهريبها إلى بغداد حيث انقطعت أخبارها نهائياً. أثناء ذلك، لم يكن فريا يعلم شيئاً عما حدث. كان كعادته يتنزه مع أبناء «رفيقي ساعاتـچـي»، ولولا تدخّل منـگور لكان بهاء الدين انقض عليه وقتله. قال منـگور إن صورة لا تستحق أن يضحي المرء بحياته من أجلها. ثم أقسم له بشرفه أنه هو الكفيل بأخذ ثأره.

في صيف عام ١٩٦٩، شبت النار ليلاً في منزل «بابه علي». صحيح أن النار لم تصل إلى جسد أحد من ساكنيه، لكن الحريق كان مهولاً حتى إنه استغرق يومين لإطفائه. لم تكن عائلة «بابه علي» تستطيع اتهام منـگور. وكانوا يعلمون حق العلم أن حرق

منزلهم كان بديلاً عن قتل ولدهم، ولذلك فقد تقبلوا الأمر بصمت ورضا. بعد ذلك، انتشرت صور نشميل العارية حتى إن الكثيرين كانوا يدفعون المبالغ الطائلة للحصول عليها. في نهاية سنوات السبعينيات، ولكثرة ما نسخ الناس من صور نشميل فقدت تلك الصور بريقها وكسدت سوقها. وحين ننظر الآن إلى نُسَخ تلك الأيام فإنها تبدو لنا باهتة حتى لا يكاد المرء يتعرف فيها إلى وجه نشميل. عرفنا، من خلال تلك الحادثة، أن منـگور حين يعجز عن إنفاذ أمر ما بسكينه فإنه يستعمل له الحريق. وهذه المرة كذلك كانت الحادثة مشابهة لم تُزهق فيها روح... كانت ناراً عظيمة لم يستطيعوا إطفاءها. لقد أتت على كل شيء في المنزل وأحالته رماداً ناعماً، بما في ذلك القضبان والأبواب والنوافذ، حتى إن ساقي بقي يومين عاجزاً عن الكلام من هول الصدمة. كان من الواضح أننا لن نسمع أي رد عنيف من طرف معسكر ساقي، ولن نرى ناراً كهذه ثانية.

وكما توقعنا، لم يكن جواب ساقي ومن معه عنيفاً. فبعد مرور عدة أيام على حادثة الحريق، استيقظنا من النوم ذات صباح لنرى أن يداً خفية قد امتدت في الليلة الماضية ورسمت على جميع المقاهي والدكاكين والمحلات العامة في المدينة ثلاث لوحات كاريكاتورية؛ واحدة منها كانت تصوّر منـگوري باباگوره برفقة عدد من حملة السكاكين اللوطيين وهم يشعلون النار في آلة كمان كبيرة. وفي الثانية منـگوري باباگوره ونار عظيمة تخرج من دبره وتحرق منزلاً كبيراً. أما في الثالثة

فرأينا قلندر آمون يجرُّ عدة أقفاص بواسطة سلسلة ضخمة، وفي داخل كل قفص ثمة امرأة جالسة على طاولة تعدُّ نقوداً، ومكتوب في أسفل الصورة «هكذا يشتري الآمونيون النساء».

منذ اليوم الأول، كانت سوسن على اطلاع بمجريات الصراع؛ فقد كان آريان جودت، الذي كان منهمكاً في ذلك الوقت برسم لوحة جديدة لسوسن على جدار غرفة المكتبة، ينقل إليها المستجدات يوماً بيوم، تارة وهو يدخِّن أو يشرب الشاي أو حتى وهو منهمك بالرسم. وما كان يثير دهشته هو ذلك البرود واللا مبالاة التي كانت سوسن تستقبل بها سرده لكل تلك الأحداث. وحتى يوم جاء إليها ساقي محمود وقلبه يعتصر ألماً لم يظهر على سوسن أنها تأثرت بمرأى ذلك البائس.

حين حضر ساقي كان حاملاً معه قارورة مليئة ببعض رماد منزله المحترق ووضعها أمام فِكرت گولدانـچـي قائلاً: «إنها من فعل ذلك الوغد، ذلك القوّاد السكّير، منـگور... جناب السيد گولدانـچـي، لم يتبق لي من ذلك المنزل الكبير سوى هذا الرماد».

ثم قصَّ عليهم بالتفصيل حادثة حرق منزله. أثّرت تلك القصة كثيراً في نفس فِكرت گولدانـچـي. كان ساقي يعيش في ذلك المنزل مع أخته، وكان عليهما البحث عن منزل للاستئجار. ولما لم يكن ساقي قادراً على تحمل عبء دفع

بدل إيجار شهري، قال: «سيكون عليّ من الآن فصاعداً أن أكثّف من نشاطي في أداء الأغاني... يجب أن أغني كثيراً حتى أتمكن من العيش».

وحين غادر منزل گولدانـچـي، بقيت صورته المؤثرة بعينيه الزرقاوين الحزينتين الشائختين عالقة في ذهن پـروشه التي انخرطت في نوبة بكاء عميقة. على عكس سوسن التي لم يظهر على وجهها أي تأثر ولم تزد على أن أمسكت بقارورة الرماد وكتبت عليها «رماد منزل ساقي محمود»، ثم أودعتها بصمت في «خزانة الذكريات المرة».

هذه المرة أيضاً، شعر فِكرت گولدانـچـي أن لا مفر له من التدخل من جديد بين الغرماء. ورغم أنه لم يكن يريد حلاً من طرف فوزي بـگـي إلا أنه وجد نفسه مضطراً، إذ لم يكن في الأطراف المتصارعة من هو أعقل منه. ظل فِكرت گولدانـچـي وفوزي بـگـي في سعي متواصل طيلة شهر كامل من أجل إصلاح ذات البين. وبعد جهد جهيد، توصل الجميع إلى عقد اتفاقية دامت ما يقارب الست سنوات كانت الأوضاع خلالها هادئة نوعاً ما، ولكن مرت على البلاد في تلك الفترة الكثير من الأحداث الكبيرة التي قلبت حياة سكان هذه المنطقة رأساً على عقب.

٢٨

كانت سنة ١٩٨٨ سنة عصيبة، ففي تلك السنة قرر «صدام حسين» أن يثأر من جميع الكرد الذين امتنعوا عن المشاركة في حربه ضد إيران. ومع نهاية الشتاء وبداية الربيع من ذلك العام، قامت الدولة بمجزرة قتلت فيها ما يزيد على مئتي ألف كان معظمهم من سكان القرى المجاورة لمدينتنا. لم نكن نعرف، نحن أبناء المدينة، أي معلومات تفصيلية، وكنا، وسط بحر الدماء ذاك، نمارس حياتنا بشكل شبه طبيعي. ولو حدث أن عبر مسافر ما من مدينتنا في ربيع ذلك العام ورآنا كيف نعيش حياتنا بشكل طبيعي ونقضي أيامنا بكل هدوء، لم يكن ليشعر البتة أنه قد دخل بلداً في حالة حرب وأنه في مدينة طال الدمار والخراب كل ما يحيط بها. لقد كان منكور على حق حين قال مرةً إن هذه المدينة منقطعة عن الدنيا ولا تعرف أي شيء عمّا يدور حولها.

وكما فعلت معظم العشائر حينها، جدَّد الآمونيون ولاءهم للدولة، حيث سافر وفد كبير من طرفهم إلى بغداد. وهناك

تبرع الوفد لصندوق المجهود الحربي باثني عشر كيلو ذهب كانوا قد جمعوه من نساء الآمونيات. كان قلندر آمون عضواً في ذلك الوفد، رغم أنه كان يرى نفسه واحداً من المقاتلين الأوائل الذين التحقوا بالبارزاني، وكان يأمل أن تعود أيامه الذهبية تلك حتى يستعيد دوره «مسؤولاً عن مدفعية الثورة». ومع ذلك فحين عاد من بغداد وحضر اجتماعاً كبيراً للآمونيين، عبّر أمام الجميع عن انبهاره بشوارع بغداد وقصورها ونسائها، ووصف بكلمات تتقطّر بالإعجاب أولئك الفتيات الفيليبينيات بتنانيرهن القصيرة اللواتي كنَّ يقدمن البيرة والمشروبات غالية الثمن إلى رواد الفنادق الكبيرة الفخمة هناك. في تلك الفترة، لم يكن أحد من النساء في العراق باستثناء الفيليبينيات، يجرؤ على الظهور بمثل ذلك اللباس في الأمكنة العامة. أما الغلطة التي وقع فيها قلندر آمون فكانت أنه حمّض صور زيارته التذكارية تلك عند مصوّرٍ كثير الكلام. كانت لقلندر صورة مع الحرس الخاص لوزير الداخلية، وأخرى وهو واقف كتفاً لكتف مع مسؤول فوج الدفاع عن القصر الجمهوري، وثالثة مع المسؤول عن ديوان القصر برفقة كلبه. ولكن تلك الصور وصلت، بطريقة من الطرق، إلى يد «مصطفى هجار» الشاعر و«قَـپوز جُقلي» الذي كان من كبار حملة السكاكين ورفيقاً مقرَّباً من منـگور. وفي أقل من أربع وعشرين ساعة، انتشرت صور قلندر آمون في طول المدينة وعرضها، كما قام شخص مجهول بوضع نسخ من تلك الصور داخل ظرف ألقاه في صبيحة يوم باكر في منزل آل گولدانـچـي.

شعرنا جميعاً، في ذلك الوقت، أن الهدنة على وشك الانتهاء، وأن الحرب ولا شك ستبدأ من جديد. غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث، ولم تزد ردة فعل الآمونيين إزاء ذلك على ابتسامات رقيقة وضحكات لينة ودون أن يصدر عنهم أي تعليق. ولكن كانت تلك الصور قد نجحت بالفعل في تلويث سمعة قلندر آمون بحيث أصبحنا جميعاً ننظر ليس إليه فحسب، بل إلى الآمونيين كلهم كعشيرة فقدت طهارتها السياسية وباعت روح الوحدة الكردية وتحولت إلى ذيل من ذيول العدو.

في السنة نفسها، تعرّض ساقي محمود بصفته مطرباً إلى ضغط شديد من قبل رجال الأمن. وقد استدعاه، أكثر من مرة، المسؤول عن شؤون الفنانين في تنظيم الحزب الحاكم. وبعد أخذ ورد واستدعاء متكرر وتهديد متواصل، أجبروه على المشاركة في حفلٍ كان مسؤولو الدولة معتادين على إقامته في بعض مناسباتهم السياسية. كانت أغاني ساقي كلها فولكلورية قديمة وليس فيها شيء قد يستفاد منه في مديح القائد أو الجيش أو الحزب، لكن مجرد المشاركة في ذلك الحفل كان كافياً لينظر الناس إليه نظرتهم إلى خائن. كنا جميعاً نعلم أن مشاركة ساقي في ذلك الحفل كانت تحت التهديد، ومع ذلك فقد كان هناك من لم يغفر له تلك الزلة، كما لم يغفرها ساقي لنفسه، وبقي عاجزاً عن الغناء حتى نهاية عمره. تناول الكثير من الأدوية ولكن دون جدوى. حدث معه ذلك مباشرة بعد نزوله عن المصطبة في تلك الحفلة المشؤومة، تقرَّح حلقه

فجأة بشكل وجد نفسه فيه عاجزاً تماماً عن مد صوته. عقب تلك الحادثة، انسحب ساقي إلى داره وسجن نفسه فيها بحيث لم يكن يبرحها إلا نادراً. لقد انسحب من الحياة العامة حتى كاد الجميع أن ينساه.

أما منـگور فكان، في كل مكان يرتاده، يصف خصميه، مُسمّياً إياهم بصوتٍ يسمعه الجميع، بالخونة بائعي الكرد وبالعملاء المقربين من الدولة. ولكن الأحداث اللاحقة أظهرت أن منـگور نفسه كان بشكل من الأشكال متورِّطاً في أشياء مشابهة. في تلك الأيام، كان منـگور يصرف معظم وقته متنقلاً بين المقاهي والخمارات وأقبية الفنادق. ولم يكن أحد منا يعلم كيف كان هذا الرجل يعيل نفسه، وكان جوابه لكل من يسأله عن ذلك هو: «أنا رجل قليل النفقة، قليل الأكل، وتكفيني الدراهم القليلة التي يرسلها إليّ ابن أختي من إيطاليا». لكن أحداً منا لم يصدقه لأن منـگور كان يصرف ببذخ، وكان يظهر دائماً كرجلٍ مكتفٍ وميسور الحال. أكّد البعض حينها أن منـگور يعمل في تهريب المشروبات الروحية إلى إيران. وكانت تلك المهنة تدرُّ أرباحاً جيدة، ناهيك عن أنها كانت تتم تحت إشراف مباشر من إدارة المخابرات العامة. ولما صارحوه بشكوكهم هذه لم يسمعوا منه نفياً قاطعاً ولا تأكيداً جازماً. ومن جهة أخرى كانت هناك بعض الأقاويل حول تورط عدد من رجال منـگور في السطو على بعض محلات الصَّاغة، وبعض خزائن البيوت في المدينة. في وقتٍ ما، قبضت الشرطة

بتهمة السرقة على أربعة من رجال منـگور وهـم «قَـپوز جُقلي» و «لـچ قوقِز» و«ساماني كسرى» و«هُشَجو»، وبقي الأربعة مدة خَمسة أيام تحت الضرب والجلد دون أن يعترفوا بشيء. وبعد ثلاثة أسابيع في السجن، تم الإفراج عنهم. لكن الكثير من الناس كانوا متأكدين من ضلوع منـگور في تلك السرقات الكبيرة.

كنا جميعاً نخشى من ذلك التغيّر الكبير الذي أصاب منـگور ولـم نكن نفهـم أسبابه، ولكن كانت تلك هي المرة الأولى التي نسمع فيها اتهامات لمنـگور بالسرقة.

حين وصلنا إلى نهاية السنة الثالثة، كان السائحون الثلاثة قد أرسلوا عدة مرات إلى سوسن صوراً لهم من مناطق متفرقة في العالم. رغم سوء الوضع السياسي في البلاد، ورغم أن الدولة كانت قد قبضت على جميع أولئك الشبان الفارين من الحرب ضد إيران وأعادت تجنيدهم ثم عاقبتهم بإرسالهم إلى صحراء الجنوب القائظة، فإن معظمنا لم ينسَ التفكير في مصير أولئك المسافرين الثلاثة الذين خرجوا ساعين خلف أملٍ في أقصى العالم. وكلما ساءت الأحوال وساءت معها معاملة الدولة للناس، كانت صورة سوسن فِكرت تبدو أكثر توهجاً وإشراقاً كامرأة سمحاء وبعيدة النظر. أما أولئك الذين كانوا يشتمون سوسن في ربيع سنة ١٩٨٧، ويصفونها بأنها «عاهرة دون قلب»، فقد غيّروا نظرتهم تلك بعد سنتين فقط، حين شاهدوا بأم أعينهم هذا الواقع الكارثي الذي نجا منه الشباب الثلاثة،

وكم أنهم محظوظون إذ لم يدركوا هذا العصر المظلم. لام الجميع أنفسهم وعرفوا قيمة سوسن وتحولت صورتها عند الناس، خلال سنتين فقط، من فتاة قاسية القلب إلى امرأةٍ ملاك لا تريد شيئاً سوى مصلحة عشاقها. وفي تلك الفترة نفسها، أعرب البعض عن رغبتهم الصريحة بزيارة سوسن والتعبير أمامها مباشرة عن رأيهم في فطنتها وسماحة نفسها، لكن سوسن رفضت تلك الزيارات قائلة: «لا أجد شيئاً خارقاً في رغبة المرء بتخليص بعض الأشخاص من الجحيم».

في وقتٍ ما، كان معظمنا عالقاً في معسكرات الجيش ومراكز التدريب، وكانت الدولة تحضّرنا لحرب كبيرة، بينما كان الخُطّاب الثلاثة يتابعون رحلتهم في ثلاثة أمكنة متفرقة من الأرض. كان كاميراني سلمى ينطلق من الهند باتجاه جنوب آسيا، بينما كان خالد آمون يطوف غرباً، منطلقاً من شمال أفريقيا متخذاً خط الساحل قاصداً جنوب تلك البلاد السحرية المترامية. أما منصور أسرين فقد انطلق من تركيا باتجاه شرق أوربا. أما ما كان يلفت أنظار سوسن في صور خُطّابها الثلاثة فكان طول لحاهم. في معظم الصور، كان كل من منصور أسرين وخالد آمون يرتدي قبعة تغطي نصف جبهته. أما كاميراني سلمى فكان البرد القارس وتجواله في جبال آسيا الوعرة قد أحرقا بشرته. كان كاميران، من بين العشاق الثلاثة، يبدو الأكثر ضياعاً والأقل عترة. ظهر في بعض الصور مرتدياً زياً أفغانياً أو باكستانياً، بينما كان خالد آمون يظهر غالباً برفقة

سواح أوربيين أو صحفيين جوالين. ظهر منصور أسرين في ثلاث صور مرتدياً قبعة صوف مثل تلك التي كان يعتمرها القادة الشيوعيون.

خلال تلك السنوات الثلاث، أرسل كاميران اثنتي عشرة صورة، وأرسل منصور إحدى وعشرين، بينما أرسل خالد آمون ما يزيد على خمسين صورة. بعض الصور كانت تصل عبر بريد الدولة، وبعضها الآخر كان يصل إلى عناوين متفرقة في إيران ويتكفل المهربون بعد ذلك في إيصالها إلينا. يجب أن أذكر هنا أننا على الرغم من كوننا في مدينة عراقية، لكن إيران كانت البلد الوحيد في العالم على امتداد التاريخ الذي تربطنا به علاقات دائمة. كانت بعض الصور قد بقيت وقتاً طويلاً في البريد الإيراني ومرت بعد ذلك على أيدٍ كثيرة أخرى. وتطلب الأمر أن يعبر عدد من المهربين عدداً من المدن لإيصال تلك الصور إلينا، حتى إننا حين استلمناها كانت مجعَّدة ومتكسِّرة وشبه بالية. وحتى بعد وصولها، تناقلتها أيدٍ كثيرة ومن بيت إلى بيت قبل أن تستقر أخيراً في منزل گولدانـچي. وهناك فقط، في مستقرِّها الأخير، كانت تلقى عناية فائقة.

كانت سوسن، في معظم الليالي وبعد أن ينام الجميع، تخرج ألبومها ذاك وتتأمل تلك الصور. كانت لحظات تأمُّل صور خُطّابها الثلاثة أجمل سر في حياتها. وكما كانت، في طفولتها، تغمض عينيها وتحوم في عالم الصور، الآن كذلك تضع يدها على تلك الصور وتغمض عينيها وتتيه في عوالم

بعيدة. كانت واثقة أنهم هم كذلك يشعرون في هذه اللحظة بقربها منهم، يشعرون أن سوسن تراهم في كل ليلة. ربما كان منصور أسرين أكثرهم تمتعاً برؤية الدنيا، فقد كان يبدو أكثر تواضعا من الاثنين الآخرَين، ذقنه الخفيفة تلك كانت تعطيه مظهر سائح سعيد. بينما يبدو كاميراني سلمى يبدو كشخص لا يعرف ماذا يجب أن يفعل، وكانت سوسن ترى في جميع صوره شخصاً يتطلع إلى العودة، وليس من الغريب أبداً أن يقطع رحلته تلك ويرجع قبل انقضاء المدة. كانت صور خالد آمون الجميلة في صحارى أفريقيا وغاباتها تُظهر أنه أكثر الثلاثة صلابة وبروداً وقوة إرادة. لم يكن يضحك في صوره، وهذا ما كان يبعث الرضا في نفس سوسن، لأنها طالما كرهت تلك الابتسامات الزائفة التي يرسمها الجميع على شفاههم عند التقاط الصور. لقد خلقت فيها صحبتها الطويلة للكتب والمعاجم ثقة أن الصور تنقل لها الحقيقة. غير أن الابتسامات أمام الكاميرات ليست سوى وسيلة لإخفاء الوجه الحقيقي والحياة الحقيقية، وهذا أكثر ما كان يزعجها. كان خالد آمون يبدو في صوره قاسياً لا رحمة في قلبه، وكانت نظراته الحادة تختلف عن نظرات منصور الناعمة ونظرات كاميران البوهيمية التائهة. وكان انطلاقه في رحلته الحقيقية من شمال أفريقيا محط إعجاب سوسن. كان قد انطلق في باخرة من بيروت إلى طنجة. لا شك أن أفريقيا هي موطن الطيور البرية، وكانت سوسن تعلم أن اختيار أفريقيا يمنح خالد ميزة لن يحصل عليها منافساه بسهولة. فالمرء يستطيع في أفريقيا أن يصطاد الطيور

بسهولة أكبر، يمكنه العثور على صيادين يبيعون بأسعار أقل، وعلى مرشدين في الغابات، كما يمكنه بسهولة شراء فيزا مزورة والتنقل بين تلك الأقطار كيفما يشاء، وكذلك يمكنه بسهولة أكبر مما في البلدان الأخرى استئجار مكان يودع فيه طيوره.

كانت الصور عزيزة جداً على سوسن وتترقب وصولها بلهفة. ومهما كان عملها في النهار، فإن أذنها كانت تبقى معلقة بجرس الباب. ورغم حرصها الشديد على ألا يظهر عليها أي شيء، لكن زيارات المستشارين المفاجئة، بين الحين والآخر، كانت تبعث سروراً في نفسها لا يمكنها إخفاؤه.

كان قلندر آمون أكثر المستشارين الثلاثة زيارة إلى منزل گولدانـچي. كان يبدو، للوهلة الأولى، شخصاً صموتاً قليل الكلام وخجولاً؛ يضع الصور باستحياء على طاولة غرفة الضيوف ثم يحتسي كأساً من الشاي مع فِكرت گولدانـچي، ويتحادثان قليلاً في السياسة وأحوال الطقس وغلاء الأسعار. وبعد ذلك ينصرف بالهدوء والسكينة ذاتها التي أتى بها. وكانت سوسن كثيراً ما تسأل: «لماذا شخص خجول كهذا يمتلك سمعة بهذا السوء في المدينة؟». لم تكن ترَ في قلندر ما يمكن للمرء أن يكرهه بسببه.

ذات مرة، وكان الحديث يدور بين قلندر وگولدانـچي الأب، تحمس قلندر ونسي نفسه، فأخذ يتحدث عن تلك

الأيام التي كان فيها مسؤولاً عن مدفعية الثورة. تحدّث عن شح المؤن وفساد الذخيرة والقصف المتواصل من قبل العدو. انتهزت سوسن الفرصة وسألته، هل كان خلال تلك المعارك قد شاهد الكثير من الجثث. فأجاب قلندر: «نعم يا سيدتي لقد رأيت الكثير، بل الكثير جداً». فعادت سوسن إلى سؤاله: «أريد أن أعرف شيئاً واحداً لا غير... ما الفرق بين رائحة الموتى ورائحتنا نحن الذين ما نزال على قيد الحياة؟». بدا سؤالها غريباً لقلندر الذي حدّق إلى عينيها، وكانت نظراته أشبه بنظرات خالد آمون الباردة الحادة، ثم أجاب دون أن يفكر: «سيدتي، على المرء أن يجرب ذلك بنفسه... إنه أمر يجب اختباره شخصياً».

ولكن أنى لسوسن أن تعيش بذاتها تلك التجربة، وكيف يمكن أن يتسنى لها شم رائحة الموتى؟

في سنة ١٩٨٨، توقفت الحرب بين العراق وإيران وتوقف التلفزيون كذلك عن عرض مشاهد الجثث. وهذا الأمر سبَّب تغيراً كبيراً في حياة سوسن التي كانت منذ ثماني سنوات مدمنة في كل ليلة على مشاهدة صور الجثث المحترقة والممزقة إرباً إرباً. وكان غياب تلك الصور بشكل فجائي انقلاباً لم يكن من السهل على سوسن التعايش معه. لقد كان أولئك الموتى جزءاً مهماً من عالمها، وكان غياب صورهم عنها كغياب وجه الحياة الحقيقي في هذه البلاد. لكن شيئاً ما كان يهمس لها باستمرار «كوني مطمئنة، الموتى سيعودون... اطمئني».

كانت زيارات منـگوري باباگوره أحب الزيارات إلى قلب سوسن؛ فقد كان أسلوب منـگور في الكلام وطريقته في التلويح بيديه تثير ضحكها، وكان واضحاً لها أن معرفة منـگور بأخبار صاحبه أكثر من معرفة الممثلَين الآخرَين بأخبار صاحبيهما. بل إنه كان على اطلاع واسع بالطرق والخطط التي كان يتبعها كاميران خلال سفره: كان كاميران قد انطلق في رحلة طويلة من إيران نحو باكستان، ومن هناك سافر بحراً إلى الهند، وكان قد اتخذ في مدينة هندية تدعى (آورِنـگ آباد) مكاناً مخصصاً جعله قفصاً كبيراً وضع فيه كل طيوره تحت رعاية أشخاص مختصين. وحسب أقوال منـگور، فإن رحلة كاميران كانت موفقة للغاية في الهند إذ حصل على طيور كثيرة من الأرياف والغابات وسواحل البحار. وحيثما كان يصيد طيوراً كان يعمد إلى إرسالها ضمن أقفاص صغيرة خاصة عبر البريد إلى (آورِنـگ آباد)، حتى يتم إيداعها هناك في القفص الرئيسي المعدِّ لتجميع الطيور. وزعم منـگور كذلك أن كاميران خلال إقامته هناك في (آورِنـگ آباد) قد تعلم التحدث بلغة الببغاوات البنغالية. وحتى إنه تمكن، في بعض الغابات كثيفة الشجر، بوساطة فنون من التصفير وأشكال من الإشارات، من الدنو من طيورها البرية النادرة. إن قطع كاميران كل تلك المسافات والنجاح في تلك الرحلة قد أثار إعجاب فِكرت گولدانـچي، الذي كان يتتبع خط سيره على الخريطة التي كان يحملها منـگور معه دائماً في جيبه. هتف منـگور بفخر: «الولد عيار ٢٤... إنه بارع في تحريك مؤخرته».

إلى جانب السعادة التي كانت تبعثها تلك الصور في نفس سوسن، فإن صحتها كانت تسوء شيئاً فشيئاً، وكان يجب أن يغيِّر «آريان جودت» اللوحات التي يرسمها لها مرة كل شهرين. كانت سوسن تفتش في المجلات القديمة وكتب الطبيعة والتاريخ، فتختار منها أجمل الصور وتكلف آريان برسمها. وكانت، كما في أيام طفولتها، تجلس أمام تلك اللوحات محاولة النفاذ إلى داخلها. لم يكن أحد يعلم أن بإمكانها الدخول إلى أعماق تلك الصور بكل سهولة. ولكن أكثر ما كان يثير حزنها، كما كانت عليه الحال دائماً، هو أنها لم تكن تشمُّ في عالم الصور ذاك أي رائحة، ولا تسمع فيه أي صوت.

لقد أصبحت آلام الرأس المستمرة والإغماء والنحول وفقر الدم وهبوط الضغط وفقدان الشهية جزءاً رئيسياً من حياتها. وقد عجز الأطباء، رغم التدقيق والعناية الشديدين، عن معرفة سبب تلك الأعراض المتكررة العُضال. وفي وقت ما، ساءت أحوالها إلى درجة اضطرت معها إلى مراجعة عيادة الطبيب رفعت رمزي مرة كل أسبوع، والخضوع إلى مراقبة دائمة. وغالباً ما كانت أختها پـروشه ترافقها في تلك الزيارات. شعرنا ذات يوم أن الطبيب بعد الانتهاء من معاينة سوسن الاعتيادية، كان يقضي وقتاً طويلاً مع پـروشه، وكان مدة تلك الخلوات تطول مرة بعد أخرى. كانت سوسن كعادتها غير مبالية بالأمر، بل كانت تبدو مستمتعة بذلك الوقت الذي كانت تقضيه جالسة في غرفة الانتظار تحدِّق إلى اللوحات المعلقة على الجدار،

وتتأمل ثياب المستخدم ووجوه المرضى الذين كان يساورهم القلق من وجود أرملة مثل پـروشه في خلوة مع الطبيب.

في نهاية عام ١٩٨٩، وفي حفلة عرس كبيرة وخاطفة، تم عقد قران الدكتور رفعت رمزي على پـروشه گولدانـچـي، وكانت حفلة العرس الضخمة تلك هي الثانية في حياة پـروشه التي كانت تريد الهروب، بأي ثمن، من الصمت الذي كان يسود منزل گولدانـچـي.

٢٩

أحدث زواج پـروشه بعض التغير في حياة سوسن وفِكرت گولدانـچـي، إذ كان عليهما بعد ذلك القيام بكل شيء في المنزل بنفسهما. لكن سوسن، في تلك الفترة، كانت في أضعف حالاتها، وكانت أعجز ما تكون عن النهوض بتلك المهمة، وأعظم ما يمكنها إنجازه هو إعداد وجبة فطور صغيرة. ولذلك وجدت خَنده گولدانـچـي نفسها مضطرة للقدوم بنفسها، أو إرسال إحدى بناتها، بشكل دائم لرعاية أخيها وترتيب منزله خشية أن يصير إلى حال غير لائقة.

مع اندلاع حرب الكويت، واجه فِكرت گولدانـچـي أول أزمة مالية حقيقية في حياته. ففي تلك الفترة، انهارت قيمة النقود ولم يعد راتبه التقاعدي يكفيه ليعيش ميسوراً كما في السابق. وفي نهاية سنة ١٩٩٠، رأينا فِكرت گولدانـچـي للمرة الأولى يفاوض صاحب مكتبة في الشارع العام بشأن بيع بعض كتبه. لقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يضطر فيها إلى التضحية ببعض كتبه، ولم يكن الأمر غريباً بالنسبة إلينا لأنه

كان واحداً من الكثيرين الذين كانت معاشاتهم تؤمن لهم حياة لائقة خلال السنوات الفائتة قد وقعوا في هذه الضائقة عينها في ذلك الفصل، وباتت رؤية مشاهد كهذه مألوفة لنا. ولكن ما أثار دهشتنا كان أن فِكرت بدا في قمة السعادة وهو يبيع كتبه. بدا كشخصٍ يحمل في أعماقه كراهية كامنة وعظيمة تجاه تلك الكتب. وفهمنا جميعاً أن فِكرت كان في داخله يعزو مرض ابنته وضياعها إلى انغماسها الطويل وسط كل تلك الكتب والمعاجم والأطالس. وازدادت دهشتنا أكثر حين علمنا بعد ذلك أن جميع محاولات سوسن في إقناع أبيها وتوسلها إليه ألا يتصرف في تلك الكتب قد ذهبت هباء، ويبدو أن الفاقة وانعدام المال كانا حججاً قوية لم تنفع معها دموع سوسن. وبالطبع، لم يصارح الأب ابنته بأي شيء يجعلها تخمّن مقدار الكراهية العميقة التي كانت تتسرب إلى نفسه، سنة بعد سنة وحادثة بعد أخرى، تجاه الكتب. في ذلك اليوم الذي باع گولدانـچـي كتبه، قضت سوسن الليل كله جالسة في فراشها تبكي دون أن يشعر بها أحد حتى طلعت عليها شمس الصباح. كانت تلك هي المرة الأولى التي تبكي فيها ذلك البكاء المر وتعيش تلك الحالة الوجدانية الصعبة. لم تكن تريد أن تثقل على والدها وتزيده هموماً فوق همومه، ولذلك فقد عملت ما بوسعها حتى لا يسمع صوت نشيجها. في صباح اليوم التالي، استيقظت من نومها وأعدّت، للمرة الأولى، مائدة الفطور قبل أن ينهض والدها من نومه. ولكن الضعف والشحوب كان بادياً عليها بشدة، حتى إن والدها نهض ثلاث مرات عن طعامه

وقاس حرارتها وضغط دمها. كانت سوسن من النوع الذي سرعان ما يظهر على جسدها وصحتها أثر أي اضطراب نفسي تعاني منه. في تلك الفترة، نادراً ما كنا نشاهد سوسن في السوق أو الشارع. عقب زواج پـروشه، قلّت كثيراً جولات بنات عائلة گولدانـچـي اللواتي كنَّ بين الفينة والأخرى يقمن بجولات جماعية في الأسواق التي كانت قد خفّت حركتها خلال تلك الفترة كثيراً بسبب الحصار المفروض على عموم البلاد، وكانت معظم مخازن المدينة قد أقفلت أبوابها لأن أصحابها كانوا قد تحولوا إلى جنود يخدمون في الكويت أو على الحدود هنا أو هناك. المتعة الوحيدة المتبقية لعائلة فِكرت گولدانـچـي كانت زيارة العرسان الجدد لهم. ففي مساء كل يوم خميس، كانت پـروشه والدكتور رفعت يزوران منزل گولدانـچـي ويقضيان ليلتهما هناك، ثم يعودان إلى منزلهما في مساء اليوم التالي. كان الدكتور رفعت شخصاً مرحاً وبشوشاً يولي حياة مرضاه عناية كبيرة، ولديه الكثير من حكايات مناوباته وعمله لمدة طويلة في بعض القرى النائية أو في المشافي الصغيرة في المدينة. كان الزوجان يبدوان سعيدين للغاية، وهذا ما كان يملأ قلب فِكرت بهجة وسعادة. كان الدكتور رفعت، كلما اقتضت الضرورة، يزور منزل گولدانـچـي مرتين في الأسبوع من أجل معاينة سوسن. كان متأكداً أن الفتاة لا تشكو أي مرض خطير، وأن دواءها الوحيد هو تغيير مكانها ونمط حياتها. وكانت سوسن تضحك في أعماقها كلما أشار عليها الدكتور رفعت بتلك النصيحة، فهي لا تجد أي مشكلة في حياتها الخاصة التي لم

تكن سيئة ولا معقدة سوى أن آفاقها ورغباتها كانت أكبر من أن تستطيع إشباعها. كانت سوسن بحاجة إلى أكثر من حياة وأكثر من عالم... وتلك كانت مشكلتها الكبرى.

في تلك الفترة، نادراً ما كان المستشارون الثلاثة يترددون على منزل گولدانـچـي، ولكننا كنا متعطشين بشكل دائم إلى أخبار جديدة، حتى إننا لم نكفّ، خلال أصعب الأيام التي مررنا بها، عن السؤال عن أخبار سوسن، لأن ذلك الفصل كله قد مضى بدون أي حادثة مهمة تستحق أن نقطع بها وقتنا. ولو حدث مرةً وصادفنا سوسن في الخارج كنا نجد موضوعاً نتحدث فيه لاحقاً. الشيء الوحيد الذي كان يشغلنا في تلك الفترة كان خروجها منفردة وفي أوقات غير متوقعة إلى السوق. في البداية نادراً ما كنا نراها وحدها، ولكن خلال الأشهر والأسابيع الحزينة التي سبقت الحرب الكبيرة أصبحت تكثر من الخروج منفردة. لم يكن لخروجها مواعيد محددة؛ فكانت تخرج في ساعات مختلفة عن ساعة خروجها الماضية. كانت خطواتها واهنة ناعمة وكانت ترتدي في الغالب تنورة بيضاء ومعطفاً أسود طويلاً مع زنّار عريض كانت تعقده بشدة على خصرها، وإن كان الجو ماطراً كانت تصطحب معها مظلتها النيلوفرية القديمة. وإن كان الجو طيباً كانت تضع يديها في جيوب معطفها وتمضي في طريقها دون أن تلتفت إلى أحد منا. بشكل عام، لم تكن سوسن تتوقف في أي مكان إلا إذا صدف عدم حصول فِكرت گولدانـچـي على صحف ذلك

الأسبوع، ففي تلك الحالة كانت سوسن تمر على مكتبة «شار» لتستلم تلك الصحف. كانت أحياناً تتوقف عند بعض مكتبات الأرصفة ترمق على عجلة بعض العناوين والأغلفة ولكن دون أن تلمس بيديها أي كتاب لتعود بعد ذلك إلى المنزل سالكة الطريق ذاتها وبإيقاع المسير الواهن الضعيف نفسه. نادراً ما كانت تشتري شيئاً ما أو تلمس مصادفةً شيئاً ما. غير أننا لاحظنا أنها كانت قبل أن تشتري أي شيء كانت دائماً تقرّبه من أنفاسها وتأخذ بشمّه.

في مطلع عام ١٩٩١، وصلت بعض صور منصور أسرين بشكل سري إلى المدينة. كانت الصور ملتقطة في تركيا، وقد وصلت عن طريق بعض عناصر الغيريللا التابعين لحزب العمال الكردستاني (PKK) إلى يد سائق من منطقة «خوشناوتي»، ومنه إلى يد ساقي محمود الذي كان في تلك الفترة يمر بأحلك أيام حياته. بعد فترة طويلة من الغياب، مضى ساقي إلى منزل گولدانـچـي حاملاً معه تلك الصور. لاحظت سوسن علامات الشيخوخة والتعب التي كانت واضحة على ساقي مقارنة بالأشهر السابقة.

حين جلس ساقي إلى فِكرت گولدانـچـي وابنته، شعر أن من واجبه أن يقص على الفتاة البائسة الجزء الذي يعرفه من أخبار رحلة منصور. قال وهو يسحب نفساً عميقاً من سيكارته: «إن الحياة قد تغيرت بحيث لم يعد الإنسان يعرف نفسه. اعذروني إن كنت قد أطلتُ الغيبة هذه المرة، فأنا لا أحب إقلاق راحتكم

إن لم أكن أحمل معي أخباراً جديدة ومهمة. تعلمون أن أخبار منصور قد انقطعت منذ الربيع الماضي. إن آخر رسالة استلمتها من طرفه قبل هذه الصور كانت في مايو الماضي، ولولا تلك الرسالة وهذه الصور لأوقعني ذلك الصمت في دوامة القلق. ولكن لنكن جميعاً مطمئنين الآن فمن الجائز أن الأيام الفائتة قد حملت كثيراً من التغيرات في رحلته. الحقيقة أنني منذ البداية لم أكن موافقاً على أن يبدأ رحلته انطلاقاً من أوربا. ولكن يبدو أن سقوط الشيوعية قد سهّل أموره وسرّع رحلته. أنت تعلم يا سيدي أن الطرق وعبور الحدود تكون أيسر أمام المسافرين في الدول المتخلفة أو التي تعاني من اضطرابات داخلية. ولكن رغم ذلك فالبلدان الأوربية على العموم لديها قوانين صارمة فيما يتعلق بصيد الطيور. ولقد بلغني خبر لا أعرف مدى دقته، ولكني أظن أن الأمر على هذه الصورة، وأن قوانينهم صارمة. ولذلك فقد كانت انطلاقة رحلته من أوربا على خلاف رغبتي. بعد السنة الأولى اتجه منصور شمالاً، قصد البلدان الباردة في الشمال. أشعر أن منصور كان بحاجة، وسط كل ذلك البرد والزمهرير والوحدة القاتلة، إلى أن يفكر بعمق في كل شيء. فإن لم يكن الأمر كذلك، فليس لدي أي تفسير آخر لبقائه كل ذلك الوقت في تلك الأصقاع الباردة. وحسب آخر الأخبار، فقد انطلق منصور من النرويج في باخرة باتجاه أمريكا. اتجه مباشرة إلى بعض حقول المكسيك، وأرى أن ذلك حسن تصرف منه. لقد أحسن إذ لم يقضِ وقتاً طويلاً في شمال أمريكا. في الحقيقة، لا أحمل الكثير من الأخبار،

غير أني أعتقد أن المرء كلما اتجه شمالاً تتضاعف فرصه. وقد سمعتُ من قبل أن حوض الأمازون والمناطق المحيطة به جنة حقيقية للطيور، وبإمكانه هناك أن يعوّض ما فاته من وقت. لقد كان أكثر ما سرّني حين علمتُ أنه نزل في أمريكا ومعه الكثير من أقفاص الطيور. في كل مكان نزل فيه كان يتعرف إلى عالم بيولوجيا مختصٍّ بالطيور، من أولئك الذين لهم دراسات عن سلوك بعض أنواع الطيور المهاجرة. وأعتقد كذلك أنه قد حصل على شهادة ما من إحدى جامعات النرويج، وهذا الأمر يرفع أسهمه بالتأكيد. آمل أن يعود في وقته المحدد ومعه جميع طيوره... آمل ذلك».

كان صوت ساقي مشوباً بشك عميق، شك لا علاقة له بمنصور بقدر ما كان مرتبطاً بعصر الشك الذي كنا جميعاً نعيش فيه. ولكن رغم كل شيء فقد سُرَّت سوسن كثيراً برؤية صور منصور في الثلج وصقيع الشمال، وسط المروج الواسعة وأمام غابات الصنوبر ومساحات الثلج اللا منتهية.

في ذلك العصر، تفشت في وسطنا ظاهرة غريبة. إذ، أصبحنا جميعاً نرى تلك الأحلام ذاتها التي كانت سوسن تراها كل ليلة في منامها عن الرُّحّال الثلاثة الشباب. كان معظم سكان المدينة يرون في وقت ما الأحلام عينها. كنا في معظمنا، ما إنْ نضع رؤوسنا على المخدة ونغمض أعيننا، حتى يتراءى لنا المسافرون الثلاثة وهم يطوفون في أماكن مختلفة من هذا العالم الواسع. كان أمراً عجيباً. حتى إن أبناء هذه المدينة في

خنادق القتال في البوادي البعيدة المقفرة، حيث كان الجيش العراقي يحاول عبثاً لم شتاته لمواجهة ثلاثة من أكبر الجيوش في العالم، كلما أغمضوا أعينهم هناك تحت سماء الجنوب، لاحت لهم أطياف المسافرين الثلاثة وهم يتجولون في العالم بحرية بصحبة طيورهم.

في سنة ١٩٩٠، أخذت الدولة تصوّر العالم الخارجي كله مكاناً مخيفاً ومظلماً ومليئاً بالأعداء. لكن صورة العالم في تلك الأحلام كانت شيئاً مختلفاً تماماً، مختلفاً عن تلك الصورة التي كان الدكتاتور يحاول إقناعنا بها. كنا جميعاً نشعر أن أولئك المسافرين الثلاثة كانوا يطوفون العالم من أجلنا، يرون العالم بدلاً عنا... عالم آخر، عالم لا حدود له، عالم بهيٌّ لم نكن نستطيع رؤيته إلا في أحلامنا.

كان التكرار المستمر لذلك الحلم غريباً. بعض الأشخاص شاهدوا تلك الأحلام على امتداد سنوات من أعمارهم، بينما كان لدى البعض الآخر حلم عابر سرعان ما اختفى. في البداية، لم يكن أحد يجرؤ على البوح بذلك، حتى كتب مصطفى هجار في الصحيفة أنه رأى في منامه المسافرين الثلاثة وهم يطوفون العالم بالنيابة عنا. بعد ذلك، اعترف الكثير من الشعراء والفنانين بتلك الحقيقة عينها، لتتسع شيئاً فشيئاً موجة الاعتراف تلك حتى بلغ الأمر ببعضٍ ممن لم يروا تلك الأحلام، أن أعلنوا أنهم رأوها بناءً على ما كانوا قد سمعوا به من وصف الآخرين له. يجب أن أذكر هنا أن تلك الأحلام في ذلك الفصل كانت

مصدر سرور وسكينة كبيرة لنا. بعد عدة سنوات، حين هاجر عشرات الآلاف من الكرد وتشردوا في أطراف الأرض، وحين كانوا يصلون إلى بلدان بعيدة ويطؤون تراباً لم يطؤوه من قبل ويزورون ممالك لم يروها من قبل، كانت الدهشة تصعق البعض منهم إذ يشعر أنه قد سبق له، بصورة أو بأخرى، أن شاهد هذا المكان وعبر في أحلامه تلك البلاد.

٣٠

كي لا نبتعد كثيراً عن موضوعنا، عليّ القول إن عصور الأحلام العظيمة، بل جميع عصور الأحلام في وطننا، هي ذاتها عصور الخوف العظيمة. في سنة ١٩٩١، حين نشبت الحرب بين العراق والعالم، تداخلت مخاوفنا وأحلامنا حينها بشكل كبير لم نستطع معه أن نفصل بينها فيما بعد. لكن نظرة سوسن إلى ذلك العهد لم تكن كنظرتنا؛ فهي قد عاشت منذ طفولتها الباكرة وسط صور الحروب. ولهذا فإن الخوف الذي تسرب إلى قلوبنا لم يعرف إلى قلبها سبيلاً. وكانت اللا مبالاة التي تنظر بها إلى السياسة تجعل من مشاعر اليأس، كما نفهمها، شيئاً غريباً بالنسبة إليها. كانت سوسن تتمنى في أعماقها أن ينأى البشر بأنفسهم عن الحرب، ومع ذلك فقد كان في الحرب شيء ما يثير دهشتها، شيء غامض لم تكن تدرك كنهه. كانت واثقة من عدم قدرتها على العيش مع شخص محارب، ولكن الحرب في حد ذاتها كانت شيئاً آخر. كانت الحرب تثير أعمق الأحاسيس في نفسها إذ تترك خلفها صور كل تلك الوجوه، كل تلك المشاعر المعقدة التي تخلفها في نفوس المقاتلين. ذلك

الدخان الأبيض الذي تنشره على الأرض وتلك التغييرات العميقة التي تحدثها في شكل الأرض ووجوه المدن وأنماط العيش، كل ذلك كان بالنسبة إلى سوسن عالماً آخر. ورغم أن سوسن كانت قد أرسلت بخُطّابها الثلاثة بعيداً عن الحرب، لكنها هي بالذات كانت مؤمنة منذ طفولتها أن الحرب واقع عليها ألا تفرَّ منه. إن هوس سوسن بالحرب لم تكن وراءه أي دوافع شريرة، ولكن بوسعنا القول إن تلك الفتاة كانت قد شهدت في طفولتها كثيراً من الحروب العظيمة من خلال الكتب. ولكن، كما هي العادة، دائماً كان ينقصها أمران اثنان يحولان دون انقلاب خيالاتها تلك إلى يقين؛ وهما الصوت والرائحة.

في سنة ١٩٩١، عقب الهزائم الفظيعة التي منيت بها جيوش صدام في الجنوب وانسحابها من الكويت، عمَّت الثورات أرجاء العراق وكانت سوسن ضمن الفتيات اللواتي شاركن في بعض تلك الانتفاضات، ولكنها على العكس منا لم تكن تلهث خلف الأحلام والهواجس. لم تكن مسلَّحة، بل كانت دائماً إلى جانبنا، ولكن دون أن تبدر منها أي حركة تلفت الانتباه.

في تلك الأثناء، كانت عيون المنتفضين تلتمع كلما وقعت على تلك الصبية الحسناء التي كانت ترتدي، على الدوام، بنطال جينز قديماً وسترة سوداء طويلة. لم تكن تلك الصبية تقوم بأي شيء باستثناء مراقبتنا ونحن نطلق النار، وكانت تشتمُّ

رائحة البارود المنبعثة من بنادقنا دون أن يبدو على وجهها أي ملمح من ملامح الخوف.

وما زلنا حتى اليوم مدهوشين كيف أنها استطاعت النجاة من تلك الأيام الصعبة. لقد كانت الوحيدة التي تتحرك دون خوف في أرض المعركة. كثيراً ما كنا نصرخ بها، ننبهها، بل نرجوها أن تلتزم مكانها وألا تكثر من الحركة، لكنها لم تكن تنصاع لتنبيه ولا لرجاء، وكأن أصوات المعركة وروائح البارود قد أصابتها بالصمم فلم تعد تأبه لتحذيراتنا المتواصلة.

تمكّنا، خلال معارك اليوم الأول، من الاستيلاء على معظم مقرات الحكومة ومراكزها، كما سلّمت جميع المخافر الحكومية أسلحتها إلى الثوار. وكذلك قام المدنيون الذين كان النظام قد جنّدهم وسلّحهم بالانقلاب عليه والانضمام إلى الثورة.

في اليوم الثاني، ألقت معظم القوات المحيطة بالمدينة أسلحتها، وتمكّنا من أسر ضباطها وجنودها، بينما لجأ كبار كوادر البعثيين وعناصر الأمن السري ومديرو الفروع الأمنية وموظفوها إلى داخل مركز الأمن العام وتحصنوا فيه. وهناك وقعت أشد معارك الثورة دمويةً. في الليلة السابقة على الانتفاضة، جمع منكوري باباگوره رجاله وأوصاهم أن يكون قتالهم في الفن الذي يتقنونه، أيْ بضرب السكاكين أكثر من أي سلاح آخر. بقيت كلمات منكور التي قالها في تلك الليلة

منقوشة في ذاكرتنا طوال سنوات بعد ذلك، قال حينها: «الدماء أصبحت في كل مكان، وأنا لست معارضاً الاشتراك في هذه الحرب. الله وحده يعلم عدد المعارك التي خاضها يوسف كَويار. في سنوات الستينيات والسبعينيات، لم يتخلف كَويار مرة واحدة عن معركة كبيرة خاضها الكرد. وصيتي لكم أن تضربوا بسكاكينكم لا بأي سلاح آخر. القضية قضية عاداتنا وتقاليدنا وأخلاقنا الموروثة في الحروب. لم يتخلَّ المرحوم كَويار عن سلاحه الأبيض حتى آخر يوم في حياته، وكان العدو يخشى سكين كَويار أكثر مما يخشى رصاص الثورة وبارودها ومدافعها، لأن قذيفة واحدة من قذائفنا لم تنجح، طوال ثورة سبتمبر، في إصابة مؤخرة العدو ولو مرة واحدة».

لم تلقَ كلمات منكور القبول حتى لدى أقرب المقربين إليه. لم يعترضوا عليه مباشرةً، لكن قَپوز جُقلي ومچويي أخترخان ومريواني مَمَ وآخرين قالوا لمنكور بكل احترام إن الحروب الحديثة ليست كالقديمة، وإنه بدون استخدام أسلحة حقيقية لا أحد مستعد أن يعرِّض حياته لخطر عظيم كهذا.

في اليوم التالي، انضم الجميع بأسلحتهم الحديثة، باستثناء منكور، إلى صفوف الانتفاضة. ورغم ذلك فقد أبدى منكور بسلاحه الأبيض من ضروب الرجولة والشجاعة ما أذهل الجميع. كان في كثير من المواضع يتقدم على حملة البنادق فيفتح لهم طريقاً وسط نيران القذائف ودخانها. ومنذ اليوم الأول، قام رفاق منكور بعمليات نهب واسعة في المدينة،

نهبوا عدداً من المخازن الكبيرة وأخفوا سرقاتهم في أماكن مخصصة يعرفونها. انتشر النهب في كل مكان، نهبوا المعامل والآلات والتحف من المؤسسات الحكومية، كما نهبوا الحلي والأموال من منازل البعثيين القدامى. صحيح أن أحداً منا لم يشاهد منـگور وهو يشارك في تلك الأفعال، لكننا لم نكن لنصدق البتة أنها تحدث بدون علمه.

في اليوم التالي، وأثناء الاستيلاء على أحد مراكز الحزب الحاكم، شاهد منـگور للمرة الأولى سوسن گولدانـچـي. ووسط كل تلك الاضطرابات والدخان ونيران البنادق، رفع قبعته بكل وقار قائلاً: «سيدة سوسن، تقبلي مني احترامي الشديد، ولكني أقسم بقبور جميع الأولياء أن هذا المكان لا يناسبكِ يا سيدتي. ألا ترين الأيدي ترتجف حتى وهي على الزناد؟ ألا ترين كيف ترتعد أيدي هؤلاء المحاربين أكثر مما ترتعد مؤخراتهم؟ إن أصابكِ أي مكروه فلن تفارق الحسرة والندامة قلوبنا جميعاً، ولهذا أناشدكِ أن تتكرمي فتمنحي خادمكِ منـگور شرف إيصالكِ إلى منزلك حيث والدك المحترم».

حين تلفظ منـگور بتلك الكلمات كانت أصوات القذائف تصم الآذان، حتى خيل إلينا أن سوسن لم تسمع كلمة مما قاله. لكننا جميعاً سمعنا سوسن وهي تجيبه بصوت دافئ مختلف عن صوتها الاعتيادي الضعيف طالبة منه ألا يقلق عليها، وأن الأمور على ما يرام ولا خطر على حياتها، وأنها لا ترغب في

العودة إلى المنزل بل في البقاء معهم حتى النهاية. ثم إنها ابتعدت بخفة ولباقة عن منكور الذي بقيت قبعته في يده وعيناه معلقتان بسوسن إلى أن غابت تماماً وسط نسائم منعشة كانت تهب في ذلك الصباح.

طوال سنوات، لم يفارق ذلك المشهد ذاكرة منـكور، فكان يرويه لنا في كل مرة بشكل مختلف مفاخراً في كل مرة أنه حظي بالتعرف عن قرب إلى فتاة بتلك الشجاعة.

في ظهيرة اليوم التالي، بدأت المعركة الحقيقية في مركز الأمن العام الذي كان قد تحول إلى «قلعة بعثية». كان المركز عبارة عن مبنى ضخم وقبيح ومخيف، ويحتوي في داخله على عشرات الممرات والأقبية وغرف التعذيب، ولم يحدث أن خرج منها أحد المعتقلين حياً. كان أحد أفظع مراكز الاعتقال والتعذيب حيث يعمل فيه أمهر الجلادين وبأعلى الرواتب، وكان لجوء فلول البعثيين إلى ذلك المبنى غلطة قاتلة سهّلت الأمر كثيراً على المحاصِرين. بدأ القتال بشكل خفيف، وكان المدافعون عن المركز ما زالوا يأملون أن يصلهم مدد عاجل من خارج المدينة. أما الثوار والمنتفضون فكانوا بدورهم يترقبون انحدار رفاقهم من الجبال وانضمامهم إليهم. لكن البعثيين كانوا قد هُزموا في العراق كله، ولم يعد بإمكانهم إرسال مدد إلى أي مكان. كانت المعركة تشتد شيئاً فشيئاً. كنا نحاصر المركز من جهاته الأربع، ومنذ الساعة الأولى كانت سوسن معنا. وكانت المرة الأولى التي رأينا فيها قلندر آمون برفقة بعض الشباب

من أقربائه يحاربون إلى جانبنا. كانت سوسن تعود متأخرة إلى منزلها غير آبهة بصراخ أبيها وولولات أختها پروشه ونصائح الدكتور رفعت. لقد كانت نشوة الحرب قد تمكنت من روحها، وكانت في كل ليلة تعود فيها تدخل الحمام فتغتسل بماء بارد وتهرع قبل أن تجفف شعرها إلى سريرها، فتفتح ألبوم الصور لتتصفح صور خُطّابها البعيدين. يجب أن أذكر أنها خلال تلك الأيام التي أمضتها برفقتنا كانت في غاية الهدوء والسكينة تراقب ما يحدث حولها كمن يتفحّص صورة ما.

بعد بضعة أيام وعشرات الساعات من القتال العنيف، تمكّنا من هزيمة البعثيين المتحصنين داخل المركز وسيطرنا على جميع المداخل، وكانت قذائفنا وقنابلنا اليدوية قد تسببت بالكثير من الحرائق في الداخل. احترقت كثير من المكاتب في الطوابق العليا، بالإضافة إلى قسم لا بأس به من الطوابق السفلى، وكانت ألسنة الدخان الأسود تنبعث من نوافذ الأقبية الصغيرة، ولم يكن أمام البعثيين المحاصرين إلا واحدة من اثنتين، إما البقاء في الداخل والاحتراق، أو الخروج والاستسلام. وهكذا وقعت أمام البابين الرئيسيين لذلك البناء المرعب أفظع مجزرة شهدتها مدينتنا على الإطلاق. على امتداد مئتي عام من تاريخ مدينتنا لم يرَ أحد يوماً وليلة كتلك، لقد قتلنا جميع البعثيين في ذلك المكان. كنا نصطاد من ينجو من النار منهم فنقتله بالسكاكين أو الرصاص أو الحجارة، ولا أحد حتى اليوم يعرف كم كان عدد القتلى في تلك الليلة، لأن

المجازر كانت تجري عند أكثر من باب وفي الوقت عينه. ولأن الكثير من جثث القتلى كانت تُشدُّ بالحبال وتُسحل في الطرقات، ولذا كان من المتعسر تخمين حصيلة القتلى. عليّ القول كذلك أن تلك المجزرة كانت بمنزلة تدريب قتالي للكثير من شباب مدينتنا الأغرار، كما كانت مدرسة للشباب المحيطين بمنگور نفسه، لأن معظمهم كان حتى ذلك اليوم مجرد ضارب سكين بلا تجربة حقيقية في القتل، ولم يكن أحد منهم قد شهد من قبل يوماً دامياً بهذا الشكل. لقد كانت مجزرة البعثيين حدثاً جللاً تخللته مخاوف وأحلام عظيمة، حتى إن بعض من اشترك فيها من الشعراء والفنانين والممثلين كان كمن يؤدي عمله على المنبر أو المسرح. كان الغضب في أوجه ولم يسلم منه أحد، وكانت رياحه مصحوبة بالأحلام تدفعنا بشكل غريب قُدماً إلى الأمام. كان قلندر آمون واحداً من الذين تسوروا البوابة الخلفية واقتحموا قلعة البعثيين تلك، حتى يطهروها غرفة غرفة ويحرروا السجناء بداخلها. لم تتلطخ يدا منگور بالدم، فقد كان جالساً حاملاً سكينه في أعلى سور المركز يراقب ما يحدث بكل هدوء. حاول في البداية أن يُبعد النساء والأطفال عن مشاهدة تلك المجزرة لكنه لم ينجح، فقد احتشد العشرات منهم في باحة المركز حتى يشاهدوا المعركة عن قرب.

في ذلك الوقت كان منگور يدرك أن ما يحدث يمثل نهاية حقبة وبداية أخرى جديدة، وكان يعلم أن هذه قد تكون آخر

معركة يحضرها كحامل سكين. لقد كانت اللحظات الأخيرة من غروب شمس حملة السكاكين التي كانت قد آذنت بالغروب قبل ذلك. كان منـگور الوحيد الذي حافظ على وعيه وسط كل ذلك الهيجان العارم واستطاع أن يعلن: «هذه المجزرة غير شرعية»، ولم يزد على ذلك. في تلك اللحظة، بدا لنا منـگور رجلاً شجاعاً للغاية في أنه استطاع الحفاظ على مبادئه. لقد كان من دأبه وحنكته أن يترك في أنفسنا انطباعاً كهذا عن شخصه يدوم إلى الأبد.

كانت سوسن في مقدمة المتفرجين وكنا، كلما انفلت بعثي من النار ووقع في أيدينا وقتلناه ننظر إليها، فلا نرى سوى ملامح وجهها الباردة. كنا جميعاً نهلل ونصفق، بل وندبك فوق الجثث دون أن يتمكن أحد منا من قراءة شيء في ملامح سوسن. كنا نشعر أحياناً أن في داخلها شيئاً ما يكاد يخنقها، لكن الأمر كان على خلاف ذلك. وشيئاً فشيئاً اكتشفنا أنها كانت تشم روائح تلك المشاهد وتصغي إلى أصواتها.

عند حلول المساء، بدا المشهد مظلماً ومخيفاً للغاية. مئات الجثث مكوّمة فوق بعضها البعض على مجموعات، والتي كان من الصعوبة بمكان التعرف إلى هويات أصحابها المشوهين بفعل الحجارة أو الضرب والسحل، وكان الدخان ورائحة احتراق اللحوم الآدمية ما يزال يعبق من خلال بعض النوافذ المفتوحة في البناء. دخلت مجموعة صغيرة منا إلى داخل المركز وأخذت بتفتيشه غرفة غرفة. في الداخل، كانت

مئات من الجثث المحترقة، ولاحظنا كيف أن البعثيين كانوا قد تجمعوا في غرف محددة قبل أن تحاصرهم النيران وتمنعهم من الخروج، لينتهوا مختنقين بالدخان وتحولهم ألسنة اللهب إلى تماثيل من الفحم. تجولنا قليلاً بين تلك الجثث دون أن نعثر على أي ناج. تعرفنا في إحدى الغرف إلى جثتي مدير الأمن ومحافظ المدينة المتلاصقتين. في الزنازين كان بعض من السجناء الذين كنا ننوي تحريرهم قد قضوا نحبهم حرقاً. هناك اختلطت جثث الضحايا والجلادين كما اختلطت بقايا لحومهم وجلودهم. كان أمراً محزناً للغاية أن نعجز عن فرز جثث الضحايا عن جثث جلاديهم. رأينا في أمكنة أخرى بعضاً من أولئك الذين قاوموا هجوم الثوار حتى الرمق الأخير وانتهوا بأن قتلوا أنفسهم خشية الوقوع في الأسر. علمنا ذلك من طريقة إمساكهم بمسدساتهم ومواضع الرصاص في رؤوسهم. في الحقيقة، لا أحد كان يعرف ما الذي حدث في الداخل وكيف جرت الأحداث وتتابعت وبما فكّر أولئك المحاصَرون وماذا فعلوا، ما طرق النجاة التي فكروا بها وما نوع الألم والندم الذي شعروا به؟ كل ذلك سيبقى إلى الأبد سراً مكتوماً، لأننا في فورة الحماس والهيجان لم نترك ناجياً واحداً ليروي لنا على الأقل ما كان يحدث في الداخل.

فتشنا جميع الغرف والممرات والأقبية خشية أن يكون أحد البعثيين الناجين قد اختبأ في شق أو غرفة سرية ما، لكننا لم نعثر على شيء. مع حلول الليل، بسطت ظلمة ثقيلة مخيفة

جناحيها على الكون، وبالكاد تمكنّا بالاستعانة بالمصابيح اليدوية من الخروج من دهاليز تلك الأقبية الملتوية والنجاة من تلك الظلمة الحائمة خلال الغرف المحترقة. في الخارج، كان الظلام حالكاً وثقيلاً على النفس، ولا شيء تقع عليه العيون في تلك الساحة سوى الجثث الصامتة. كان الظلام يجعل منظر المركز مرعباً والرائحة الغريبة التي تصدر عنه تجعل النظر باتجاهه أمراً مريعاً. الصمت الثقيل يلف كل شيء، ونحن واقفون وسط كل تلك الجثث نفكر في شيء واحد: متى سنشهد يا تُرى ليلة مشابهة لهذه مرة أخرى؟

٣١

في ساعة متأخرة من الليل، علمنا بغياب سوسن. كان فِكرت گولدانـچـي وابنته پـروشه ينتظرانها بقلق كبير. في تلك الأثناء كانت پـروشه وزوجها الدكتور في منزل عائلة گولدانـچـي، وكنا جميعاً نترقب أنباء سيئة. لقد كنا نخشى أن يقصف البعثيون مدينتنا بغاز قاتل أو أي سلاح آخر. في تلك الليلة حين بلغت الساعة الثامنة ليلاً ولم ترجع سوسن بعد، امتلأ قلب گولدانـچـي بالوساوس، وظلوا حتى التاسعة ينتظرون عودتها. كانوا جميعاً قد لاحظوا خلال الأيام الماضية التغيرات التي طرأت على سوسن، وكأن تلك المجازر التي وقعت في المدينة قد حررت الفتاة من ماضٍ صامت، وكأنها كانت المرة الأولى التي ترى فيها وجه العالم الحقيقي. ورغم الخوف العظيم الذي كان يشعر به فِكرت گولدانـچـي ونداءاته غير المجدية لابنته، فقد كان سعيداً في أعماقه وهو يرى ابنته وقد خرجت من المكتبة نحو عبق الحياة الحقيقية في شوارع البلاد وأزقتها، فقد كان يرى أن طول مكوث فتاته في تلك

المكتبة قد حرمها من الإحساس بالحقيقة.

حين شارفت الساعة على التاسعة، كان القلق قد بلغ من فِكرت گولدانـچـي وصهره الدكتور مبلغه، واستقر رأيهما بعد طول تردد أن يتحركا للبحث عنها. كان الوقود في سيارة الدكتور موشكاً على النفاد، ولذلك كان عليه الاقتصاد في القيادة، لا سيما أن الوقود شحيح في المدينة بأسرها وليس من السهل الحصول عليه خاصة في ليلة كهذه. مضيا في البداية إلى دار أحد أقربائهم، وعلموا منهم أن سوسن كانت حتى غروب الشمس في جمع من الناس تتفرج على المجزرة العظيمة التي وقعت في مركز الأمن العام، وقال الجميع إنها غادرت مع الجميع، وليس في موقع المجزرة الآن سوى أكوام الجثث والأشلاء. بعد ذلك مضى فِكرت گولدانـچـي وصهره إلى أقرباء آخرين قبل أن يعرّجا على بعض بيوت الآمونيين وبيت ساقي محمود، لعلهما يتلقيان منهما المساعدة. استمرا في البحث حتى نفد منهما الوقود أخيراً، فاستقلا سيارة أجرة ليلية وتابعا الطواف على ما تبقى من المعارف والأقرباء والمشافي، ولكن دون جدوى. فلا أحد كان يعلم شيئاً عن سوسن.

في منتصف الليل كان عدد من يبحثون عن سوسن في شوارع المدينة وفي أطرافها قد تجاوز المئة. زاروا المشارح ودققوا في جثث جميع المدنيين القتلى، وراجعوا في المشافي أسماء جميع الجرحى والمرضى النفسيين ومجهولي الشخصية، ولكن عبثاً.

كان قلندر آمون البطل الحقيقي في تلك الليلة؛ ففي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وكنا جميعاً منهكين من البحث والتجوال، عاد قلندر وحيداً إلى مركز الأمن المحترق. كانت رائحة الدم والموت تفوح من كل أرجاء المكان، مئات الجثث متناثرة في تلك الساحة. وقف قلندر مذهولاً وسط كل أولئك البشر الصامتين، ولم يكن خطر له قبل ذلك التفكير في صمت الأموات. قام بجولة كاملة حول الساحة وهو يحدِّق إلى وجوه بعض الجثث مستعيناً بمصباح يدوي. لم يكن قلندر قد رأى من قبل أفواهاً فاغرة وعيوناً مفقوءة وأعناقاً ملويّة بهذا الشكل العجيب. أذهله استسلامهم للموت على تلك الصورة، وشعر أنهم ميتون منذ زمن بعيد، فلم يكن يبدو على أحد منهم أنه قد مات ليلة أمس وأنه كان حياً حتى قبل ساعات قليلة. لم يشعر قلندر بالخوف، وهذا بالذات ما كان يخيفه من الأعماق، فهو يعلم منذ طفولته أن عدم الخوف من الأموات نذير سوء. على جميع الأحياء أن يخافوا من الأموات، عليهم أن يخافوا منهم حتى يستوثقوا من أنهم هم أنفسهم ما يزالون أحياء بالفعل. إن وجوده وحيداً في هذه الظلمة القاتلة وهذه الساحة الباردة ووسط كل هذه الجثث، قد زرع في أعماقه شعوراً لا نهائياً وسيئاً. شعر أن شيئاً ما يدفعه نحو داخل البناء. هناك كانت رائحة الأجساد المحترقة تصبح واخزة أكثر فأكثر. بعض الغرف كان فيها جثة واحدة أو جثتان، وفي بعض الغرف الأخرى كانت الجثث مكوَّمة. في الطابق السفلي، رماد وتراب

طري وقطع من الزجاج المكسور وطاولات وكراسٍ وخزائن محترقة، ولا شيء آخر. في أمكنة أخرى، كانت النار ما تزال تتّقد بهدوء تحت الرماد. حين صعد إلى الطابق العلوي شعر أن المطر على وشك الهطول. أخذ يتفرج عبر النوافذ الكبيرة على منظر المدينة الغارقة في الظلمة. كان واثقاً أن البعثيين كانوا يطلّون على المدينة عبر هذه النوافذ ذاتها. وقبل أن يغادر المركز انحدر من الخلف إلى القبو ووجد هناك مزيداً من الجثث، وكان من الواضح أن ناراً عظيمة قد شبّت في ذلك المكان لم تترك من أشلاء الموتى سوى قطع متفحّمة من العظام. شعر قلندر أن رائحة الموت في ذلك المكان واخزة أكثر منها في أي مكان آخر.

تابع قلندر طريقه عبر الممرات بهدوء مستعيناً بمصباحه اليدوي، وكان الصمت طاغياً على المكان. سار بهدوء وطمأنينة، وبخطوات صغيرة اتجه نحو الغرف. كان يتفحص كل زاوية ويتمعن في كل ركن، حتى عثر في النهاية في واحدة من الغرف على سوسن ممددة وسط عشرات الجثث المحترقة. كانت راقدة بكل سكينة لا تبدر منها حركة واحدة. كان أول ما خطر له في البداية هو التأكد من أنها تتنفس، كانت أنفاسها تصدر صوتاً خفيفاً وزفيراً ناعماً. حوّل قلندر، مرعوباً، اتجاه مصباحه اليدوي وحشرج بصوت نصف مخنوق: «يا إلهي العظيم... سوسن خان، المدينة بأسرها تبحث عنكِ... كل المدينة... ماذا تفعلين في هذا المكان... ماذا؟». وبدون

أن تقوم بأي حركة، وبصوتها الضعيف نفسه، نبرتها ذاتها التي كانت تتكلم بها في حياتها الاعتيادية أجابت: «أصغي إلى الموتى... أصغي إلى الموتى. أشم رائحة الموتى. يا سيد قلندر، أنا أشم رائحتهم». قال قلندر بصوت مضطرب: «كنتُ واثقاً أنني سأجدكِ هنا... كنتُ واثقاً أنكِ كنت تريدين شم رائحة الموتى. سوسن خان، لقد اخترتِ وقتاً غير مناسب. كل المدينة تبحث عنكِ الآن... آه يا إلهي، ولكن يا سيدتي أخبريني بمَ تشعرين؟». اعتدلت سوسن في جلستها وأجابت بهدوء: «لا أشعر بشيء سيد قلندر. لم أشعر بشيء. إن رائحتهم مثل رائحة أهل هذه المدينة، مثل رائحتي ورائحتك». شعر قلندر بعبثية سؤاله فأردف قائلاً: «هيا يا سوسن خان، أعطيني يدكِ، ناوليني يدكِ، هذا المبنى محترق بالكامل، أتفهمين ما أعني؟ المبنى محترق ويمكن أن ينهار في أي لحظة، ولا يجب أن تبقي هنا». مدّت سوسن يدها إلى قلندر آمون وهي تقول: «لقد رأيتُ كل شيء سيد قلندر... رأيتُ كل شيء». فسألها قلندر متعجباً: «ما الذي رأيته يا سيدتي؟». فنهضت سوسن بهدوء، وبدون أن تجيبه على سؤاله وضعت يدها أمام عينيها متقية ضوء مصباحه الساطع: «سيد قلندر، لقد تأخر الوقت أليس كذلك؟ ولا بد أن السيد گولدانچي يشعر بالقلق، فليس له سواي... ومن الأفضل أن نعود إلى المنزل». قال قلندر: «نعم، منذ حلول المساء والسيد گولدانچي يفتش عنكِ، لقد قضى الليل كله وهو يسأل عنك الناس بيتاً بيتاً».

ثم إنه قبض على يدها وأنهضها. وحين أصبحت على مقربة منه، شعر أن رائحة الموتى تفوح منها. أما سوسن فقد شعرت بدورها وهي تحدِّق إلى ظل قلندر العملاق أن رائحة الموتى تفوح منه هو الآخر.

٣٢

لم يكن ممكناً في تلك الليلة توجيه أي لوم إلى سوسن، لأنها حين وصلت إلى منزلها كانت في حالة يُرثى لها. فما إنْ وقعت عينا والدها وأختها عليها حتى أدركا، من خلال هيئتها الشاحبة، أنها لن تكون واعية لأي عتاب أو نصيحة يلقيانها على مسامعها.

قبل أن تشرق شمس اليوم التالي، كانت سوسن قد تقيأت عدة مرات. لازمتها حمّى شديدة وكانت تتعرق بغزارة، وتوشك بين الساعة والأخرى أن تفقد وعيها، ثم لا تلبث أن تستعيده. كانت نوبات السخونة والبرودة تتناوب على جسدها الغض.

بقيت سوسن على تلك الحال أشهراً عديدة اضطر أهلها خلالها إلى تغذيتها عبر الشرايين في بعض الأحيان، وكانت نادراً ما تستعيد وعيها وهيئتها الطبيعية قبل أن تعاودها النوبات الفجائية الشديدة مرة أخرى. حرص والدها خلال تلك الفترة أن يضعها في الأجواء التي تحبها، فنقل سرير نومها إلى غرفة

المكتبة في الطابق العلوي من المنزل.

كانت فترة مرض سوسن هي ذاتها زمن التغيرات السياسية الكبرى في البلاد. أصبحت سوسن بعد خروجها من قبو الجثث المظلم ذاك تتجنب الاستماع إلى نشرات الأخبار أو قراءتها، بينما كان فِكرت گولدانـچـي يرى في مرض ابنته نوعاً من الاحتجاج على العالم. لقد خنقت فيها رائحة الحياة، رائحة الحرب ورائحة الموت، أي رغبة في متابعة التعرف على العالم الحقيقي. وكانت تسليتها الوحيدة في تلك الفترة هي قدوم آريان جودت إلى منزل آل گولدانـچـي، وقيامه بتزيين جدران غرفة المكتبة برسوماته الجديدة الكبيرة. كانت تجلس في سريرها بينما يقوم آريان بأداء عمله بصبر وأناة، وكانت مراقبة هذا الرسام وحفيف فرشاة الألوان يمنحانِ روحها راحة نفسية هائلة. كانت حالة من الصمت والسكون التام تسود بينها وبين آريان، وكان هذا الأخير قد استعفى شيئاً فشيئاً من جميع أشغاله الأخرى حتى يتفرغ للعمل تماماً في مكتبة آل گولدانـچـي، وكانت سوسن هي كل جمهوره. لكنه كان يشعر أن هذه الفتاة هي أكثر من يمكنه الولوج بعمق ودقة إلى أعماق عمله، وأنها أكثر من يتوه في داخل تفاصيل لوحاته، وأكثر من يستطيع المضي إلى مجاهل أسرارها، وكذلك أكثر من يستمتع بها. نادراً ما كانا يتحادثان، تارة كانا يرتشفان الشاي معاً بصمت، وتارة كانا يتناقشان حول درجات اللون، وفي أحيان قليلة حين تكون سوسن راغبة، كانت تتحدث معه عن حياة المدينة وعن

الكتب وعن مرضها.

كان ربيع عام ١٩٩١ وصيفه من أدق مراحل حياتنا، إذ وقعت تغيرات كبيرة؛ ففي أواخر صيف ذلك العام وعقب معارك كثيرة وشرسة في الشوارع والأحياء، انسحبت قوات «صدام حسين» نهائياً وإلى الأبد من مدينتنا، ودخلنا في عصر جديد من تاريخنا. انحدرت الأحزاب الكردية المسلحة من الجبال وشرعت في تأسيس سلطتها الحالية في المدينة، وكان ذلك أعظم إنجاز يحققه الكرد في تاريخهم منذ انهيار إمارة «بابان». في ذلك الوقت حين انحدرت قوات الحزبين الوطنيين الكبيرين، الاتحاد الوطني الكُردستاني والحزب الديمقراطي الكُردستاني (البارتي) إلى المدن، كان ذلك عيداً حقيقياً بالنسبة إلى الأهالي. ولكن ذينك الحزبين بالذات هما من كتب بعد ذلك تاريخاً مظلماً ومليئاً بالصراعات في حياتنا، وكانا خلال حقبة النضال في الجبال قد تناحرا كثيراً حول تقاسم مناطق النفوذ والسيطرة على المنافذ الحدودية وفرض الهيمنة والسلطة، وقتلا من بعضهما بعضاً خلقاً كثيراً. ولكن بعد أن استقرا في المدن وتحولا إلى سلطة مدنية، تعاهدا على حل خلافاتهما بالطرق السلمية ودون سفك دماء.

كان ولاء الآمونيين في الحقيقة للبارتي، وكانوا قد اشتركوا في «ثورة سبتمبر»، ولذلك فحالما انحدرت قوات البارتي سارع سَي كَرَمي آموني ومعه جميع رجالات الآمونيين إلى الانضمام إليها دون تردد. ولما كان قلندر آمون محارباً قديماً

ومشهوراً، فقد كان أكثر من احتفى به مسؤولو البارتي وخصّوه بالحضور في جميع ولائم الشرف. كان نفوذ البارتي قد ضعف في مدينتنا خلال السنوات المنصرمة، ولذلك فقد رأوا في الآمونيين فرصة لا تعوض لاستعادة نفوذهم وشعبيتهم. ومن الواضح بعد ذلك أن أحداً لم يلتفت إلى ماضي الآمونيين المتعلق بتعاملهم مع السلطات الحكومية طيلة السنوات الماضية، وذلك لأن الآمونيين قوة كبيرة ولا أحد سواهم يمكنه استعادة هيبة البارتي في المنطقة.

غيّر انضمام الآمونيين إلى قوات البارتي أشياء كثيرة في حكايتنا؛ فحين بلغنا نبأ التحاق الآمونيين بالبارتي علمنا جميعاً أن حكاية سوسن فِكرت كانت عنصراً مؤثراً في قرارهم ذاك، كما علمنا أن ذلك سيلقي بظلاله دون شك على مجريات الأحداث ونهاياتها. ولكن رغم ذلك، فحتى نهاية صيف ذلك العام لم يتخذ منـگور قراراً بالانضمام إلى أي طرف سياسي، كان دائم التفكير، وكثير التقلب في آرائه. ولكن مع انقضاء الصيف علم أن من المستحيل عليه أن يعيش في هذه المدينة رجلاً فرداً دون أن يكون نصيراً أو عضواً في حزب ما. كان جميع أهل المدينة قد توصلوا إلى تلك النتيجة، أعني استحالة البقاء في منأى عن الأحزاب. كان أنصار الحزب عادةً أكثر تطرفاً وحماسة من الأعضاء أنفسهم، وكانت الأحوال في المدينة تسير من سيئ إلى أسوأ. في خريف ذلك العام بقي أفراد قلائل خارج الدائرة الحزبية، وكان فِكرت گولدانـچـي

واحداً منهم. ذات يوم من أيام تلك الحمّى الحزبية، كان فِكرت گولدانـچـي جالساً مع صهره الدكتور رفعت يحتسيان الشاي في بهو منزله فقال له: «إن أخطر كارثة يمكن أن تصيبَ أي مدينة هي ألا يبقى فيها أشخاص مستقلون؛ المستقلون وحدهم من يمارس السياسة الحقيقية».

لم يكن أحد قد لاحظ على الدكتور رفعت من قبل أي مشاعر قومية جياشة، لكنه مع ذلك وبدون أي سبب واضح، سرعان ما انضم إلى أحد الأحزاب الصغيرة التي كانت ترفع شعار توحيد جميع أجزاء كردستان.

مع انتهاء الصيف، قرر منـگور، بعد تفكير عميق، الانضمام إلى «الاتحاد الوطني الكُردستاني». لم يكن سبب قراره ذاك هو الاستقواء في مواجهة أعدائه الآمونيين وحسب، ولكن لأن معظم رجاله وأصدقائه قد انضموا إلى حزب الاتحاد سراً أو جهراً. ذات مساء، قال له «قَـپوز جُقلي»: «منـگور، إن كنتَ تفكر في الانضمام إلى أي حزب آخر فاعلم أننا حينها سنكون أعداء، لأن الولاء للحزب عندنا فوق أي ولاء آخر». زلزلت تلك الكلمات كيان منـگور، فقد تأكد لديه أن ولاء أصحابه للحزب يفوق ولاءهم له. كان كمن يفتش عن مكان ضائع منه أو كمن يحاول القبض على الأشياء من حوله قبل أن تفرّ من بين أصابعه، ولذلك انضم بدوره إلى الحزب. نصحه «قَـپوز جُقلي»: «اسمع يا منـگور، لقد كبرتَ في السن، والحزب خزينة كبيرة تعلن عن نفسها يوماً بعد يوم، وكلما أوغلتَ فيها التقطت

جواهر أكثر. المكان الوحيد في هذه البلاد حيث يمكن للمرء أن يحصل منه على الجواهر هو الأحزاب السياسية، ولذلك إياك والتردد». في ذلك الوقت كنا جميعاً نعلم أن منـگور كان يعمل في بيع المتاع المنهوب أثناء الثورة، وذلك بمساعدة من أصدقائه المهربين الإيرانيين. لكن قوة منـگور الحقيقية كانت في عمله معهم من خلف الستار، ولم يسبق البتة أن رآه أحد يقوم بمثل تلك الأعمال، كما لم يكن أحد يعلم مصدر تلك النقود الكثيرة التي كانت تجري بين يدي منـگور في تلك السنوات، كما لا يعلمون أوجه صرفها.

ذات يوم، وبمحض المصادفة، رأينا جميعاً منـگور وهو يتحدث كحزبي متشدد. لقد تخلص من صمته وتردده أخيراً، وكان المرء يستشف من كلامه سخرية مبطنة نحو جميع الأحزاب السياسية الأخرى وكوادرها. ومع ذلك فقد كانت له حدود في اللمز لا يتجاوزها، غير أنه كان يعلن صراحةً: «في السياسة، على المرء أن يعرف أين يضع مؤخرته». وحدثت بعد ذلك تقلبات كثيرة؛ فسرعان ما ارتقى منـگور في صفوف حزب الاتحاد، ومعظم أصحابه السابقين تحولوا اليوم إلى حرسه الشخصي. وأصبح من النادر في تلك الفترة أن يراه أحد في مقهى «پـَپولَي آزاد» لأنه كان يقضي معظم أوقاته في مراكز الحزب وفروعه. وهكذا غدونا لا نلتقي إلا نادراً. وحتى حين كان يزور فندق «باوَجان»، لم نكن نتمكن من الاستماع جيداً إلى ما كان يقول بسبب جلبة حراسه الشخصيين من حوله،

وكنا جميعاً متأكدين أنه لا يحمل معه أي سلاح شخصي باستثناء سكينه.

مع انقضاء الصيف، بدأت سوسن تتعافى. وفي سبتمبر من السنة نفسها لمحناها أخيراً تسير في بعض شوارع المدينة بصحبة بعض فتيات آل گولدانـچـي. ومثل كل مرة، كان نحولها ساحراً وعوارض المرض على وجهها تخطف الألباب. وللمرة الأولى في ذلك الفصل، حَضَرت بعض الاجتماعات والاحتفالات بمناسبات أدبية وثقافية، وكانت كعادتها تجلس صامتة وقورة في مكان واحد لا تغيّره، ومع انتهاء الحفل تغادر دون أن يشعر بها أحد. كانت تعلم أن العيون جميعها تراقبها وتحصي عليها حركاتها وسكناتها وتلاحقها حيثما ذهبت، وكانت تعلم أنها وحيدة... وحيدة تماماً ولا يمكنها أن تكون غير ذلك.

وفي ذاك الفصل نفسه، رُزقت پـروشه گولدانـچـي بطفل أطلقوا عليه اسم «هُزار». كان طفلاً لطيفاً سيكون من المقدَّر له أن يكون حتى آخر يوم في حياته صديقاً مقرَّباً لسوسن.

٣٢

لم ينس البعثيون قط تلك المجزرة التي تعرض لها رفاقهم في مبنى الأمن العام في مدينتنا. صحيح أنهم سحبوا قواتهم، لكنهم ضربوا طوقاً من الحصار الاقتصادي على مناطقنا. وفي صيف سنة ١٩٩١ ساءت أحوال الناس كثيراً بعد أن قطعت بغداد فجأة مرتبات معظم الموظفين الذين كانت محلات إقامتهم مسجلة في مناطقنا. وهكذا، شأنه شأن غيره من أرباب الأسر الطاعنين في السن، انقطعت الحال بِفِكرت گولدانچي ولم يعد لديه مورد يعتاش منه، حتى أصبح أدنى إلى الفقر. في تلك الفترة، عمل فِكرت مترجماً لدى عدد من منظمات الإغاثة الإنسانية الأجنبية، وكان يترجم لهم بعض الوثائق الخاصة من الإنكليزية إلى العربية، لكن عوائد ذلك كانت أقل من أن تفي بمستلزمات المعيشة اليومية، ولذلك وجد نفسه مضطراً مرة أخرى إلى عرض بعض كتب مكتبته للبيع. وكان عليه في كل مرة أن يدخل في جدال مع ابنته سوسن حول ذلك، وكان عليه إقناعها أن ثمن تلك الكتب هو الحل الوحيد الذي يقيهم غائلة الجوع وسؤال الناس. كانت تلك الكتب والتحف والتماثيل

ثروتهم الوحيدة، وكذلك طوق نجاتهم الوحيد. لم يكن گولدانـچـي من ذلك النوع الذي قد يقبل مساعدة مجانية من أحد، ولكن بالإضافة إلى الحاجة فقد كان لدى گولدانـچـي سبب آخر يدفعه إلى التخلص من تلك الكتب، وهو ما كان صهره الدكتور رفعت يكرره على الدوام من أن وجود هذه المكتبة يمنح سوسن مكاناً آمناً، وهذا الشعور بالأمان هو ما يجعلها حبيسة المنزل ويمنعها من الخروج والاختلاط بالناس والتعرف إليهم. كان الدكتور رفعت أجش الصوت صغير الرأس وكان شعره أشقر خفيفاً، قال مرة لوالد زوجته بعد أن تنحنح قليلاً: «سيد فِكرت، إذا نظرنا إلى الموضوع من الناحية السيكولوجية فسنرى أن سوسن ترى في المكتبة عالماً مستقلاً بذاته. إنه مكان خاص بها، وقد جعلت منه حاجزاً يمنحها الشعور بالقوة حين يحول بيننا وبينها، وإذا أردتَ رأيي فإنني أرى أن مشاركة سوسن في الانتفاضة، كان سببها من الناحية السيكولوجية، هو رغبتها في تكثيف مرارة صورة هذه المدينة حيث نعيش المرة تلو الأخرى. قبل أن أتعرف بشكل مباشر إلى الآنسة سوسن ابنتكم، حين سمعت بقصتها... نعم، حين كنت أعمل في المشفى العام سمعت بحكايتها من أفواه كثيرة، من الأطباء والممرضين والممرضات وحتى المرضى والمستخدمين والزوار. نعم يا سيد گولدانـچـي، لقد سمعتها من الجميع، ليس مرة واحدة ولكن عشر مرات بل مئة مرة. وفي ذلك الوقت كنتُ أرى أن الفتاة بقرارها الغريب ذاك إنما تبحث عن حبيب يكون في منأى عن غبار هذه المدينة وعن أنفاس هذا

التاريخ وضجيجه. بلى يا سيدي، شخص يطوف العالم ويعود شخصاً آخر... ما معنى ذلك، نفسي فداؤك ما معنى كل ذلك؟ انظر إلى الأمر من الناحية السيكولوجية وسترى أن هذه الفتاة لا تطيق العيش في هذه المدينة، إنها لا تشعر بالود تجاه أحد منا ولا تحب أحداً منا، إنها تكرهنا كما تكره المدينة... لماذا؟ لأن لديها مكتبتها، وإذا بقيت مكتبتها تلك موجودة فهي ستظل تشعر أن لديها حصناً منيعاً، وأن لديها مكاناً لا يشبهه أي مكان في العالم. وإذا نظرتَ إلى الموضوع من الزاوية السيكولوجية يا سيدي فسترى أن ذلك مرض... نعم، مرض. نعم، هذه الفتاة مريضة دون شك. جُعلتُ فداءكم... الفتاة مريضة، وحتى لو عاد خُطّابُها سالمين فلن ترضى بالزواج من أيٍّ منهم، أنا أقصد بالطبع الزواج الحقيقي الذي نعرفه جميعاً، أعني أنها لن تكون فتاة مثل سائر فتيات هذه المدينة، مثل پروشه ومثل بنات أعمامها وبنات عماتها. كلا... صدقني أنها بهذا الشكل لن تكون أبداً، كما هو شأن جميع نسوة هذه المدينة وشأن أخواتي أو أخواتكم، زوجة فعلية وحقيقية. إذا بقيت هذه المكتبة موجودة فإنها ستلجأ إليها كلما وقع اضطراب من حولها مهما كان صغيراً، وستختبئ خلف جدران المكتبة وتحتمي بها. لطالما قلتُ إن كثرة الكتب في أي منزل أمر مخيف. الكتب الكثيرة تشفي المريض، وبالطبع أنا ما زلت أتحدث من الناحية السيكولوجية. إن أفضل ما في ذلك هو أنها حين تتزوج لن يمكنها الاختباء بعد ذلك خلف كتبها... ذلك أمر حسن. أنا أعلم أنك إنما تبيع الكتب بسبب الفاقة، ولكن حسناً تفعل ولا

يجب أن تترك لهذه المكتبة أثراً في هذه الدار. أبعدْ هذه الكتب عن منزلك لعل ابنتك بعد ذلك تعود إلى حياتها الطبيعية».

كان فِكرت گولدانـچـي الطاعن في السن قد قطع الأمل من ماضيه الذي أنفقه بين الكتب وفي طلب العلم، وكان يفتش عن حجة ما حتى يعبّر عن غضبه على ماضيه، لكن الكتب جزء مهم للغاية من حياة ابنته وهي قد نشأت وسطها. لقد كان متأكداً أنه إذا بقيت هذه المكتبة موجودة فإن ابنته لن يمكنها الانفلات من طوقها والعودة إلى العالم الحقيقي، وأن أيام الانتفاضة وتلك الليلة المظلمة التي قضتها في قبو الجثث إثبات كبير على أن سوسن لا يمكنها تحمل صوت الحياة الحقيقي. وما مرضها الخطير ذاك سوى بيّنة على وجود عقبة روحية عظيمة تحول دون قبول الفتاة لهذا العالم، هذه الفتاة التي تزداد عزلة يوماً بعد آخر والتي لا يمكنها العيش خارج عالم صورها الصامتة، التي بلغت هذه السن دون أن تكون لها صاحبة حقيقية. كان كل ذلك يمزق قلب فِكرت، وعليه قبل أن يغادر هذه الحياة أن يفعل لها شيئاً ما، أن يرفع منسوب القدرة على الحياة في قلب فتاته. ما الذي سيحدث لو لم تشرق عليه شمس الغد وكيف ستتابع ابنته سوسن حياتها؟

ذات يوم حين حضر «فيصل نجيب صحاف» لمشاهدة مكتبة گولدانـچـي أخذته الدهشة، وهو الذي صرف كل حياته في مهنة بيع وشراء المكتبات الخاصة. كان رجلاً مديد القامة نحيل البدن، ذقنه ناتئة وصوته أغن، وكان منذ

مطلع السبعينيات قد اتخذ من المتاجرة بالمكتبات الشخصية والكتب القديمة والمخطوطات مهنة له، أما زبائنه فكانوا عادةً أولئك الأشخاص الذين اضطرتهم ظروف مفاجئة إلى التخلي عن كل شيء جمعوه طوال حياتهم. حين رأى فيصل صحاف مكتبة گولدانـچـي الضخمة عقدت الدهشة لسانه وبقي ذاهلاً عن نفسه بضع دقائق لا ينبس ببنت شفة. كان قد سمع من قبل بهذه المكتبة، لكنها في الحقيقة كانت فوق ما سمع. لقد كانت خزينة ضخمة فريدة من نوعها لم يرَ مثلها حتى في أحلامه. عليّ القول هنا إن فيصل صحاف كان يشبّه مهنته تلك بمهنة مغسّلي الموتى وحفاري القبور، وكان دائماً ما يكرر: «إن شراء مكتبة شخصية تشبه سرقة جميع ذكريات إنسان ما أو سرقة شبابه، وحين تشتري مكتبة ما فإنك تشتري كل تلك الأيام والسنوات التي أنفقها صاحبها على تثقيف نفسه، كأنك تسرق منه تلك اللحظات التي عاشها مع أبطال هذه الدنيا وعوالمها وقضاياها». ورغم كل ذلك إلا أن فيصل صحاف كان تاجراً جشعاً. ورغم علمه أن زبائنه كانوا يبيعونه مكتباتهم بسبب الجوع والحاجة، فقد كان يساومهم في الثمن حتى يبخسهم حقوقهم ويحط من أسعار الكتب لدرجةٍ يشفق فيها المرء على قيمة العلم والعقل والكتابة. بعد الانتفاضة، انتعشت تجارته بشكل كبير في المدينة؛ فمن جهة هناك مئات من المثقفين المفلسين والجائعين ممن كانت أحوالهم تسوء يوماً بعد يوم، ومن جهة أخرى هناك حديثو عهدٍ بالغنى الذين طفوا على السطح مؤخراً، وكانوا راغبين بشدة في تزيين منازلهم ومكاتبهم

بمكتبات ضخمة وكتب نادرة. في ذلك الوقت، كان الحصول على كتاب نادر يغير حياة الإنسان ويفتح له آفاق علاقات جديدة خاصة مع بعض أرباب السلطة الذين كان الكثير منهم يودون الظهور بمظهر محبي الكتب ورعاة الأدباء والمثقفين، وأن نفوذهم السياسي ما هو إلا نتيجة طبيعية لنضالهم الفكري. وذلك اليوم حين جاء فيصل صحاف إلى منزل گولدانـچـي كان مدفوعاً بالأسباب التي أتينا على ذكرها؛ فبعض أولئك الأشخاص الذين كانوا قد انحدروا مؤخراً من الجبال إلى المدينة وكانوا يريدون إبراز وجههم المدني المتحضر بإظهار ولعهم بالكتب والثقافة، كانوا طامعين في الحصول على مكتبة گولدانـچـي المنزلية، تلك المكتبة التي كانوا يعلمون أن واحدة من أجمل وأروع فتيات المدينة كانت تعوم داخلها كسمكة ذهبية في حوض أزرق.

كان فيصل شخصاً صادقاً وصريحاً إلى درجة الوقاحة، فبعد أن احتسى كأس الشاي الذي قدمه له فِكرت، والذي لم يكن بإمكانه أن يقدم ما هو أكثر منه لضيوفه، توجه إليه قائلاً: «لا أخفي عنكم يا سيدي أن مكتبتكم هي المكتبة الحقيقية الوحيدة التي رأيتها طيلة حياتي. لقد رأيت جميع المكتبات الكبيرة في بغداد وطهران وإسطنبول، لقد سبق أن زرتُ تلك الحواضر للاطلاع على مكتباتها. أنا لست مجرد تاجر كتب، بل عاشق للمكتبات. ولا أخفي عنكم كذلك أنني نادراً ما أقرأ الكتب، فقراءة الكتب لا تستهويني لكنني عاشق للكتب. أنا

لستُ مثقفاً لكنني عارف بالكتب، والأمران مختلفان يا سيد گولدانـچـي ولا يجب أن يخلط المرء بينهما. في الحقيقة يا سيدي، لم أرَ في أعظم مدن الشرق ولا عند أكثر الناس علماً وذكاء في إيران وتركيا مكتبة غنية كهذه التي عندكم. بلى، جعلني الله فداءكم، كل شيء واضح، هذه الكتب تم شراؤها بمحبة، وبالمحبة تمت قراءتها والحفاظ عليها. أنا لا أشتري الكتب لنفسي، ولو أنني كنت أبتاعها لمتجري لما أخذتها بهذا الشكل المباشر ولما قلتُ لك ما قلت. إن شهرة مكتبتكم لا تخفى على أحد، لكنني هنا اليوم من أجل شيء آخر، فقد كلفني أحد قادتنا المثقفين بشراء مكتبتكم هذه لحسابه. إنه مسؤول كبير في حزب معروف وهو عاشق لهذه المكتبة، ومستعد أن يدفع فيها ثمناً كبيراً يكفيكم شر الحاجة أنتم والآنسة ابنتكم مدة طويلة». قال فِكرت گولدانـچـي: «كلا يا سيد فيصل، فأنا لا يمكنني بأي حال من الأحوال الإقدام على بيع مكتبتي كلها. صحيح أنني قد اتخذت قراري بالتخلص منها حتى آخر ورقة، وصحيح أنني قد قررتُ أن أمضي شيخوختي في منزل ليس فيه مكتبة، ولكن ليس من السهل اتخاذ قرار كهذا. المسألة لا تتعلق فقط بلا جدوى الكتب في هذه المدينة، ولا تتعلق كذلك بأكاذيب المثقفين وتدليسات الكتّاب التي لا تزيد على أن تكون ثرثرة جوفاء، لكنها متعلقة بشعوري أن لا فرق بين المكتبة والقفص... نعم، لا فرق بينها وبين قفص ضخم يكون المرء سجيناً في داخله. لكن الآنسة الصغيرة لا تستطيع التخلي عن الكتب بهذه السهولة، ولذلك لا يمكنني التخلص من مكتبتي

كلها في يوم وليلة مهما كان الثمن الذي تعرضونه علي، لأن من شأن تصرفٍ طائشٍ كهذا أن يقضي على ابنتي. لقد تكلمتُ مع صهري الدكتور في هذا الموضوع، الدكتور رفعت رمزي، قد تكون سمعتَ باسمه، هو زوج ابنتي الكبرى وكان من رأيه كذلك أن نتخلص من هذه المكتبة، ولكن بالتأكيد ليس بهذا الشكل الذي تقترحونه. فإذا كان صاحبكم المسؤول راغباً في المكتبة فعليه أن يتحملِ شراءها على دفعات وفي أوقات متفرقة، حتى ينقلها جميعاً على امتداد سنتين. بهذا الشكل سيتم البيع ويكون تسديد الثمن في إثر كل دفعة».

تنهد فيصل وسلّ من جيبه ساعة يدوية نظر فيها ثم قال: «إن كنتم بالفعل عازمين على بيع مكتبتكم فجميع التفاصيل الأخرى غير ذات أهمية، وأعتقد أن صاحبي حين يسمع هذه القصة التي رويتموها لي سيكون أكثر تفهماً لموقفكم، بل يخيل إلي أنه سيكون سعيداً بذلك وستكون لديه بين الوقت والآخر فرصة جديدة لإدهاش ضيوفه بما عنده من كتب؛ فمكتبتكم تحتوي على الكثير من الأشياء المدهشة. والآن إذا سمحتم لي فسألتقط بعض الصور للمكتبة ولبعض الكتب، ويمكنني لاحقاً أن أرسل إليكم بنسخٍ منها على سبيل الذكرى، أعني لتتذكروا وتثبتوا أنكم كنتم تمتلكون هذه المكتبة في يوم ما».

هز گولدانـچـي رأسه مرة أخرى وكرر ترحيبه بضيفه الذي أخرج آلة التصوير بكل هدوء وشرع في التقاط الصور. كان فيصل قد جلب معه كاميرا روسية ضخمة من ماركة «زينيت».

بدأ أولاً بالتقاط صور جميع التماثيل والأقنعة والصناديق المنقوشة الصغيرة التي كان بعضها منقوشاً بأيدي فنانين بوذيين، والبعض الآخر عملت فيه أنامل بعض حرفيّي أفريقيا. ثم التقط صور مجلدات الكتب المسلسلة، بدأ بالكتب التاريخية القديمة وانتهى بتصوير رف خاص كان يحمل مجلدات كتاب (الشفاء بالورد) الثمانية عشر. قام كذلك بتصوير بعض الكتب المهمة إفرادياً بوصفها نماذج، وكان أول ما بدأ به كتاب (دور الشيطان في انتفاضة البركان)، وانتهى أخيراً بالتقاط صورة لكتاب (قدرة القرنفل على بعث الموتى).

كانت سوسن في تلك الأثناء تراقبه ببرود من مكانها، لكنها كانت عاجزة عن فعل أي شيء لعلمها أن لا طعام في البيت، وأن الدواء الذي عليها تناوله لا يمكن الحصول عليه إلا في السوق السوداء وبأثمان باهظة، ناهيك عن حبوب الضغط التي يجب توفيرها باستمرار لوالدها. ولئلا تثقل على والدها أكثر فقد لاذت بالصمت... صمتت لأنها تعلم في أعماقها مشاعر البغض الذي أصبح والدها يكنّه لهذه المكتبة مؤخراً.

٣٤

عقب الانتفاضة، أصبح وصول صور الخُطّاب الثلاثة ورسائلهم أكثر يسراً وسرعةً. ففي تلك الفترة كانت تزداد باستمرار أعداد الكرد العائدين من الغرب، وهؤلاء كانوا جسراً مختصراً بيننا وبينهم بشكل بتنا معه مطلعين بصورة دقيقة على أماكن المسافرين الثلاثة.

في مطلع عام ١٩٩٢، سرت فينا جميعاً رغبة فجائية ولكن محمومة، للاطلاع على آخر أخبار أولئك الصيادين الثلاثة أسبوعاً بعد آخر، حتى إن البعض منا قد اشترى خرائط خاصة أخذ يعيّن عليها بدقة خطوط سيرهم، لكن معظم تلك الخطوط كانت خطوطاً وهمية لا صلة لها بالحقيقة. وكثيراً ما كنا نرى بعض الأشخاص في المقهى متحلقين حول خريطة ما آخذين في تخمين أقدار العشاق الثلاثة ومصائرهم، لكن كل ذلك لم يكن سوى آراء فارغة ولا معنى لها.

في فبراير العام نفسه، وصلت إلى سوق المدينة صورتان كانت إحداهما صورة كاميراني سلمى في قرية جبلية ما بين

البيرو والإكوادور، والأخرى صورة منصور أسرين في مكان ما وهو يحمل طائر ببغاء ضخماً جداً. كان ألبوم صور سوسن يمتلئ باطّراد، وكانت في كل ليلة تضع يدها على تلك الصور وتغمض عينيها مسافرة بخيالها إلى عوالم أخرى. بعد تلك الليلة التي قضتها في ذلك القبو بين الجثث وإصابتها بذلك المرض العضال، لم يعد بها رغبة في إدخال أي صوت أو رائحة من الخارج إلى غرفتها، وهكذا أصبح ولوجها إلى عوالم تلك الصور أسهل، وغدا بإمكانها رؤية أماكن وجود عشاقها وخطوط سيرهم بشكل أوضح. كان على طاولتها بشكل دائم أطلس جغرافي ضخم ومفتوح. في تلك الفترة، لم تكن أختها پروشه ولا والدها فِكرت ولا أي فرد من عائلة گولدانـچي يجرؤ على أن يفتح معها بشكل مباشر حديثاً بشأن خُطّابها المسافرين إلى البعيد، غير أنهم جميعاً كانوا يرون ذلك الأطلس على طاولتها ويعلمون يقيناً كم هي منشغلة بأخبارهم. في بعض الأحيان حين كانت بعض نساء عائلة گولدانـچي يجتمعن في مناسبة ما، كانت سوسن تسمع إحداهن تهمهم: «فلتنكسر رقابهم وليذهبوا إلى الجحيم. ما الذي أصاب هؤلاء الحمقى... انظروا إليها، إن فتاتنا أشبه بدجاجة عليلة، يا إلهي... ما الذي يحبونه فيها؟». وتسمع أخرى تزجرها: «كيف تقولين مثل هذا الكلام؟! إن سوسن جميلة وفاتنة»، فتجيبها ثالثة: «جميلة! أتسمين هذا جمالاً! انظري إليها، إنها تشبه دودة ترتدي فستاناً». ورغم كل ذلك الكلام، لم تتخلَّ سوسن مرة

واحدة عن رزانتها بل كانت أشبه بأميرة شاحبة مريضة قليلة الكلام، وكانت إذا تكلمت جاء كلامها مميزاً وملفتاً للأنظار.

في تلك الفترة عينها، تأكد ساقي محمود، عقب إجرائه بعض الفحوص الطبية، أنه لن يعود قادراً على الغناء مرة ثانية في حياته. في الحقيقة لم يكن ثـمّة أي سبب عضوي يمنعه من ذلك، غير أن الأطباء أخبروه أن علته ذات منشأ نفسي وأن أي محاولة منه للضغط على نفسه والعودة إلى الغناء ستكون عواقبها وخيمة. قال له أحد الأطباء إن العقد النفسية لا يمكن معالجتها بالعناد والمكابرة، ومن الأفضل للمرء أن يترك أمر علاجها للزمن وتغير الأحوال تلقائياً. كان ساقي يردد أن صوته «شهيد الديكتاتورية»، وأنه هو شخصياً واحدٌ من ضحايا حزب البعث. بعد الانتفاضة، قام ساقي بدوره، بوصفه وكيلاً لمنصور أسرين، على أكمل وجه حتى إنه جمع بين الشعراء والفنانين في مدينتنا الصغيرة من أجل تقديم عمل يخلّد ذكرى صاحبه في الأسماع. في ذلك الوقت، نشرت بعض المجلات الأدبية مرة أخرى أشعاراً وقصائد قصيرة تتغنى بـ«المسافر على طريق العشق» منصور أسرين، بل إن مجلة أدبية نشرت على صفحاتها قصيدة طويلة كتبها شاعر شهير جداً حينها وكانت بعنوان «في ذكرى رحلة منصور الأسطورية»، وكذلك اشتهرت حينها لوحة فنية رائعة كانت بدون عنوان، كانت اللوحة تصوِّر مسافراً يرتدي زياً كردياً ويحمل عكازاً وخُرجاً ويسير في طريق طويلة، وتنبسط أمامه مشاهد أسطورية تمثل

بعض الغابات والمدن البعيدة. باتت تلك اللوحة تُعرف باسم «رحلة منصور». كانت اللوحة مرسومة بأسلوب فناني الكرد خلال العقدين السادس والسابع من القرن العشرين، فقد كانت مفعمة بالواقعية وتبرز فيها بشكل كبير ألواننا الثلاثة الرئيسية، ألواننا الوطنية أعني الأخضر والأحمر والأسود. فالأخضر رمز نهضتنا الخالدة والأبدية، والأحمر يرمز لدماء شهدائنا، أما الأسود فهو رمز آلامنا التي لا تتوقف وأحزاننا التي لا نهاية لها. سرعان ما تمت طباعة اللوحة على بطاقات صغيرة وتم توزيعها على واجهات الكثير من المتاجر والمكتبات. في أمسية شعرية حضرتها سوسن فِكرت، ألقى شاعر شاب قصيدة حول «الطيور المباركة»، وصرّح فيها باسم منصور كـ «صياد مقدَّس». وحين فرغ من إلقاء قصيدته طوى ورقته ثم تقدم بكل جرأة ودسها في يد سوسن گولدانـچـي، التي كانت جالسة بالمصادفة ضمن الصفوف الأولى، وخاطبها قائلاً: «تفضلي يا سيدتي المحترمة، فهذه القصيدة في الأصل مكتوبة من أجلكم وهي من حقكم، كما هي الطيور المقدسة من حقكم... الطيور الحزينة المباركة». كانت تلك هي المرة الأولى التي نسمع فيها هذا الوصف «الطيور الحزينة المباركة»، فلم يكن أحد قد أطلق على الطيور من قبل مثل هذا الوصف. رأينا جميعاً كيف ابتسمت سوسن بكل هدوء للشاعر الشاب وقالت له بصوت خفيض وناعم: «شكراً... شكراً جزيلاً»، دون أن تضيف شيئاً آخر.

في شتاء وربيع عام ١٩٩٢، زار وكلاء الخُطّاب أكثر من مرة منزل آل گولدانـچـي حاملين لسوسن صوراً جديدة. وقد حصلنا على بعض تلك الصور، لكن بعضها الآخر كان مرسلاً بشكل حصري إلى سوسن ولم يحق لأحد منا فضّ الظروف المختومة. في تلك الفترة أخذ قلندر آمون يسير في شوارع المدينة حاملاً سلاحه جهراً وبرفقته عدد من المسلّحين. لقد كان دائماً على أهبة الاستعداد وكأنه ذاهب إلى معركة شرسة، وكان في غالب أمره يطوف على مراكز الحزب مقدِّماً نفسه كمسؤول عسكري رفيع ومكلّف على الدوام بمهمات جِسام، ولكن دون أن تشغله كل تلك المهام عن القيام بزياراته الدورية إلى منزل آل گولدانـچـي. وكان خاطرٌ ذكي قد دفعه إلى تجنب دخول ذلك المنزل حاملاً سلاحه، فكان ينزع عنه سلاحه ليظهر كما في السابق شخصاً مدنياً عادياً، بل إنه كان يوعز إلى مرافقيه بالابتعاد مسافة كافية عن بوابة المنزل لئلا يراهم سكانه. كان قلندر متأكداً في أعماقه أن فِكرت گولدانـچـي وابنته لا يحبان رؤية أشخاص مسلحين. كان قلندر يظهر دائماً كشخص يقول أشياء في غاية الخطورة والأهمية بنبرة عادية هادئة، وكان يحدِّث سوسن وهو يشير لها على الخريطة إلى الأماكن التي يوجد فيها صاحبه خالد آمون. لم يكن قلندر يكذب البتة، ولم يكن يزيد حرفاً واحداً من خياله على المعلومات الحقيقية التي يعرفها، بل كان يروي بكل هدوء وتؤدة لسوسن بكل أمانة الأخبار والمعلومات الواردة عن صاحبه مهما كانت قليلة وجافة. على عكس قلندر، كان منـگوري باباگوره يضيف

تفاصيل كثيرة إلى مرويّاته رغبةً منه في إدهاش سوسن وجذب انتباهها؛ فقد كان يروي لها مثلاً أن سفينة كاميران بقيت تائهة في عرض البحر عشرين يوماً، ولولا مساعدة بعض أسماك الدلفين له لما بلغ اليابسة ولضاع في مجاهل البحر، وأن كاميران قد تعلّم في جنوب أفريقيا كيف يرقص رقصة قبائل الزولو البدائية، وأنه قد اصطاد في أمريكا الشمالية طائراً بثلاث رؤوس وذلك من عجائب الدنيا وطرائفها، وأنه قد شاهد في مكان آخر قرداً بأسنانٍ ذهبية.

كانت مهارة منكَور في سرد القصص تبعث البهجة في نفس سوسن، فكانت تطلق في إثر كل حكاية ضحكة طفولية عذبة. ولم يكن فِكرت قد رأى ابنته على هذه الصورة من قبل، إذ لم يكن لأحد من قبل مثل هذه القدرة على إضحاك ابنته. من الواضح أن سوسن كانت تعلم أن معظم ما يرويه منكَور ليس سوى أكاذيب وترّهات، لكن طريقته في ضبط رواياته وصياغة جمله كانت تجعلها مسرورة وتمنحها ما عجزت الحياة والكتب عن تقديمه لها. وكان منكَور بدوره كلما رأى إقبال سوسن على حكاياته تأخذه الحماسة فيبالغ أكثر فأكثر في أكاذيبه اللطيفة، حتى روى لها ذات مرة في ما كان يروي أن كاميراني سلمى قد اصطاد في واحدة من غابات أفريقيا طائر ببغاء كان يحفظ ملحمة «مم وزين» لأحمدي خاني حرفاً حرفاً، وكانت تلك كذبة أسطورية حتى لقد كاد يغمى على سوسن من شدة الضحك.

من جهته، كان فِكرت دائم التوضيح لابنته أن قدرة منـكور على سرد الأحاديث المشوقة والروايات الطريفة جزء من ثقافة الشطّار والعيارين في المدينة، وأنهم يمارسونها بشكل يومي، ولكن ذلك لا يعني أن هؤلاء أشخاص جيدون ولا ضرر منهم، فخلف لسانهم الذرب وروحهم المرحة تلك تختبئ نفس نازعة إلى الشر في كل وقت. وكان أكثر ما يُدهش فِكرت أن يتمكن شخص كهذا شبه أمي وسوقي وسيئ السمعة من إدهاش سوسن ورسم الضحكة بتلك السهولة على شفتيها، لكنه رغم ذلك كان سعيداً وهو يرى ابنته باسمة ضاحكة، وسعيداً حين يراها سعيدة بقدوم منـكور، ثم وهو يراها توجه إليه الأسئلة مباشرة ودون خجل حول أخبار كاميران ومكانه. على أن الأب كان دائم الحذر فلا تغفل عيناه البتة عن ابنته وضيفها، فقد كان متشوقاً كثيراً لمعرفة أي نوع من الرجال هذا، رجل غريب وغامض لا يمكن لفتاة مثل سوسن سبر أغوار شخصيته بسهولة. روى الأب لابنته جميع ما يقال عن منـكور في سوق المدينة، سرقاته ودوره في عمليات النهب التي أعقبت الانتفاضة وهوسه البدائي بحرق البيوت، وعلاقاته بكبار المهربين ومشاركته في بيع كثير من منتوجات الوطن وآلاته المهمة إلى الإيرانيين. قالت سوسن ذات مرة لأبيها: «سيد گولدانـچـي، أتعلم أنني سبق أن قلتُ لمنـكور إنني غير مهتمة بما يقوم به من أفعال سيئة؟ ما يهمني هو حكاياته القادمة من عالم آخر. ألا تشعر أن حكاياته من عالم آخر... ألا يعني هذا لك شيئاً؟». فنظر گولدانـچـي إلى ابنته، ولما لم يجد

جواباً مناسباً ضحك، فقد كان يعلم أن كل ما له شأن بعالم آخر هو مصدر دهشة ابنته وإعجابها.

في بدايات عام ١٩٩٢، انطلقت حملات دعائية كبرى بمناسبة انطلاق أول انتخابات ديمقراطية في مدينتنا. كان الاتحاد الوطني والحزب الديمقراطي أكبر قوتين في تلك الانتخابات. كنا جميعاً في تلك الأيام مأخوذين بالحماسة وروح الثورة، وقد جعلت منا تلك الحملات أشبه بأولاد زعران وحمقى. كان قلندر آمون في الأيام التي تسبق الانتخابات يربط حول عنقه وشاحاً أصفر ويعتمُّ بعمامة حمراء، ويفرض على جميع أفراد عائلته ارتداء ثياب صُفر قبل أن يضعهم في سيارة مكشوفة ويطوف بهم في أرجاء المدينة، ومن خلفه عدد من السيارات المشابهة التي تحمل شباباً وفتيات بثياب صُفر كذلك والجميع يصرخ بصوت واحد «كاكا... كاكا». وقد لاحظنا من جهة أخرى أن عدداً من الآمونيين كانوا يمرّون ليلاً، أكثر من مرة، حول مركز منـگوري باباگوره الذي كانت جدرانه وستائره ونوافذه جميعها مصبوغة باللون الأخضر. وكلما كانت تلك السيارات تصل أمام باب المركز كانت تبطئ من سيرها، ويهتف جميع من فيها بنفس واحد: «عاش البارزاني، عاش البارزاني مصطفى، عاش، عاش»، وكانت هتافاتهم تلك تزلزل نوافذ المركز بقوة. أما منـگور ورفاقه فقد صبروا ثلاثة أيام لا يأتون خلالها بأي رد فعل، وفي اليوم الرابع وقبل أن يخرج الآمونيون من بيوتهم كان عدد كبير من

الشبان والفتيات مرتدين ثياباً خُضراً وعاصبين جباههم بشرائط من اللون عينه أمام منزل قلندر آمون، وهناك هتفوا لأكثر من نصف ساعة متواصلة: «مامه، مامه». كانت الهتافات جياشة وصاخبة بلغت أصداؤها حتى الأحياء البعيدة. لم يستطع الآمونيون هذه المرة تسيير موكبهم المعتاد كل ليلة. في الليلة نفسها، أقدم شخصٌ مجهول على حرق منازل «فوزي بـگـي آمون» و«لطيف آمون» و«عبد الله بـگـي آمون»، وكالعادة اقتصرت الأضرار على الخسائر المادية؛ فالبيوت الثلاثة، بما فيها من حديد الدعامات والنوافذ، تحولت بالكامل إلى ركام ولم يتبقَّ منها سوى رماد ناعم. منذ تلك الليلة، بدأ الخوف يساور الآمونيين على حياتهم، خاصة بعد أن أقدم شخص مجهول على إلقاء أكياس مليئة بالروث والبعر والبراز في باحات بيوتهم، ورشق نوافذهم بعلب مليئة بالقمامة، ورمي دفاتر تحتوي جميع صفحاتها صور الحمير في باحاتهم، بالإضافة إلى أكياس قماشية صغيرة فيها فوارغ الرصاص وكذلك قوارير بلاستيكية مملوءة بالبول وزجاجات فيها شَعر محترق، وسكاكين مخضبة بالدم ومخارز سوداء وعقارب ميتة ورؤوس ثعابين مطروقة، وكثير من الأشياء الأخرى الغريبة. لم تُجدِ علاقة الآمونيين بحزب (البارتي) نفعاً في تخليصهم من تلك المضايقات. دام هذا الكرب على الآمونيين وقتاً لا بأس به، حتى إن فوزي بـگـي الذي سعى إلى طلب وساطة گولدانـچـي لدى منـگور عاد خالي الوفاض، لأن منـگور، كما هو شأنه دائماً، انسحب من المشهد تماماً. وشاع في تلك

الأرجاء أنه سافر في رحلة خاصة إلى إيران، حتى يتمكن وهو في طهران من الاتصال بكاميراني سلمى. وكانت تلك آخر مرة يظهر فيها منـگوري باباگوره، لأنه بقي مختفياً عن الأنظار حتى بعد انتهاء الانتخابات.

٣٥

مع انطلاق معارك «حرب الأخوة» بين الحزبين سنة ١٩٩٤، لم يكن قد تبقّى في منزل فِكرت گولدانـچـي شيء من مكتبته ولا تحفه الثمينة؛ فخلال السنتين المنصرمتين كان فيصل نجيب قد نقل المكتبة على دفعات، ولم يكتفِ بذلك بل اشترى منه كذلك جميع التماثيل وقطع الديكور الملونة واللوحات الثمينة والمفارش الحريرية. وكما جرى الاتفاق بين الرجلين كان على فيصل أن يقوم بنقل مشترياته على مدى سنتين وبفاصل ثلاثة أشهر بين كل دفعتين. كان الأب يريد من ذلك التدرج والتكتم ألا تُفاجَأ ابنته على حين غرة بانطفاء الشمس التي كانت تنير عالمها. تمت العملية بهدوء وحذر شديدين بحيث يتوزع الألم زمنياً وتكون المعاناة أخف وطأة. كان لا بد من القيام بذلك من أجل تحرير الفتاة من تلك الزنزانة الأبدية التي سجنت نفسها فيها والعودة بها إلى الحياة الطبيعية. كان عليها أن تعلم أنها ذات يوم لن تجد في غرفتها الواسعة سوى سرير نومها. كان فيصل يأتي في كل مرة ينقل فيها رفاً من رفوف المكتبة لا يجرؤ على النظر إلى عينيّ سوسن،

وكان عمّال النقل يصلون مساءً فيرتّبون الكتب بعناية داخل صناديق كبيرة من الورق المقوّى ثم يلصقون أطرافها المفتوحة ويلفون حولها حبالاً رفيعة خاصة حتى يعودوا في اليوم التالي فيشحنوها بسيارات نقل مخصصة لذلك إلى مكان ما. وكان فِكرت يقبض لقاء كل دفعة مبلغاً من المال يكفيه شؤون معيشة لائقة لبعض الوقت. من جهة، كان سعيداً أن لديه ما يعتاش عليه في هذه الأيام الصعبة، وكان من جهة أخرى حزيناً لأنه أقدم بكل هدوء على هدم سور وأعمدة حياة بأسرها كان هو بنفسه من ابتناها لابنته منذ طفولتها الباكرة. في تلك الليالي التي كان فيها فيصل صحاف يرزم الكتب، كان صمت عميق وقاتل يبسط جناحيه على منزل آل گولدانـچـي، صمتٌ يجعل من الظلمة في داخله أثقل وأكثف، صمتٌ يشعر المرء أنه ناتج عن خرس روحي عميق، صمتٌ لا يجدي معه صراخ ولا استغاثة، صمتٌ نابع من روح الإنسان ومتبرعم فيه. في تلك الليالي، لم يغمض لأحدٍ منهم جفن، كان فِكرت گولدانـچـي في الطابق السفلي ينصت ويعلم أن سوسن ما تزال مستيقظة، فكان يصعد إلى غرفتها بهدوء وهناك أمام الباب يقف وحيداً في الظلمة، ثم يلصق أذنه بالباب فيسمع نشيج ابنته قبل أن ينزل بعد ذلك إلى الأسفل ويدخل غرفته ويوصد الباب ثم يرمي بنفسه على سريره لينفجر هو الآخر بالبكاء. كان فِكرت يعلم أن سوسن كذلك تتسلل بحذر إلى باب غرفته فتلصق أذنها بالباب لتسمع نشيجه المخنوق. كان كلاهما يختلس السمع إلى بكاء الآخر

بصمت ويشعر بآلامه، وكلاهما يشعر بتلك الظلمة العميقة التي كانت تفترسهما. كانت سوسن تعلم أن هدف والدها من التخلص من المكتبة هو إخراجها من حالة الصمت، ذلك الصمت الذي كان أنيس فِكرت نفسه طيلة حياته. ذلك الصمت الذي كان قد جعل من الكتب والأطالس والصور جدراناً عالية تحيط بها من كل جانب، ذلك الصمت الذي كان الفقر والعزلة والحرب والانتظار يزيد من وطأته. مع فقدان كل جزء من المكتبة كانت سوسن تشعر بانهيار جدار من حياتها، وأنها يوماً بعد يوم تزداد عرياً وضعفاً، وأنها في كل مرة تفقد ثوباً أو درعاً يستر ويحمي بدنها في مواجهة الحياة. كان شعوراً يشبه مرور سكين قاطعة في ثنايا أحشائها من الداخل. الآن بدأت سوسن تبتهل إلى الله حتى يعجّل بعودة خُطّابها الثلاثة، فقد كانت تشعر أن حياتها بحاجة إلى شيء كبير، شيء ما يحل محل كتبها، شيء ما تختبئ خلفه لتعيش. كانت كلما نزلت إلى المدينة رأتها مخيفة وقبيحة أكثر من ذي قبل. أما العالم، ذلك العالم الذي يطوف أولئك الثلاثة أرجاءه الآن، فقد كان يبدو لها أجمل وأهدأ. كلما فكرتْ في هذه المدينة انبعثت في ذاكرتها من جديد رائحة الأموات، وجوه الجلادين المشوهة وأزيز رصاص الانتفاضة ورائحة البارود. وكانت كلما رقدتْ ليلاً شاهدت معارك جديدة. كم كانت تخشى ألا تكون الحرب قد وضعت أوزارها عند عودة أولئك المسافرين الثلاثة، وإذا حدث ذلك بالفعل فما الذي سيكون بإمكانها فعله معهم؟ لا

شيء، لا شيء سوى أنها ستكون ملزمة بالزواج من أحدهم، وأن تتمنى للآخرَين حظاً أوفر في الحياة. مع فقدان كل جزء من مكتبتها، كانت تفكر في الطيور أكثر فأكثر، وكان قاموس الطيور الضخم هو الكتاب الوحيد الذي كانت قد أخذت عهداً على والدها ألا يفرِّط فيه مطلقاً حتى ولو ماتوا من الجوع. ولئلا يقتلها قهرها على تلك المكتبة، فقد كانت تجلس أحياناً فتغمض عينيها وتأخذ بتخيل تلك الطيور. كانت تحلم ليلاً نهاراً بتلك اللحظة التي سترى فيها تلك الطيور التي ستحمل إليها رائحة العالم، رائحة المدن النائية والبحيرات البعيدة وقمم الجبال الوعرة على سطح الأرض، رائحة العالم الحقيقية غير الموجودة في الكتب، الرائحة الوحيدة التي ستتغلب على رائحة الموت في خيالها وتنتزع من ذاكرتها رائحة جثث رجال الأمن المحترقة. ستحمل إليها رائحة العالم وألوانه المختبئة في رائحة تلك الطيور وتغريداتها، كما في طيات أجنحتها. وعندها فقط سيكون بإمكانها أن تغمض عينيها وترقد إلى جانبها في القفص وتنام نوماً هانئاً على هديلها العذب، ذلك الهديل المحمَّل بنسائم الغابات البعيدة، إنها أصوات الغابات والممالك السحيقة.

قبل شهر من نشوب «حرب الأخوة»، كانت غرفة المكتبة في منزل گولدانـچـي قد أصبحت خالية تماماً إلا من سرير سوسن وطاولتها وأطلس العالم الجغرافي وقاموس الطيور. لا تمثال ولا صورة ولا قناع، أصبح منزل گولدانـچـي قفراً ليس

فيه سوى بضعة كراسٍ بالية وأريكتين ومائدة طعامٍ وسريري نوم وخزانتي ملابس ومزهرية أوراق الشاي، هذا بالطبع إن أغفلنا الحديث عن الحاجات الضرورية وأدوات المطبخ.

بعد أن أتم فيصل صحاف نقل الجزء الأخير من المكتبة، ترك على مائدة الطعام مظروفاً كبيراً دون أن يقول شيئاً. كان المظروف يحتوي على نسخٍ من تلك الصور التي التقطها في اليوم الأول، عشرات الصورٍ للمكتبة ملتقطة من زوايا مختلفة تظهر مدى جمالها وضخامتها. كادت صور رفوف الكتب النادرة والموسوعات الفريدة أن تصيب سوسن بنوبة جديدة من البكاء، لولا أنها تماسكت وتابعت التفرج على باقي الصور، ودون أن تقول شيئاً أخذت المظروف وأودعته خزانة «الذكريات المرة».

لم يُكتب لسوسن بعد ذلك أن ترى كتبها تلك مرة أخرى، باستثناء مرة واحدة وبشكل غير متوقع، وذلك بعد بضع سنوات حين كانت تتفرج مرة على قناة محلية في التلفزيون الذي كان يعرض برنامجاً يتضمن زيارات إلى مكتبات كبار المثقفين والساسة والمسؤولين في البلاد، وكانت الكاميرا في ذلك اليوم في زيارة إلى منزل سياسي بارز. كان ذلك السياسي رجلاً قصير القامة بارز الكرش تكاد بطنه تتفلَّتُ من ثنايا حزامه، وهناك في منزله رأت سوسن جميع كتبها، جميع تلك الكتب التي كانت تراها في أحلامها، الكتب التي نشأت وترعرعت معها كانت مصفوفة كلها خلف ذلك الرجل الذي كان يتحدث

عنها بحماس، وكيف أنه اختارها وجمعها بنفسه كتاباً كتاباً، وأنها ثروته الحقيقية التي يفخر بها. كانت كلها هناك، كل كتبها العزيزة، خلف ذلك الرجل المكتنز الذي كان يقف بفخر أمام الرفوف والتماثيل ويبتسم للكاميرا ابتسامة كبيرة... كبيرة جداً.

٣٦

لم يمضِ وقت طويل على بيع گولدانـچـي لمكتبته حتى نشبت «حرب الأخوة»؛ ففي ربيع سنة ١٩٩٤ توصل الحزبان الكبيران في الوطن إلى حقيقة استحالة أن يحكما معاً البلاد. نحن جميعاً كان لدينا الشعور نفسه أن خلافات الحزبين على تقاسم الموارد الجمركية لن تنتهي على خير، لكن لم يكن أحد منا يتوقع أن تتطور الأمور فيما بينهما إلى هذا المنحى الخطير، أعني تلك الحرب الشاملة والطويلة والدامية. في تلك الأثناء كان كل من منـگور في صفوف حزب الاتحاد، وقلندر في صفوف البارتي، قد بلغا مناصب رفيعة، ولـم يكن أحد في حزب البارتي ينادي منـگور باسمه المجرد ولكن «منـگوبي العظيم». وكان صيته مع جماعته قد بلغ الآفاق مع اشتراكه في معارك صغيرة وقضايا كبيرة. كان منـگور قد شدد على رجاله ألا يتعرضوا لأحد إلا في حالات الدفاع عن النفس. في ذلك الوقت كان منـگور يقدِّم نفسه حزبياً مسالماً، ولطالما كرر في الاجتماعات الحزبية: «مؤخرة هذه البلاد لا تسمح لها بخوض الحروب». وخلال تلك السنوات الثلاث، ازدادت

الكراهية بينه وبين قلندر، فكان هذا الأخير يصف منـگور في اجتماعاته الحزبية بأنه ليس أكثر من «أزعر سليط اللسان وضارب سكين شوارعي»، بينما كان منـگور يقول عنه «سليل الآغاوات الذي باع نفسه». في تلك الفترة، ظهرت من جديد صور قديمة لقلندر آمون مع بعض عناصر حماية وزير داخلية النظام ومع مسؤول فوج حماية القصر الجمهوري ومع مدير مكتب القصر وكلبه. أحدهم طبع تلك الصور وكبّرها وعلّقها في بعض الأماكن دليلاً على خيانة قلندر وعمالته. لم نكن نرى منـگور في تلك الأيام، فقد كان يمضي معظم وقته في مقرّه أو يتجول هنا وهناك بسيارته الخاصة المفيّمة. لقد كنا جميعاً مشتاقين إلى حديثه، إلى تلك الأيام في مقهى «پـﯿولَي آزاد»، أو في قبو الفندق حين كان يحدّثنا ونحدّثه. كنا نترقب انتهاء هذه الأيام العصيبة، ونتلهف إلى عودة الحياة الطبيعية حين يلقي الجميع السلاح ويعودون إلى حالتهم المدنية. ولكن في ربيع ١٩٩٤ ساءت الأحوال كثيراً في البلاد، ولم يكن أحد منا في البداية يتوقع أن يكون لتلك الاضطرابات تأثير كبير في الحكاية بأسرها، لكن الأحداث جرت بشكل انقلبت فيه حياتنا جميعاً بصورة فجائية رأساً على عقب. في الليلة التي سبقت اندلاع القتال، وزّع قلندر آمون يعاونه مسؤول عسكري آخر رجاله على الشوارع والأسطح المحيطة بالمقر الرئيسي للبارتي. ومع حلول المساء، كانت الأخبار السيئة قد بلغت أسماع الجميع في كُردستان، وعلموا أن الحزبين باتا يقيمان الحواجز على الطرقات ويتحسبان لشر قادم. حتى ساعة متأخرة من تلك

الليلة لم يحدث شيء يُذكر، ولكن الناس كانوا في حالة من الهدوء الحذر.

مع انتصاف الليل، شعر قلندر بالنعاس فتمدد على أريكة في غرفته في مقرِّ الحزب وأخلد إلى النوم، وخلال نومه راوده طيف خالد آمون مراراً وتكراراً. وحين استيقظ أخيراً كانت الساعة قد بلغت الخامسة صباحاً، فرك عينيه وأخذ يروي لساقي الشاي في المقر ما رأى في منامه: «أشعر أنني كان يجب أن أرافق خالد آمون في رحلته تلك». ولما لم يفهم الساقي مقالته، قبض على مسدسه فلقّمه ثم لف على أخمصه منديلاً أصفر وخرج. رغم أن الفصل كان ربيعاً إلا إن أنساماً باردة كانت تهب في ذلك الصباح. قام قلندر بجولة سريعة على النقاط التي كان قد وزع رجاله عليها ليلة أمس. أصيب بالإحباط حين رأى معظم تلك النقاط خالية من الرجال، لقد تركوها وذهبوا إلى بيوتهم مخلِّفين أسلحتهم في مكانها. في الحقيقة، لم يفاجئ ذلك المشهد قلندر آمون الذي عاد إلى داخل المقر وقال لساقي الشاي: «هذا ليس غريباً، فالبارتي لم يخض حرباً كبيرة منذ وقت طويل». أحضر له الساقي كأساً أخرى من الشاي وسأله: «قلندر آغا، هل أنتم واثقون أن الحرب ستقوم؟». فهز قلندر رأسه بهدوء وأجاب: «نعم». وكعادته في التأدب مع الجميع، طلب من الساقي أن يدعه وحده قليلاً ويغلق الباب خلفه لأنه يريد كتابة رسالة مهمة. وبعد حوالي ساعة، خرج وكان التعب بادياً عليه وعلى عينيه بعض آثار

البكاء. ناول الساقي ورقة مطوية وقال له: «هذه الرسالة موجهة إلى خالد آمون، وأنا أطلب منك أن تحتفظ بها الآن وتحفظها من الضياع أو التلف مهما حدث، فإذا أصابني مكروه فسيكون واجبك هو إيصال هذه الرسالة إلى سَي كَرَمي آموني أو فوزي بـگـي، كلاهما سيّان. أتفهمني؟... إن أصابني شيء فعليك أن تضمن وصول هذه الرسالة إلى يدي خالد آمون. وصول الرسالة سالمة أهم عندي من أي شيء آخر. لم يبقَ معي في هذا المقر سوى خمسة من البيشمركة ولا يليق بسُمعة البارتي أن يقع الهجوم على أحد مقرّاته فلا يجد المهاجمون رجالاً يصدّونهم، لن يغفر لنا التاريخ خذلاناً كهذا». تناول الساقي الورقة ودسّها في جيبه متمتماً: «بإذن الله لن يحدث شيء... بإذن الله».

كان القسم الأكبر من القوة التي تحاصر المقر هم من رجال منـگور. ظلوا مرابطين الليل كله دون أن يصلهم أمر مباشرة باقتحام المقر والاستيلاء عليه. وفي الصباح علموا أن المقر خالٍ تماماً إلا من قلندر آمون ومعه عنصران من البيشمركة. وفي حوالي العاشرة صباحاً تلقوا أمراً بالهجوم على المقر، وكان قَـپوز جُقلي هو المكلَّف بقيادة عملية الاقتحام. أقسم منـگور بعد ذلك أنه كان قد وجّه أمراً كتابياً واضحاً إلى رجاله ألا يقوموا بإيذاء أحد وألا يطلقوا النار على أحد إلا في حال الدفاع عن النفس، على أن يجتهدوا مع ذلك في تجنب إصابة أحد من المدافعين. وفي السنوات اللاحقة، أبرز منـگور أكثر

من مرة وفي أكثر من مناسبة رسالته تلك التي يأمر فيها قَـپوز جُقلي بعدم التعرض إلى حياة أحد، لكن قَـپوز جُقلي ظل ينكر حتى وفاته أن يكون قد تلقى من منـگور رسالة كهذه: «كل ما تلقيته هو أمر مباشر عبر اللاسلكي باقتحام المقر والاستيلاء عليه».

كنا جميعاً نعرف أن قلندر آمون ليس من ذلك النوع من الرجال الذين يستسلمون دون مقاومة، وكنا نتمنى لو أن شخصاً آخر غيره كان مكانه في المقر في تلك الليلة. المدينة بأسرها تعرف مدى عناده وكبريائه، وأن من المستحيل أن يقبضوا عليه حياً.

مع انطلاق العملية، أطلق قلندر وعنصرا البيشمركة المرابطان معه على سطح المقر أولى رصاصاتهم باتجاه المهاجمين. البعض يقول إن إحدى تلك الرصاصات قد أصابت «أمير جُقلي» الأخ الأصغر لقَـپوز فأردته قتيلاً، بينما يقول آخرون إن أمير قد قُتل خلال عملية الاقتحام. ومهما يكن الأمر فإن اقتحام المقر كان أمراً في غاية الصعوبة؛ فبعد حوالي ساعة من بدء المعركة جُرح أحد عنصري قلندر وتم أسر الآخر، وتمكن قلندر من النجاة بأعجوبة حين قفز من سطح إلى آخر مبتعداً عن ساحة المعركة. كان لمقتل أمير جُقلي وقع الصاعقة على أخيه ورجاله فقد جُنّ جنونهم. قالوا بعد ذلك إن الرجال الثلاثة الذين تعقّبوا قلندر آمون كانوا قَـپوز جُقلي و«ساماني كسرى» و«هُشه جُجه». كان قلندر يعلم أن

في هذه المدينة مكاناً واحداً فقط يمكن أن يلجأ إليه ويحتمي به من غضبة أعدائه، ذلك المكان هو منزل آل گولدانـچـي، فهو المكان الوحيد الذي له حُرمة لدى منـگور ورجاله وهناك فقط يمكن أن يجد ملاذاً آمناً، ولذلك فقد حاول بكل طاقته أن يبلغ ذلك المنزل. وكان قَـپوز جُقلي بدوره متـأكداً أن وصول قلندر إلى داخل منزل گولدانـچـي سيضعه في مأزق أمام منـگور الذي لن يأذن له باقتحامه مهما كانت الأسباب. كان بينهم وبين المنزل حوالي مئتي متر حين رأوا قلندر وصرخوا به أن يلقي سلاحه ويستسلم، لكن قلندر رد عليهم بإطلاق الرصاص باتجاههم. وروى بعد ذلك بعضُ من شهد الحادثة أن قَـپوز ورفيقيه سارعوا إلى إطلاق وابل من الرصاص من ثلاث بنادق غضبى وظمأى باتجاه قلندر مباشرة بنيّة قتله. بعد ذلك حين حملنا جثة قلندر، وجدنا أن أكثر من أربعين رصاصة قد اخترقت رأسه وصدره، معظمها تم إطلاقه عن قرب. ولكن أصعب جزء من الحكاية هو ما وقع بعد ذلك، إذ إنهم عرّوا ظهره وقيّدوا يديه من الخلف ثم سحلوا جثته في شوارع المدينة قبل أن يلقوا بها موحلة ونصف عارية على أطراف الطريق.

في اللحظة التي قُتل فيها قلندر، كانت سوسن تحتضن «هُزار» ابن أختها الذي كان شديد التعلق بخالته الكئيبة منذ نشأته بين يديها في غرفة المكتبة. وحين بلغت أصوات الرصاص القريبة المتتابعة مسامعها، خُيّل إليها أن أحداً ما كان يطلقها في فضاء غرفة مكتبتها الخالية الباردة الواسعة. أفزع

صوتُ الرصاص الطفلَ الصغير فالتصق بخالته يحتمي بها وهو يبكي فزعاً، فاحتضنته سوسن بشدة وهي تهمس له: «اطمئن يا صغيري، لا شيء يدعو إلى الخوف، إنهم يقتلون بعضهم البعض كما يفعلون دائماً، يتقاتلون كما هي عادتهم...». لم يكن من الواضح هل كانت سوسن تخاطب الصغير بتلك الكلمات أم تخاطب نفسها. بعد نصف ساعة بلغهم ذلك النبأ المشؤوم، نبأ مقتل قلندر آمون، الرجل الذي أمسك بيد سوسن، قبل ثلاث سنوات، وأخرجها من قبو عفن كان يغصُّ بعشرات الجثث.

كانت سوسن واثقة، دون أن تعرف السبب بالضبط، أن مقتل قلندر أمر خطير بل في غاية الخطورة.

لم يكن تفسير مقتل قلندر آمون أمراً هيّناً، أكان جريمة سياسية متعلقة بالوضع العام الذي أدى إلى توتر الأوضاع الداخلية، أم إنه مرتبط بتلك المشاكل بين الآمونيين وجماعة منـكور بعد خلافهم الشهير على خطبة سوسن گولدانـچـي؟ في مدينتنا، لا يمكنك الفصل بين حروب العشق وحروب السياسة، وما من قوة يمكنها أن تضع حداً فاصلاً بين كلتيهما، لأن أي حرب يثيرها العشق أو الغيرة أو الشرف سرعان ما تنقلب إلى حرب سياسية، وكذلك كل حرب تثيرها السياسة تنتهي بأن تكون حرباً في سبيل الشرف والعشق. في سنة ١٩٨٨ حين اتفقت الأطراف المتصارعة، بوساطة فِكرت گولدانـچـي، على إنهاء نزاعها حول سوسن لم يكن أحدٌ منا ليتوقَّع البتة أن تنتهي تلك

الاتفاقية مثل هذه النهاية الدموية. لقد هزَّ مقتل قلندر بتلك الطريقة البشعة وجداننا جميعاً وأصابت الآمونيين بالذات بحالة من الجنون والسُّعار. لم تكد تمضي ليلتان على دفن قلندر حتى غادر المدينة ثلاثُمئة رجل من الآمونيين متسللين تحت جنح الظلام وقاصدين مباشرة مناطقَ سيطرة قوات البارتي. وبعد خروج رجال الآمونيين، قامت قوات حزب الاتحاد باعتقال عوائلهم جميعاً ونقلتهم في سيارات خاصة إلى خارج المدينة، حيث تم إطلاقهم كيفما اتفق بعد أن قيل لهم أن لا رجعة لهم إلى المدينة قبل انتهاء القتال. كانت تلك بداية رحلة تشرد الآمونيين الطويلة، إذ سيمضي وقت طويل قبل أن يعودوا إلى بيوتهم وقصورهم وحدائقهم التي جعلها حزب الاتحاد مسكناً لتلك العائلات التي كان حزب البارتي قد طردها بدوره من مناطق سيطرته. ولكن تلك حكاية أخرى، نعم، تلك حكاية حزينة أخرى لا مكان لها هنا. الغريب في تلك الفترة هو رد فعل منـگور الذي أعلن، بعد مرور أربعة أيام على مقتل قلندر، انسحابه النهائي من حزب الاتحاد، وكذلك قطع إلى الأبد أي صلة تربطه بقَـپوز جُقلي وكل من اشترك معه في تلك الجريمة. كان قَـپوز جُقلي قد أعلن منذ اليوم الأول أن قرار اقتحام مقر البارتي كان صادراً عن منـگوري باباگوره مباشرة. أما منـگور فقد أبرز منذ الساعة الأولى تلك الرسالة التي يأمر فيها بالاستيلاء على المقر ولكن بدون إراقة دماء، لكن لم يكن لكل ذلك الكلام قيمة عند الآمونيين، إذ بعد مقتل قلندر لم يكن ثمة سبب يدعوهم إلى حذف اسم منـگور والبقية

من رأس اللائحة التي كانوا قد أعدّوها للانتقام من قتلة قلندر. حدث كذلك بعد مقتل قلندر أن انقطعت الاتصالات بين خالد آمون وسوسن گولدانـچـي، ولم يكن قد تبقّى الكثير حينها على عودة المسافرين الثلاثة. بعد تلك الحادثة بستة أشهر، سيرجع خالد آمون إلى المدينة حاملاً معه أسراباً من الطيور، ولكن لن يجد في المدينة أحداً من أهله أو أقاربه ولا أحد من رفاقه أو أصدقائه الأوفياء القدامى سيجرؤ على استقباله أو حتى احتضانه، وسيجد نفسه للمرة الأولى في حياته وعلى تراب مدينته مضطراً إلى المبيت في فندق «باوه جان».

٣٧

على خلاف توقعاتنا جميعاً، كان كاميراني سلمى أول الواصلين إلى أرض الوطن، وكان ذلك في خريف سنة ١٩٩٤. استيقظنا ذات يوم ورأينا في وسط المدينة موكباً ضخماً من الطيور، عدد من الأقفاص الكبيرة والعديد من أنواع الطيور الغريبة لم نكن قد رأينا شبيهاً لها حتى في أحلامنا. عشرات الأقفاص كان معظمها ممتلئاً بالأوراق المتساقطة في أول الخريف، وكأن تلك القافلة قد واجهت في طريقها زوبعة خريفية في غابة متساقطة الأوراق. كان توقف الموكب في مركز المدينة مقصوداً، حتى إذا ما استيقظنا صباحاً كان هو أول ما تقع عليه أعيننا. كانت الطيور أكثر حماسة منا إذ كانت لا تتوقف عن الصياح والتغريد والهديل، وكأنها كانت تدرك أنها قد وصلت أخيراً إلى مدينتنا بعد رحلة طويلة جداً حول العالم. وكأنها لم تكن مصدِّقة وجود مدينة غريبة وصاخبة وكئيبة كمدينتنا على سطح الكوكب، وكأنها لم تكن مصدِّقة أنها قد وصلت إلى مدينة لا يعرف أهلها من أنواع الطيور سوى العصافير والحمام والحجل. كان عدد الطيور يفوق

المئة وكانت معظم الأقفاص صدئة وشبه بالية، لكن أكثرها كان من قماش خاص والقليل من زجاج، وبعضها الآخر من بلاستيك سميك وبعضها ملبَّس من داخله بالفلّين الأبيض. بعد ذلك حين وصل المسافران الآخران إلى المدينة، فوجئنا أن الثلاثة اتبعوا الطرائق ذاتها في الحفاظ على أقفاصهم وتدفئة طيورهم، وفي جميع الأقفاص كان ثمة أبواب ونوافذ، فكنا نولج رؤوسنا في تلك الفتحات حتى نرى ما بداخلها. وكانت الطيور تتصرف بشكل مختلف؛ فبعضها كان لا يتخلى عن وقاره بينما يهتاج بعضها ويطلق تغريدات جنونية ويغرِّد بعضها بعذوبة في مواجهة أعين كل أولئك الفضوليين. ضمن تلك الجلبة، لمحنا طيوراً ذوات مناقير حديدية وعيون مفعمة بالنور وأجنحة ذهبية. كل واحد من تلك الأقفاص كان يحمل رائحة مكان ما من العالم وتهب منه نسائم غابة ما أو شاطئ بحر ما. كان لكل طائر منها نوع غريب من الطعام والحشائش وهيئة طبيعية ساحرة. شعرنا جميعاً أن كاميراني سلمى كان أكثرهم لطفاً في اصطياد طيوره وأكثرهم عناية بها، فقد كان أفرد لها أقفاصاً جيدة مع تهوية كافية. كان بعض الطيور زوجاً وبعضها مفرداً. وكانت جميع الأقفاص مقفولة بأقفال خاصة. في آخر الموكب كان ثمة (كارافان) كبير موصول بمحرك كهربائي خاص تحسباً للمرور بمناطق باردة خلال السفر، وكيما يوفر للطيور هواءً دافئاً في المناطق المثلجة من العالم. ورغم أننا خلال السنوات الأخيرة قد شعرنا ببعض الانفتاح على العالم، وأدركنا مدى رحابته عن طريق بث الأقمار الصناعية وجنود

الأمم المتحدة ذوي القبعات الزرق والكرد القادمين من الغرب وتلك المنظمات الأجنبية التي كانت تقدم المساعدات لفقراء مدينتنا، إلا أننا حتى ذلك اليوم من خريف سنة ١٩٩٤ حين رأينا تلك الطيور، شعرنا للمرة الأولى أن العالم قد وصل أخيراً إلى مدينتنا وأن الأرض قد أرسلت إلينا بسحرها، وأننا أخيراً قد رأينا الطبيعة على حقيقتها. لأسباب لم تكن واضحة لنا بدت لنا الطيور في ذلك الوقت كأنها تمثل كل تلك الأشياء التي كنا نفتقدها في مدينتنا الصغيرة والكئيبة.

لم نرَ كاميراني سلمى في بادئ الأمر، غير أننا سمعنا بعد ذلك أنه نائم على كرسي في مقهى «پـَولَي آزاد». كان قد وصل في الصباح الباكر بصحبة اثنين من الإيرانيين بعد أن ترك أقفاصه في مدخل الحي. وافقت ساعة وصوله ساعة افتتاح المقهى أبوابه أمام المسافرين والعمال، وسرعان ما تعرّف إليه جميع الحاضرين، ولكن دون أن يكلِّم أحداً منهم توجّه إلى صاحب المقهى وقال له بهدوء: «أنا ورفيقاي متعبون جداً... جداً. هل يمكننا الاستراحة هنا قليلاً وأخذ قسط من النوم؟». صاحب المقهى عرفه في الحال وكان متأكداً أنه ليس سوى كاميراني سلمى بذاته، ذلك الرجل الذي أصبح إحدى أساطير المدينة. وبدون أن يتردد، سمح للمسافرين الثلاثة بالنوم حيث يشاؤون. وفي الصباح حين رأيناه نائماً على ذلك الكرسي رأيناه على غير الهيئة التي سافر بها قبل سنوات؛ فقد بدا لنا رجلاً طويلاً جسيماً بلحية سوداء كثة. بدا لنا أطول وأنضج

رجولة، كان شعره قد خفّ قليلاً وازداد هو سُمرةً وقوة، وكانت آثار الشمس والبرد بادية على وجهه بوضوح. كان لوجوده في هذا المكان ونومه بتلك الطريقة المهيبة أثر كبير في نفوسنا. لقد وصل بشكل مفاجئ وغير متوقع، ودون أن يُعلم أحداً بذلك. كان يريد أن يصل بطيوره إلى مركز المدينة دون إحداث أي ضجة قبل أن يستسلم للنوم على كرسي في مقهى «پـَپولَي آزاد».

حين بلغ الخبر في الصباح الباكر أسماع منـگور لم يصدِّقه أول الأمر ومع ذلك نهض فارتدى ثيابه وخرج، وقبل أن تشرق الشمس تماماً كان يقف مذهولاً أمام تلك الأقفاص. لبث طويلاً يحدِّق بصمت إلى أشكال تلك الطيور ويمر بالأقفاص واحداً واحداً: «يا إلهي العظيم! أيها الأولياء! لقد أحضر معه جميع طيور العالم... أحضرها كلها». ثم كلف بعض الأشخاص بحراسة الأقفاص ومضى هو قاصداً المقهى. وقف طويلاً على رأس النائمين الثلاثة يتأملهم دون أن ينبس ببنت شفة... وقف يتأمل وجه كاميراني سلمى كمن لا يصدِّق عينيه أو كمن أصابته صاعقة ما. ولم يلبث أن جلس على كرسي ووضع يده على خده وشرع بالبكاء. كانت تلك هي المرة الأولى التي نرى فيها منـگوري باباگوره يبكي.

بعد مقتل قلندر، تحول منـگور إلى شخص آخر، شخص حزين. كان كثيراً ما يأتي إلى مقهى «پـَپولَي آزاد» ويجلس على كرسي دون أن يتحدث إلى أحد منا. كان قد أصبح

إنساناً محطَّماً. ورغم خوفنا عليه من الآمونيين أن يتمكنوا منه ويفتكوا به يوماً ما إلا أنه هو لم يكن يحسب حساباً لذلك، وكان كعادته لا يحمل معه سوى سكينه. غير أنه لم يعد يبوح لنا بما في صدره كما كان يفعل في السابق. وكان إذا تكلم قال: «لقد أفسد مقتل قلندر كل شيء... كل شيء. وكل ما أنجزته خلال كل تلك السنوات ذهب هباءً... كله ذهب هباءً».

حين تعانق منگوري باباگوره وكاميراني سلمى شعرنا جميعاً بشيء ما يعتصر قلوبنا، حتى إن البعض منا أخذته نوبة من البكاء، والبعض وضع يده على فمه، والبعض أشاح بوجهه تأثراً وتظاهر بالانشغال بشيء آخر تجنباً للبكاء. كانت آثار التقدم في السن قد بدأت تظهر على منگور شيئاً فشيئاً. في الليلة التي تلت مقتل قلندر، ذهب منگور لمقابلة سوسن فِكرت وخرج من عندها عجوزاً متهالكاً. لم يتحدث منگور بحرف واحد عن زيارته تلك إلى ابنة گولدانچي وما جرى بينه وبينها من كلام. ولكن بعض الأقاويل أكّدت أن سوسن خان نهرته بعنف شديد، وقالت له إن هذه الدماء التي وقعت بين الفريقين ستجعل تسوية المشكلة شبه مستحيلة. وقالوا إنها اتهمته بشكل مباشر بجريمة مقتل قلندر وإنه قد خيّبَ ظنها وأساء إلى ثقتها به، حين سمح لنزعة الشر في داخله أن تنحدر إلى ذاك المستوى المخيف الذي لم يعد يحتمل الصمت أو الغفران. وسمعنا أنها قالت له كذلك إنها رغم عدم قدرتها إلى الأبد على نسيان ما ارتكبه أو السماح له بدخول منزلها،

إلا أنها قد أقسمت له، كما فعلت قبل سنوات عدة، أن تقييمها لكاميراني سلمى وقرارها النهائي في موضوع الخطبة لن يتأثر بذلك، وأنها تفصل بين ما قام به وبين علاقته الشخصية بكاميران. غير أنها لم تعد ترى فيه وكيلاً مناسباً، ولا ذلك الشخص الذي طالما زرع البسمة على شفتيها وأسعد قلبها بحكاياته الخرافية تلك، ولذلك فمن المستحسن ألا تطأ قدماه منزلها بعد اليوم، وأن يجد كاميراني سلمى لنفسه وكيلاً آخر يكون رسولاً بينها وبينه. وقالوا كذلك إن الفتاة قد أقسمت أنها حتى لو تزوجت بكاميران فستشترط عليه ألا يحضر منـگور ورفاقه حفلة عرسها، ولا أن يدخل منزلهما بعد ذلك طوال حياته.

وأضاف من روى لنا الحكاية كذلك أن منـگور على خلاف عاداته وطباع العناد والمكابرة المعروفة عنه طوال حياته قد بكى أمامها طالباً منها ألا تخاطبه بتلك القسوة التي لا يستحقها. ثم إنه أبرز لها تلك الرسالة التي زعم أنه كتبها للمهاجمين تلك الليلة، وأقسم أنه لم ينضم إلى الحزب إلا من أجل كاميران ومن أجل حفظ هيبته بين الناس، وإنه مثقل القلب كما هو حال الجميع بل يشعر أن تلك الجريمة إنما ارتُكبت في حقه وحق كاميران سلمى. لكن الفتاة العنيدة أعادت تذكيره بالطريقة الوحشية البشعة التي جرى بها قتل قلندر والتي لا تجيزها حتى أعراف الحروب وقوانينها، وكانت أبشع مما كان يقوم به أزلام النظام، ولذلك فهي غير مترددة في قرارها ولن تغيّره أو

تندم عليه. كانت تلك هي المرة الأولى التي تتخذ فيها سوسن موقفاً بتلك القسوة والشدة، حتى إن فِكرت والدكتور رفعت وپروشه الذين كانوا يستمعون إلى الحديث من الغرفة الأخرى تعجّبوا من عنادها وتصلّبها. وعلى أي حال، فقد خرج منگور من منزل گولدانچي كسير الخاطر وشبه مطرود. بعد ذلك أصبح روحاً منكسرة يلفّها حزنٌ كبير وصمتٌ دائم. بقي كعادته يرتاد المقهى صباحاً ومساءً، وبقي كما في السابق آمراً ناهياً لا يأبه لشيء ولا يخشى شيئاً، ولا يكاد يتأخر أحدٌ عن تلبية طلباته. كنا جميعاً مستعدين لنصرته في كل وقت والتأكيد على كل ما يقوله، لأن معظمنا كان واثقاً ببراءته من تلك الجناية، ولكن رغم ذلك كانت جرأة منگور ولا مبالاته تثير فينا جميعاً الكثير من التساؤلات من مثل «كيف يمكن له بعد مقتل قلندر آمون أن يتجول بهذه الحرية، ألا يخشى على نفسه القتل، ألا يخشى طلّاب الثأر؟». ولكن كان بعض الأشخاص في السوق يتحدثون عن «رسالة سرية» تلقاها منگور من الآمونيين، رسالة لم يطّلع أحد منا على فحواها زمناً طويلاً. البعض كان يقول إنها مجرد إشاعة بينما يؤكد البعض الآخر حقيقة وجودها. بعد حوالي سنتين، وكان يوماً قائظاً من أوائل أيام شهر سبتمبر، أطلع منگور كاميراني سلمى على تلك الرسالة، ثم انتهى أمر تلك الرسالة بأن وصلت إلى يدي سوسن گولدانچي التي احتفظت بها.

ذلك اليوم، وبعد العناق والترحيب الحار، قال كاميراني

سلمى بصوت عالٍ: «كم أنا سعيد أنني هنا... كم أنا سعيد. كثيراً ما نمتُ على كراسٍ وعلى قارعة الطرق في كثير من مدن العالم، ولقد أقسمتُ أنني يوم عودتي سيكون أول ما أفعله هو الاستراحة والنوم على كرسي في المقهى، وأن تكون أول كأس شاي أحتسيها في وطني فيه وأول مرة تغتمض فيها عيناي تكون على كراسيه. أقسمتُ أن يصل موكب طيوري إلى وسط المدينة ويتوقف هناك حيث ودّعتكم للمرة الأخيرة قبل سفري. أقسمتُ أنني قبل أن أعانق أخواتي وعمّاتي وأقاربي أن أعانقكم وأشكركم على كل ذلك الوفاء وذلك العون. أنتم لا تعرفون الآن مقدار سعادتي بالعودة إلى أرض الوطن، ووصول طيوري سالمة إلى هذه المدينة. لقد كانت رحلة صعبة، لكني أشعر الآن أن الوقت قد حان كي تُشفى روحي من الإرهاق الذي أصابها طوال تلك السنوات. أشعر مع كل نَفَس أستنشقه في هذه المدينة ويلفح هواؤها وجهي أن كل شيء قد أصبح عندي في ذمة الماضي... أنا هنا... بلى، وهنا أقسم لكم أنني لن أهجر هذه المدينة مرة أخرى ما دمتُ حياً. يسعدني أن تكون المدينة قد تطهّرت من البعثيين وأن تكون عودتي إلى مدينة حرة... أقسم لكم أنني لن أهاجر خارج هذه المدينة ثانيةً... أقسم أنني لن أهجر هذه الحواري حتى ولو تفشى فيها الطاعون أو أي وباء آخر مخيف ملأ طرقاتها بالجثث. ولكن فقط ادعوا لي أن تختارني سوسن، تلك الفتاة التي طفتُ من أجل حبها أرجاء الدنيا، شريكاً لحياتها. ضعوا أيديكم على قلوبكم وادعوا لي أن يلقي الله محبتي في قلبها وتراني أفضل

من خُطّابها الآخرين، وأن تحظى طيوري لديها بالقبول أكثر من غيرها. ادعوا لي دون توقف. أما الآن فإنني أشعر أن اليوم يوم فرحتنا، وأرجو الله أن يكون بشارة يوم فرحتنا الكبرى... أعظم أفراحنا».

بعد عدة سنوات، كلما تذكرنا كلمات تلك الليلة كانت قلوبنا تُعتصر. لكن تلك اللحظات كانت لحظات هناء، فقد ذكَّرتنا سعادة منـگور بلقاء صاحبه حينها بتلك الأيام السعيدة التي عشناها فيما مضى. كان من الواضح أن كاميراني سلمى لم يعد هو نفسه ذلك الشاب الأزعر الشكس الذي كانه قبل ثماني سنوات حين غادر الوطن، فقد كان يبدو أوسم وأحلم وأحكم مما كان عليه، وقد اختفت من صوته تلك النبرة الطفولية الطائشة وبدت لنا كلماته مفعمة بالمصداقية والثقة. كان منـگور لا يكف عن معانقته بين الفينة والأخرى قائلاً: «آه يا بني... آه يا ولدي». في النهاية انتصب منـگور في وسط المقهى رافعاً يديه وهتف: «السعداء هم نحن والمحظوظون هم نحن لأننا متّعنا أعيننا بمرآك مرة أخرى، فأهلاً ومرحباً بك بيننا ونحن جميعاً نحتفل اليوم... ولكن لا، فإن أخواتك وعماتك وعائلتك الكبيرة بانتظارك الآن وهم متلهفون لرؤيتك دون شك. وقبل أن تقول أي شيء، وقبل أن تحدِّث أي شخص بأيِّ شيء، عليك الذهاب إلى بيتك حتى ترتاح وتغتسل وتنام وأنا سأبقى هاهنا أحرس طيورك بنفسي... سأحرسها حتى المساء. وتعال بعد ذلك بكامل قيافتك حتى نمضي إلى زيارة

منزل السيد گولدانـچـي، وهناك يمكنك أن تعلن لسوسن خان ووالدها عن مجيئك... هذا ما سنفعله، هو ذاك. آه، يا ولدي كم سررتُ بعودتك فأهلاً بك مرة أخرى».

في ذلك الصباح، عرّفنا كاميران برفيقيه الإيرانيين، أحدهما ظل معه لفترات متقطعة منذ انطلاقه في تلك الرحلة، وقد طاف معه الكثير من البلدان ولطالما أنقذه من كثير من المواقف الصعبة، أما الآخر فكان قد قدم له عوناً كبيراً في عبور حدود الدول التي مروا بها حاملين معهم كل تلك الطيور. بالنسبة إلينا لم يكن موضوع الرجلين ذا أهمية لأن جلَّ اهتمامنا كان منصبّاً على كاميران.

كان صباحاً عجيباً؛ الطيور متحمِّسة مهتاجة تصيح وتغرِّدُ بشكل جنوني لا مثيل له، إلى درجة قد يُخيّل معها لأي عابر سبيل في شوارع المدينة أنه قد ضلَّ طريقه وتاه وسط غابات كثيفة. في ذلك اليوم، أيقظت تلك الأصوات العالية جميع سكان المدينة من نومهم باكراً. لم يحدث في تاريخ مدينتنا، أن اجتذبت الطيور أنظار الناس بهذه الصورة من قبل. شاع خبر وصول الطيور التي انتظرناها ثماني سنوات، حتى إنه تقدَّم بسرعة قياسيّة على أخبار «حرب الأخوة» المريرة نفسها.

وفي ساعة مبكِّرة من الصباح، حضر الكثير من الناس لمشاهدة تلك الأقفاص. كان من الواضح أن منـگور الحكيم قد تنبأ بحدوث ذلك، ولهذا كلّف بعضاً منا للبقاء معه من أجل

حراستها، فكنا نُبعد الأولاد الأشقياء عنها. وأقمنا بعد ذلك جداراً يفصل تلك الأقفاص عن أعين الفضوليين المتلهِّفة لرؤيتها خشية أن يقوم أحدهم بسرقتها، ومنعنا كذلك أن يقوم أي شخص بتقديم الطعام لها. ولكن العجيب في الأمر كان حماس الطيور نفسها وهياجها، فقد كنا جميعاً نشعر بمدى ارتياحها وسعادتها، إذ كان البعض منها يُخرج رأسه من فتحات القفص فيحدِّق إلينا باستغراب، وكان من الواضح أن دهشتها لرؤيتنا لا تقلُّ عن دهشتنا لرؤيتها وكأنها كانت تشعر أنها قد وصلت إلى كوكب آخر وحطّت في مجرة أخرى. كثيراً ما شعرنا أنها ترانا غرباء وغير مألوفين، بينما كنا نحن نراها أليفة جداً وقريبة إلى نفوسنا وأنها هائجة تحاول أن تفهم من نحن، بينما لم نكن نحن نراها كذلك. ولكي يخفّف منكور الجلبة والازدحام حول الطيور، قام بتوزيع بعض الحلويات والأشربة على عدد من النقاط المتباعدة على جانبي الطريق، وكان بإمكان الجميع بعد ذلك تناول تلك الحلويات والعصائر في تلك النقاط قبل تهنئة كاميران بعودته سالماً. أما أغرب ما وقع في ذلك اليوم فهو عدم حضور أحد من شعراء المدينة أو فنّانيها أو موسيقيّيها ولو بغرض الفرجة على الطيور، لم نلمح وجه أحد منهم حول الأقفاص ولم يكن أحد منا بالطبع يعرف شيئاً عن موعد عودة الخاطبَين الآخرَين.

٣٨

مع حلول المساء، تحركت سيارة بيضاء يقودها أحد أبناء عمومة كاميراني سلمى قاصدة منزل عائلة گولدانـچـي. كان في السيارة كاميران نفسه ومعه منـگوري باباگوره ومَريواني مَمه ولِـچ قوقِز. تتبعهم سيارتان كبيرتان تحملان خمسة عشر قفصاً ضخماً معظمها محمَّلٌ على عجلات خاصة تم تصميمها لتناسب بسهولة حالة السير على جميع الطرق مهما كانت وعرة وشاقة وطويلة. وحين اقترب الموكب من مقهى «پـَپولَي آزاد» وقعت جلبة كبيرة في المكان، إذ توزع جمهور من الناس على جانبي الطريق للفرجة على هذا الموكب الغريب. كان بعضهم يطلق أصواتاً غريبة وصيحات استنكار، والبعض من أولئك الذين لا يعجبهم شيء يشتمون الطيور ويشتموننا، والبعض الآخر كان يرى أن ليس من اللائق في وقت عصيب كهذا، حيث دخان الحرب يغطي معظم مناطق البلاد، أن ننشغل بمواكب «بعض الطيور العليلة»، لكننا جميعاً التزمنا الصمت وتابعنا مسيرنا غير ملتفتين إلى أحد منهم.

كان لِـجِ قوقِز هو أول من بشَّر سوسن فِكرت بمقدم كاميران. وبعد ذلك، حين جاء إلى المقهى، وكان الوقت ظهراً، بدا لنا متحمِّساً للغاية حتى إننا خشينا عليه نوبة من الجنون. روى لنا كل شيء بصوت جهوري، وكان مع كل كلمة ينطقها تزداد حماسته واحمرار وجهه والتواء شفتيه: «حين طرقتُ الباب ثم دخلتُ، رأيت الأخت سوسن مع ابن أختها يراقبان بعض الطيور وهي تحلِّق في السماء، ولشدة انشغالهما بذلك المنظر فقد مضى وقت طويل قبل أن يشعرا بوجودي إلى جانبهما. وحين التفتا إليّ ورأياني شعرتُ أنني قد فقدتُ لساني. أقسم بالله أن حالة غريبة من الذهول أصابتني في تلك اللحظة لم أعد أشعر معها بأنفاسي. حتى لقد كاد البكاء أن يغلبني، ولكن قبل أن تنفر الدموع من عينيَّ صرختُ بها... أختاه، إنه هنا... لقد وصل يا أختاه... وصل... وصل في هذا الصباح. في البداية كانت تنظر إليّ دون أن تفهم شيئاً مما كنتُ أقوله. نفرت الدموع من عينيّ. أقسم بشرف أمي أن الدموع قد انهمرت من عينيّ كالمطر وأنا أقول لها إن كاميراني سلمى قد عاد أخيراً، قد وفى بعهده وعاد... لقد أحضر معه جميع طيور الدنيا... جميع طيور الدنيا. لم أكن أشعر بنفسي وبما أقول لشدة حالة الحماس والهياج التي كنتُ فيها. لقد كنتُ أرفع يديّ إلى الأعلى وأصرخ... جميع طيور الدنيا. وكانت الأخت سوسن تنظر إليّ دون أن تنطق بشيء. ثم إنها وضعت الطفل أرضاً وسألتني: أحقاً وصل؟ فأقسمت لها بقبور جميع الصحابة الكرام وبقبر أبي أنني قادم للتو من المكان الذي يضع

فيه كاميران أقفاصه، وقد كلّفني منـگور أن أزفَّ إليكِ البشرى، لقد كان يريد القدوم بنفسه وتبشيركِ بهذا الخبر وأن يكون هو صاحب هذا الشرف، لكننا جميعاً نعرف أنكِ قد حظرتِ عليه أن يطأ بقدميه أرض داركم، لكن الله وحده يعلم كم كان منـگور يتحرّق شوقاً لينقل إليكم هذه البشرى بنفسه. أختاه... أقسم بقبر أخي الذي مات شاباً أنه يحلم منذ ثماني سنوات بقدوم يوم كهذا يتمكن فيه من القدوم إلى هنا وتبشيركِ، لكن قلبكِ أغلى عنده من أي شيء آخر في العالم، ولهذا فقد كان مضطراً أن يكلّفني أنا... أنا... لأقول لكم إننا سنأتي جميعاً مع الطيور هذا المساء إلى منزلكم... كلنا سنأتي. وأناشدكم أن تكونوا متأهبين... أدعو الله أن تكونوا متأهبين».

لطالما أعاد علينا لِـچ قوقِز بعد ذلك حكاية ذلك الموقف ومشاعر الفخر والاعتزاز تملأ نفسه، فقد كانت السعادة تملأ جوانحه أن تم تشريفه هو بالذات لأداء تلك المهمة، مهمة إبلاغ آل گولدانـچـي بوصول كاميران.

سمعنا، عند منتصف الظهيرة، أن جمعاً من آل گولدانـچـي قد اجتمعوا في دار فِكرت لئلا يفوتهم حضور تلك اللحظة الخاصة والأسطورية في تاريخ العائلة. خلال ثماني سنوات ونصف، لم يكن أحد منهم يتخيّل أن تكون لقصة سوسن مثل هذه الخاتمة الأسطورية. ما أثار دهشة فِكرت گولدانـچـي بالذات هو كل تلك الحشود المبتهجة التي كانت تلاحق الموكب، حتى إن بعضهم كان يسير خلف موكب الطيور ذاك

رافعاً العلم الكُردستاني. في السادسة والنصف مساءً، وصل موكب الطيور ومن خلفه مئات الأشخاص إلى الشارع الذي فيه منزل سوسن. وكما سبق أن قلتُ لم يسبق لمدينتنا من قبل أن انشغلت بالطيور بهذا الشكل ولم تشهد من قبل جلبة عظيمة كهذه. أطلقنا على هذا الشارع، منذ ذلك اليوم، اسم «شارع الطيور»، وأصبحنا نعرف منزل سوسن باسم «منزل الطيور».
حين أصبح الموكب أمام منزل گولدانـچـي تماماً، خرجت سوسن مع والدها وعمها عزت گولدانـچـي لاستقبال الضيف الغريب. وباستثناء منـگور الذي بقي جالساً في السيارة، ترجّل الجميع من السيارة. كان كاميران مرتدياً زياً كردياً جميلاً وكان يبدو أوسم وأكثر رجولة مما كان عليه في الصباح. وبدون أن يضطرب أو يتلجلج لسانه بسبب كل تلك الجلبة، تقدم فسلّم على الرجلين بكل وقار، ثم التفت إلى سوسن فِكرت وقال يخاطبها: «سيدتي، يسرّني أن أقدم لك عظيم احترامي وأعبّر عن مدى سعادتي برؤيتكِ ثانية بصحة جيدة بعد كل تلك السنوات. لقد وصلتُ إلى المدينة في صباح هذا اليوم. لقد مرّت عليّ أكثر من ثماني سنوات وأنا أطوف بلدان العالم من أجلكِ، وأنا الآن أرى نفسي أسعد رجل في العالم في أنني تمكنتُ أخيراً بعد كل ذلك العناء من إيصال طيوري بسلامة إلى باب منزلكِ. هي ذي مفاتيح جميع الأقفاص يا سيدتي... هي ذي كلها. وأنا أرغب في تسليمكِ إياها الآن على مرأى من جميع سكان مدينتنا الموقرين، وبوسعكِ بعد ذلك النظر إلى تلك الطيور واحداً واحداً لأنها جميعاً منذ هذه اللحظة قد

أصبحت ملكاً لكِ يا سيدتي».

ورأينا جميعاً كيف أخرج كاميران سلسلة من المفاتيح الضخمة، ثم انحنى بكل احترام وهو يضعها في يدي سوسن فِكرت التي بدت عليها الدهشة حينها. في الوقت الذي كان فيه الجميع يهنّئون كاميران بعودته، لم تصدر عن سوسن كلمة واحدة سوى أنها كانت تنظر دَهِشة إلى كاميراني سلمى، وكنا جميعاً نعلم أن تلك النظرات كانت تزيد من اتقاد نيران الهوى في قلب الفتى. وفجأة، التفت إلينا كاميران ثم أخذ يحدِّق بإمعان إلى الأقفاص كمن تذكر شيئاً نسيه. اتجه إلى أحد الأقفاص وأخرج من جيبه مفتاحاً خاصاً فتح به بابه ودخل إليه، ثم خرج حاملاً بين يديه طائراً شبيهاً بالحمام، ظهره ورأسه بلون رمادي فاتح وجناحاه بيضاوان تتخللهما بعض الخطوط البنية وصدره ناصع البياض في وسطه نقطة حمراء، كأنها نقطة دم نبعت من صدره وضمَّخت ريشه. رفع كاميران الطائر عالياً حتى نراه جميعاً ثم قال: «هذا الطائر اسمه حمامة القلب الدامي، وهي تخرج من البيضة وعلى صدرها هذه النقطة الحمراء، وأنا أفضّلها على جميع طيوري الأخرى. سيدتي، هذه هي هديتي الخاصة لك... هديتي الخاصة. وسواء أرضيتِ بالزواج بي أم لا، فأرجو منكِ أن تحتفظي بهذا الطائر في غرفتكِ حتى يذكّركِ بي كلما وقعت عيناك عليه». رأينا جميعاً كيف تناولت سوسن الطائر من يده وأخذت تتفحصه وتشمّه ثم دمدمت: «گاليكولومبا لوزونيكا... گاليكولومبا

لوزونيكا». في البداية لم نفهم ما قالت، وخيّل إلينا أن الفتاة قد فقدت عقلها وأصابها اضطراب ما، لكنها لم تلبث أن رفعت رأسها ونظرت إلى كاميراني سلمى وقالت بهدوء: «كم هي جميلة حمامة القلب الدامي. إن اسمها اللاتيني هو هذا: گـاليكولومبا لوزونيكا. وهي لا تعيش إلا في جزيرة أو اثنتين فقط من جزر أندونيسيا الصغيرة، ولا يمكن العثور عليها في أي مكان آخر في العالم». كانت الكلمات تنساب من شفتيها بعذوبة بالغة، حتى كاد يغمى على بعض الحضور من أولئك الذين لا يستطيعون بطبيعتهم مقاومة سحر النساء. كانت ثياب سوسن متواضعة جداً وزينتها خفيفة؛ فقد كانت ترتدي ثوباً أبيض دون أكمام وبنطالاً أسود، غير أنها كانت تلف حول عنقها شالاً بنفسجياً ساحراً لم نكن نستطيع أن نرفع أعيننا عنه لشدة جماله. وأنا واثق أن جميع أولئك الذين كانوا يشككون في جمال سوسن لو كانوا هنا هذا المساء وشاهدوها لعلموا مقدار الخطأ الذي ارتكبوه في حقها. في ذلك المساء، تناولت سوسن حمامة القلب الدامي من يد كاميران وقالت: «كاميراني سلمي، سواء تزوجت بك أم لا، أصبحتَ شريك حياتي أم لا فإني أعاهدك أن هذا الطائر سيبقى معي ما دمتُ حية... طوال حياتي».

شرعت سوسن برفقة والدها وعمها وانضم إليهم لاحقاً الدكتور رفعت في التجول بين أقفاص الطيور. في ذلك المساء، علمنا كم هي ذكية هذه الفتاة وكم هي عالمة بأحوال

عالم الطيور، وكانت كلما وقفت أمام قفص حدَّقت إلى الطيور في داخله، ومثل عالم طيور كبير كانت تسمي كل طائر باسمه اللاتيني. كان جرْس تلك الأسماء ثنائية المقطع والطويلة المعقَّدة ثقيلاً على آذاننا بشكل يفوق التصور. وقفت سوسن أمام أحد الأقفاص وهتفت «آرتيكورنيس كلاموسوس... يا إلهي العظيم! إنه واحد من أندر الطيور المعرَّضة للانقراض... واحد من أندر الطيور وأشدها انعزالاً ولا يعيش إلا في بقعة صغيرة من جنوب غرب أستراليا، وهناك عدد صغير منها يعيش في شرق تلك البلاد... صوته عالٍ وعذب... يا إلهي العظيم... ما هذا الذي أراه... آرتيكورنيس كلاموسوس».

وعلى مبعدة عدة أقفاص، أشارت إلى طائر آخر بدا لنا ضخماً وطويلاً وأشبه ما يكون بطائر العُقاب، ساقاه كساقي اللقلق طويلتان ولكن أسفل فخذيه كان غليظاً ويغطي قمة رأسه بعض من الريش الجميل، قالت: «وهذا هو السكرتير... هذا هو اسمه في معظم لغات العالم بسبب هذا الريش على رأسه والذي كان قدامى الكتبة يضعون مثله خلف آذانهم. إنه من فصيلة العُقاب نفسها، وهو يعيش غالباً بالقرب من الحشائش والنباتات التي تنمو في جنوب صحارى أفريقيا. لديه مخالب قوية جداً وهو يقتل الأفاعي ويقتات على لحومها. إنه يقبض عليها بقدميه القويتين هاتين ولا يرفعهما عنها حتى يستوثق من موتها. إن ضرباته قاتلة، ولو أصاب بها إنساناً ما لجرحته جروحاً بليغة. اسمه اللاتيني هو سيكيتاريوس سيربنتاريوس...

طائر جميل لكنه مخيف أليس كذلك يا كاميران؟».

نظر إليها كاميران باحترام وأجاب: «جميع معلوماتك دقيقة يا سيدتي. إنه بالفعل ليس طائراً آمناً، وعلى المرء أن يحترس من مخالبه الحادة وساقيه الطويلتين... أنتِ محقّة جداً يا سيدتي فهو طائر عدائي ويرفس دون رحمة. وبالإضافة إلى ما ذكرتِ فهذا الطائر بإمكانه السير لساعات طويلة بين الحشائش، يصطاد ويتابع سيره... نعم يا سيدتي... يصطاد ويمشي. إنه غير سعيد بوجوده في هذا القفص، ولكن لا خيار له، وهو يعلم أن لا خيار له».

تابعت سوسن الفرجة على سائر الطيور الأخرى واحداً واحداً وهي تحدثنا. لقد حدثتنا عن كثير من الطيور، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تنظر فيها إلينا وتحدثنا بذلك الشكل الصريح وتلك الهيئة المنبسطة والصوت العذب والوجه البريء. كنا جميعاً نشعر بالسعادة، سعادة من ذلك النوع الذي ينسى المرء معه لما هو سعيد أصلاً. كان فِكرت وأخوه عزت كذلك منبهرين بمرأى تلك الطيور الغريبة والنادرة. بينما كانت نظراتُ الدكتور رفعت الحادة وهو يتفحَّص الطيور نظرات طبيبٍ يعاين مريضاً. ورغم كونه شاباً، إلا أن كرشه كان قد بدأ بالظهور ونظره كان يضعف بشدة، ويوماً بعد آخر كانت تلوح عليه مخايل طبيب عجوز. شعرنا جميعاً أنه كان ينظر إلى تلك الطيور بريبة وإلى سوسن ببعض الحسد. كان من الواضح أنه يريد أن يكون هو وحده الشخص الذكي دائماً في كل مكان،

الشخص الذي تبدأ عنده جميع المعلومات والمعارف وتنتهي عنده كذلك. بعد صمت طويل، قال بصوت يحمل نبرة من الشك وهو ينظر نظرات غامضة من خلف زجاج نظارتيه: «يخيّل إليّ أن لدينا مشكلة كبيرة جداً... جداً كبيرة». فنظر إليه فِكرت گولدانـچـي متسائلاً: «أي مشكلة تعني يا جناب الدكتور؟». فأجاب: «مشكلة المكان، جناب السيد گولدانـچـي، مشكلة المكان... أعني أين ستضع كل هذه الطيور؟».

نظرنا جميعاً إلى بعضنا البعض وسمعنا گولدانـچـي يقول: «نعم يا دكتور رفعت، معك حق بالفعل... مشكلة المكان مشكلة كبيرة... بل كبيرة جداً، وسيكون علينا التفكير بهدوء في حلها. بالنسبة لهذه الليلة فلتبقَ الطيور هنا في باحة منزلنا. هذه الليلة وبضع ليالٍ أخرى يمكنها أن تبقى هنا... ولكن بالتأكيد سيلزمنا لاحقاً مكان أكبر».

٣٩

استمرت احتفالات تلك الليلة حتى الصباح. في ذلك الزمان، لم تكن الغربة والهجرة قد أصبحت بعد شيئاً معتاداً في مدينتنا، وكانت عودة المهاجرين ما تزال فرصة ومناسبة جيدة لإقامة الأفراح والاحتفالات. أما اليوم وبعد مرور خمس عشرة سنة على تلك الأحداث، وبعد هجرة عشرات آلاف العائلات والشبان والفتيات وتشردهم في أصقاع الأرض تاركين الوطن خلف ظهورهم، فلم تعد عودة مغتربٍ ما مناسبة نادرة تستحق الاحتفال بها. حين عاد كاميراني سلمى في صيف عام ١٩٩٤، كنا ما نزال ننظر إلى العالم الخارجي كمكان ساحر مليء بالأساطير وبأشياء كثيرة أخرى لم نرها ولم نسمع بها. وكلما وصل إلى مدينتنا أحدٌ ما من العالم، كان يجلس فيقصُّ علينا حكايات غريبة مليئة بالعجائب التي لم نرَها ولم نسمع بها من قبل.

في ذلك اليوم الذي عاد فيه كاميراني سلمى، كنا على وشك الدخول في الحقبة الجديدة التي سنضطر معها إلى

التعرف على العالم. وتلك الليلة في قبو فندق باوَجان أقمنا حفلة مجنونة وصاخبة. أنفق منـگور المال بسخاء، وحتى منتصف تلك الليلة كان مطعمان قريبان ما يزالان يشويان لنا الكباب، فضلاً عن قوارير الشراب الكثيرة التي اشتريناها من جميع حانات المدينة ومئات علب المشروبات الغازية الإيرانية. وكنا منذ الصباح قد أوصينا محلات الحلويات بما يكفينا من البقلاوة. كانت ليلة عجيبة والازدحام في قبو فندق باوَجان على أشدّه.

كان منـگور قد حجز لنا كذلك فرقة موسيقية حتى نستمتع في سهرتنا تلك بالمعزوفات والأغاني. كان كاميراني سلمى ومنـگور جالسين على مائدتنا الكبيرة. قال منـگور: «يا أولاد... هذا اليوم أسعد يوم في حياتي. منذ أن جئت إلى هذه الدنيا وهي تدير لي مؤخرتها، وسوء الطالع فيها لا يكاد يفارقني، ولكن الآن... جميع مرارات سنواتي السابقة قد انتهت. أقسم برؤوس جميع أحبابنا أن هذه الليلة هي الليلة التي يجب أن ندير فيها مؤخرتنا لهذا العالم... الليلة التي يجب أن نسكر فيها جميعاً بحيث لا يستدلّ أحد منا في الصباح على طريق بيته». كان منـگور في غاية السعادة حتى إنه غنى لنا، وكانت تلك أول مرة نسمعه فيها يغني. لم نكن نعلم من قبل أن لمنـگور مثل ذلك الصوت الشجي. بدأ بأغنية «لَ بَر نازي چاوبازان» ثم «با بِـچينه سَر وَيس». كان يقبض بيديه الـمُشعرتين على كاس شرابه ويسند زنديه الملفوفين الغليظين على الطاولة ويغني.

كان يغمض عينيه وينطلق صوته الحساس بغناء عذب شجي. لم يكن منـكور من أولئك الذين يشربون كثيراً، ونادراً ما كان يشرب أكثر من كأسين فقط. كان حريصاً ألا يغيب عن وعيه مهما حدث، ولم نلاحظ حتى في تلك السهرة المجنونة أنه قد ثمل. كان الضيفان الإيرانيان جالسين على يمين كاميراني سلمي ويساره. في تلك الليلة شعرنا بكل تلك التغيّرات التي أحدثتها الأسفار في طريقة كلام كاميران وعمق آرائه وطبيعة سلوكه، وانكشف لنا في تلك الليلة كذلك أن منـكور كان يزوّد كاميران سراً بالمال طوال فترة غيابه، وأنه فعل كل ما بوسعه من أجل إبقاء جذوة التصميم والحماسة متّقدة في قلب كاميران ومساعدته على المضي خلف هدفه. كان يرى في ذلك رسالة حياته الرئيسية. فهمنا جميعاً في تلك الليلة أن منـكور كان قد تورَّط، في سبيل توفير المال اللازم لتلك الرحلة الطويلة، في عمليات تهريب الخمور إلى إيران. كما تورَّط في عمليات السرقة التي سبقت الانتفاضة وعمليات النهب التي تلتها، كما كان ضالعاً في تهريب السيارات وبعض الأجهزة الحساسة الأخرى من البلاد إلى الخارج. ولم يكن انضمامه إلى حزب الاتحاد الوطني إلا حلقة في سلسلة محاولاته لتأمين المال بسهولة. ليس هذا فحسب، بل إننا سمعنا فيما بعد أنه قد اشترى قصراً فخماً وقام بتجهيزه ليكون محل إقامة كاميران بعد زواجه. في الحقيقة، لم يقل منـكور شيئاً في تلك الليلة، وكل ما عرفناه كان عن طريق حديث كاميران سلمي الذي اعترف أنه لولا تلك المساعدات لما استطاع إكمال رحلته التي جاب

بها مدن العالم وبلدانه على حسابنا. ولكن من نحن؟ نحن لم نكن سوى منـگور نفسه الذي قام بالنيابة عنا جميعاً بتقديم كل تلك المساعدات إلى هذا الفتى، وبالنيابة عنا كتب له كل تلك الرسائل، وباسمنا جميعاً منحه تلك العزيمة والإرادة للمضي قدماً. وعلى وقع الأغاني، حدثنا كاميراني سلمى عن العالم الكبير، العالم الفسيح الذي طاف به ورأى معظم أنهاره ومدنه وغاباته. كنا متشوقين أن يحكي لنا عن نساء العالم الحسناوات، أن يحدثنا أين صادف المرأة الأجمل، وكيف عاش كل تلك السنوات وما المغامرات التي خاضها. فقال كاميران إنه صادف في جميع المدن التي مرَّ بها نساءً كن على استعدادٍ للنوم معه في سرير واحد، لكنه لم يكن يشتهي في حياته كلها إلا امرأة واحدة هي سوسن گولدانـچـي. ثم ربتَ على كتف أحد مرافقيه الإيرانيين وقال ضاحكاً: «إن كنتم ترغبون في سماع قصص عن النساء فليس لكم سوى صديقي هذا، إنه يتقن الإنكليزية وشيئاً من الفرنسية وهو من ضاجع جميع نساء العالم ولستُ أنا. أما أنا فبإمكاني أن أحدثكم فقط عن الطيور». عند ذلك انقسمنا إلى فريقين: فأولئك الذين تستهويهم قصص الحب والغرام أقبلوا على الرجل الإيراني، أما الراغبون في معرفة أشياء جديدة عن العالم فالتفوا حول كاميران. لقد كان كاميران قد اكتسب مهارات كبيرة فيما يتعلق بالطيور؛ فقد حدثنا عن جنس من الطيور كان للسرب الواحد منه أنثى واحدة، أنثى رقيقة وناعمة ترقد كل ليلة في عش مختلف وتضع في السنة اثنتي عشرة بيضة يرقد عليها الذكور بعد ذلك بدل الإناث،

وحدثنا عن غابة لا يعيش فيها سوى نوع واحد من الغربان لا يسمحون لأي طائر آخر بالعيش معهم، كما حدثنا عن مدينة كل طيورها بيضاء، بيضاء ناصعة ليس في ريشها نقطة واحدة سوداء. وحدثنا كذلك عن طائر شاهين لا يضع بيضه إلا وسط الرماد الساخن، وعن طائر لقلق ذهبي المنقار ولا يستطيع صياد على وجه الأرض أن يصيده، وذلك لأنه ما إنْ تمسُّه يد حتى يتحول إلى كرة من الريش الأبيض تتناثر مع الهواء في الحال. وحدثنا عن بلبل إذا أنصت المرء إلى تغريده أكثر من عشر دقائق سرعان ما يثقل جسده ويغلبه النوم ويبقى نائماً نوماً عميقاً لعدة أيام متواصلة. كما حدثنا كاميران في تلك الليلة عن نوع من الغربان يتحدث إلى الموتى، وأقسم لنا أنه رأى أحدها وحدثه عن آخر أخبار المرحوم والده، وحدثنا عن ضرب من الحمام يعرف التعزية والدفن مثل البشر ولهم قبور مخصوصة، وذكر نوعاً من البوم إذا طلعت عليه الشمس يتحول إلى رماد ناعم. فسأله أحدنا: «هيه يا كاميران يابن سلمى دولاني، قل لي ما الشيء الذي أخافك أكثر من غيره في رحلتك تلك، أي بهيمة أو حيوان مفترس أو ألم أخافك أكثر من غيره؟». ففكر كاميران قليلاً ثم أجاب: «الشيء الوحيد الذي كنت أخاف منه هو أن تموت روحي في مكان وجسدي في مكان آخر... ذلك كان أكثر ما يخيفني في حياتي». ولما كنا في تلك الليلة سكارى لا نعي ما نفعل فقد انفجرنا ضحكاً من جوابه ذاك، لأننا ونحن على تلك الحالة من السكر لم نكن نفهم كيف لجسد شخصٍ أن يموت في مكان ما وتموت روحه في مكان

آخر. خلال ذلك الضجيج والازدحام مرت كلمة كاميران تلك بهدوء، وحسبناها جميعاً نكتة في غير أوانها. كنا نشرب دون تفكير ونحن نصغي إلى حكايات كلا الشخصين بالتناوب، كنا نشرب ونغني ونتمايل مع الأغاني ونحن نردد كلماتها مع المطربين. مع نهاية السهرة، كان التعب والسُّكر قد أخذ منا مأخذه بحيث لم يعد أحدنا قادراً على حفظ توازنه. ورغم كل الطعام الذي أتينا عليه، فقد كان ما يزال هناك في الصحون فائض من سفود الكباب لم تمسسها يد. كنا سكارى إلى درجة العمى، ورغم ذلك فقد بقي على المائدة عشرات من قوارير الشراب المختومة. لا أحد منا يعرف متى انتهت الحفلة ولا متى وصلنا إلى بيوتنا ولا حتى من أرشدنا إلى أسرَّتنا، ولكننا حين استيقظنا في صباح اليوم التالي كنا جميعاً نشعر أننا بتنا نعرف أشياء كثيرة لم نكن نعرفها عن هذا العالم، وتحركت في نفوسنا أكثر من ذي قبل رغبة جارفة في السفر لمشاهدة المدن والغابات ومساقط المياه البعيدة. وأكثر من ذي قبل، كان صوت ما من خارج جدران هذه المدينة وشوارعها وأزقتها يهتف بنا، وكانت آذاننا جميعاً قد أصبحت أكثر حساسية عند سماع أصوات الطيور، حتى إننا كنا نتعمد التجول مساءً في «شارع الطيور» حتى نتمتع بالاستماع إلى تغريد بلابل الآنسة سوسن وزعيق طيور الببغاء في منزلها. كنا نشعر أن أصوات تلك الطيور نداء من عالم آخر مليء بالأسرار، وأنه يدعونا إليه كأنها أصوات فتيات حسان من بلاد بعيدة.

بعد مشاهدة كل تلك الطيور وسماع أصواتها كان علينا السفر ومشاهدة العالم... لقد كنا الشعب الأخير في العالم الذي عليه الخروج من بيته ورؤية الممالك المرئية مرة أخرى، رؤية الغابات المرئية والمدن المرئية مرة أخرى.

٤٠

في اليوم التالي، ذهبت سوسن برفقة أختها پـروشه وابنة عمتها مريم إلى السوق، إلى محل أحد النجارين واثنين من الحدادين حيث أوصت أن يصنعوا لها عدداً من الأقفاص الخاصة. طلبتْ منهم تجهيز أكثر من خمسة وثلاثين قفصاً من مختلف الأنواع والأحجام خلال عشرة أيام وإرسالها إلى منزل عائلة گولدانـچـي. في ذلك اليوم، أطلق أهل السوق على سوسن اسـم «سيدة الطيور». وفي ذلك الصباح نفسه، سمعت سوسن صوت أحد الباعة الجوالين الصغار الذي كان يركض وهو يصرخ «سيدة الطيور وصلت... سيدة الطيور وصلت».

كانت سوسن مصرّة على الاحتفاظ في داخل منزلها وأمام عينيها بالطيور الصغيرة، تلك التي لا تتطلب أقفاصاً كبيرة ويمكنها العيش معاً ولا يُخشى منها على البشر ولا على ابن أختها الصغير «هُزار» بالذات. الطيور الكبيرة هي التي يجب إخراجها خارج المنزل وإرسالها إلى مكان آخر. كان لدى عزت گولدانـچـي مستودع كبير ومُهمَل خارج المدينة، وقد

سمح لأخيه فكرت بإيداع طيوره مؤقتاً في ذلك المكان.

مع حلول مساء اليوم التالي، كان على كاميراني سلمى أن يمضي إلى منزل گولدانـچـي لإجراء مفاوضاته الثنائية مع الآنسة سوسن. وما إن وطئت قدماه باحة منزل گولدانـچـي، حتى دهمه شعور جارف أن عاصفة هوجاء قد سبقته في القدوم وكنست كل شيء في طريقها، فلم يكن هذا هو ذاته المنزل البهي المزدان الذي عرفه في الماضي والذي لم تفارق صورته خياله طوال سنوات ترحاله. ذلك المنزل الذي كان حينها مزدحماً بالكراسي والطاولات الثقيلة والتماثيل القديمة والكثير من القطع الأثرية والثمينة. حين صعد إلى الطابق العلوي ودخل إلى غرفة المكتبة الكبيرة وقف مذهولاً من كل ذلك الفراغ والصمت، لم يكن ثمة كتاب واحد، ليس هناك سوى كرسي واحد وطاولة قديمة وأريكة بالية متعبة وسرير نوم موضوع في آخر الغرفة. تجمد في مكانه من هول المفاجأة، وأخذ يحدِّق إلى سوسن التي كانت جالسة خلف طاولتها تحدِّق إليه هي الأخرى. صرخ كاميران متعجباً: «مرحباً يا سيدتي... مرحباً... ولكن اعذريني... قد يكون تطفلاً مني ولكن... ولكني لا أفهم... ما هذا الذي أراه... ما هذا... سامحيني. قد يكون سؤالي غير مناسبٍ لكنني لا يمكنني إلا أن أطرحه... يجب أن أسأله. أين منزلكم الفخم السابق... أين مكتبتكم الضخمة... أين تماثيلكم الجميلة؟». كانت سوسن تتوقع مسبقاً أن يطرح عليها جميع خُطّابها هذا السؤال عينه. نهضت فاستقبلته بهدوء

طالبة منه بأدب أن يجلس على الأريكة البالية، تلك الأريكة ذاتها التي كان قد جلس عليها ذات ليلة قبل أكثر من ثماني سنوات، لكنها اليوم أصبحت متعبة وبلا رونق. وهذه المرة كانت هي من تصب له الشاي بيديها من إبريق أسود اللون، وتقول له بصوتها الواهن الشجي: «كاميراني سلمى، لقد مضت أكثر من ثماني سنوات منذ أن ذهبتَ في رحلتك تلك، وقد وقعت خلال غيابك عدة معارك كبيرة، وأنا سعيدة أنك لم تكن هنا لتشهدها. حين قامت الحرب بين العراق ودول التحالف حمدتُ الله أن أحداً منكم لم يكن هنا، أن أحداً منكم لم يكن مضطراً للمشاركة في تلك الحرب القذرة. وحين قامت الانتفاضة وانهزمت قوات صدام حمدتُ الله ثانيةً أنك لستَ هنا، لأني أعلم أنك لو كنتَ هنا لألقيتَ بنفسك كالمجانين في قلب كل تلك النيران المستعرة. لقد كنتُ أفتش في جميع أحياء المدينة، في جميع مناطق القتال وقلبي يرتجف وأنا أحمد الله في كل ثانية أنك لم تكن هنا. كنتُ أقول لنفسي: أقسم بالله لو أنه كان هنا لكان وسط هؤلاء المحاربين دون شك. في كل مرة يا كاميراني سلمى، كل مرة... كلما وقع شيء ما كنت أضع يدي على قلبي وأحمد الله كثيراً أنك لم تكن هنا، يكفيني أنك لم تكن هنا ولم تلقِ بنفسك وسط تلك النيران. كم كنا تُعْس في تلك الأيام. لقد قطعوا الراتب عن والدي، وقد أنفقنا جميع مدّخراتنا. أنت تعلم أن گولدانـچي قد أصبح رجلاً طاعناً في السن ولا يمكنه العمل. حين رجعنا إلى كُردستان كانت غايتنا الراحة ونسيان كل تلك الأيام السيئة التي عشناها في بغداد.

گولدانـچـي غير قادر على العمل وأنا كذلك. في مدينة كهذه، تبدو خارج العالم، ما العمل الذي يمكن لفتاة مثلي أن تؤديه... لا شيء. فضلاً عن أنني أمرض على الدوام، ولذلك كان علينا أن نبيع كل شيء... كل شيء. ولكني أريد أن أستمع إليك الآن، فليس في هذه المدينة إلا الحكايات السيئة. هيا حدثني عن العالم... أريد أن أعرف كيف رأيتَ الدنيا؟ ها أنت ترى أنني لستُ الفتاة نفسها التي كنتها قبل ثماني سنوات. قل لي ألستَ نادماً على أنك تشردتَ في أصقاع العالم بهذا الشكل وهذه المدة الطويلة؟ قل لي ألم تكرهني وتحقد عليّ في وقت ما أنني قد فرضتُ عليك تلك الرحلة الطويلة... هيا قل لي، منذ ثماني سنوات وأنا أراكم أنتم الثلاثة في منامي كل ليلة. غالباً ما كنتُ أراك في سفينة، سفينة زرقاء... آه، ولكن ليس هذا وقت الأحلام أليس كذلك؟ فها أنت الآن أمامي وأنا أراك... أليس كذلك؟».

كان كاميراني سلمى ما يزال يرى في ابتسامة سوسن وعيونها الناعسة ونظراتها الناعمة وصوتها الهادئ جداً الذي لم يكن من هذا العالم ما يسحره. وبسهولة شعر بارتعاشات العشق نفسها كما في السابق تهز قلبه، وشعر كذلك أنه لم يكن مخطئاً حين عاد من أقاصي الأرض من أجل هذه الفتاة، لم يكن مخطئاً حين قام برحلته الطويلة الشاقة في سبيل هذه المرأة. والآن وهو واقف أمامها كانت مشاعره هي ذاتها التي تركها هنا قبل ثماني سنوات حين ركع أمامها قائلاً «تزوجي

بي». الآن يمكنه فعل الشيء نفسه. لكن التمهّل اليوم أهم من أي شيء آخر، فقد كان كلاهما واعياً بما يكفي. كان سلوك كاميران قد تغيّر خلال تلك الفترة وأصبح بإمكانه الحديث بشكل أهدأ وأنسب. وخلال تلك السنوات الطويلة، كان رفيقه الإيراني، وسائر معاونيه من جميع أنحاء العالم قد علّموه الكتابة والقراءة وآداب الحديث. حين وقف أمام سوسن كان يعلم أنها اللحظة التي كان ينتظرها لاختبار ما تعلمه. الكلام وحده... علّمته تلك السنوات الطويلة التي قضاها مرتحلاً أن الكلام هو جواز السفر الوحيد الحقيقي للمرء. قال لسوسن: «كلا يا سوسن خان، لا أذكر البتة أنني قد كرهتكِ يوماً ما. لا أجد من الضروري أن أحدثكِ عن رحلات الصيد وكم كانت صعبة. قال لي مرة فلاح هندي إن اصطياد بعض الطيور أصعب من اصطياد الضوء نفسه. سأظل أذكر طوال حياتي كلماته تلك. فقط بعد رحلة طويلة كتلك يمكنني التأكيد أن البشر والطيور يعيشان في عالمين منفصلين. العالم يا سيدتي مكان جميل، مكان جميل جداً... جميع مخلوقات الأرض جميلة لكنني لم أكن أرغب بالتفكير أكثر مما ينبغي في ذلك الجمال، كنتُ مؤمناً أنني لا يجب أن أبالغ في التفكير في ذلك لئلا أضيع. كنتُ أعلم أنك إنما أرسلتِ بي بعيداً حتى أرى العالم، وكنتُ أعلم أن الخاطبين الآخرَين يعرفان أن هدفك ليس هو الطيور ولكن أن تجعلينا نطّلع على العالم... أن تكون لنا ذكريات كثيرة، حتى إذا هرمنا يكون عندنا ما يستحق أن نرويه. حين نصبح آباءً أن نحدث أبناءنا عن العالم... عن العالم كله. هكذا

كنتُ أفكر. في كثير من الليالي حين كنتُ آوي إلى فراشي في فندق مدينة ما، كنت أقول لنفسي: لو أن للمرء أباً يحدثه عن العالم بأسره، أفضل من أب لا يعرف حديثاً يتجاوز حدود مدينة أو قرية صغيرة. لو أن له أباً زار كل مكان في الأرض خير من أب لم يرَ مكاناً سوى مسقط رأسه. لستُ نادماً البتة على قيامي بتلك الرحلة، ولكن لا شك أنني لن أستطيع القيام برحلة مشابهة مرة أخرى».

نظرت إليه سوسن نظرة حزينة وقالت: «ولكن قل لي... بالتأكيد لديك الكثير من الحكايات تحكيها لي... حكايات كثيرة».

ضحك كاميران وهو يقول: «سوسن خان، إذا تزوجنا فسيكون لدي من الحكايات ما يكفي جميع ليالي حياتنا معاً». قالت سوسن: «قل لي يا كاميران... هل خطرت لك فكرة عدم العودة، هل فكرتَ مرة أن تمضي وتعطي ظهرك لكل شيء... أن تترك السعي خلف تلك الطيور وتستقر حيث وصلت؟». فأجاب كاميران: «كلا يا سيدتي... بكل صدق لم أفكر بذلك، لكني في الحقيقة كنت أريد الانتهاء من رحلتي تلك. شعرتُ أنكِ قد وزَّعتِ الطيور بشكل يكون معه المرء مضطراً خلال البحث عنها لرؤية أكبر عدد من المدن والغابات. وأنا قلتُ لنفسي إذا كانت تلك رغبتكِ فليكن. كلا... لم أكن أستطيع ألا أرجع، وحتى لو أنني لم أصطد شيئاً كنتُ سأرجع، لأنني كنت في شوق شديد لرفاقي، وكنت أعلم لو أنني رجعتُ خالي

الوفاض فسأتعرض لسخرية لا نهاية لها، ولكن كنتُ سأعود على كل حال. نعم يا سيدتي فحتى لو أنني لم أصطد شيئاً كنت سأرجع، ولكن في تلك الحالة لم أكن لأقوم بزيارتك كما أفعل الآن، بل كنت سأقمع قلبي وأعود إلى حياتي السابقة كحامل سكين... كلا يا سيدتي. لم تكن للمكان أهمية عندي. كلا يا سوسن خان، ولا أهمية كذلك أنني بقيتُ في منأى عن الحرب. ما كان يهمني هو بُعدي عنكِ. أنا لستُ شخصاً متعلّماً بما فيه الكفاية وأنتِ تعرفين ذلك. كثيراً ما سألتُ نفسي ما الذي تعلمته من رحلتي تلك. لقد شعرتُ يوماً أنني قد فهمتُ مرادكِ رغم ثقافتي المتواضعة. ذات يوم في واحدة من غابات أستراليا كنت أبحث عن طائر كنتُ أسميه «ملا قاقا» لأنه كان يصدر صراخاً عالياً يشبه إلى حد كبير صراخ البشر، وكان مكانه الوحيد هو غابات أستراليا، ولم أشاهد هذا الطائر في أي مكان آخر في العالم. إنه يقتات على الأفاعي يا سيدتي، ليس كبيراً بما يكفي بل أكبر قليلاً من حمامة، هو ليس طائراً خوّافاً بل كثيراً ما يُظهر نفسه، ولذلك يكون اصطياده سهلاً. اصطدتُ منه زوجاً. لقد صبرتُ وقتاً طويلاً حتى أحصل عليها، لكن صوت صراخها كان يصيب الناس بالتشاؤم الشديد. وذات ليلة حين كنتُ راجعاً بها في زورق قديم من أستراليا باتجاه الهند، كانت الطيور تزعق وشعر ركاب الزورق بالقلق والتشاؤم من صوتها، فقام أحدهم بتقديم ماء مسمَّم لها فلما شربته ماتت في الحال. أدركتُ في تلك الليلة كم هي غالية حياة الطائر، كم هي مهمة وعظيمة وذات معنى، وفهمتُ سبب إرسالك إياي

في تلك الرحلة. في تلك اللحظة حين رأيتُ ذينك الطائرين وهما يموتان أمام عينيّ أدركتُ أنك كنت تريدين لي أن أفهم قيمة الحياة... كم تعبتُ في الحفاظ على طيوري حيةً. في تلك اللحظة فقط أدركتُ فداحة خطئي حين طعنتُ منصور أسرين. وكان من الممكن لو أنني لم أرتكب ذلك الخطأ أن لا تكون هذه الرحلة الطويلة من أصلها. من الممكن يا سيدتي... من الممكن أنكِ إنما أرسلتِ بنا في تلك التغريبة حتى ندرك جميعاً حُرمة الحياة... ما أدراني سوسن خان! لعل الأمر يكون على هذه الصورة، فحين قمتُ بطعن منصور أسرين كالمجانين، ورأيتِ كم أننا نستهين بحيوات بعضنا بعضاً، اخترتِ لنا تلك العقوبة القاسية في أن نتغرّب ثماني سنوات في أصقاع الأرض نجمع أنواعاً من الطيور، ونكون ملزمين بحفظها من الموت. وها أنا الآن وقد أصبحتُ أهتم بحياة طائر صغير فكيف بحياة إنسان... سيدتي، لقد كانت رحلتي الطويلة تلك رحلة تفكير عميق في الطيور، وكانت همّاً يومياً في كيفية إبقائها على قيد الحياة بانتظار لحظة العودة. نعم، كان عليّ الاحتفاظ بها حيّة. حيثما كنتُ لم يكن هذا الهم يفارق رأسي. لا شك أن الكثير من طيوري قد نفق خلال تلك السنوات الثماني، ولكني كنتُ حريصاً دائماً على الاحتفاظ بذكر وأنثى على الأقل من كل جنس حتى يبيضوا وأحصل على فراخ صغيرة. نعم، هكذا كنتُ أفعل، بتلك الطريقة حافظتُ على حياة الكثير من طيوري النادرة».

كانت سوسن في تلك الأثناء تحتسي شايها بهدوء وهي تحدِّق إلى كاميراني سلمى. قالت بعد لحظات من الصمت: «كاميران... أيمكنك الآن الإقدام على قتل شخص مثلي؟». فأجاب كاميران: «مطلقاً يا سيدتي... إن الإنسان الذي يطوف العالم، الذي يطوف العالم بشكل حقيقي كما يجب، أعني أن يكون قريباً من المخلوقات الأخرى لا يمكنه بعد ذلك قتل أحد. وإذا كان المرء يتألم لموت طائر فأولى به أن يحترم حياة كل ما عداه. أنتِ كنتِ واثقة منذ اللحظة الأولى أنني أحبكِ، وأنا واثق أن إرسالكِ إياي في تلك الرحلة لم يكن من باب التجربة حتى تتأكدي من جدية مشاعري وحسب... كنتِ تعلمين أنني أحبكِ بصدق، الجميع كان يعرف، ولذلك فقد أرسلتني بعيداً... أرسلتني حتى أكون بعيداً عن الموت وأعرف الحياة على حقيقتها. لستُ ذلك الشخص الذكي ولكني جلستُ ذات ليلة أتأمل الطيور... تأملتها كثيراً... وبعد ساعات طويلة من التأمل فهمتُ أنك أردتِ لي أن أرى الحياة وليس العالم. أتعرفين يا سيدتي... كم هو شعور غريب حين تمسكين طائراً، شعور أن تلمسي قلبه بأصابعكِ فتشعري به وهو ينبض، حين تنظرين في عينيه الخائفتين، حين ترين كيف يتطاير ريشه عند شعوره بالخوف... نعم، في تلك اللحظات أدركتُ بكل وضوح لما أنا بهذه الحقارة في دروب الحياة الواسعة، وعلمتُ أنكِ كنتِ تريدين لي أن أتصل بالكائنات الحية وجهاً لوجه. لقد كان أمراً لم أفعله في حياتي... أن أقضي أياماً وليالي طويلة بصحبة الطيور، أن أقطع

كل تلك الغابات في طريقي وأرى بعينيّ كل تلك الكائنات. ليس العالم ما يدهشني لكنها الحياة... ولو أنكِ سألتني الآن هل رأيتُ الحياة فسأجيبكِ بالنفي، لأنني طوال سنوات سفري كنت منهمكاً في تأمل ومراقبة الكائنات والطيور... والآن أنا عاجز حتى عن قتل طائر... عاجز تماماً حتى ولو كانت تلك رغبتكِ».نهضت سوسن فوقفت أمام كاميراني سلمى وقالت: «والآن... كيف تراني؟ كاميراني سلمى ها أنت قد طفتَ العالم ورأيتَ معظم نسائه، أما زلتَ تراني كما في السابق، ألم تتغير صورتي في عينيك؟».

اعتدل كاميران في جلسته ونظر إلى سوسن وأجاب: «لا أخفي عنكِ أنني كنتُ، كلما وصلت إلى بلدٍ، أتأمل نساءه وأدقق في جمالهنَّ، ولكن كوني على ثقة تامة، سوسن خان، أنّ عينيَّ لا تريان على هذا الكوكب سوى امرأة أسطورية واحدة هي أنتِ. قد لا تكونين أجمل امرأة في العالم ولكني في الحقيقة يا سيدتي لا أحب مثل تلك الألقاب: أبهى طائر في العالم، أعذب صوت بلبل في العالم، أجمل امرأة في العالم، أفضل رجل في العالم... نعم يا سيدتي، إن من يرى العالم، أعني من يرى العالم على حقيقته، لا تعني له مثل تلك الكلمات شيئاً. لم تفارق صورتكِ خيالي يوماً واحداً، ويكفي أن أي امرأة في العالم لم تستطع أن تستبدل صورتها بصورتكِ ولا حتى أي طائر أو مشهد بديع، وكان ذلك أهم عندي من أي شيء آخر. كنتُ أطوف العالم وأنتِ معي، كنتِ معي في ليلي ونهاري.

وكلما وقعت عيناي على طائر جميل كنتُ أتمنى لو كنتِ معي حينها. وكلما تناولت طعاماً طيباً كنتُ أتمنى لو أنكِ معي على المائدة، وحتى حينما كنتُ أرى امرأة جميلة كنتُ أتمنى لو أنكِ كنتِ معي تشاهدينها لأعرف إن كنتِ ترينها جميلة كما أراها».

قالت سوسن، وكانت ما تزال واقفة أمامه: «ناولني يدكَ يا كاميران... أرجوكَ ناولني يدك». فنظر إليها كاميران دَهِشاً وقال: «إليكِ بها يا سيدتي». قرّبت سوسن وجهها من يد كاميران بهدوء فخُيّل لكاميران في لحظة ما أنها قد تقبّل يده، لكنها رآها تغمض عينيها وتشمُّ راحة يده بعمق وتقول: «آه... يا إلهي! يا إلهي...». ثم قرَّبت وجهها من جسده وأخذت تشمّه، شمّت صدره وشمّت عنقه وشمّت وجهه وشمّت شعره، ثم قالت برصانة: «آه يا إلهي، آه يا إلهي... إنها هي... رائحة العالم، رائحة العالم الحقيقية». ومرة بعد أخرى وكأنها كانت تشمّ وردة كانت تغمض عينيها وتأخذ بشمٍّ كاميران وتهمس بكل نعومة وغموض: «آه يا إلهي... يا إلهي». ثم وقفت وقد نال منها التعب وغادرت الغرفة وكاميران يصغي إلى وقع حذائها على البساط، ثم وهي تنزل من الدرج نحو الطابق السفلي. غسلت سوسن وجهها وكأنها كانت بذلك تريد تجنب الوقوع في غيبوبة، وكانت بحاجة إلى ما يخفّف عنها الحرارة التي كانت تشعر بها. لم تكن تكف عن الغمغمة «يا إلهي، إنها رائحة العالم، رائحة العالم الحقيقية على جسد رجل... يا إلهي».

بعد مضي بعض الوقت، استعادت هدوءها. دخلت

المطبخ وشغلت نفسها بإعداد إبريق آخر من الشاي ثم دخلت إلى غرفتها القديمة وأخذت تنظر إلى نفسها في المرآة، لم تكن في حياتها بهذا الشحوب. سألتها أختها پروشه: «ما بكِ يا أختاه؟». فأدارت عنقها بعنف وأجابتها: «كلا... لا شيء، لا شيء البتة».

وبعد أن اطمأنت إلى أنها قد استعادت هدوءها بشكل كافٍ، عادت إلى الطابق العلوي. لاحظ كاميراني سلمى شحوبها واضطرابها المفاجئ، ولأنه لم يفهم ما الذي كان يجري فقد نظر إليها واكتفى بابتسامة صغيرة.

سارت الأمور بعد ذلك بشكل طبيعي وهادئ. لقد كان يوماً مميزاً لكليهما. كان الحديث الذي جرى بينهما أشبه بحديث شخصين لا تكاد الحياة على رحابتها تتسع لما يريدان قوله. أمضى كاميراني سلمى وسوسن فِكرت عدة ساعات معاً، تكلما عن الحرب، عن الحب، عن الطيور، عن الحرب الأهلية، عن كيفية صناعة أقفاص مناسبة وعن أشياء أخرى كثيرة.

بعد أن استعادت سوسن هدوءها بشكل كامل، أخبرت كاميران أنها لن تتخذ قرارها النهائي حول الزواج إلا عقب عودة الخاطبَين الآخرَين. ثم عاهدته أن تعتني بطيوره كما يجب وأن بوسعه رؤيتها كلما شاء وفي أي مكان كانت.

حين غادر كاميراني سلمى منزل گولدانـچـي، كان واثقاً

أنه قد ترك انطباعاً حسناً عن نفسه لدى سوسن. أما سوسن فما إن انصرف كاميران حتى نزلت إلى الأسفل مثل المجنونة فاحتضنت أختها پـروشه وهي تقول: «يا إلهي! كم هو شاب وسيم... يا إلهي، إنه أجمل من جميع طيور الدنيا». فنظرت إليها پـروشه مذهولة وقالت: «هذا صحيح يا أختاه، إنه بالفعل شاب وسيم وأجمل من جميع طيور الدنيا».

وكانت تلك هي المرة الأولى في حياتها التي ترى فيها پـروشه أختها مرحة ومنطلقة بهذا الشكل.

٤١

قامت سوسن بنفسها بنقل جميع الأقفاص إلى الطابق العلوي، وبالذات في المكان الذي كانت تحتله المكتبة سابقاً. عزلت أكثر من عشرين طائراً صغيراً عذب الصوت ووضعتها في أقفاص جديدة. حين كانت ترفع ستائر نوافذ غرفتها أحياناً لكي يقع ضوء الشمس على طيورها وتفتح النوافذ من أجل تهوية الغرفة، كنا في طرف الشارع نراقب عبر فتحات نوافذها فنلمح بعض تلك الطيور. طوال الفترة التي كان فيها منزل سوسن في حيّنا، كنا كل مساء نتعمَّد السير من أمام تلك النافذة لنستمتع بالإصغاء إلى أصوات تلك الطيور الساحرة التي لم تكن تكفُّ عن التغريد، فبعضها كان يغرّد ليلاً وبعضها صباحاً وبعضها في فترة الظهيرة وبعضها الآخر في المساء. في بعض الأوقات كنا نسمع تغريد طائر واحد لمدة طويلة والطيور الأخرى صامتة تصغي إليه، وفي أوقات أخرى كان عدد من الطيور يشدو معاً باللحن ذاته، وفي أحيان قليلة كان جميعهم يغردون معاً كأنهم فرقة كورال عالمية. كانت سوسن تشعر أن تلك الطيور بشدوها العذب تنقلها إلى غابات العالم الفسيحة.

كانت تجلس مغمضة العينين وتسبح بعيداً بخيالها مع تلك الأنغام الساحرة. كانت تعرف تلك الطيور واحداً واحداً، وتعلم من أي غابة أو مستنقع أو ساحل تم اصطيادها. كانت أصوات الطيور تأخذها فتطوف بها أرجاء الأرض متنقلة بها من غابة مظلمة إلى قمم الأشجار الباسقة، فتعلم من خلال غناء تلك الطيور كيف هو الجو الآن في تلك الغابات، أهو مُشمس أم مُمطر، وكانت حرارة جسدها تتبدَّل سخونة وبرودة تبعاً لتلك الأصوات. اعتادت سوسن منذ اليوم الأول على أن تُطلق بعض الطيور في الغرفة بالتناوب، وكان كل ذلك يمنحها شعوراً بالحياة في هذا العالم. شعورٌ لم تكن قد اختبرته في حياتها من قبل.

بعد ثلاثة أيام من عودة كاميران، تم نقل الطيور الكبيرة إلى مستودَع عزت گولدانـچـي الذي يقع خارج المدينة بسبب عدم تمكنهم خلال تلك الأيام من العثور على مكان أفضل يودِعون فيه الطيور. خلال يومين، قام العمال، الذين كان الدكتور رفعت رمزي قد استأجرهم، بتجهيز المستودَع فرتبوا غرفاً خشبية خاصة مُنارة بالكهرباء، وبقي الدكتور رفعت مدة طويلة يدفع من جيبه أجور حُرّاس المستودَع الذين كان عليهم مراقبة الطيور... النسور والشواهين الجبلية والعقبان الضخمة وطيور البوم المتنوعة والكبيرة والغربان الزيتونية ذات الصوت الأجش، بالإضافة إلى عشرات الأنواع الأخرى التي لم نكن نعرف لها أسماء في لغتنا والتي لم يكن أحد باستثناء سوسن

يعرف أسماءها.

خلال تلك الفترة، التقت سوسن بكاميراني سلمى عدة مرات في ذلك المكان وتبادلا خلال اللقاءات بعض المعلومات المهمة المتعلقة بطريقة العناية بالطيور ولا شيء آخر، حتى إن بعض من حضر تلك اللقاءات أكّد على عدم حديثهما بحرف واحد خارج ذلك الموضوع، أو حدوث أي نوع من أنواع التقارب فيما بينهما. كان من الواضح أن سوسن تترقب وصول الخاطبَين الآخرَين، ولذلك كانت حريصة على إبقاء تلك الحدود الصارمة بينها وبين كاميران.

كان أكثر ما لفت انتباهنا هو ملاحظتنا أن الطيور كانت في غاية السعادة بشكل دائم، وتشي تغريداتها وغناؤها وتحليقها وجميع حركاتها بسعادة غامرة لا حدود لها.

بعد شهرين من ذلك التاريخ، سمعنا ذات مساء أن خالد آمون مصحوباً بموكب من الطيور قد بلغ أطراف المدينة. كان موكب خالد آمون مكوناً من سيارة بيك آب يقودها بنفسه وعليها تسعة أقفاص كبيرة. كان قد لقي صعوبة كبيرة في اجتياز الحدود التركية بعد أن منعه جنود الجندرمة الأتراك عدة أيام من دخول بلاده. وفي النهاية تمكن في مدينة سلوبي وبواسطة هواتف الأقمار الصناعية المنصوبة على الحدود من الاتصال بأحد أقربائه اللاجئين إلى زاخو، وبعد ذلك تيسَّرت أموره، ومع ذلك كان عليه الانتظار بضعة أيام أخرى حتى يرتِّب أقاربه

عبر اتصالاتهم أمر اجتيازه الحدود. في ذلك اليوم الذي دخل فيه خالد آمون البلاد عبر بوّابة «إبراهيم خليل» الحدودية، وجد في استقباله عشرات الآمونيين الذين كانوا بانتظاره. كان أقاربه قد أخفوا عنه بالطبع خبر مقتل قلندر آمون، لأنهم كانوا يعلمون أن خبراً كهذا كان سيتسبب له بحزن عميق لا سيّما وأنه كان يقضي الأسابيع وربما الأيام الأخيرة من رحلة السنوات الثمانية معه. لكنه كان قد علم عن طريق بعض المكاتبات الخاصة أن الحرب الأهلية قد شرّدت قومه الآمونيين بحيث لم يبق أحد منهم في مدينته، ونزحوا جميعاً إلى مدن وقصبات منطقة بهدينان الخاضعة لسيطرة حزب البارتي وهناك بدؤوا حياة جديدة. حين علم خالد آمون بعد ذلك بمقتل قلندر على يد رجال منكوري باباگوره وبأوامر مباشرة منه -كما كان يزعم الآمونيون- هزَّ الخبر المشؤوم كيانه بشدة وأنساه حتى حلاوة الاستقبال المهيب الذي تلقاه على المعبر الحدودي؛ ففي ذلك اليوم استقبله الآمونيون استقبالاً حاراً وكانوا يرغبون في إقامة حفلة صاخبة ابتهاجاً بعودته، لكن حزنه على قلندر كان أكبر من أن يسمح لهم بذلك وكل ما طلبه منهم هو أن يتركوه مع حزنه. بكى خالد عشرات المرات وهو يقرأ رسالة قلندر التي كان قد كتبها في ليلة الهجوم على مقر البارتي. اعتذر قلندر في رسالته أنه لا يستطيع متابعة دوره كوكيل له لدى سوسن فِكرت، كما كتب له عن المقر المحاصَر الذي تركه المدافعون وأنه هو قلندر آمون يرى الفرار عاراً، ولذلك فهو مصمم على الثبات والدفاع عنه لئلا يكتب التاريخ غداً أنه كان جباناً. كتب

له كذلك أن من يحاصر المقر هم أنصار حزب الاتحاد بقيادة منـكوري باباكوره، وكتب أنه لا يعتقد أنه سينجو من هذا الحصار، وروى له كذلك كثيراً من الأشياء التي وقعت خلال غيابه؛ روى له كيف أنه شارك في عملية الهجوم على مقر الأمن العام وقتل عدداً من رجال النظام، وكيف أنه أخرج سوسن من قبو الأموات وكيف انضم إلى حزب البارتي وكيف أن منـكور شارك في حرق منازل الآمونيين وإلقاء القاذورات عليها وكيف استخفَّ بهم.

كانت رسالة شخص يعلم أنه ميت بعد ساعات قليلة، رسالة تنضح حزناً وتشاؤماً وشكوكاً كثيرة حول كل شيء في العالم. ولكن أهم نقطة استفادها خالد من تلك الرسالة هي معرفته أن منـكور ورجاله سيكونون حجر عثرة بالتأكيد في طريق زواجه من سوسن فِكرت. ويبدو أن ذلك التنبيه كان هو الغاية الرئيسية من كتابة الرسالة، وتنبيهه كذلك أن كُردستان لم تعد ذاتها كُردستان التي يعرفها؛ فقد خضّبت الحرب والضغينة أرضها بالدم وفقدان الثقة، بالانفجار المفاجئ للعنف وبالرعب الدائم والمتبادل بين جميع الأطراف.

طوال السنوات الماضية لم يكن ليخطر لخالد أن بإمكان قلندر، ذلك الضخم صاحب الرأس الكبيرة الصلعاء، كتابة رسالة كهذه لكن يبدو أن مواجهة الموت قد شحذت ذهنه حتى استطاع كتابة كل ذلك والتعبير بتلك البلاغة عن كل مخاوفه. خلال تلك الأيام التي قضاها خالد وسط أهله

وأقربائه الآمونيين كان معظمهم يرفض فكرة عودة خالد إلى بيته في المدينة، بينما لم يرَ البعض الآخر غضاضة في عودته خاصةً أنه طاف أصقاع الأرض من أجل أن يعود بتلك الطيور إلى سوسن، وعليه فلا يجوز أن يقعد هنا متعللاً بالخوف. فعل بعض من وجهاء العشيرة ما بوسعهم حتى يقنعوا خالد باصطحاب شخص معه عند الذهاب إلى المدينة، لكنه رفض مفضّلاً العودة وحيداً خشية أن يلفت وجود الآمونيين معاً أنظار بعض أعدائهم فيحدث ما لا تُحمد عقباه.

لم يكن ذلك اليوم الذي غادر فيه خالد منطقة بهدينان باتجاه الشرق يوماً طيباً. كان بإمكانه رؤية نيران القنابل في الشوارع العامة والتي كان دخانها يتعالى من علوٍ منخفض من جانبي الطريق. في معظم حواجز السيطرة، كان الحرس عنيدين ومضطربين تبدو واضحة عليهم آثار الجوع وقلة النوم. ومعظم تلك المدن الصغيرة التي كان عليه المرور بها صامتة وشبه خالية ولا تكاد تجد فيها أثراً للحياة، ومعظم الأشخاص الذين صادفهم كانوا من المسلحين الذين كان بعضهم يحيّونه بهدوء، بينما كان بعضهم الآخر يرهقه بالسؤال عن الطريق. في آخر المساء، وصل خالد إلى المدينة في وقت كانت المدينة فيه هادئة والشوارع شبه خالية. أراد في البداية أن يضع الأقفاص في مكان ما ويمضي إلى زيارة سوسن ليخبرها بوصوله، لكنه شعر أن من غير اللائق أن يزورها بعد كل هذا الغياب وجسده يفوح برائحة عرق الطريق وذقنه التي لم يكن حلقها

منذ وصوله حزناً على قلندر، ومن الممكن أن تكون هيئته هذه سبباً في انهيار صورته التي أنفق سنواتٍ من حياته وهو يحاول تجميلها في عيني سوسن. ما إن وصل إلى المدينة حتى شعر بصاعقة من الحقد والغضب تضرب مكامن العشق في قلبه، فقد تذكر ما جرَّ عليه هذا العشق من الألم والمعاناة وما يزال. شعر بالارتياح حين وقعت عيناه على الشوارع القذرة المعتمة، ورأى أن معظم الشوارع محرومة من الإنارة. فمن جهة، كان متأكداً أن هذه هي مدينته التي تركها قبل سنوات. ومن جهة أخرى، كان هذا الظلام يناسبه، بل كان يحتاجه حتى يشعر بالطمأنينة... كان يشعر أنه قد ترك خلفه ماضياً قاسياً جداً ولكن مستقبلاً غامضاً ينتظره. في وسط المدينة، شعر بقلق واضطراب هائلين؛ فهنا كان المكان مزروعاً بالمسلحين. شعر خالد آمون بقلبه ينبض بشكل مخيف ولم يعد يعرف إلى أين يتجه. لم يكن في المدينة بأسرها آموني واحد يمكن أن يلجأ إلى منزله ليرتاح قليلاً. فكّر قليلاً وقرر البقاء في سيارته، قرر أن يضع الأقفاص في مكان ما وينام حتى الصباح. كان عليه الاستحمام وحلق لحيته وتغيير ثيابه، ولا يمكن فعل ذلك في السيارة، ناهيك عن أنه يجب أن يكون في مكان بارز حتى يرى أكبر عدد من الناس طيوره ويعلموا أنه قد عاد بها. تابع مسيره، وأخيراً توقف أمام باب فندقين وكان كلاهما مغلقاً لأن المدينة لم تعد بحاجة إلى الفنادق منذ وقت طويل، أعني منذ اندلاع الحرب، لأنها كانت مكاناً بعيداً غير مطروق ونادراً ما كانت طرق المسافرين تتقاطع في هذه البقعة المنسية من العالم.

لم يبقَ أمامه سوى الذهاب إلى فندق باوَجان الذي لا يحبه، لكنه وجد نفسه مضطراً. أوقف سيارته أمام باب الفندق وولج إلى الداخل وطلب حجز غرفة شاغرة. في الواقع كان الفندق كله شاغراً، فاختار غرفة تطلّ على الشارع حتى تتاح له مراقبة أقفاصه في الخارج.

حين نظر عبر النافذة، كان الشارع مظلماً والطيور في أقفاصها ساكنة هادئة. نزع ملابسه وقرر دخول الحمّام حتى يزيل عن جسده رائحة عرق الطريق ومتاعبه. كان هذا ما يفعله في كل مدن العالم، فحيثما حلّ كان يفتش عن فندق جيد ويحظى بحمّام مناسب. حين توجه إلى الحمام دهمه شعور غريب، شعور بالخوف وانعدام الأمان. لماذا كان يشعر في جميع تلك المدن الغريبة بالأمان ويدهمه الخوف هنا في مدينته، لماذا؟ حين نظر إلى نفسه في المرآة لم يعرف ما الذي تغير في نظره خلال كل تلك السنوات. حاول الابتسام فلم يستطع... لا، فلم يكن وجهه من ذلك النوع الذي يتقبل الابتسام بسهولة. فكّر، والماء ينسكب على جسده، بسوسن فِكرت... لن يغيب ذلك عن فطنتها ورأسها المليء بالأسرار، ولا بد أنها قد شعرت بعودته. وباستثناء مشاعر البغض الشديد البارد تجاه منافسيه لم يكن يشعر بأي شيء آخر، كان هو البغض البارد ذاته الذي يحمله لهما قبل سفره، وإن كان قد ازداد عمقاً وحدّةً خاصةً تجاه كاميراني سلمى الذي لا بد أنه كان قد حرّض رفاقه بطريقة خبيثة وغير مباشرة حتى يُلحقوا كل تلك الأذية

والاحتقار به وبالآمونيين... كان حقداً غامضاً وشديداً يخيفه هو نفسه. لم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل بمشاعر الكراهية تلك، فقد طاف الدنيا بأسرها حتى يتخلص من تلك المشاعر ويتطهّر منها ولكن عبثاً... لقد كانت على الدوام منغرسة في أعماق قلبه. والآن بعد أن عاد إلى هذه المدينة وسمع تلك الأخبار حول الكوارث التي حلّت به وبعشيرته، تأكد لديه أن سبب تغرّبه طيلة تلك السنوات لم يكن الحب بل الحقد، وها هو الآن يشعر بذلك الحقد أكثر من أي وقت مضى. كان يشعر أنه إن لم يقضِ على أعدائه هؤلاء قضاءً مبرماً ويفوز بسوسن فلا معنى لحياته على الإطلاق.

لا أحد يعرف بالضبط من الذي أشاع في تلك الليلة المظلمة خبر وصول خالد آمون في المدينة. ولكن في الساعة العاشرة من ذلك المساء نفسه، كان معظمنا قد علم بذلك. وفي العاشرة والنصف كان بعض الشباب يتفحصون تلك الأقفاص. كان صمت تلك الطيور أمراً يدعو للدهشة، حتى إننا لم نتأكد أن في تلك الأقفاص طيوراً حتى سلطنا عليها بعض الأضواء ومصابيح اليد. كانت طيور خالد ساكنة بشكل مريب لا تكاد تصدر عنها نأمة. رفعنا الأغطية عن بعض الأقفاص حتى نتأكد أن في داخلها طيوراً وإن لم نكن قادرين على تميزها بشكل جيد بسبب الظلام الدامس. رفعنا رؤوسنا نحو الطابق الثاني من الفندق ولمحنا عبر نافذة صغيرة خيالاً أسود لشخص ناحل كان هو الآخر ينظر باتجاهنا. كنا جميعاً واثقين أنه خالد آمون

بذاته لأنه كان الزبون الوحيد في ذلك الفندق. بقينا محيطين بتلك الطيور حتى حوالي الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل نشتم الشوارع المظلمة ونضحك. حتى تلك اللحظة، لم يكن خالد آمون يشعر بالرضا وكان دائم التحديق إلينا ومراقبة أقفاصه عبر نافذة غرفته. بعد ذلك بقليل، رجعنا إلى بيوتنا على أن نعود في الصباح الباكر مع شروق الشمس ونتفرّج على الطيور. في ساعة متأخرة من الليل، استيقظنا فزعين أكثر من مرة على أصوات إطلاق رصاص. وفي السادسة من صباح اليوم التالي، سمعنا خبراً غريباً وقع على أسماعنا جميعاً كالصاعقة إذ لم يكن أحد منا ليتوقع حدوث مثل ذلك الأمر... كان شخص مجهول قد أطلق من بندقيتين عدداً كبيراً من الطلقات على الأقفاص، فقتل عدداً كبيراً من الطيور. لم يصدِّق أحد منا الخبر في بادئ الأمر حتى انطلقنا جميعاً إلى أمام فندق باوَجان، ورأينا بأعيننا خالد آمون واقفاً وسط طيوره المخضبة بالدماء. كنا نظن أن الخبر ليس سوى إشاعة كاذبة، ولكن يبدو أن شخصاً مجهولاً أو ربما أكثر من شخص قد وصلوا إلى هذا المكان في حوالي الثانية والنصف بعد منتصف الليل، وأطلقوا على عجل زخات متواصلة من الرصاص على الأقفاص قبل أن يولّوا الأدبار تاركين بنادقهم خلفهم. كان منظر تلك الأقفاص مرعباً بشدة. يا إلهي، ما كل هذه الطيور الجميلة القتيلة التي رأيناها في ذلك المكان؟! أكثر من نصف عدد الطيور كان مقتولاً أو مصاباً. طيور أجمل وأغرب من طيور كاميراني سلمي... بعض البلابل الصغيرة ذوات الريش الملون بألف لون، بعض الحمائم التي

كانت أعناقها الطويلة أشبه بأعناق الإوز، بعض العُقبان التي كانت كالسمك رقابها محاطة بريش أحمر، بعض البوم الذي كان يشبه النساء المحجَّبات... كلها كانت مقتولة في أقفاصها. كان خالد آمون واقفاً أمام أقفاصه مُتعَباً ويائساً ومحطَّماً، كان يرتدي ثوباً ومعطفاً وسروالاً جميعها أسود. نظراته بقيت كما هي باردة وحادّة لم تتغير، وكانت تشي بالحقد والغضب أكثر مما تشي بالحزن والأسف. كان يسيطر عليه هدوء قاتل، وكان من الواضح أنه قد بذل جهداً خرافياً خلال الساعات الماضية حتى يتمكن من السيطرة على انفعالاته. تحدث الموظف المناوب في الفندق تلك الليلة فقال إن ما أفزعه وجعله يخرج لاستطلاع الأمر لم يكن صوت الرصاص ولكن صراخ خالد آمون. وحين نزل إلى الأسفل كان أول شخص رآه أمام باب الفندق هو خالد آمون نفسه وكان بثياب النوم وعيناه مغرورقتان بالدموع، وأضاف أن الشارع حينها كان خالياً من الناس تماماً وأنه قد شم في الحال رائحة البارود والدماء. روى لنا المناوب بعد ذلك بالتفصيل كيف أنه صعد ثانية وعاد بمصباح، وكيف أنه تفحص الأقفاص واحداً واحداً دون أن يجرؤ على فتح أبوابها خشية أن تفر منها الطيور الفزعة التي بقيت على قيد الحياة، وكيف رأى بعض الطيور الجريحة وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، وكيف أنهم حاولوا بعد ذلك الاتصال بأي طبيب بيطري ولكن دون جدوى لأن عددهم في المدينة كان محدوداً للغاية، وكيف انهار خالد آمون ووقع أرضاً وكيف أخذ يخبط رأسه بالأقفاص وهو يبكي بحرقة.

يقع فندق باوَجان في قلب المدينة قريباً من سوق الخضار والسمك وأزقة بيع القشطة، على أحد التقاطعات الرئيسية في المدينة. أي في المكان الذي يشهد كل صباح ازدحاماً قبل غيره. كان أول الواصلين لفتح دكاكينهم هم باعة اللبن وباعة الكبدة. في ذلك الصباح، التحق بنا الكثير من الباعة ووقفوا مذهولين مثلنا ينظرون إلى تلك المجزرة الأليمة. كانت الدماء تسيل من جميع الأقفاص دون استثناء. بعض الطيور ما يزال في حالة احتضار ورؤوس بعضها الميت متدلٍّ إلى الخارج من خلال قضبان القفص، بينما كانت بعض الطيور الجريحة تتخبط كالديكة بعد ذبحها، كانت تنعس وتهدأ ثم لا تلبث، وكأن حربة الموت قد أصابتها للتو، أن تقفز من مكانها مصفِّقة بأجنحتها قبل أن تهوي أرضاً. حتى الطيور الناجية كانت مخضبة بالدماء بحيث إنّ المرء لم يكن يميز بالعين المجردة هل كانت جريحة أم لا. كان بعضها يجثم مذهولاً وصامتاً فوق جثث رفاقهم القتلى، بينما كان بعضها الآخر ينوح ويئن كأي إنسان جريح. كان صراخ بعض الطيور محزناً ومؤلماً بشكل كبير أصابنا جميعاً بحالة من الكآبة والإحباط. في الثامنة والنصف صباحاً، حضر فِكرت گولدانـچـي وابنته سوسن وصهره الدكتور رفعت رمزي إلى أمام فندق باوَجان، وكان المشهد ما يزال على حاله دون تغيير ودماء الطيور التي خضّبت الأقفاص وأرضية الشارع ما تزال نديّةً. نظرت سوسن إلى الأقفاص نظرات حيادية فيها شيء من الخوف، ثم وضعت يدها على فمها متجنبة أن تفلت منها صرخة مفاجئة أو نوبة من

البكاء. وأخذت بعد ذلك تدور على الأقفاص واحداً واحداً، وكلما وقفت عند أحدها ندّت عنها صرخة خافتة مخنوقة. كانت أكثر الموجودين معرفة بالطيور، أكثرهم معرفة بطبائع تلك الطيور القتيلة وأهميتها وميّزاتها.

حين وقعت عينا خالد على سوسن أغمض عينيه للحظات وتنهد بعمق ثم سار نحوها. لم تكن نظراته وسلوكه تشبه نظرات عاشق وسلوكه، بل كان أشبه بمحارب مهزوم قد عاد لتوّه من معركة شرسة ندم بشدة على خروجه منها حياً.

سلّمت عليه سوسن بصوتها الخائف ونظراتها القلقة. كان مشهداً غريباً لم يلاحظ أحد منا خلاله على وجه أحدٍ منهما أي تعبير عن الفرح بهذا اللقاء. عانقه فِكرت گولدانـچـي قائلاً: «كم يحزُّ في نفسي يا بني أن أراك على هذه الحال... كم يحز في نفسي!». فأجابه خالد بصوت مخنوق: «وأنا كم كنتُ أتمنى أن تشاهدوا طيوري وهي حية... لقد أحضرتها حيةً من أطراف الأرض ولكن... ما حدث هذه الليلة...». فقال فِكرت: «نعم، نعم يا صغيري... إنني أرى كل شيء ولا داعي لأن تشرح لي شيئاً، ولكن من عساه ارتكب هذه الفعلة الشائنة... من؟». فلوى خالد رأسه ولم يجب بشيء، فقالت سوسن بصوتها الهادئ الضعيف: «ولكن ألا يمكننا إنقاذ بعض الطيور المصابة؟ أبي، لو أننا فقط استطعنا إيجاد طبيب بيطري». قام الدكتور رفعت رمزي، من خلال هاتف الفندق، بإجراء بعض الاتصالات ثم عاد فقال: «هناك الدكتور دلشاد

شُكر، وهو الطبيب البيطري الوحيد في المدينة، وسيصل بعد قليل...». فهز فِكرت گولدانـچـي رأسه وقال: «كم يدهشني قلة عدد الأطباء البيطريين في هذه المدينة... إنه أمر غريب للغاية. أعتقد أن حاجة مدينتنا إلى أطباء الحيوان تفوق حاجة أي مدينة أخرى في العالم». أثارت جملة گولدانـچـي تلك موجة من الضحك الخافت فيما بيننا، ولم نكن قد رأيناه من قبل صباحاً وبهذه الصورة وسط باعة الخضار والسمك والكبدة. كان الشيب قد بدأ يظهر جلياً على ملامحه. نظر حوله بدهشة ثم قال: «إن أفضل ما نفعله الآن هو أن نأخذ هذه الطيور جميعها إلى مستودع أخي عزت، فعلى الأقل ستكون بأمان هناك مع وجود حارس... أليس كذلك؟ وهناك سيمكننا فرز الطيور الميتة عن الجريحة عن الناجية، فنعالج المصاب منها ونعتني بما تبقى منها حياً. ولكن هل بلّغ أحد الشرطة بهذه الواقعة... هل علينا تبليغهم يا تُرى؟». تعالت أصوات الناس من جانبي الطريق، قال أحدهم: «ولـمَ ستضيعون وقتكم بالاتصال بالشرطة؟ إنهم لا يهتمون لشيء كهذا حتى ولو كان القتلى من البشر، فهل سيلتفتون إلى قتل بضعة طيور». قال گولدانـچـي: «لا أعلم ولكن... إن هذا الرجل قد طاف حول العالم مدة ثماني سنوات حتى استطاع الحصول على تلك الطيور، ثم يأتي وغد ذات ليلة مظلمة ويفتح عليها نيران بندقية... هذا ليس شيئاً هيّناً، ليس أمراً تافهاً».

الشيء الوحيد الذي فعلناه في ذلك اليوم هو أننا أرسلنا

نستدعي واحداً من أمهر المصوِّرين في المدينة. وصل المصور وعلى عينيه آثار النوم، فطلبنا منه أن يقوم بالتقاط صور تلك الأقفاص المخضبة بالدماء من مختلف الزوايا. حين شاهد المصور كل تلك الدماء وعاين المجزرة الفظيعة التي وقعت لتلك الطيور الساحرة، طار النوم من عينيه في الحال وباشر عمله مستخدماً كل خبرته ومهارته في التقاط صور الطيور. وقام جميع الراغبين بالاحتفاظ بذكرى من ذلك اليوم المشؤوم بشراء بعض الصور منه في الحال، ولم تزل بعض تلك الصور حتى اليوم موجودة ضمن ألبومات بعضهم مثل سوسن التي احتفظت بها في «خزانة الذكريات الـمُرّة»، ومثل خالد آمون نفسه الذي قام بتكبير بعضها والاحتفاظ ببعضها الآخر في ملف خاص.

وكما حرّكت فينا طيور كاميران الحرة السعيدة السكرى من قبل الرغبة في معرفة العالم والتطلع إلى رؤية أصقاع الأرض، كذلك فعلت بنا طيور خالد آمون الجريحة والقتيلة. لم تنتقص كل تلك الدماء ولا الجراح التي شاهدناها، ولا كل العويل الذي مزّق أسماعنا من رغبتنا تلك، وبقيت الطيور، بالنسبة إلينا، إشارةً على وجود أرض غريبة في جهة ما وعلامة على عالم بعيد ينادينا... تلك رغبة لا تموت.

كانت حالة خالد آمون في غاية السوء، ولكن إلى جانب التعب البادي عليه كانت في نظراته ظلال خفية معقّدة وغير مفهومة. لم يكن أحد منا نحن المتحلقين ذلك الصباح حول

الأقفاص يستطيع أن يفهم شيئاً منها، لأنها كانت لغزاً في غاية الغموض والإظلام وكأن العالم أو الرحلة الطويلة التي قام بها قد أضفت مزيداً من الظلمة على روحه. بعد ذلك ظهر أشخاص آخرون كانوا قد تعرّفوا إلى خالد في السوق. سلّموا عليه بهدوء وهنؤوه بصوت وقور بعودته سالماً دون أن يُظهروا أي عاطفة أو حماسة من نوع خاص. شعرنا أن خالد آمون كان يشعر بيننا بوحدة عميقة. لم تكن عودته تشبه في أي شيء عودة كاميراني سلمى الذي أقيمت له الأفراح والاحتفالات الكبيرة وأسعدت عودته كل واحد منا بشكل ما. حين أرادوا نقل تلك الأقفاص بعيداً عن جلبة السوق، لم تكن حالة خالد تسمح له بقيادة السيارة بنفسه، ولذلك فقد جلس مكانه في مقعد السائق شاب بينما ركب البقية في سيارة تاكسي قديمة وسبقونا إلى مكان اجتماع الطيور. في حوالي العاشرة صباحاً، وصل الدكتور دلشاد شُكر وكان عدد آخر من الطيور المصابة قد نفق. استبشر الجميع بوصول الطبيب الذي بدا رجلاً بشوشاً ودمثاً وسرّه كثيراً أن يجد أخيراً، وسط هذه الحرب الأهلية التي يُقتل فيها عدد من البشر يومياً، أناساً مهتمين بإنقاذ حياة بعض الطيور. قال الدكتور: «منذ اندلاع الحرب الأهلية، لم يبق لنا، نحن أطباء الحيوان، الكثير من العمل لنقوم به. إن عملي مرتبط باحترام الحياة، فإذا لم يحترم المرء حياته فأجدر به إذن ألا يقيم لحياة الحيوان أي وزن». باشر الطبيب عمله، فبدأ بإخراج الطيور النافقة من الأقفاص بهدوء وهو يقول: «في الحقيقة، هذه خسارة كبيرة. إنها طيور فريدة لم يسبق

لأحد رؤيتها... خسارة حقيقية». كان گولدانـچـي جالساً على كرسي خشبي في منتصف المستودع. وضع يده أسفل ذقنه وقال: «خسارة... أجمل الطيور كذلك كانت معه». أخرج الطبيب طائراً أسود الريش أبيض البطن وفي قمة رأسه نقطة سوداء مثل تلك القبعات التي كان يعتمرها قدامى المحاربين الرومان. قالت سوسن بنبرة امتزج فيها الحزن بالخوف: «يا للخسارة الفادحة... يا إلهي... خسارة لا تُعوَّض. إنه طائر نادر للغاية يسمى كراكس بلومينباخي وهو أحد الأنواع المهددة بالانقراض، ولم يبق منه على وجه الأرض إلا عدد محدود جداً. كان تعيش أعداد منه في بعض مناطق البرازيل لكنها الآن قليلة جداً». نظر الطبيب دهشاً إلى سوسن وقال: «في الحقيقة، ليس عندي هذا القدر من المعلومات، وكل ما يمكنني قوله هو أنني لم يسبق لي رؤية طائر كهذا من قبل... لكنها بالتأكيد خسارة أن يموت بهذا الشكل. سيدتي، عندي صديق بارع جداً في التحنيط. إنه ليس من أولئك الذين يُلبسون المحنَّطات جلوداً ويحشون بطونها بالقش وحسب، لكن له طريقة رائعة في التحنيط... والآن ما رأيك يا سيدتي في تحنيط هذه الطيور... كل هذه الطيور النافقة... ما رأيكِ؟». أجابت سوسن بهدوء: «نعم يا دكتور، نعم... أخبره أننا نرغب في تحنيط هذه الطيور... قل له ذلك من فضلك».

بعد إخراج جميع الطيور النافقة من الأقفاص، وكانت عشرات من الطيور النادرة: أنواع فريدة من الحمام والببغاوات

والقطا والبلابل، استمر الطبيب يعمل على علاج الطيور الجريحة من الظهيرة حتى منتصف الليل، يُخرج الرصاصات بكل هدوء من أبدانها الضعيفة ثم يضمدها. البعض منها انتهى مشلولاً إلى الأبد، والبعض فقد جناحه، والبعض الآخر عينيه. كانت سوسن ووالدها وخالد آمون لا يكادون يفارقون الطبيب أثناء عمله، بينما كان العمال من حولهم ينهمكون من الظهر حتى المساء بإعداد المكان إعداداً جيداً للطيور التي نجت من الحادثة. طوال ذلك اليوم، نادراً ما تكلم خالد آمون. كانت الظلمة تغطي روحه من الداخل بجناحين من سواد حالك والكآبة لا تفارق نظرات عينيه لحظة واحدة. لم تسأله سوسن عن أي شيء طوال تلك المدة سؤالاً من قبيل «من تظن أنه قام بتلك الفعلة؟» لأنها كانت تعلم أن من شأن سؤالٍ مخيف كهذا أن يفتح عليهم أبواباً مظلمة. ولكن مع حلول المساء حين جاء وقت الاستراحة، أشعل الدكتور دلشاد شُكر سيكارة إلى جانب كأس الشاي التي كانت أمامه ثم توجه إلى خالد آمون، وهو لا يعلم أي صندوق مشؤوم قد فتح، متسائلاً: «ولكن قل لي يا أخ خالد، من يا ترى قام بهذا العمل المشين؟ أظن أن عدداً قليلاً جداً من الناس كان على علم بخبر وصول جنابك ليلة البارحة». فنظر خالد إلى الطبيب بعينين مرهقتين وأجاب: «اسمع يا دكتور... إن من قتل قلندر آمون ومن أحرق بيوت الآمونيين سنة ١٩٩٢ وألقى بالقاذورات داخل باحات منازلنا، هم أنفسهم من قام ليلة البارحة بقتل طيوري». كان في صوته نبرة من الحقد العميق والضيق واليأس زرعت الرعب في قلب

سوسن. على العكس من ذلك النور الذي كان يشع من صوت كاميراني سلمى وكلماته بعد قدومه. لم ترَ في حياتها ظُلمة في صوت أحد مثل هذه التي كانت تغلّف صوت خالد آمون. اعتدل فِكرت گولدانـچي في جلسته وقال: «آه يا بني، إنني أشعر بما في داخلك وأعلم كم هو مؤلم هذا الأمر... أعلم أنها فعلةَ قذرة ولكن لا تتسرّع... إياك أن تتسرّع يا بني. في مثل هذه الأحوال لا يعرف الإنسان من يتهم، من يمكنه التأكيد أنهم هم أنفسهم... من؟ ليس لدينا أي دليل حتى نوجّه الاتهام إلى أحد بعينه يا بني». نظر خالد آمون إلى سوسن وهو يقول: «ثمة شعور خفي في داخلي ينبئني بهذا... لا دليل لديّ ولا أستطيع الحصول على أي دليل، ولكن ليس عندي شك أن من قام بهذا العمل يحاول أن يفوز عليّ ولو كان على جثث هذه الطيور المسكينة، يحاول إخراجي من المنافسة وإبعادي عن أنظار الآنسة واهتمامها». دعك فِكرت گولدانـچي ذقنه بهدوء وقال: «خالد آمون، أنت فعلتَ المطلوب منك يا بني وأحضرتَ طيورك. أعتقد أنني أدرك لب المسألة جيداً وأعلم تماماً أن الغاية من تلك الرحلة الطويلة لم تكن إحضار الطيور وحسب بل شيء آخر، ولا أعتقد أن مقتل هذه الطيور قد يؤثّر في مكانتك في شيء». وبدوره نظر إليه الدكتور دلشاد نظرة غامضة وأضاف: «بل إنني، على العكس، أتوقع أن يؤثر هذا الحدث في مكانة خصومك ويحطّ من درجتهم». فنظر إليه خالد نظرة عميقة دون أن يجيب بشيء. قالت سوسن بصوت باكٍ: «كلا، أرجوكم، لا نستطيع أن نتّهم أحداً... لا نستطيع».

فقال خالد بصوت فيه نبرة من الهم: «ولكن حياة طيوري... وتعبي وتشردي طوال تلك السنوات الثمانية... كيف أسمح أن يأتي شخص ما بكل هذه السهولة ويجعلها تذهب أدراج الرياح دون أن ينال عقوبة ما فعل؟». فأجابت سوسن بالنبرة الباكية عينها: «ولكن... ولكننا يا خالد لسنا متأكدين من شيء... لا نعرف بالضبط من قتل هذه الطيور». فقال خالد: «أما أنا فأعرف من قتلها... إنه منـكوري باباكوره أو بعض أفراد عصابته وبالاتفاق مع ابن سلمى. لا أشك البتة بمعرفته بالأمر... أنا واثق من ذلك». قالت سوسن: «كلا... ليس الأمر كما تتخيل، والأمور لم تتضح بعد». فنظر إليها خالد بعينين مرهقتين وقال: «ولكن اسمحي لي يا آنسة سوسن، إن لا مبالاتكِ هذه وعدم رغبتكِ في رؤية ما يقترفه ابن سلمى منذ البداية، وما جناه عليّ وعلى أهلي وعشيرتي من قبل ليزيد من ألمي ويزيد عمق جراحي ألف مرة... ألف مرة، هذا يصيبني في مقتل ويجعل جراحي أعمق من جراح طيوري... آه يا سوسن خان، دعكِ من هذا واستفتي قلبكِ ووجدانكِ... انظري كم قاسينا من آلام وكم أصابتنا من جراح... انظري جيداً ثم حكّمي ضميركِ».

أغرقت تلك الكلمات سوسن في حالة من الصمت العميق. وفي آخر الليل وقبل أن يفترق الجميع التفتت إلى خالد آمون وطلبت منه أن يلتقيا في أقرب فرصة ممكنة حتى يتناقشا بهدوء في كل شيء.

كان الوقت حوالي منتصف الليل حين وصل فِكرت

گولدانـچـي وابنته إلى منزلهما ومعهما البندقيتان المذكورتان. نظر إليهما الدكتور رفعت وهما يغادران وفي يد كل منهما بندقية حتى غابا عن عينيه. حين ولجا إلى داخل المنزل، ناول فِكرت، عند باب الصالون، البندقية التي كان يحملها إلى ابنته التي أخذتها من يده بصمت ثم لفّت كلتيهما بخرقة قديمة قبل أن تودعهما في مستقرهما النهائي في «خزانة الذكريات المرة».

٤٢

كان لمقتل طيور خالد آمون صدى واسع جداً في المدينة. كان كاميراني سلمى نائماً في منزله حين أيقظه أحدهم من النوم وأبلغه الخبر. نظر حوله باستغراب وقال وهو ما يزال نصف نائم: «أي طيور؟ طيور آورنگ آباد أم طيور مدينة خُماسي؟». كان الولد الذي حمل إليه الخبر بائع مرايا في سوق المدينة، وقد أدرك أن كاميراني سلمى لم يستيقظ تماماً وأنه كان يحلم أنه ما يزال يطوف العالم، فأعاد عليه الخبر كلمة كلمة: «في ليلة البارحة، توقف خالد آمون بصحبة أقفاص طيوره أمام باب فندق باوَجان، وبعد انتصاف الليل جاء شخص مجهول فأطلق النار من بندقيته على كل تلك الطيور». فرك كاميراني سلمى عينيه وقال بنبرة لا مبالية: «وأنا ما شأني بطيور خالد آمون؟». فقال الفتى: «لا شأن لك بالطبع يا أخ كاميران، ولكن سرت إشاعة في السوق أن من قام بتلك الفعلة هو أنت أو الأخ منكوري باباگوره... ولكني واثق أنكما بريئان من ذلك». نظر إليه كاميران بدهشة وقال: «ولكن يا إلهي... لمَ قد أقتل تلك الطيور... كيف أقتل تلك الطيور؟ من المستحيل أن تطاوعني

يداي على ارتكاب مثل هذه الجريمة». قال الفتى: «أنا أعلم هذا يا أخ كاميران، أعلم أنك لستَ الفاعل». ومع هذا، فقد أوقعه ذلك النبأ في حالة تردد حقيقي.

حين مضى كاميراني سلمى بعد ذلك إلى السوق، كان خبر مقتل الطيور قد شاع بين الناس كشيوع أخبار الحرب نفسها. لم يضيّع وقته بالحديث إلى هذا أو ذاك من الناس بل اتجه مباشرة إلى المقهى. في المقهى، وجد منگور جالساً وأمامه كأس كبيرة من لبن العيران وهو يتكلم ويشتم بصوت عالٍ: «أقسم بمؤخرة جميع الرجال المباركين والأفاضل في هذه المدينة أنني لا أعلم شيئاً عن مقتل طيور خالد آمون... أنا في تلك الليلة كنتُ في منزل عائلة داغلي. لا أحد مثل زوجته يتقن طبخة الباچة والكثير من الطبخات الأخرى الطيبة: القوزي الشامي والكبب الحلبية والجلوخورشت الإيراني، وتعرف آلاف الأشياء الأخرى... لكني أفضّل دائماً الباچة من يديها. زوجة السيد داغلي تعرف كم أحب الباچة، وأنا حين أتناول الباچة التي تطبخها هي أنسى كل شيء... بعد وجبة الباچة يصفو ذهني تماماً ويستحيل عليّ التفكير في ارتكاب أي حماقة. لقد كنتُ هناك، في منزل «عمر داغلي»، حين جاء أحدهم وأخبرني أن خالد آمون قد وصل إلى المدينة ومعه طيوره، فقلتُ أهلاً وسهلاً به. أقسم لكم أنني قلتُ أهلاً وسهلاً به، فهذه مدينته ومدينة جميع الآمونيين. أقسم لكم أنني قد قلتُ إنها مدينتهم كما هي مدينتي بالضبط... ولكن هذه الحرب اللعينة... هذه

الحرب المشؤومة قد فرّقت المدن عن بعضها بعضاً وجعلت الأخ عدواً لأخيه. جاء بعد ذلك شخص آخر وأخبرني أن خالد آمون قد اضطر إلى المبيت في فندق باوَجان بسبب عدم وجود أحد من أقاربه في المدينة، فقلت لو أنه يثق بي ولا يعدّني عدواً له أقسم أنني كنت سأستضيفه في بيتي تلك الليلة، وأقدِّم له كل ما قدمته من قبل لكاميراني سلمى. لكنني أعلم أن الآمونيين عشيرة عنيدة، إنهم من تلك العشائر التي ما تزال تفكر بعقول أجدادها. كلا، كلا... لا يقل لي أحد خلاف ذلك فجميع العشائر ما تزال تفكر بعقول أسلافها. أعرف أن هناك من العشائر من استبدلت برأسها القديم رأساً جديدة واتخذت لنفسها مؤخرة جديدة، ولكن ليس الآمونيون، لا... للأسف».

شاعت بين الناس تلك الكلمات التي قالها منگور في المقهى، والتي لم تكن تخلو من نبرة سخرية ورغبة في تزجية الوقت. كانت تلك النغمة الخفية في صوته تظهر أحياناً، ولكن قلة منا فقط كانوا يشعرون بها. حين جلس كاميران إلى جانبه، أخذ يتفحص بهدوء وجوه الجالسين في المقهى وعيونهم، واستشفَّ من ملامح بعضهم الشك والريبة في ما قاله منگور. فتوجه إليهم وقال بصوت مسموع فيه بعض الانزعاج والدهشة: «ما كل هذه الجلبة والإشاعات الفارغة في السوق؟!... هيه... من يشيع هذه الأقاويل؟ ولماذا قد نقتل تلك الطيور... لماذا نقتلها؟... يستحيل أن أقدم على فعلة كهذه».

سأل أحدهم منگور: «سيد منگور... ولكن أنت ما

رأيك... بمن تشك، من يقف خلف هذا العمل الشائن برأيك؟».

ارتشف منـگور الجرعة الأخيرة من كأس العيران التي كانت أمامه وأجاب: «كان يوسف كَويار العظيم يقول في مثل هذه المواقف إن المذنب الحقيقي هو ذلك الذي لا يشك به أحد. ولكني شخصياً لا أعرف. ماذا أقول... حين علمتُ بما حدث قلتُ لنفسي: ابتعد يا منـگور عن نارهم هذه... لا تضع مؤخرتك يا منـگور على هذا الحجر المسجور... هل تفهمون ما أقول؟».

ثم فتح عينيه على اتساعهما وظهرت عليه الجديّة، سعل ثم مسح فمه وأضاف: «ماذا أقول... المذنب قد يكون أي شخص، أي شخص لا يرتاب فيه أحد. قد يكون واحداً من جماعة منصور أسرين، وأنتم تعلمون ما وقع بينهم من أحقاد خاصة عقب ما جرى بين قلندر آمون ومصطفى هجار. وتعلمون أن ما قام به قلندر لم يكن شيئاً هيّناً؛ فالرجل كان شاعراً ذائع الصيت. تعلمون أن مصطفى هجار كان رجلاً يحلف الشعراء بمؤخرته، ثم تأتي هكذا وبكل طيش فتمرغه في دمائه بجريرة كلمة قالها... نعم، ذلك لم يكن شيئاً هيّناً. لا أعرف، فربما كان الفاعل شخصاً آخر يريد تعميق الخلاف بين الطرفين، شخصاً يعلم أن الآمونيين طائشون متحمسون، وأراد بهذا أن يتلاعب بعواطفهم ويهيّج غرائزهم. لا تنسوا أن هذه الحرب لا أخلاق فيها. وليس بمستبعد كذلك أن يكون

الفاعل واحداً من هواة المقالب الأشرار معدومي الضمير في هذه المدينة، من أولئك الذين يفعلون ما يفعلون لا لشيء إلا ليجلسوا بعد ذلك ويتندّروا على عواقب أفعالهم في الناس. أقسم بقبر كَويار العظيم أن الضحك في هذه المدينة قد أصبح عملاً من أعمال الشر، شيء أحدّ من نصال الخناجر وأقتل من السموم. لا أخفي عنكم أنني حين تقع عيناي على واحد من تلك الطبقة الملعونة في هذه المدينة أتجنب الضحك ما وسعني، بل أكره أن أضحك ما دمتُ حياً... أو قد يكون شخصاً يبغي من وراء ذلك إحراج ابنة گولدانـچـي، فلا تعرف الفتاة المسكينة بعد ذلك كيف تميّز الصالح من الطالح. اسمعوا مني الحقيقة... كل شيء واضح. قد يكون الفاعل شخصاً كارهاً لتلك الطيور، فهناك بعضٌ ممن يعلمون أن مرأى هذه الطيور قد يوحي إلى أهل هذه المدينة بأشياء أخرى. لا تحسبوا أن منـگور غافل عن أي شيء، فأنا أفقه كثيراً من الأشياء. يوجد في هذه المدينة آلاف من الأشخاص يخشون الدنيا خشيتهم من الطاعون، وأكثر ما يرعبهم هو أن نطّلع على أشياء تجعلنا نفطن إلى طبيعة حياتنا المنكودة الممرَّغة. وقد رأيتم بأعينكم كيف تطلّع أهل هذه المدينة جميعاً برجالها ونسائها، بعد رؤيتهم طيور كاميران، إلى التعرّف على العالم من حولهم وكيف طافت بأخيلتهم بعد ذلك أحلام السفر. نعم يا فتيان... سافروا لتروا العالم... العالم الرحب. شاهدوا شعوباً أخرى لأنوفهم أشكال مختلفة عن أشكال أنوفكم... أنتم لا تعرفون، ولكن هناك بالفعل أناس يخافون من هذا».

ثم استعرضنا بعينيه قبل أن يضيف بهدوء: «ولا تستبعدوا كذلك أن يكون الفاعل هو خالد آمون شخصياً... ولماذا تستبعدون هذا الاحتمال وتغلقون هذا الباب، لماذا يدهشكم أن يكون هو قاتل تلك الطيور؟ أقسم بقبر الشيطان أنني لا أستبعد ذلك. الفتى يريد الحصول على سوسن فِكرت بأي ثمن... أتفهمون ما أعني... بأي ثمن. قد تكون الحكاية جرت بهذا الشكل: يذهب الفتى فيطوف العالم لسنوات ويجمع كل ذلك العدد من الطيور، ولكن يوماً بعد آخر وشهراً تلو شهر وعاماً في إثر عام، ثمة فكرة لعينة تنمو داخل رأسه... أتفهمون... يطوف العالم وتلك الفكرة اللعينة في رأسه، أتفهمون، يجتاز الغابات والصحارى وضفاف الأنهار في العالم دون أن تغادر تلك الفكرة اللعينة رأسه. نحن جميعاً نعرف أن خالد آمون ليس وسيماً مثل كاميراني سلمى ولا حتى مثل ابن إبراهيم أسرين، ولهذا كان عليه فعل شيء ما، أن يرمي بباقة كبيرة ما، وهذا الشيء هو أن يصوّر نفسه كضحيّة ويقدّم طيوره كشهداء... نعم. فعل كما فعل قريبه قلندر آمون، الذي أقسم بمؤخرات جميع ساسة العالم، لو أنه كان قد وضع سلاحه أرضاً وتخلى عن عناده لما سالت قطرة دم من أنفه. ولكن دعوكم من ذلك... وانظروا، هل تفهمون ما أعني. كانتا بندقيتين... بندقيتين. إن كل من يطوف العالم ملاحقاً الطيور هنا وهناك في الغابات الكثيفة والأماكن المظلمة والوعرة حيث تعيش الأسود والنمور لا بد أن يحمل معه بندقيتين، وإلا فاشرحوا لي من فضلكم ما معنى أن يترك الرجل بندقيته في

المكان الذي أطلق فيه النار؟ أقسم أنه ليس مضطراً لذلك، ولهذا فلا أستبعد أن تكون تلك البنادق عائدة إلى خالد آمون بالذات، وأنه لم يجد الوقت الكافي لإخفائها... وبعد منتصف الليل، نزل من فندق باوَجان، والجميع يعلم أن الجن أنفسهم لو أقاموا عرساً في ذلك المكان في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل فلن يشعر بهم أحد... نزل من الفندق وأطلق النار على الأقفاص وعاد بعد ذلك فوقف أمام باب الفندق وبدأ بالصراخ والاستغاثة... وبهذا الشكل سيكون منگوري باباگوره وكاميراني سلمى أول المتهمين، وهكذا سيجعل من طيوره شهداء حتى يجبر الجميع على التعاطف معه، وتقول سوسن خان: وارحمتاه لهذا الإنسان الجريح، وارحمتاه لهذا الذي تملأ القروح جسده، تعال يا وردتي، تعال يا حبيبي فلن أرضى بغيرك زوجاً لي. لذلك لا أستبعد أن يكون هذا ما حدث... لا أستبعد البتة».

عاد أحد الحاضرين إلى السؤال: «ولكن يا منگور، نستحلفك بقبور أمواتك أن تقول لنا بصدق أين نمتَ ليلة البارحة».

فأجاب منگور وعلى شفتيه ابتسامة باردة: «بعد طبخة الباچة من يدي السيدة داغلي، مضيتُ مباشرة إلى بيتي حيث نمتُ في الحال. لا شيء يعدل النوم بعد وجبة الباچة اللذيذة».

كانت تصورات منگور التي شرحها في المقهى ذلك اليوم

كافية بشكلٍ كبير لتبعد عنه الشبهات. وكما هي العادة، فقد وثقنا جميعاً، بما فينا كاميراني سلمى، بأقواله وبراءته.

في ذلك المساء، تعاظمت دائرة الشكوك والشبهات وتعاظمت معها التصورات والتفسيرات، حتى إن الجميع بات يشك في الجميع. ولكن لا بد أن أختم هذا الفصل بالقول إن مرتكب تلك الجناية قد بقي مجهولاً إلى الأبد.



٤٣

لم يكد يمضي أسبوع على عودة خالد آمون، حتى علم الناس بعودة منصور إبراهيم أسرين إلى المدينة. وعلى خلاف الموكبين الآخرَين، وصل موكب منصور خلال فترة الظهيرة. كانت أقفاصه أصغر ولكن بألوان أبهى. وبدل أن تكون طيور منصور في أقفاص مستقلة، كانت جميعها مصفوفة فوق بعضها بعضاً في شاحنتين كبيرتين جداً. بدت لنا ونحن نراقبها من بعيد أننا نرى بناءين شامخين من الأقفاص. كانت الطيور مرتبة على طبقات فوق بعضها بعضاً، الطيور الكبيرة في الأسفل والصغيرة في الأعلى. وقد أحصى بعض الماهرين في الحساب أكثر من مئة وستين نوعاً من الطيور في تلك الأقفاص، والتي كانت جميعها تغرد وتشدو دون توقف معبّرة عن سعادتها. علّي أن أقول هنا إن طيور منصور كانت تبدو فخورة ومتكبرة، وإن ابتهاجها ذاك لم يكن يشبه ابتهاج طيور كاميراني سلمى والتي كانت هادئة ودودةً شديدة الفضول، أما هذه فكانت تغرد دون حتى أن تنظر باتجاهنا أو باتجاه مدينتنا، وكأنها لم تكن تريد أن تُظهر لنا أن السبب في سعادتها هو وجودها بيننا. كانت

مجرد عدد من الطيور السعيدة، وأنها تعيش في هذا العالم وتقوم بكل تلك الأسفار. كان منصور أسرين قد زين أقفاصه بطريقة رائعة مستخدماً أوراق الشجر النادرة والخرز والأقنعة والتماثيل الصغيرة، وكان باستطاعة أي ملاحِظٍ ذكي أن يتعرف من أول نظرة إلى مواطن تلك الطيور، فقد كانت أقفاص الطيور الأفريقية مزيَّنة بالأقنعة والتماثيل ورموز الحضارة الأفريقية القديمة، وببعض الأعمال الجميلة المصنوعة بأيدي بعض الفنانين الأفارقة المهرة المنتمين إلى تلك الممالك. على بعض الأقفاص الأخرى، كانت هناك إشارات ورموز من حضارة المايا القديمة ونقوش الفلاحين البوليفيين، بالإضافة إلى عقود ومصنوعات وقطع أخرى تعود إلى قبائل الهنود الحمر. بعض الأقفاص كذلك كانت مزدانة بتحف مصنوعة يدوياً من قبل بعض الفنانين البوذيين. وبالمحصلة، كان منظر تلك الأقفاص الملونة والمزيَّنة يسرُّ الناظر، وكان شكل توزيع الألوان ومنظر الشاحنات يشبه عملاً فنياً عظيماً كلٌّ على حِدة. دخلت تلك الشاحنات المدينة عبر بوابتها الشرقية. وفي حوالي الساعة الثانية عشرة ظهراً كانت في شارع منزل إبراهيم أسرين وتوقفت أمام منزلهم القديم نفسه، وقفز من الشاحنة الأولى فتى نحيل طويل الشعر يرتدي ثياباً جديدة وعلى شفتيه ابتسامة غير مفهومة. حين ولج الفتى إلى باحة الدار، كان إبراهيم أسرين يستمع عبر إذاعة محلية إلى آخر أخبار الحرب وآخر زعيقها وهتافاتها وشعاراتها، حيث كانت الشتائم والحرب الإعلامية

المتبادلة على أشدّها بين الحزبين الكرديين الكبيرين، فكان كل طرف ينعت الآخر بالجحوش والصراصير والعقارب. وكانت أخته منهمكة بملاعبة طفل صغير في حوالي الرابعة أنجبته من زوجها الصائغ، أما أخته الصغرى فكانت فوق السطح تنشر الثياب على أسلاك الغسيل، وكانت هي أول من لمح منصور. صرخت الفتاة الصغيرة بصوت وصل صداه إلى أقصى سامع في الحي «منصور وصل». وكان صراخها كفيلاً بأن يعلم جميع سكان الحي بوصول منصور. لم يصدِّق إبراهيم أسرين عينيه؛ فقد كان متأكداً طوال تلك السنوات أن موته أو عماه سيحولان دون رؤية ولده العزيز مرة أخرى. بقي وقتاً لا بأس به على تلك الحالة من الذهول والاعتقاد أن ما يحدث أمام عينيه ليس سوى تكرار جديد لحلمه القديم الذي يراه كل ليلة منذ ثماني سنوات، حلمه الذي كان يرفع فيه رأسه فيرى ولده منصور على باب الدار يبتسم له ابتسامة عذبة. مع اقتراب منصور أكثر، انتبه الأب من غفوته ونفض عن رأسه غبار الشكوك والتخيّلات ثم نهض وبسط يديه كمن يحاول مصافحة طيف بعيد. ووسط كل ذلك الذهول، مسّت يده جسد منصور وسمعه وهو يقول: «أوّاه أيها العجوز الحبيب، أوّاه أيها العجوز العزيز». كان منصور معتاداً منذ طفولته على مناداة والده بالأب العجوز. حين تعانقا، انقطعت أنفاس إبراهيم أسرين للحظات قليلة، وفي تلك اللحظات العابرة أبصر الملاك جبرائيل واقفاً خلف منصور ينظر إليه وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة. لم يهتم لذلك بل

عبّ الهواء بكل طاقته قبل أن يهتف: «هذا أنت... إنه أنت». لم يبكِ إبراهيم أسرين في تلك اللحظات، لكنه عجز عن حبس دموعه وهو يرى ابنتيه «سيفان» و«بفراو» وهما تعانقان أخويهما بكل شوق العالم وحسرته. بعد ذلك بقليل، ساد المشهدَ أمام بصر إبراهيم أسرين وسمعه هدوءٌ تام، وشعر بنشوةٍ عميقةٍ تمتزج بروحه، نشوةٍ اختطفته بعيداً عن هذا العالم. عانق ولده عدة مرات أخرى وعلى شفتيه جملة واحدة «هذا أنت... إنه أنت».

خلال ساعات قليلة، كانت المدينة بأسرها قد علمت بخبر وصول منصور. وكان ساقي محمود بصحبة عدد من الموسيقيين ومصطفى هجار بصحبة عدد من الشعراء من أوائل الذين سارعوا بالوصول إلى حيث منصور وطيوره.

بدا منصور للجميع في صحة جيدة، وقد ازداد بياضاً وحيوية عن ذي قبل. عانق رفاقه بحرارة لا مثيل لها وعلى وجهه ابتسامة حقيقية كبيرة كان من النادر رؤيتها من قبل. ولم تلبث دار إبراهيم أسرين أن امتلأت عن آخرها بالزوار القادمين من كل مكان لتهنئة منصور بعودته. وجد منصور نفسه وسط كل تلك الجلبة كمن تاه وسط شارع مزدحم، فلا فرصة سانحة له للحديث أو التفكير أو حتى الاستراحة. انقضَّ عليه أهله وأقرباؤه من كل صوب، وبدون حتى أن يعلم، كان أصدقاؤه وأبناء عمومته قد نظموا أدوار المناوبة على حراسة أقفاص طيوره. وساعة بعد أخرى، كانت أرض الدار وممرّاتها وسائر

غرفها تغص أكثر فأكثر بالفنانين والشعراء والرسامين. كانت صورة منصور لدى كل هؤلاء المثقفين مختلفة عن صورتي خالد آمون وكاميراني سلمى؛ فكانوا يرون فيه مثال العاشق الرومانسي الحالم والمضحّي. وبتعاقب السنوات، كانت تلك الصورة تزداد رسوخاً في أذهانهم. وهكذا، فبعد انتشار خبر وصوله المأمول، كانت أفواج من محبي ذلك العاشق الرومانسي تتوافد، ساعة بعد أخرى، إلى منزل إبراهيم أسرين بشكل لم تعد الغرف ولا حتى الباحة تتسع لهم. اقترح ساقي محمود، وقد رأى ضيق المكان، أن يحجزوا قاعة كبيرة في المدينة حتى يحتفلوا فيها بعودة منصور، ويتسنّى للجميع التعبير عن فرحتهم بالرقص وإلقاء القصائد والغناء.

وفي أقل من ساعة كانوا قد حجزوا قاعة احتفالات كبيرة وتوجه منصور إليها مع عشرات السيارات التي كانت تحمل ضيوفه، بالإضافة إلى شاحنة الطيور التي سارت عبر جميع شوارع المدينة قبل أن تتوقف أمام قاعة الحفل. كثير من الضيوف ركبوا سياراتهم المكشوفة ولحقوا بموكب السيارات. وفي كثير من الشوارع والأزقة التي كانوا يمرون بها، كانت الناس ترتدي ثيابها على عجل وتركب سياراتها وتلتحق بالركب.

في القاعة، سرعان ما دبت الحماسة في صفوف المحتفلين. نصَّب ساقي محمود نفسه عريفاً للحفل حتى يعيد تنظيم كل تلك الفوضى التي كانت تحيط بمنصور. خلال دقائق، نظّم

لائحة بالفرق الموسيقية ورتّب في آخرها أسماء المغنّين واضعاً بين كل أغنيتين فسحة لإلقاء الشعر. كان عدد الشعراء والمطربين كبيراً، ومن الصعب حصول الجميع على فرصة ولو دام الاحتفال أياماً. وكما كان متوقّعاً، كانت معظم الأغاني والقصائد مجهَّزة سلفاً حتى قبل أسابيع من وصول منصور. افتُتح الحفل بقصيدة «الطيور المباركة» التي كتبها شاعر شاب. قرأ ذلك الشاعر قصيدته بصوت ممثل مسرحي هاوٍ وهو يقوم ببعض الحركات الاستعراضية غير المناسبة، ورغم أدائه السيئ فقد حصل على عاصفة من التصفيق. تعجّب منصور أن تبقى تلك الخيالات والأساطير المنسوجة عنه، والتي أعقبت حادثة قبو خِدرو دويار، معلقة في أذهان الناس بعد كل سنوات غربته الطويلة تلك. لكن الأمور كانت تسير بقوة بدون رأيه ومشورته ولا حتى علمه، فلم تكن أمامه فرصة الاعتراض عليها أو تغييرها. منذ وصوله إلى المدينة وهو يشعر أن الأشياء من حوله تجرفه في طريقها، ولذلك فلم يكن أمامه سوى أن يجلس في مكانه منبسط الوجه بادي السرور والامتنان أمام الجميع.
بدأ المغنّون في إنشاد أغانيهم عن منصور وتلقّي الأعطيات من المحتفلين. وما إن يتمُّ الإعلان عن فاصل حتى يتزاحم المهنّئون من جديد حول منصور. وبعد ذلك جاء دور الشعراء فبدؤوا بإلقاء قصائدهم العاطفية، فكان بعضهم يتباكى أثناء الإلقاء بينما يتعمّد بعضهم الآخر الظهور كشاعر خفيف الدم طريف الكلام. وكان والد منصور بين الفينة والأخرى يشير له

إلى بعض الأشخاص الذين وقفوا في صفه طوال فترة غيابه، وبين الفينة والأخرى كانت تأتي إحدى عمّاته فتغرقه بالعناق والتقبيل. كان اسم منصور وارداً في جميع كلمات الأغاني والقصائد. اعتذر له ساقي محمود مرتين على التوالي عن عدم قدرته على أن يغنّي له شيئاً في هذه المناسبة السعيدة، وشرح له كيف أنه خلال فترة غيابه قد فقد صوته ولم يعد قادراً بأي شكل من الأشكال على الغناء وباءت جميع محاولاته بالفشل.

في منتصف الحفل، طلبوا من منصور أسرين إلقاء كلمة. وحين نهض منصور، ساد القاعة صمت رهيب وترقب هائل وتحولت جميع الفتيات إلى آذان مصغية، فلطالما حرّكت صورة هذا الفتى الرقيق الذي طاف العالم في خيالهن، أحلام السياحة والتعرف إلى بلدان العالم البعيدة. بدأ منصور كلامه بتوجيه الشكر إلى الجميع وعبّر عن سعادته بوجوده مرة أخرى في مدينته وبين أهله وأصدقائه، ثم قال: «لو كانت طيوري تستطيع الكلام لشكرتكم جميعاً، لكن لجميع طيور العالم لغة واحدة هي لغة الطيور». ضحكنا جميعاً وقد شعرنا أنه مضطرب بعض الشيء ولا يعرف ما يقول. نظر إلى ساقي محمود الذي كان مرتدياً عمامته الكردية على طريقة مهراجات الهند وقال: «أنا هنا... بل أنا بحاجة إلى بعض الوقت حتى أدرك أنني بالفعل هنا. هكذا كنتُ في كل مكان جديد أذهب إليه، فقد كنتُ بحاجة إلى بعض الوقت حتى يمكنني التأقلم معه». ثم ابتسم ودسَّ يده في جيب بنطاله الأسود معدِّلاً من

وضعه قبل أن يتابع: «كنتُ كلما وصلتُ إلى مكان ما ظننتُ نفسي في مكان آخر، وهذا يمنح المرء شعوراً بأنه ليس في أي مكان. وحين كنت أفكر في ذلك أستنتج أنني لم أكن في أي مكان يوماً ما، وهذا يعني أنني لستُ هنا الآن».

شعرنا جميعا أن لديه رغبة حقيقية في إضحاكنا، ولذلك فقد بادرنا جميعاً إلى الضحك. توقف قليلاً قبل أن يتابع: «لكن الأرض مكان عجيب، يستطيع الإنسان أن يفكر بأي بقعة فيها حتى بتلك الأماكن التي لا يكون موجوداً فيها». ثم بصوت أعمق وأكثر جدية: «لطالما كان هذا العالم يدهشني. إن الإنسان الذي يطوف الأرض تتغير نظرته إلى الأشياء، حين يسافر الإنسان ويرى العالم يدرك حينها المكانة التي تحتلها حمامةٌ صغيرة تحلّق فوق سطح داره ضمن طيور العالم. البشر والأمكنة والطيور جميعها ملونة بحيث... كل شيء شرعي... كل شيء... كل ما يعيش على الأرض فهو شرعي». ثم ابتسم وهزَّ رأسه بأسى وتابع بصوت أعلى: «تختلف الأشياء عن بعضها البعض... تختلف بحيث يكون لكلٍ شرعية وجوده. وجودك في مدينتك شرعي ووجودهم في مدائنهم أيضا شرعي. وكما لا يمكن لأحدٍ التشكيك في شرعية طائر في طيرانه أو وقوفه على غصن في شجرته، فليس لأحد كذلك الحق في التشكيك في شرعية طيرانك أو في بناء عشك... جميع الطيور شرعية... جميع الحيوات شرعية». ورغم أن معظمنا لم يفقه شيئاً مما قاله منصور لكننا جميعاً صفقنا له

بحرارة. تحدث منصور كذلك عن حقوق جميع الكائنات الحية وجميع الأمكنة، وذكر أن شخصاً قد يأتي من مكان سحيق إلى مدينة أو بلد ما فتكون جميع الأشياء في نظره غريبة ساحرة. وبعد ذلك، نظر إلينا بحزن كأنه لم يعد يجد ما يقوله لنا. شعرنا جميعاً بشكل أو بآخر أنه يشفق على نفسه وعلينا في الوقت نفسه. ساد الصمت حتى لم نعد نسمع أصوات أنفاسنا. شهق منصور شهقة عميقة تردد صداها في مكبِّر الصوت ثم قال: «لا أستطيع الحديث أكثر من ذلك... الشيء الوحيد الذي يستحق أن أقوله هو أن في العالم نوعين من المدن، تلك التي لم ترَ غرباء قط ولذلك فهي تخشاهم، وتلك التي رأت الكثير من الغرباء حتى إنها لم تعد تخشاهم البتة... فإن تمكنتم ذات يوم من فتح أبواب هذه المدينة أمام الغرباء فلا تخافوا منهم. ومثلما تجمِّل طيوري الغريبة هذه مدينتكم، كذلك كل غريب يدخل إلى مدينتكم هذه سيضيف شيئاً إلى جمالها... هذا ما كنت أريد قوله لكم... هذا فقط. وحدهم الغرباء يزيدون العالم جمالاً».
كنا جميعاً ننتظر منه أن يحدثنا عن الحب وحلاوة العشق وعن سوسن، أن يحدثنا مطوَّلاً عن الوفاء والمعاناة والعشق لكنه لم يقل شيئاً عن ذلك. نزل عن المنصّة بهدوء، فصفقنا له بحرارة مرة أخرى تصفيقاً ارتجّت له القاعة. عبرت عيون بعض الحاضرين دون أن يعرفوا هم أنفسهم سبب بكائهم، بينما كان البعض الآخر يحدِّقون إلى منصور وإلى بعضهم بعضاً بعيون ملؤها الإخلاص. وقبل أن يتقدم ساقي ويعلن بعينيه الدامعتين

متابعة برنامج الحفل ودعوة الفرقة الموسيقية إلى المنصة، ساد صمت ثقيل وخانق، صمت الجميع كأن على رؤوسهم الطير. في تلك اللحظة، شعرنا وسط أجواء تلك الحفلة بشيء غير طبيعي... لقد كان شعوراً غريباً لم ندرك معناه الحقيقي إلا بعد مرور أسبوع.

٤٤

لاحظت سوسن أن طيور خالد آمون كانت حزينة جداً ونادراً ما تغرّد، وذلك الصوت المتقطع الشجي الذي ينطلق من حناجرها أحياناً أشبه ما يكون بصوت جريح يتأوه. نقلت سوسن في ذلك اليوم بعض الطيور الجريحة إلى منزلها، ونقلت كذلك عدداً لا بأس به من الطيور الصغيرة إلى قفص جديد في غرفتها. ومع ذلك بقيت تلك الطيور حزينة، حتى في غرفتها حيث الكثير من الطيور المغرِّدة، التزمت تلك الطيور صمتاً ثقيلاً غير طبيعي. حين استلمت سوسن طيور منصور أسرين فعلت الشيء ذاته؛ نقلت الطيور الصغيرة إلى غرفتها في الطابق العلوي وفرزت الطيور الكبيرة وأرسلتها بعد ذلك إلى المستودع الكبير.

إن وصول منصور أسرين قد وضع سوسن أخيراً في مواجهة قرارها الذي يجب أن تتخذه. كان عليها أن تضع نقطة النهاية لتلك الحكاية الطويلة وتختار مصيرها. كان عليها خلال الأسبوعين القادمين أن تلتقي بخالد آمون ومنصور أسرين، كلٍّ

على حدة. تلك اللقاءات قد تكون الأهم على الإطلاق في مسيرة حياتها.

ذات ظهيرة قائظة نوعاً ما، وصل خالد آمون إلى منزل سوسن خان مرتدياً ثياباً سوداء كانت تليق به بشكل كبير. جلس مقابل الآنسة كشخص جريح، ولم يسأل عن شيء. لاحظت سوسن أنه لم يسأل عن طيوره الجريحة، ولم ينظر إلى طيوره الصغيرة التي جاء بها من أقصى الأرض. كانت سوسن قد سمعت قبل أيام تلك الأقاويل التي كانت تتهم خالد آمون بإطلاق النار على طيوره بنفسه، لكنها لم تلقِ لها بالاً. كان السؤال الأول الذي طرحته عليه سوسن هو: «خالد، هل تظن أن الطيور سعيدة في هذه المدينة؟ أسألك عن ذلك لأنني أشعر أنها في غاية الحزن والإرهاق». ألقى خالد نظرة على الأقفاص المعلقة على جدران الغرفة، لكنها كانت نظرة خاطفة وسريعة وكأنه لم يرَ فيها ما يثير اهتمامه، ثم جلس بهدوء على الأريكة القديمة. شعر بالرهبة ذاتها التي شعر بها قبل سنوات حين جلس على ذاك الكرسي وقال بهدوء: «سوسن خان، الصمت من طبيعة طيوري، أنا كنت أبحث في غابات العالم عن الطيور الصامتة». كان خالد يبدو أكثر هدوءاً واتزاناً من اليوم الأول الذي التقت به سوسن أمام الأقفاص المخضَّبة بالدماء، لأنه كان قد قضى بعد ذلك الموقف عدة أيام وحيداً في الفندق بانتظار هذا اللقاء، ولذا فقد كان أمامه وقت لا بأس به حتى يجهّز نفسه ويفكر ملياً بما سيقول وما سيفعل. وهذا ما كانت

تشعر به سوسن، إذ خيّل إليها أن جميع حركاته مدروسة وكل كلماته مُعَدَّة من قبل. تابع خالد: «الطيور لا تكون سعيدة إلا في موطنها، في أحضان الطبيعة، ولا يطيب لها المقام في أي مكان آخر. صحيحٌ أنها كذلك تحب أن تطوف العالم ولكن ليس وهي في القفص. وأي متعة من السفر داخل القفص». أغمضت سوسن عينيها بهدوء ووهن وسألته بعينين غائمتين: «حسناً، وهل كنتَ أنت مرتاحاً خلال رحلتك تلك؟». وبدون أن يحاول الكذب أو يخفي مشاعره أجاب خالد: «كلا... لم أكن مرتاحاً. سأصدقُكِ القول أن تلك التغربية كانت من أصعب أيام حياتي». وبدون أن تفتح سوسن عينيها عادت إلى سؤاله: «هل كنتَ تشعر أنك أنت الآخر تسافر داخل قفص مثل طيورك؟». أجاب خالد: «نعم سوسن خان... كنتُ أشعر أنني أنا الآخر مثل تلك الطيور أسافر داخل قفص». فتحت سوسن عينيها وقالت: «ولكن لمَ لم ترجع؟ كان بإمكانك في أي لحظة أن تقطع تلك الرحلة وتعود أدراجك. كنتُ أحب أن يعود أدراجه كلٌّ من يعجز منكم عن المضي في تلك الرحلة حتى نهايتها، فلمَ لم تعد؟».

«لأنني كنتُ أحبك وكنتُ راغباً بشدة في أن تكوني زوجةً لي، وكنتُ أعلم أن ذلك لن يتحقق إلا بالمضي في تلك الرحلة حتى منتهاها... لقد كنتُ أنظر إلى تلك الرحلة كأنها عقوبة عظيمة لحبٍ عظيم. لقد كان ذلك عقاباً قاسياً بالنسبة إليَّ».

«قل لي يا خالد، كيف رأيتَ العالم؟».

نظر إليها خالد ببرود وأجاب: «إنه الجحيم بذاته... الجحيم. سوسن خان، إن رحلتي تلك كانت رحلة طويلة في جهنم». فسألته سوسن بصوت حزين جداً: «ولكن لماذا يا خالد، لماذا تصف العالم بهذه الصفة؟».

«لأنه مليء بالآلام التي لا تُحتمل، مليء بأناس يتعذبون في كل مكان، مليء بظلمة لا يستطيع الإنسان تبديدها، مليء بالكذب، مليء بأناس لا يفهمون بعضهم بعضاً، مليء بألسنة لا يعي بعضها كلمات بعض، مليء بغابات لا يستطيع المرء الولوج إلى أعماقها، مليء بمدن يضيع فيها الإنسان، مليء بطيور لا أحد قادر على الإمساك بها كلها. لأن الإنسان عاجز عن التفكير في السعادة وفي العالم في الوقت نفسه... من أجل كل ذلك».

قالت سوسن بنبرة حزينة: «ولكن يا خالد آمون، لقد أرسلت بك في تلك الرحلة حتى ترى العالم، حتى تبتعد عن هذه المدينة وتتاح لك رؤية كل ذلك الجمال، حتى لا تلقى مصرعك في هذه الحرب. أتعلم كم حرباً عظيمة نشبت؟... أتعلم؟».

فكر خالد آمون قليلاً قبل أن يجيب: «أعلم يا سيدتي... لقد مزقت هذه الحروب بلادنا وجعلتها حُطاماً. ولكن رغم ذلك فقد عانيتُ خلال سنوات رحلتي تلك آلاماً عظيمة وواجهتُ صعوبات جمّة. كم مرة على حدود الدول قبضوا عليّ، لقد

قضيتُ قسماً لا بأس به من رحلتي في السجون، ولكن دائماً كانت أموال الآمونيين تعيد إليّ حريتي وتفتح لي معابر الدول. لم أكتب شيئاً من كل ذلك لقلندر ولا لأحد من أقربائي لئلا تنكسر قلوبهم من أجلي. سوسن خان، إن كنتِ تظنين أن العالم روضة عظيمة مليئة بالورود وأنواع الطيور فأنتِ واهمة... اغفري لي يا سيدتي ولكني أحبكِ وأريد أن تعرفي كم قاسيتُ من آلام، ويهمني أن تعرفي أن هذه الدنيا ليست حديقة كبيرة. لا شك أنك قد تصادفين هنا أو هناك حديقة ما أو تقع عيناكِ على بعض أنواع الطيور الجميلة هنا وهناك، ولكن معظم ما صادفتُه كان الألم والجوع. سيدتي، الحرب ليست في العراق أو في كردستان وحسب... الحرب في طبيعة البشر. الحرب هنا، وهي ليست فقط هنا بل في العالم بأسره».

قالت سوسن بنبرة تختزن ياساً عميقاً: «حسناً يا خالد... ألم تزد تلك الرحلة من مشاعر المحبة تجاه البشر في قلبك، ألا تجد أنك اليوم تحب البشر أكثر من محبتكَ إياهم في ذلك اليوم الذي بدأتَ فيه رحلتك؟ لقد زرتَ وعاينتَ كلَّ تلك البلدان والشعوب المختلفة، ومن المفترض أنك قد تعلّمتَ الحب، أليس كذلك؟».

ابتسم خالد ابتسامة مرّة وأجاب: «سوسن خان، لقد قضيتُ معظم سنوات سفري وحيداً، وطوال تلك السنوات الثمانية لم أقم في مكان واحد مدة طويلة. طوال ثماني سنوات لم يكن لي رفيق واحد، والشيء الوحيد الذي كنتُ أفكر فيه هو أنتِ. على

امتداد تلك السنين وتلك الوحدة العميقة، كان الشيء الوحيد الذي يزداد عندي باستمرار هو حبي لكِ. ازدادت رغبتي فيكِ وضنِّـي بكِ. لم أكن أستطيع في الوقت ذاته أن أفكر بكِ وبالعالم... لم أكن أرى أحداً غيركِ في أي مكان. ولا أخفي عنكِ أنني لم أكن جاداً حتى النهاية في السعي خلف تلك الطيور... سأكون صادقاً معكِ، لقد كنتُ أحقد على كل شيء، كل بلد وكل غابة وكل بحر يبعدني أكثر فأكثر عن هذه المدينة، وكنتُ كلما ابتعدتُ أكثر ازداد حقدي على العالم. كان العالم مكاناً مخيفاً بالنسبة إليَّ ولم أكن أنفق الكثير من الوقت في التفكير فيه. لقد كنتُ أحصي الدقائق والثواني بانتظار أن أعود إلى هذه المدينة وأراكِ من جديد».

سألت سوسن: «حسناً، ألم تدهشك كل تلك المناظر الطبيعية الخلابة؟ ألم تُسكِركَ أناشيدُ تلك البلابل العذبةُ؟ ألم تجد ما يشغل قلبك أكثر من فتاة عليلة وحيدة في هذا العالم؟». فنظر إليها خالد آمون نظرة باردة وحادّة وأجاب: «لم أكن أصغي إلى شيء سوى إلى صوت قلبي وصرخاته، ولم يكن يدهشني سوى قدرتي الخفية على قضاء كل تلك السنوات الطوال أضرب في الأرض بحثاً عن الحب، ولم أكن أعلم من قبل أن عندي مثل تلك القدرة. لم أكن لأتصوَّر يا سيدتي أن يستطيع آموني مثلي تحمّل كل تلك المصاعب والمنغِّصات، وأنا ابن عائلة وعشيرة لطالما نَعِمَ أبناؤها بطيب العيش. لطالما كانت أموري مُيَسَّرة وكنتُ أجهل من نفسي امتلاك كل ذلك

الـجَلَد، ولكن سنة بعد أخرى لم أعد أشعر بشيء سوى بتلك القوة التي تدنيني منكِ».

كانت أصوات الطيور تقاطع حديثهما في بعض الأحيان. ولما كان تغريد بعضها عذباً وعالياً فقد كان يطغى على صوت سوسن الهادئ الرخيم، وكان على خالد آمون عند ذلك أن يرهف السمع حتى يتمكن من التقاط كلماتها من وسط كل تلك الأنغام.

بعد لحظات من الصمت، وجرياً على عادتها، أعدّت كأسين من الشاي وعادت إلى السؤال: «حسناً ولكن قل لي... أكنتَ تحب طيوركَ أم لا؟».

نظر خالد آمون في كأس الشاي التي أمامه وأجاب: «لم أعشق في حياتي شيئاً سواكِ. تلك الطيور كانت شيئاً قدرياً ولم يكن بوسعي أن أحبها أو أكرهها. كنتُ أعلم أنكِ تحبين الطيور، ولذلك كان عليّ حمايتها والحفاظ عليها. لم تكن صلتي بتلك الطيور عميقة، فلم أكن أتحدث إليها ولا هي كانت تقول لي شيئاً. كل ما في الأمر أنني كنتُ أقول لها أحياناً إنني سآخذها إلى مدينة بعيدة، ولو كانت أجابتني بشيء ما فلم أكن لأفهمه».

نظرت إليه سوسن وقالت بحزن: «أفهم من ذلك أن تلك الطيور لم يكن لها مكانٌ في قلبك على الإطلاق».

فأجاب خالد دون أن يمنح نفسه مهلة للتفكير: «سوسن خان، لم يكن بوسعي... لم أكن أستطيع أن أجعل لها مكاناً في

قلبي. عالم الطيور عالم فريد، وكلما توغل فيه المرء أكثر ابتعد أكثر عن عالمه هو، وكلما جدَّ في اللحاق به نسي أمر نفسه أكثر فأكثر. كنتُ كلما استغرقتُ في اللحاق بتلك الطيور وصيدها، كلما كانت الغابة بعد الغابة تغويني، كنت أنسى نفسي تماماً... كنتُ أنسى حبي لكِ وأنا واثق أنكِ لا تريدين لي ذلك. ولهذا يا سيدتي، لم يكن بوسعي أن أمنح كل اهتمامي لتلك الطيور... كلا، لم أكن أستطيع».

قالت سوسن بحزن: «حسناً، قل لي يا خالد... أرجوك صف لي شعورك عند موت طائر ما». وبدون أن يبتسم أجابها بصوت لا يخلو من نبرة ساخرة: «عمَّ تتحدثين يا سوسن؟! أنا لم يكن أحد يشعر بي، كنتُ أجوب العالم ولا أحد في هذا العالم الفسيح كان يعرف ما أكون، بل إن معظم أهل الأرض لم يكونوا قد سمعوا حتى باسم شعبي... الكرد... الكرد. الغالبية العظمى من البشر لم تكن قد سمعت بشعبٍ يحمل هذا الاسم. تخيلي يا سوسن خان أن تطوفي العالم وحيدة ولا يكون أحد قد سمع باسم شعبكِ... تخيلي ألا تجدي رحمة من أحد ولا من مدينة أو من مكان فبماذا تريدينني أن أشعر؟ حين يموت طائر من طيوري، كنتُ أرمي بجثته خارج القفص ثم أمضي ساعياً خلف طائر آخر... كنت أريد الحفاظ على حياة تلك التي لم تمت بعد. ماذا تتوقعين مني يا سيدتي، أكنتِ تتوقعين إذا مات أحد طيوري أن أجلس فأبكي؟... أبكي كما قد يفعل شخص يجهل كم هي قاسية هذه الدنيا ومليئة بالتنهدات. سوسن خان،

أنتِ أيضاً تعرفين كم هي قاسية هذه الدنيا ومليئة بالتنهدات. لقد كتب لي قلندر آمون قبل موته رسالة حدثني فيها عن مقتل رجال الأمن، حدثني عن تلك الليلة التي عثر عليك فيها بين جثث رجال الأمن، تلك الليلة التي اكتشف فيها جثثاً محترقة وكنتِ جالسةً بينهم. منذ عدة أيام وأنا أفكر في ذلك... منذ أن قرأتُ رسالة قلندر آمون وأنا لا أكفُّ عن التفكير في تلك الحادثة. سوسن خان، أخبريني ما الذي ذهب بكِ إلى ذلك المكان... هاه... سوسن خان، رأيتِ هناك، وسط كل تلك الجثث، شيئاً ما لم يره الآخرون... قسوة الحياة، وحشية الحياة، أليس كذلك؟ منذ كم سنة وأنت تشهدين بعينيك كل ذلك؟ سوسن خان، أتفهمين ما أقول؟ لطالما رأيتُ كل تلك الوحشية في كل مكان في العالم... في كل مكان».

بدا وكأن ذكرى تلك الليلة قد آلمت سوسن. نهضت من مكانها بكل هدوء ووضعت يدها على الطاولة وقالت: «اسمع يا خالد... إن حياتنا هنا ليست سوى عمر طويل نقضيه في هذه الأجساد. منذ سنوات وأنا أرى جثثاً على شاشة التلفزيون، كل ليلة كنتُ أراها ولهذا أردتُ، بعد أن تقدمتم لخطبتي، أن تروا في الطرف الآخر من العالم وفي مكان آخر شيئاً آخر، شيئاً غير مرتبط بالموت. ولكن يا خالد... طيورك القتيلة تلك... كل تلك الدماء على الأقفاص وطيورك الصامتة الآن... كل ذلك يخيفني».

كانت تتكلم بهدوء، وفجأة وضعت يدها على وجهها

وأردفت وكأنها تبكي: «خالد، أنا بحاجة إلى شخص قادمٍ من الطرف الآخر من العالم حتى يروي لي حكاية أخرى... ولو كانت كذِباً. أريد الزواج بشخص قادر على أن يريني عبر سرد حكاياته عالماً آخر، عالماً مدهشاً ولا ضير أن تكون حكاياته كذباً. أنا فتاة عليلة وأريد الزواج بشخص يستطيع أن ينسيني علّتي هذه، شخص لا يحدثني عن هذه المدينة وهذه البلاد على الإطلاق». نهض خالد من مقعده فأمسك بيدي سوسن وقال: «كلا يا سوسن. أنتِ لستِ بحاجة شخصٍ يكذب عليكِ، بل إلى شخص يرى الأشياء على حقيقتها». فحدَّقت سوسن إلى عينيه بخوف وقالت: «خالد آمون، هل يمكنك قتل شخص مثلي؟ قل لي هل أنت قادر على فعل ذلك أم لا؟».

أشاح خالد بوجهه عنها وابتعد قليلاً عن الكرسي قبل أن يجيب: «قبل أكثر من ثماني سنوات، سألتِني هذا السؤال ذاته، سوسن خان، ومنذ ذلك الحين لم يتغيّر فيَّ شيءٌ يذكر. قد أكون تقدمتُ في السن قليلاً... نعم، تقدمتُ في السن والعشق والصلابة. سوسن خان، إن إجابتي اليوم هي ذاتها التي أجبتُ بها حينها. نعم... أنا مستعد لارتكاب أي ذنب من أجلكِ. وأنا اليوم، كما كنتُ البارحة ألعن كليهما وأتمنى لو أنهما لم يُخلقا أصلاً... سأظل ألعن هذين الشخصين حتى آخر يومٍ من عمري... حتى آخر يوم».

ترقرقت دمعة كبيرة على خد سوسن وهي تقول: «وا أسفاه يا خالد... أما زالت تلك الكراهية العمياء تملأ قلبك؟ ذلك

الحقد الأعمى...». فأجاب خالد في الحال وكأنه كان ينتظر سؤالاً كهذا: «لا أستطيع على الإطلاق الفصل بين محبتي إياكِ وحقدي على هؤلاء... لا محبة خالية من الكراهية... لم تكن من قبلُ ولن تكون من بعدُ. كلما ازدادت محبتي تعاظمت معها كراهيتي، هذا لأنني شخص متواضع ولا أعرف الكذب، أحبك وأكره كل ما يتحرك بيني وبينك سواءٌ أكان شيئاً أم شخصاً».

أراد خالد أن يضيف شيئاً ما لكن سوسن قاطعته: «خالد... أعطني يدك، أعطني يدكَ حتى أشمَّها».

وقف خالد آمون متعجباً، ودون أن يفهم السبب مدَّ يده باتجاه سوسن التي أخذت تشمّها بهدوء، تشمّها بعمق وطمأنينة. شمّت في البداية يده ثم زنديه ثم رأسه... ثم عادت فشمّت أنامله وشمّت وجهه وشعره، ولفحت أنفاسها الحارّة صدره. غير أنها لم تشعر بشيء، وكأن خالد لم يقم برحلته تلك ولم يطف العالم بتاتاً، كأن رائحة الدنيا الحقيقية لم تعلق قط بجلده ويده وحياته. لم تكن تفوح من خالد آمون سوى رائحة واحدة هي رائحة شوارع هذه المدينة. وكأنها أرادت التأكد من شكوكها ومراجعة يقينها عادت إلى شمّه من جديد، بدءاً من قمة رأسه حتى أطراف أصابعه. وللمرة تلو الأخرى، مرّرت أنفها على جميع أعضاء جسده شبراً شبراً، المكشوف منها والمغطّى. لم تكن تفوح من خالد آمون رائحة العالم... ربما كانت رائحة المدينة، رائحة الأموات، رائحة تلك الجثث التي شمَّتها في قبو مركز الأمن المحترق.

قالت سوسن كمن أخذتها رهبة مفاجئة: «خالد... سامحني، أرجوك اغفر لي أنني قمت بشمّ جسدك».

قالت ذلك ثم نظرت إلى عينيه بصمت وكررت: «اغفر لي...».

٤٥

حين خرج خالد آمون من منزل گولدانـچـي، شعر أنه قد خسر حربه إلى الأبد رغم أن الأمور قد جرت حتى النهاية بشكل طبيعي، ورغم أنه كان صادقاً بشكل كبير في كل ما حدَّث به الآنسة، حتى إنه لم يخفِ عنها شيئاً من الظلمة والاضطراب اللذين كانا يكتنفان روحه. لقد شعر أن سوسن تفتش عن شعاع ما غير موجود في أعماقه هو وأدرك أنها قد باتت، عكس ما كانت عليه في السابق تخشى الصمت.

كان في تلك الطيور التي تغرد في الغرفة شيء ما مختلف عن ذلك الصمت العميق الذي كانت تفرضه الكتب قبل عدة سنوات على جو الغرفة. لم يفهم خالد آمون سبب تصرف سوسن حينما أقبلت عليه تشمّه بتلك الصورة، كما لم يفهم سبب ذلك الإعياء واليأس اللذين ظهرا عليها بعد ذلك. كما تعجّب كذلك من عدم سؤالها إياه عن طيوره القتيلة.

حين وصل إلى الفندق، شعر بموجة عاتية من العشق تجتاح أعماقه. أحس أن تلك المرأة أهم عنده من أي شيء آخر في

الوجود، وشعر أن كل تلك السنوات لم تغيّر منه شيئاً، فما زال، كما كان، عاشقاً غيوراً يتمنى لو كان بإمكانه أن يحيط معشوقته بطوق من حديد ويبعدها عن كل شيء ويحميها من أي شيء.

بعد انصراف خالد آمون، شعرت سوسن فِكرت ببرودة قارسة في الغرفة، برودة ذكّرتها فجأة بتلك الأيام الطويلة القاسية والتي أعقبت الانتفاضة. وحتى تتخلص من ذلك الشعور بالبرد ومن رائحة خالد آمون الباردة، سارعت بالنزول إلى الطابق السفلي لاحتضان هُزار الصغير الذي كان على وشك النوم في حضن جده. بدت سوسن كمن استفاق من كابوس، أو كمن رأى شيئاً أخافه أو سمع خبراً أفزعه. أخذت هُزار في أحضانها وضغطته إلى صدرها بقوة وهي تقول: «هُزار جان، يا أجمل طيور عمتك، عمتك الشقية البائسة... الحمد لله أنك دافئ لا تفوح منك رائحة البرد». لمست پـروشه جبين سوسن بيدها وقالت: «ما بكِ يا أختاه؟ كيف رأيتِ ذلك المنكود؟... من جهتي، أنا أراه أشد الثلاثة حزناً، لكنه معقَّدٌ بعض الشيء أليس كذلك؟». كانت سوسن ما تزال تشدُّ الصغير إلى صدرها، فأجابت وهي تحدِّق إلى الأفق: «كلا يا پـروشه، لا تتكلمي عنه». تحرك فِكرت گولدانـچـي من مكانه فرفع نظارتيه قليلاً وقال وهو ينظر إلى ابنته: «في شخصية خالد آمون هذا صمتٌ لا يروق لي... هذا النوع من الرجال يكون عادةً إما شخصاً فاضلاً أو شخصاً مخيفاً... لا أعرف بالضبط، وقد أكون مخطئاً لكنني غير مرتاح له... هيه... وأنتِ ما رأيك يا

سوسن؟». هزت سوسن برأسها وأجابت: «سيد گولدانـچـي، لا تتكلم عنه. خالد آمون ليس شخصاً سيئاً... لكن من الممكن أن يتحوَّل إلى شخص سيئ... سيئ جداً».

عقب زيارة منصور أسرين الأخيرة، شعرت پـروشه بالصراع الذي كان يعتمل في نفس أختها.

وبعد ذلك بأيام، حضر منصور برفقة والده وساقي محمود وبضعة رجال آخرين من المدينة ومعهم الطيور. توقفوا أمام باب منزل گولدانـچـي. ودون أن ينطق بكلمة تُذكر، وضع مفاتيح تلك الأقفاص في يدي سوسن. كانت زيارة منصور تلك قصيرة جداً لكنها كانت مع ذلك مهمة جداً.

شعرنا جميعاً بالذهول الذي كانا فيه، شعرنا برجفة عظيمة مخيفة وخفيّة تعتريهما. رأينا كيف كان منصور يرتعد بنعومة وهو يُخرج المفاتيح من جيبه ويناولها سوسن، كانت يداه ترتجفان، وعندما دنت منه سوسن بدا لنا أنها هي الأخرى كانت ترتجف. وقفا للحظات ينظران إلى بعضهما بعضاً. وحين أصبحت على مقربة شديدة منه، أغمضت عينيها وبدت كأنها تشم رائحة غريبة، فارتسمت على وجهها ملامح طيف سماوي لطيف لكن يديها بقيتا ترتجفان. علمنا لاحقاً أن كليهما قد قضى تلك الليلة مريضاً في فراشه، وكلاهما كان يعاني رجفة وحمّى شديدة ويهذي ودون أن يكون لأحدهما علم بما وقع للآخر.

كان من المقرر بعد اللقاء بخالد آمون أن يتم اللقاء الكبير بين منصور وسوسن. وكنا نحن، الذين كنا شهوداً على تلك الرجفات المظلمة فيما بينهما، نترقب ذلك اللقاء على أحرّ من الجمر. تلك الرجفة الخفية في اليد وتلك الحمّى المفاجئة التي أصابت كليهما معاً، كانت كافية حتى يستبق البعض النتائج ويشيعوا في الناس أن ابنة فِكرت گولدانـچـي قد اختارت منصور منذ النظرة الأولى واللقاء الأول، وفضّلته على صاحبيه.

في صباح اليوم المقرر للقاء الكبير بين منصور وسوسن، تلقّت سوسن فِكرت رسالة من منصور قلبت كل الموازين. ففي ذلك الصباح طلب فتى مجهول حديث السن مقابلة الآنسة سوسن، ثم سلمها وهو على الباب رسالة قبل أن يطلب الإذن بالانصراف ويغادر على عجل. وهذا هو نص الرسالة التي وصلت نسخة عنها بطريقة ما في اليوم التالي إلى سوق المدينة:

سوسن الحبيبة:

بعد التحية،

قد تكون هذه الرسالة أصعب رسالة تخطّها يدي وأشدها حزناً في حياتي كلها، وقد لا أكتب مثلها في حياتي. حين تقرئين هذه الرسالة سأكون قد أصبحتُ خارج هذه المدينة التي قد لا أعود إليها في حياتي. لقد اتخذتُ قراري النهائي أن أمضي بعيداً وأستأنف رحلتي الطويلة التي قمت بها خلال

تلك الأعوام الماضية. لا أحد سواكِ يستحق أن أشرح له لماذا عدتُ ولماذا أذهب ثانيةً. يجب أن تعرفي قبل كل شيء كم أحبكِ وكم أحتاجكِ، وإياكِ أن تشكّي يوماً في إعجابي بكِ وحبي إياكِ. في ذلك اليوم حين رأيتكِ أدركتُ أنني سأظل أحبك ما دمتُ حياً، ولكن ثمة أشياء أخرى كثيرة يجب أن تعرفيها. سوسن الغالية... حين رجعتُ في ذلك اليوم، شعرتُ بغربة كبيرة. اعلمي أن سنوات الترحال تلك قد جعلت مني رحّالة حقيقياً، مطّلعاً على الدنيا لا يكاد يقرُّ له قرار، روح لا تطيق الثبات في مكان بعينه... من الصعب عليّ بعد ذلك أن أحبس نفسي داخل منزل في مدينة. قبل ثماني سنوات حين غادرتُ هذه المدينة، لم أكن أرغب في تركها، لأن هذه المدينة كانت كل عالمي، عشتُ طفولتي فيها وعدوتُ في شوارعها وتعلّمتُ في مدارسها وكبرتُ تحت أمطارها. لم يكن في العالم شيء يملأ الفراغ الذي خلّفته هذه المدينة في داخلي... قد يحدث ذلك في المستقبل أيضاً ولا أجد مدينة تملأ فراغ مدينتي، ولكن لا أعرف لماذا خطر لي، منذ أول مرة ذكرتِ لي فيه السفر والترحال، أنك لا تريدين لي أن أعود بل لا تريدين لأحد منا أن يعود. حين ألقيتِ على عواتقنا بتلك المهمة الصعبة وطلبتِ منا الانطلاق، كنتُ واثقاً أن غايتكِ لم تكن تجربتنا بل دفْعنا إلى ترك هذه المدينة إلى الأبد والبحث عن حياة جديدة في مكان آخر من العالم... أشكركِ من صميم قلبي... لم يحدث من قبل أن أهدى إنسان إلى إنسان آخر هدية بهذه العظمة... العالم... نعم يا سوسن الحبيبة، لقد أهديتني

العالم بأسره، وتلك أعظم هدية قدمتها امرأة لرجل على هذه الكوكب. وأنا أُمضي الشهر تلو الشهر والعام بعد العام في جمع تلك الطيور، وأنا أطوف مدينة تلو مدينة وبلداً بعد بلد، وأنا أركب سفينة تلو سفينة وقطاراً بعد قطار، وأنا أُمضي لياليَّ سائراً في الصحارى وتلسعني العقارب في الغابات، كم مرضت ورقدتُ في المشافي، كم اعتُقلتُ وكم أُطلِق سراحي، كم سبحت في بحيرات لا مثيل لها وكم قضيتُ الليالي ساهراً في الجبال أراقب عُقباناً كأنها طيور العنقاء. كم هطلت عليّ ثلوجٌ وكم أشرقت عليّ شموس. كنت مع كل طائر جديد أمسك به أزداد يقيناً أنه هديتكِ أنتِ لي لا هديتي لكِ. كنتُ كلما وقعت عيناي على وردة جميلة وكلما اصطدتُ طائراً جميلاً وكلما استقبلتني مدينة جميلة وكلما نمتُ مع امرأة... زاد يقيني أنها كلها هداياكِ لي. سيدتي، لقد عشتُ كل تلك السنوات بطولها وعرضها، ذقتُ الهناء من الأيام الهانئة كما ذقته من الأيام المرّة على حد سواء. لا أخفي عنكِ أن الدنيا قد غرّتني كثيراً، وأني كنتُ على استعداد للانفتاح على كل شيء. حين كنتُ أركب السفن من بلد إلى آخر كنتُ أشعر أنني سائح مخلوق بعد مئات السنين من سلالة أولئك السائحين العظام. سوسن خان، لقد كنتُ أعلم أنكِ إنما أرسلتِ بي في تلك الرحلة حتى أعيش، حتى أجرِّب كلَّ شيء، لم ترسليني حتى تجرِّبيني بل حتى أجرِّب أنا الدنيا. أريد أن أقول لكِ إن الغاية من رغبتكِ تلك كما فهمتُها كانت أن أمضي بعيداً حتى أعيش الحياة، وما تلك الطيور سوى علامة على أنني قد عشتُ بالفعل

كما أردتِ لي ودليل على أنني قد زرتُ كل تلك الأصقاع المفعمة بالحياة، ليس فقط حياة البشر لكن الحياة بجميع أشكالها وصورها. سيدتي، إن لمس طائر لم يلمسه أحد قبلك أمرٌ يشبه اكتشاف كوكب جديد. لقد جرّبتُ كل ما استطعتُ الوصول إليه... جرَّبتُ نساء العالم وشممتُ وروده وأكلتُ في مطاعمه ولبستُ أزياءه ودخلتُ سجونه وقرصني بعوضه وذقتُ طعم مائه ولسعني حرّه وقرّه... لقد عشتُ كل ذلك حتى آخر قطرة فيه. في نهاية السنة الخامسة، قررتُ عدم العودة لأني كنتُ أعرف صعوبة العودة وقضاء بقية عمري داخل بيت في مدينة، لكنني لم أكن أريد الظهور أمامكِ بمظهر الهارب المنسحب الذي يمنعه الضعف والعجز والصَّغار من العودة. وأنا شخصياً كنتُ سأعتقد ذلك في نفسي، وأعلم أن الكثيرين سيفكرون بتلك الطريقة نفسها، لكني لم أكن لأهتم بهم. هناك أشياء كثيرة يجهلها الناس... مثلاً، الناس لا تعرف أن العالم آلة عظيمة تدور من تلقاء نفسها، وما إنْ تضع قدمك عليها حتى تأخذ بالدوران معها. كلا... لم يكن ذلك مهماً. المهم كان أن أعود إليك حتى أشكركِ، المهم كان أن تري طيوركِ بعينيكِ... وهذا ليس سوى جزء يسير من الدَّين الذي لكِ في عنقي. سيدتي، إنني الشخص الوحيد الذي لا يمكن أن تتزوَّجي به، وذلك لأنني الشخص الوحيد القادر على تحقيق غايتك تلك حتى النهاية. أنتِ تعلمين أن معرفة العالم لا نهاية لها. وإذا شئتِ أن أظل في منأى عن حروب هذا البلد، ألا أشترك في أي معركة، ألا تتلطَّخ يداي، ألا أقتل أحداً وألا يقتلني أحد،

وألا أحمل ضغينة على أولئك الذين يشاركونني في محبتكِ، فلا سبيل إلى ذلك إلا أن أقضي ما تبقّى من حياتي كرحّالة، أن أبدأ رحلة لا تنتهي أبداً. كل ما تطمحين إليه يستحيل تحقيقه في هذه البلاد الملعونة. في كل ليلة من حياتي، أسمع صوتين يصرخان بي، الأول هو صوتك الذي يطلب مني الابتعاد عن هذه المحرقة، والآخر هو صوت الطيور التائهة في هذا العالم... نداء الغابات الذي لا يفارق صداه أذنيَّ مطلقاً... لا مفرّ لي من العودة ومتابعة تلك الرحلة. المهم هو أنني سأظل أفكر بكِ حيثما كنتُ، سأظل أشعر أن هذا العالم هو هديتك العظيمة لي، ولن يكون له أي معنى إن غاب ذكركِ منه. لا أخفي عنكِ أن كثيراً من مدن العالم قد أنستني مدينتي هذه، في كثير من الأمكنة كنتُ أنسى نفسي، وأمام كثير من نساء العالم كنتُ أنساكِ. في تلك اللحظات، أدركتُ أن الدنيا قد خطفتني تماماً وبشكل باتت العودة معه مستحيلة. كانت تلك هي لحظات الضعف المخيفة التي كانت الدنيا تختطفني فيها بسحرها وجمالها، وتجعلني أفهم بشكل أعمق معنى تشردي وضياعي في الأرض. خلال تلك السنوات، كانت أخبار هذه المدينة لا تنقطع عني، كان ساقي يخبرني بكل شيء، بكل تلك الآلام الشديدة التي رافقت قصة العشق هذه، تلك الآلام التي لم يتسبَّب بها أحد منا لا أنتِ ولا نحن، بل أجدر أن يكون المتسبب هو هذه المدينة أو هذا العالم الذي نعيش فيه جميعاً منذ ولادتنا. حرق منزل ساقي ومنازل الآمونيين ومقتل قلندر آمون وقتل الطيور بعد ذلك... أنا واثق أنكِ كنتِ سعيدة طوال

تلك السنوات أننا بعيدون عن كل تلك المقتلة وفي منأى عن تلك النار ومعصومون من التلوث بتلك الدماء... تلك هي محبتكِ المرتبطة ببعدنا عنكِ. حين اندلعت الحرب الأهلية، حين سمعت نبأ قتل تلك الطيور، أدركتُ أن الحرب في هذه البلاد لا نهاية لها، وأنك عاجزة عن حمايتنا. لقد أرشدتنا إلى الطريق وفعلتِ ما بوسعكِ لخلاصنا، وقد خلّصتنا بالفعل حتى لو لم يفهم صاحباي الآخران هذا الخلاص كما فهمتُه... أعلم جيداً أنك قد حرَّرتني ولا رغبة لي ثانية أن أعود طائراً بجناحٍ مَهيض. وأعلم كم يثقل عليك أن تأمرينا مرة أخرى بالسفرَ والترحال والابتعاد عن هذه الحروب، وأعلم أنكِ طوال تلك السنوات ومع كل ذلك الخوف قد أصبحتِ تشعرين بحاجتكِ إلينا، ولكن لا فائدة من ذلك يا سيدتي فما من وسيلة تجنِّبني الدخول في كل هذه الحروب والتلطخ بكل تلك الدماء سوى الرحيل بعيداً عن هذا المكان، وأنتِ تعرفين أكثر مني أن أمامنا المزيد من سفك الدماء، المزيد من الحروب. إن أشدَّ ما يؤلمني هو أنني عاجز عن فعل أي شيء من أجلكِ، لا أملك إلا الدعاء لكِ أن تبقي بعيدة عن تلك الفواجع. لقد علمتني سنوات غربتي الطويلة كيف أقتل مشاعر الكراهية في داخلي، لكن الإنسان في هذه المدينة لا يمكنه أن يعيش دون كراهية ولا حتى أن يعشق دون كراهية. سأمضي الآن، ولكن اعلمي يا سيدتي أنني مدين لكِ بالشكر عن كل يوم إضافي أعيشه في حياتي، وعن كل جمال دنيوي أتمتع به، وكل نقاء أشعر به في أعماقي. لا أريد منكِ شيئاً سوى الاعتناء بطيوري، وأنا واثق أنها هي الأخرى

لا تلبث أن تكتشف طبيعة هذه المدينة. إن رأيتهم حزانى يوماً ما فحاولي أن تفهمي سبب حزنهم، وإن ماتوا فأحسني دفنهم، وإن سهرتِ معهم في بعض الليالي فاعلمي أنني الوحيد الذي مضى لاستكمال رحلتكِ حتى النهاية. أريد أن تكوني على ثقة أن هذا العالم هو من علّمني استحالة العيش في مكان ضيق وصغير، ولذا سأقضي ما تبقى من حياتي جوالاً في الأرض، لأنها وسيلتي الوحيدة للبقاء قريباً منكِ. إن هيامي على وجهي في هذا العالم هو طريقتي الوحيدة لرؤيتكِ.

اعلمي يا سيدتي أنني أكتب لكِ لأنني عاجز عن مواجهتكِ بكل هذا الكلام... لأنني خائف جداً. لقد جعلتني تلك اللحظات القليلة التي رأيتكِ فيها، ذلك اليوم، واثقاً أن رؤيتك ثانية تعني وقوعي فريسة للمرض والضعف مرة أخرى، وبشكل يتركني نادماً على كل تلك الخيالات والأحلام التي صورتها لي نفسي. من الأفضل لي ألا أراكِ... وأرجو أن تعذريني في عدم تعريض نفسي لهذه التجربة ثانية.

في ختام هذه الرسالة... بصمت وبلا وداع، سأترك كل ذكرياتي خلفي وأمضي بعيداً تاركاً هذه المدينة خلفي إلى الأبد، وراجياً لك من كل قلبي حياة هانئة مع الزوج الذي ستختارينه، والذي أرجو منه أن يكنَّ الاحترام لأحلامكِ العظيمة... أستودعك الله. عيشي بسعادة واعلمي أنني مشتاق لكِ على الدوام...

عاشقك الأبدي: منصور أسرين.

أثارت تلك الرسالة جلبة كبيرة في المدينة ولا سيما لدى عائلة أسرين التي شعر أفرادها كأن صاعقة أصابتهم جميعاً. كان منصور قد غادر منزله واختفى إلى الأبد دون أن يترك أي أثر منه، باستثناء نسختين من تلك الرسالة؛ واحدة لوالده إبراهيم أسرين والأخرى لساقي محمود. كانت تلك آخر مرة نرى فيها منصور، فلم يحدث بعد ذلك أن سمعنا منه ولا عنه خبراً، ولا رآه أحد في أي مكان في العالم. وما زالت أخواته وأولاد أخواته حتى اليوم على أمل أن يظهر منصور ذات يوم في مكان ما. ولكن سنة بعد أخرى، تخامد ذلك الأمل وطوى النسيان وجه منصور شيئاً فشيئاً. قبل بضع سنوات، ناشدتْ أخواته سوسن فِكرت أن تعيرهنَّ صورَ منصور التي تحتفظ بها حتى يقمنَ بنسخها، فأعارتهن الصورة مدة أسبوع حتى قمنَ بنسخها وإعادتها. قامت أخوات منصور بإعداد ألبوم كبير لتلك الصور، وكنَّ كلما سمعنَ بعودة شخص من الخارج حملنَ إليه ذلك الألبوم وعرضنَ عليه تلك الصور واحدة واحدة، لعل أحداً منهم يكون قد صادف منصور فيتعرّف إليه في تلك الصور، ولكن حتى اليوم لم يعرف أحد شيئاً عن مكان منصور. ضاع منصور في ذلك العالم الفسيح الذي أهدته إياه سوسن... لم يحدث بعد ذلك قط أن رأى أحد منا منصور أو سمع عنه شيئاً.

٤٦

أحزنَ وداع منصور المفاجئ سوسن كثيراً إذ كانت بالفعل تحب رؤيته وترتاح للقائه، خاصة أنّ رائحته كانت ساحرة غير عادية. في تلك اللحظات القصيرة التي وقفت فيها أمامه وتنسَّمت قليلاً من ذلك العبق الذي كان يفوح من أنحاء بدنه، شعرت أنها اشتمَّت رائحة عالم جديد وبِكر لم تسبق لأحد رؤيته، رائحة أكثر جاذبية وأسطورية حتى من تلك التي كانت تفوح من بدن كاميران.

قضت سوسن تلك الليلة لم يغمض لها جفن، كانت سكرى من أثر ذلك اللقاء وتلك الارتعاشات والنظرات. قبل ثماني سنوات، حين كانت ما تزال صبية مراهقة، لم يكن بوسعها رؤية وسامة الرجال بهذا الشكل، لكنهم الآن يثيرون إعجابها وترى وسامتهم عياناً. كان والدها فِكرت، وقد شعر بالتغير الذي أصاب ابنته، يضحك وهو يقول بصوته الكهل الذي ينساب كموسيقى رصينة: «كلما تقدم المرء في السن أصبح أكثر شعوراً بالجمال، وهذا من ظلم الأقدار».

ما زال هناك حتى اليوم من يسأل، يا ترى لو لم يرحل منصور إبراهيم أكانت سوسن لتتزوج به. في الحقيقة، لم تصرّح سوسن يوماً بشيء في هذا الشأن، لكننا جميعاً كنا نعلم أنها، بعد رسالة منصور بيومين، أصيبت باكتئاب شديد، وقيل حينها إنها قد قرأت تلك الرسالة عشرات المرات وشمتها عدة مرات وبكت مرة واحدة.

لا شك مطلقاً أن منصور كان بشكلٍ ما قد فهم أفضل من الآخرين معنى أحلام سوسن وخيالاتها. ومن الممكن كذلك أن تلك الرسالة قد أعفت منصور في نهاية الأمر من إحراج شديد. وكل من اطلع على تلك الرسالة وصل إلى يقينٍ من أن الفتى منصور ليس خائناً ولا جباناً، لكنه شخصٌ رأى الكثير من الصور خلال أسفاره الطويلة وهذا ما غيّر الكثير من أفكاره بشكل جذري.

على إثر ذلك، نشبت بعض المعارك الشرسة في مقاهي المدينة وأسواقها، وخاصةً في تلك الأماكن التي يجتمع فيها عادةً الشعراء والموسيقيون، وشهد الناس مشاجرات دموية حين عيَّر بعض العوام، وفيهم عدد من أنصار كاميراني سلمى، خصومهم الذين يفتخرون ببطلٍ «غير واثق برجولته»، بدليل أنه انسلَّ خفية وانسحب دون حتى أن يعلن ذلك أمام الناس. وشاعت بين الناس طرفة كان الجميع يرويها في كل زاوية في المدينة، تقول الطرفة التي كان منـگوري باباگوره أول من أطلقها إن منصور أسرين خلال مروره ببعض الغابات قد هجم

عليه نمر وأكل خصيتيه.

تلك الحرب الكلامية والتعليقات الساخرة عن منصور دخلت إلى كل بيت في المدينة، بل حتى إلى غرف النوم. ووصل الأمر أن تشاجر الناس بضرب الكراسي في بعض النوادي الليلية والمؤسسات الحكومية.

لا شك أن جميع أولئك الذين كانوا يرون في منصور صورة الصياد المبارك والعاشق المضحّي والرحالة العظيم على دروب الحب، قد أصيبوا بيأس قاتل جرّاء قراره المفاجئ بالانسحاب. لقد كان جميع أولئك يريدون، بصورة أو بأخرى، بقاء منصور وزواجه بسوسن حتى يعطي بذلك مثالاً عظيماً على انتصار الحب.

رأى الكثيرون في انسحاب منصور فراراً، وعلَّل البعض ذلك بأن منصور شخص جبان وغير أهل للمواجهة، بينما عزاها البعض الآخر إلى تلك النزعة الحالمة الرومانسية التي كانت قد عششت منذ وقت طويل في عقول معظم مثقفي هذه المدينة.

بقي ساقي محمود بعد ذلك ثلاثة أشهر لا يخرج من منزله، فلم يكن يستطيع تحمل نظرات الناس إليه ولا سماع تعليقاتهم أو أسئلتهم. كما كان عاجزاً عن الرد على شكاوى ومعاتبات أولئك الأصدقاء الذين أنفقوا الأموال الطائلة التي تم بها تمويل رحلة منصور كل تلك السنوات.

رغم كل ذلك، فإن رسالة منصور تلك قد تركت أثراً طيباً واحتراماً عميقاً في نفس فِكرت گولدانـچـي وابنته سوسن. كانت طيور منصور من الطيور المبهجة كثيرة التغريد، ولذا كانت رائحة غاباتها التي تعبق منها أسرع من غيرها إلى لفت نظر سوسن والاستئثار بعنايتها الخاصة. كان ذلك جسراً عظيماً ساعد سوسن على العبور بسرعة من تلك المحنة، وبه تجاوزت يأسها من عودة منصور والتحسر على ماضي أيامه.

بعد أسبوع من رحيل منصور، كان على سوسن الإعلان عن قرارها النهائي، وكنا جميعاً في المدينة نترقب ذلك اليوم. تحول منزل گولدانـچـي خلال تلك الأيام إلى قبلة يحج إليها الزوار دون انقطاع. نساء عائلة گولدانـچـي وعماته كن رائحات غاديات إلى منزله، وكان عزت گولدانـچـي وأولاده في حركة دائبة، لكن فِكرت گولدانـچـي بقي مصمماً على ألا يسمح لأحد بالتدخل في قرار سوسن المستقل والحر أو يحاول التأثير فيها. كنا جميعاً نعلم أن الآنسة تمر بأوقات عصيبة، إذ كان عليها حتماً الاختيار بين أحد رجلين: كاميراني سلمى أو خالد آمون، وكانت تعلم أن اختيارها لأحدهما لا بد سيترك في نفس الآخر جرحاً غائراً وعقدة نفسية.

قبل يومين من اتخاذ قرارها، وصلت إلى فِكرت گولدانـچـي رسالة سرية من طرف الآمونيين تضمنت تهديدات مباشرة ومهولة. كان في الرسالة أنّ سوسن إنْ اختارت قتلة قلندر آمون فإن ذلك سيكون تحقيراً واستخفافاً

لا يغتفر بدماء الآمونيين ونضالاتهم، وإنّ الآمونيين لن يغفروا ذلك. في ذلك الوقت، كان خالد آمون يمضي معظم وقته في فندق باوَجان ونادراً ما يخرج، وكان في بعض الأمسيات يقف أمام نافذة غرفته مرتدياً ثيابه السوداء ويأخذ بمراقبة الشارع. وفي فترة الظهيرة كان ينزل إلى مطعم قريب فيتناول غداءه، ولا يلبث ساعة حتى يعود ثانية إلى الفندق. لم يكن خلال تناول طعامه يتحدث إلى أحد، بل يتناول طعامه بكل هدوء متجنباً حتى النظر حوله أو خلفه ليعود بعدها سريعاً إلى غرفته.

حين كنا نجتمع ليلاً في قبو الفندق كانت تتملكنا جميعاً رغبة محمومة لمعرفة ما يفعله خالد في غرفته. ولكن بما أنه كان النزيل الوحيد في الفندق فلم يكن من الطبيعي ولا السهل محاولة تقصي أخباره. في تلك المرات القليلة التي دخل فيها خدم الفندق إلى غرفته في شأنٍ ما، خرجوا فحدثونا أن حقيبة خالد آمون كانت مُعدّة على الدوام، وأنه غالباً ما يكون جالساً بكامل ثيابه على سريره. وفي بعض المرات قالوا إنهم سمعوا وقع أقدامه وهو يسير في الغرفة لأكثر من نصف ساعة جيئة وذهاباً قبل أن يجلس على كرسيه، ولا شيء آخر. لقد كان أشبه بمن ينتظر أمراً بالسفر وعلى وشك أن يستلم بطاقة القطار. اقترح عليه صاحب الفندق عدة مرات أن يحضر له جهاز تلفزيون أو جهاز راديو حتى يتسلى خلال وقت فراغه هذا، لكنه في كل مرة كان يشكره قائلاً أنْ لا رغبة لديه في الفُرجة على شيء ولا الاستماع إلى شيء. طوال ذلك الوقت،

لم يخرج خالد من الفندق سوى ثلاث مرات وتمشّى قليلاً في شوارع المدينة، مرةً لشراء بعض الجوارب ومعجون أسنان، ومرةً من أجل إحضار صور طيوره القتيلة من محل «ستوديو الجبل» للتصوير. أما المرة الثالثة فكانت زيارة خاطفة قام بها إلى دكانه القديم الذي كان ما يزال متجراً لبيع مستلزمات النساء. في ذلك اليوم، توقف خالد لبعض الوقت أمام دكانه دون أن يدخل، وسرعان ما رجع إلى غرفته في الفندق. لم يستطع أحد منا قراءة شيء في وجه خالد آمون، لم يفهم أحد منا بماذا كان يشعر. من يدري... قد لا يكون شعر بأي شيء.

بعد عدة سنوات، تكلم خالد نفسه لشاب آموني عن تلك الأيام: «لم أشعر حينها بأي شيء سوى بمرور الوقت... سوى بآثار نعال الزمن على صفحة حياتي».

كنا جميعاً متأكدين أن الدقائق والساعات تمر في حياة خالد آمون ثقيلة فجّة... فجّة بحيث كان بين الثانية والثانية دهرٌ يمكنه التفكير خلاله بكثير من الأشياء. كنا حين نمر من أمام فندق باوَجان وننظر باتجاه غرفته نشعر كم يمر الزمن ببطء وتراخ خلف تلك النافذة. في ذلك الوقت، لم يقم أحد من أهل المدينة، حتى أولئك الذين كانوا يتحرَّقون شوقاً وفضولاً، بزيارة خالد آمون في غرفته. خلال تلك الأسابيع، حمي وطيس المعارك في كل مكان تقريباً، وكانت جثث القتلى والجرحى تصل يومياً إلى المدينة. كانت الأخبار تتوافد أن الآمونيين مشتركون في تلك المعارك بأكثر من خمسمئة مقاتل

مسلَّح، وأن تلك القوة التي كان يقودها لطيف آمون كانت عقبة حقيقية أمام استيلاء أنصار حزب الاتحاد الوطني على عدد من المناطق. كان وجود خالد آمون وحده في تلك المدينة يشيع فيها جواً عاماً من عدم الارتياح، حتى إن الكثيرين منا كان يخشى على أمن الرجل وحياته. كنا نشعر أن سبب اعتكافه في ذلك الفندق وعدم خروجه إلى شوارع المدينة هو خوفه الشديد الناتج عن مقتل طيوره من جهة، والنهج الذي اتخذته عائلته من جهة أخرى. لكن أحداً منا لم يعرف من الذي قتل تلك الطيور، فالصمت الذي كان يحيط بتلك القضية كان في غاية العمق والغموض مثل جميع تلك الحوادث التي تُنسب إلى فاعل مجهول. نسي الناس حادثة مقتل الطيور ولم يعودوا مهتمين بأخبارها. خلال السنوات اللاحقة، حدثت كثير من الأمور شغلت بال هؤلاء وصرفتهم عن ملاحقة أخبار تلك الحادثة. وفي واقعتين مستقلتين، نهض شخصان آمونيان من مدينتين مختلفتين وبمصادفتين منفصلتين من النوم. وبدون أن يشعرا ولا أن يتذكرا ما وقع لهما بعد ذلك، قام كل منهما بإطلاق النار على زوجته وقتلها في الحال. قد يكون انتشار ذلك الخبر قليل الأهمية، ولكن ما ضاعف الشكوك حينها هو أن الحكاية ذاتها ستُروى عن خالد آمون بعد سنوات من تلك الوقائع. فحين أصبح خالد آمون مسؤولاً كبيراً في إحدى وزارات حكومة الائتلاف في هولير، وابتنى لنفسه قصراً من ثلاثة طوابق في حي راقٍ، روى بعض حرس قصره أنه كان

يستيقظ من نومه ليلاً عدة مرات فيترك فراشه ويأخذ بندقية قديمة ويخرج، وهو ما يزال نصف نائم، إلى الشارع لإطلاق النار. لكن الحرس كان دائماً يتداركونه ويوقظونه ويعودون به إلى سرير نومه. هل كانت تلك الكلمات لتقول لنا شيئاً واضحاً ومطلقاً عن وقائع تلك الفترة؟... لا أحد يعرف. ويبدو الآن كذلك، بعد كل تلك السنوات، أن غشاوة سميكة ما تزال تغطي على حقيقة مقتل الطيور، غشاوة لن تنكشف بسهولة.

بعد ثمانية عشر يوماً من إقامته في ذلك الفندق وكان يوم أحد بارد، طرق شخص باب غرفة خالد آمون طرقات خفيفة. انتفض خالد فجأة وتسارعت نبضات قلبه. لم تكن تلك الطرقات تشبه طرقات خدم الفندق، بل كانت يداً تقرع بشكل هادئ ولكن بثقة وبلا رحمة. كان خالد يترقب تلك الزيارة منذ أمد بعيد؛ فمنذ أكثر من أسبوعين وهو يفكر كيف ستكون شكل تلك الطرقات على الباب، وكان يعلم أن يداً ما ستطرق، ذات ليلة من تلك الأيام والليالي الطويلة، بابه وتنقل له البشارة التي ستضع نقطة النهاية لتلك الرحلة التي دامت سنواتٍ طوالاً. كان يرى في المنام أحياناً أن من سينقل له تلك البشارة ستكون سوسن بذاتها. كانت أحلامه في معظمها معقَّدة ومخيفة ومتداخلة، وكان بعد استيقاظه بحاجة إلى وقت لا بأس به لاستعادة توازنه. لكن خوفه وارتعاشه السابق ليس البتة كخوفه وارتعاشه في تلك اللحظة التي سمع فيها على الباب طرقات تلك اليد المجهولة التي أخذت بمجامع قلبه،

حتى إن خوفه الدائم من الموت حين كان يطوف في مجاهل الغابات البعيدة كان دون هذا الخوف. تلك السنة حين كان في واحدة من غابات جمهورية «ساحل العاج»، حين هاجمه نمر ضخم بالقرب من «حيدر آباد» لم يعاين مثل هذه الرهبة... بل لم يحدث له طوال حياته الماضية أن ارتجف قلبه بتلك الصورة في تلك اللحظة.

حين فتح الباب، كانت يداه ما تزالان ترتعشان وفي عينيه خوف عظيم كان من النادر رؤيته في وجه رجل آموني. كان الواقف خلف الباب شخصاً ذا هيئة حسنة يدعى «نبيل»، وهو أحد أبناء عمة سوسن. كان يرتدي بذلة جديدة سكرية اللون وينتعل حذاءً بنياً لامعاً. سلَّم عليه نبيل بكل هدوء وأخبره أنه يحمل رسالة موجهة إليه من الآنسة سوسن. طلب منه خالد بصوت مرتعش بعض الشيء أن يتفضل بالدخول ليرتاح قليلاً، لكن الرجل فضَّل تسليم الرسالة وحسب. ودون أن يتلفظ بكلمة إضافية، مدّ يده إلى جيبه فأخرج الرسالة وسلّمها إلى خالد آمون ثم طلب، بذلك الاحترام الزائد عينه، الإذن بالانصراف، وابتسم ابتسامة هادئة قبل أن ينصرف نازلاً عبر الدرج إلى الأسفل.

تسارعت دقات قلب خالد بقوة وهو يفضُّ الرسالة. كانت رسالة قصيرة ولكن مكتوبة بخط جميل وواضح.

جلس خالد مضطرباً ومذهولاً على الكرسي وشرع يقرأ:

المحترم خالد آمون:

قبل حوالي ثماني سنوات، قبل أن تنطلقوا في تلك الرحلة، أعلنتُ أمامكم جميعاً أنني عقب عودتكم من تلك الرحلة الطويلة سأختار الزواج بأحدكم، كما قلتُ لكم إنكم عائدون بعد بضع سنوات وإنني قد لا أكون بعدها لأيٍّ منكم. في المرة الأخيرة حين التقيتُ بك وتكلمنا، كنت شديدة الإعجاب بصدقك، وكنت سعيدة أنك حدثتني عن مشاعرك بكل صراحة وشفافية. كانت تلك في نظري عظمة لا مثيل لها. ولكني شعرتُ، رغم ذلك، أن سنوات الغربة الصعبة تلك لم تستطع تقريبنا من بعضنا بعضاً، وأشعر أننا لن نكون سعداء معاً، لن تكون سعيداً معي ولا أنا كذلك... سأظل أحمل في قلبي حتى الموت احتراماً عميقاً للتعب الذي كابدته والرجولة التي أظهرتها. ليس عندي شك البتة في كفاءتك، شخصاً جاب العالم بكل شجاعة وعشقني بكل رجولة، وكلّي ثقة أنك بالشجاعة والرجولة ذاتها ستتقبل قراري هذا وهو أنني سأختار شخصاً من خارج دائرتكم أنتم الثلاثة لأتزوج به وأعيش معه. أعلم أن قراري هذا سيؤلمك كثيراً وهذا ما يبعث الحزن في قلبي... لكن الحزن جزء عظيم من حكايتنا، منذ اليوم الأول والحزن لم يفارقنا أنا وأنت وجميع الآخرين. كم يؤسفني ألا أستطيع إدخال السعادة إلى قلبك، لكني آمل أن تكون أيامك القادمة ملأى بالسعادة والانتصارات العظيمة. أرجو لك السعادة من كل قلبي، وأريد منك أن تتمناها لي كما تمنيتها لك. أرجو أن

تفهمني ولا تحمل تجاهي أي مشاعر كراهية. وكن واثقاً أن طيورك ستعيش معي حتى النهاية كذكرى عظيمة، وإن شئتَ أن تتقبلني صديقةً لك فسيكون ذلك من دواعي سروري.

سوسن فِكرت

قرأ خالد آمون الرسالة عدة مرات وكأنه لم يكن مصدِّقاً، فكان كلما وصل إلى نهايتها عاد فقرأها من البداية... قرأها ثلاث مرات... قرأها أربع مرات. لم يكن يعرف أين عليه التوقف عن القراءة. في لحظة ما، شعر بنفسه وهو يبكي... يبكي بمرارة وبصوت عالٍ جداً سمعه كل من كان في ممرات الفندق. سمعه خدم الفندق وهو يصرخ باكياً: «لماذا... لماذا يا سوسن؟ بماذا يمتاز عني ابن سلمى... لماذا يا سوسن؟ لماذا تختارين قاتلاً وحامل سكين... لماذا؟». بقي خالد يبكي لأكثر من نصف ساعة، ثم إنه نهض بعد ذلك وغسل وجهه. فتح حقيبته ووضع المنشفة وفرشاة ومعجون الأسنان في داخلها وأعاد إغلاقها. وبالقرب من النافذة، طوى الرسالة ووضعها في جيب معطفه ثم حمل حقيبته ونزل إلى الأسفل مستخدماً الدرج. حين لمحه صاحب الفندق على تلك الحالة الكئيبة المزرية، سأله: «خالد بك، الوقت متأخر كما ترى وسيكون من الصعب عليك جداً الحصول على سيارةٍ تنقلك. أرجو أن تمضي هذه الليلة أيضاً عندنا. سيهبط الليل عما قليل والطريق ليست آمنة... ثمة معارك شرسة على طريق هولير وليس من

المستحسن أن تسافر في ليلة كهذه... أطعني ولا تذهب». قال خالد بصوت جريح على عجل: «لا أستطيع البقاء دقيقة أخرى في هذه المدينة... اعذرني... لا يمكنني أن أبقى هنا دقيقة أخرى». كان صوته مكلوماً ومضمَّخاً بالدم بشكل يرثى له. حمل صاحب الفندق بنفسه حقيبته حتى أول الطريق حيث أوقف له سيارة. وعند باب السيارة، احتضنه بقوة قائلاً: «يا بني، أتمنى لك النجاح... كن صبوراً ولا تسمح للهموم أن تتغلب عليك».

حين تحركت السيارة من أمام فندق باوَجان واتخذت سبيلها بين السيارات الأخرى، لم نكن نعلم أن إحدى عشرة سنة ستمضي قبل أن يعود خالد آمون إلى هذه المدينة ويكحِّل عينيه ثانيةً بمرأى شوارعها.

٤٧

وكأن الرياح تقاذفتها مع البروق، انتشر خبر رسالة سوسن في المدينة. وكان أول رد فعل كبير على تلك الرسالة هو ما وقع في مقهى «پـپولَي آزاد»، حيث علت فيه أصوات الأغاني وسادت أجواء الفرح والابتهاج بين جميع الحاضرين. ولكن، كما هو شأن جميع الأخبار في هذه المدينة، فقد حامت الشكوك حول صحة هذا الخبر. وحتى عندما سمعنا بخبر مغادرة خالد آمون غرفته في فندق باوَجان وقف معظمنا حائراً غير مصدِّق. ولكن حين سمعنا أن واحداً من أولاد عمات سوسن واسمه «هُشياري مَتي خَنده»، قد دعا كاميراني سلمى لزيارة منزل فِكرت گولدانـچـي لتناول الغداء عنده في يوم غد، بدأت الأمور تتضح أكثر فأكثر. في ذلك المساء وعلى خلاف التوقعات، غاب منـگوري باباگوره وكاميراني سلمى عن المقهى، وكان واضحاً أن الرجلين قررا عدم الظهور إلا وفي جعبتهما خبر مهم وعظيم. في تلك الليلة، نمنا جميعاً والشكوك تملأ رؤوسنا. كنا موقنين أن القصة كانت قصة عشق عظيم بدأ بتغريبة طويلة، وأنه قد منح روحاً كونية لتاريخ العشق

في مدينتنا، ولكنها رغم ذلك كانت مصبوغة بالدم في كثير من فصولها، ما كان يجعل قلوبنا في حالة توجُّس دائمة. والآن بعد اختفاء منصور أسرين ووداع خالد آمون لم يبقَ أحد سوى كاميراني سلمى وطيوره، ومع ذلك فقد كنا جميعاً متوجِّسين من ابنة گولدانـچـي خشية أن تلفح رأسها رياح سوداء فترفض الخاطب الوحيد المتبقي أيضاً. سيكون ذلك مخالفاً للعهد الكبير الذي أبرمته سوسن مع الثلاثة، ولكن نقض المواثيق في أيام الحرب تلك كان أمراً هيّناً، وهذا ما كان يسوِّغ مخاوفنا... ولكن لا، فمن الواضح أن إله الرقص والاحتفال قد نصب في هذه المدينة واحدة من قواعده، ولهذا ليس من النادر أن ترى أهل هذه المدينة حتى في أشد المواقف حرجاً وضيقاً ينتهزون أول فرصة تسنح لهم حتى يأخذوا بالرقص، فهؤلاء سواءٌ أكانوا في فرحٍ أم في ترحٍ أو كانوا في الوطن أم في المهجر سرعان ما يجدون مكاناً يتماسكون فيه بالأيدي ويديرون حلقة رقص، وكأن تلك الحركات اللينة وذلك التجمع الحلقي وذلك التلاصق الحميم بالأجساد الذي يندر العثور عليه لدى شعوب أخرى هي طريقتهم الوحيدة ليتخلصوا من مخاوفهم وشعورهم العميق بالوحدة، ويجعلهم لصيقين بأقرانهم. وكأن تلاصق أجساد الراقصين على تلك الصورة تعبيرٌ عن روح جماعية كانت على وشك الاختفاء شيئاً فشيئاً جرّاء الفرقة السياسية والحروب المتواصلة.

في ذلك اليوم حين ذهب كاميراني سلمى إلى منزل

گولدانـچـي، خرج معظمنا من منزله مرتدياً الزي الكردي تأهباً للرقص، وكانت قد مضت سنوات طويلة على آخر مرة خرجنا فيها بذلك الزي الاحتفالي، وذلك بسبب تعاقب المعارك والحروب وندرة الأعراس وغلاء تكاليف الاحتفالات. كنا نشعر، رغم ما كان يحيط المدينة ويحاصرها من خراب وحرب ومجاعة، أننا بالفعل في حاجة إلى حفلة حقيقية نصرف فيها طاقة الفرح الكامنة في صدورنا، ونستوثق بها من بقائنا على قيد الحياة ومن قدرتنا على الفرح من جديد. وفي كل مرة كانت تصيبنا كارثة كبيرة أو تثقل صدورنا مخاوف عظيمة في هذه المدينة، كنا نختلق حجّة نقبض بها على أيدي بعضنا بعضاً ونباشر الرقص، وكان ذلك الرقص الجنوني في قلب الكارثة وخبط الأقدام الهستيري وذلك الاهتزاز العنيف وسط محطات الألم هو الشيء الوحيد الذي يبقينا على قيد الحياة.

وفي ذلك اليوم أيضاً حين مضى كاميراني سلمى إلى زيارة سيدة الطيور، جهَّزنا أنفسنا لاحتفالٍ وحشي دون حتى أن نعرف ما الذي كان يجري.

وعلى خلاف خبر أمس، لم يكن كاميران مدعوّاً على الغداء في منزل گولدانـچـي، وكل ما في الأمر أن تلك كانت كذبة من تلك الأكاذيب الصغيرة التي كان أهل مدينتنا يلصقونها بأي خبر جديد صغيراً كان أم خطيراً، كانت جزءاً من ثقافة الكذب العريقة وهي من أعظم الأمراض التي أصابت أهل مدينتنا. كان على كاميران أن يكون في منزل فِكرت گولدانـچـي في الساعة

الثالثة عصراً حتى يعلم نتيجة اختباره. ومن أجل تلك الزيارة، ارتدى ابن سلمى تلك الثياب الكردية ذاتها التي كان ارتداها قبل ثماني سنوات من أجل تلك الدعوة الجماعية التي قام بها هو وصاحباه الآخران إلى سوسن حينها. وكان كاميران قد احتفظ بتلك الثياب نفسها مطويّة طوال تلك السنوات.

حين دخل إلى منزل گولدانـچـي، شعرت سوسن أن تلك السنوات الطوال الفاصلة بين الزيارتين قد مرّت سريعاً، حتى إنها لم تكن قادرة على الفصل بسهولة بين صورة كاميران في ذلك الوقت وصورته اليوم. كان كل شيء يتمثل أمام عينيها مترابطاً ومتشابهاً ومضبوطاً، وكان على كل شيء أن يسير كما سار من قبل. كانت هيئة كاميران في تلك الثياب علامة على إيقاع ووحدة وانسجام دقيق بين مختلف تلك العصور، بحيث إنها تكاد تمحو الفوارق بين ذينك الزمنين المتباعدين. لم يكن التقارب بين الوقتين زمنياً، ولكنه تقارب الصور والمعاني، وذلك كان أكثر إدهاشاً من التقارب القائم على المكان والزمان نفسه. أذهل تشابه الزمنين سوسن بشدة، وبدا كأن الدنيا قد دارت دورة واسعة وعادت ثانية إلى النقطة التي انطلقت منها. هل كان ممكناً لها أن تختار كاميران من المرة الأولى وبدون أن تقع كل تلك الحوادث التي وقعت؟ قالت سوسن في نفسها: «كلا، لم يكن ذلك ممكناً، بل كان علينا جميعاً نحن والزمان أن نقوم بتلك الدورة لنصل إلى هذا اليوم». كان كاميراني سلمى يلاحظ أكثر من سوسن التغيرات التي حدثت، ويفهم بشكل

أفضل مدى الخراب الذي أحدثه الزمن ونوع البدائل التي أتى بها مكانها. كان منزل گولدانـچـي قد تغيّر، حتى إن كاميران كلما دنا من بابه شعر برعدة باردة تسري في جسده. لقد كان أكثرهم إحساساً بشيخوخة فِكرت وشيخوخة الجدران وامّحاء الألوان وهزال الأشجار في باحةِ الدار. ذلك اليوم حين رقى إلى الطابق العلوي، أدهشه كلُّ ذلك العدد من الطيور التي كانت تغرِّد في وقتٍ واحدٍ، عشرات الأقفاص المتنوعة مرتَّبة بطريقة هندسية تشبه ترتيبَ الكتب في الخزائن وعلى الرفوف في مكتبتها القديمة. كانت الأعمدة والرفوف مصفوفة بالطريقة ذاتها إلى جانب بعضها وفوق بعضها بعضاً. دُهشَ كاميران حين رأى أن سوسن كانت قد كتبت فوق كل قفص من الأقفاص الأسماء اللاتينية للطيور في داخله، تلك الأسماء الثقيلة الطويلة التي لم يكن أحد قادراً على حفظها. ورغم رائحة الأقفاص النفاذة التي كانت تفوح في الغرفة، إلا أنه كان يشعر بها بغيضة وحادّة. كان من الواضح أن سوسن، من أجل تخفيف الروائح الطبيعية، قد رشّت في الغرفة عطراً ما قد تكون اشترته من أحد دكاكين العطارة في المدينة. أُعجب كاميران بشدة بمنظر تلك الطيور وطريقة ترتيبها بحسب أحجامها وألوانها. وكانت سوسن كعادتها واقفة في طرف تلك الغرفة الواسعة تنتظره. كانت المرة الأولى التي يرى فيها سوسن وقد وضعت ماكياجاً حقيقياً على وجهها وهي ترتدي ثوباً أزرق فاتحاً طويلاً يكشف عن أجزاء من كتفيها، وكانت المرة الأولى التي يرى فيها ذراعيها النحيلتين والمرة الأولى التي تقع عيناه

فيها على أجزاء مخفية من بشرتها الصافية البيضاء بشكل يفوق التصور.

في ذلك اليوم، ودون أن تبدو على وجهها أي علامة من علائم الابتهاج الحقيقي، استقبلته سوسن ثم أعدّت له كأساً من الشاي المعطَّر وجلست مواجِهة إياه وقالت: «سيد كاميران، أظنك تعلم لـما أرسلتُ في طلبك. يجب أن تعلم أنني واثقة أن لدى الرجال في مثل هذه المسائل حدساً لا يخطئ، وخاصة لدى رجلٍ مثلك أنفق كل طاقته وسنوات من حياته في ملاحقة طيور العالَم واصطيادها». ضحك كاميران وقال: «سوسن خان، أنا رجل متواضع لكنكِ لستِ امرأة متواضعة، لستِ امرأة سهلة، ولذلك فبإمكاني تخمين سبب دعوتكِ إياي». عدّلت سوسن قليلاً من وضعية جلوسها وقالت بهدوء: «كلا، ليس الأمر كذلك... أنا لستُ امرأة معقَّدة، ولذلك فقد طلبتُ لقاءك حتى أقول لك إنني أريد الزواج بك...». نهض كاميران وقال: «سوسن خان... أنتِ تثلجين صدري بهذا الكلام، بل إنكِ تجعلين مني أسعد رجل في العالم». قالت سوسن: «اجلس يا كاميران... أرجوك اجلس، فهناك كثير مما يجب أن أقوله». فجلس كاميران وهو لا يسمع صوتاً باستثناء قلبه وهو ينبض وتغريد الطيور من حوله. تابعت سوسن: «أنت تعلم يا كاميران أن منصور إبراهيم قد تخلى طوعاً عن رغبته في الزواج بي، مفضِّلاً العودة إلى متابعة أسفاره. قد يكون ذلك خيراً له، ولا أخفي عنك أنه كان أمراً محزناً لي دخولك في

صراع ضد ذلك الفتى، كما يسعدني الآن شعوري أنك نادم على ذلك. لم يعد منصور اليوم يقف حائلاً بيني وبينك... أتفهمني؟ لقد كنتُ أعلم أن يوماً سيأتي وينسحب أحدكم من هذه المنافسة موسِّعاً الطريق أمام خصومه. لقد قلتُ لنفسي إن واحداً منكم على الأقل سينسى حبه إياي بعد أن يرى بعينيه العالم ونساءه الحسناوات ويتذوق من مختلف طيباته. ولكن لا... أنا محظوظة، محظوظة جداً إذ كنتم أنتم الثلاثة عشاقاً حقيقيين... ثلاثة عشاق يرون نساء العالم في أحلامهم ولكن كل منهم يراهنَّ على طريقته».

عدّلت سوسن قليلاً أطراف ثوبها الأزرق وألقت نظرة على الطيور، ثم شهقت بلطف وقالت: «منصور أسرين رأى أن من الخير له أن يتابع رحلته ويتوه في أصقاع الأرض، بدل أن يقضي ما تبقى من حياته إلى جانبي في هذه المدينة الصغيرة الضيقة... كم كنتُ أتمنى لو أنكم جميعاً ندمتم على العودة... لا شك لو أنكم فعلتم ذلك لشعرتُ، كما تشعر أي امرأة في العالم، أنني مجروحة... لا شك أن ذلك كان من شأنه أن يصيبني بجرح بالغ. قضيتُ وقتاً طويلاً وأنا أشعر أنني لا أشبه نساء العالم، وأن مثل تلك الأشياء لا يمكن أن تجرحني. ولكن لا... أشعر أنني كأي امرأة أخرى، امرأة مثل جميع النساء. ولكن لو كنتم الثلاثة ندمتم على عودتكم، لو أنكم لم ترجعوا من رحلتكم تلك، ما كنتُ لأحمل لكم الكراهية في قلبي، بل على العكس كنتُ سأشعر أن آمالي جميعها قد تحققت. قلتُ لكم منذ

البداية أن ترحلوا وتطوفوا العالم، وعندها فقط سوف تفهمون إن كنتم تريدونني في الحقيقة أم لا... أليس كذلك؟ فما معنى أن يختار رجل ما امرأة ما وهو لم يرَ سواها في حياته؟ كاميران، كان الناس فيما مضى في القرى، وكانت خياراتهم محدودة في اختيار شركاء حياتهم؛ كلٌّ من قريته، ولكن الأحوال تغيرت الآن والعالم مفتوح على اتساعه وفي متناول الجميع. دعني أشكرْكَ على أنك لم تنسني خلال تطوافك في كل تلك المدن والبلدان. كان ذلك عملاً نبيلاً من طرفك، وقد منحتي ثقة كبيرة بنفسي... ثقة أنني أستطيع الصمود أمام جميع نساء العالم... أليس كذلك؟ أليس ذلك صعباً؟ لا شك أنه صعب خاصةً بالنسبة لامرأة عليلة مثلي. في الحقيقة إنّ رجلاً يفعل ذلك هو مطمع أي امرأة على وجه الأرض ولكن... لستَ الوحيد الذي فعل ذلك؛ فخالد آمون كذلك ظل يتذكرني... بلى، بل لقد أحبني بجنون أكثر من حبك إياي، وفي آخر حديث دار بيننا، شعرتُ أنه مستعد في سبيل حبه لي أن يفعل أي شيء قد يخطر بالبال. كان يعشقني بحرارة، وكان مع ذلك بارداً تجاه جميع الآخرين. أتفهم ما أقول يا كاميراني سلمى؟ أتذكرُ آخر مرة حين شممتُ فيها راحة يدكَ وشممتُ رائحة بدنكَ ورأسكَ؟ لقد فعلتُ الأمر نفسه مع خالد آمون، غير أن رائحة العالم، على العكس منك، لم تكن تفوح منه، فقد شممتُ من جسدكَ رائحة الغابات والأشجار ورائحة المياه والحدائق... أما هو فلم تكن تفوح منه أي رائحة... فقط رائحة الموت. يجب أن تعرف أنني ذات ليلة قد شممتُ الموت عن قرب،

ولولا تلك الليلة لما أدركتُ أن رائحة خالد آمون كانت شبيهة برائحة الموت. علمتُ من تلك الرائحة الباردة أن خالد مثلنا ورائحته كرائحتنا... رائحتنا نحن سكان هذه المدينة التي لا تختلف في شيء عن رائحة الموتى. لا أحد سواك الآن يحمل رائحة مختلفة. آه... لا يستطيع خالد آمون أن يحب مكاناً أو أحداً في هذا العالم بدوني، ولهذا شككتُ فيه. أعطني يدكَ يا كاميران، ناولني يدكَ حتى أشمها مرة أخرى».

وكما في المرة السابقة، ناولها كاميران يده، فأقبلت عليها تشمّها بانتشاء ثم قالت: «هذه الرائحة حرَّرتك... لقد أرسلتكم بعيداً حتى تخلفوا هذه المدينة وراءكم، حتى تبتعدوا عنها بقلوبكم وأجسادكم... وتطوفوا العالم بأرواحكم ودمائكم... بدمائكم وأرواحكم. آه يا كاميران... كنتُ أريد بعد عودتكم أن أشمَّ هذه الرائحة عالقة بأيديكم. أنا سعيدة جداً من أجلكَ وقلبي راضٍ عنكَ. كاميران، كم تغيّرتَ... لقد غيّرت الدنيا فيكَ أشياء كثيرة أليس كذلك؟».

هزَّ كاميران رأسه بهدوء وأجاب: «بلى، هو كذلك يا سيدتي... لقد غيرتني الدنيا كثيراً».

عادت سوسن إلى مكانها وأغمضت عينيها. كانت الطيور تغرد بشكل جنوني وهي تتنقّل بمرح داخل أقفاصها. أصغت سوسن إليها للحظاتٍ وهي صامتة، ولم تلبث أن قالت وعيناها ما تزالان مغمضتين: «عليكَ أن تجهّز نفسك خلال الأيام

القادمة من أجل العرس... إنه يوم عظيم في حياة كلينا... يوم عظيم جداً». لم يجب كاميران بشيء، ففتحت سوسن عينيها وتابعت: «ولكن قبل إقامة العرس عليك أن تُقسم لي حول بعض الأشياء». فأجاب كاميران بصوت تملؤه البهجة: «سأقسم لكِ».

نهضت سوسن وقالت بشيء من العصبية: «يجب أن تُقسم لي أولاً ألا تطأ قدما منـگوري باباگوره منزلنا، ولا حتى باحة منزلنا، وألا يكون حاضراً في حفلة عرسنا، لأنه قد تسبب بالأذى لكثير من الناس ولا يمكنني أن أغفر له».

قال كاميران بصوت مخنوق: «حسناً... حسناً».

- عليكَ أن تقسم لي كذلك أن تحبَّ جميع الطيور الأخرى كما تحبُّ طيورك.

وللمرة الثانية وبالهدوء والقلب المنتشي ذاته، هزَّ كاميران رأسه بالموافقة:

- حسناً...

- وأن تقسم لي كذلك ألا تقتل في حياتك طائراً في أي وقت ومهما كانت الأسباب والظروف. واعلم أنك يوم تقتل طائراً فإنك تهدم القواعد التي تقوم عليها حياتي معك بصفتي زوجتك.

- أقسم لك أنني لن أقتل طائراً ما دمتُ حياً... أقسم لكِ على ذلك.

- وأن تقسم لي كذلك أنني إذا متُّ أن تتابع من بعدي الاعتناء بهذه الطيور بكل إخلاص وتفانٍ.

- أقسم لكِ على ذلك.

- وعليك أن تقسم لي ألا تحمل السلاح وتحارب مهما حدث في هذه البلاد.

- أقسم لك أنني لن أشترك في أي قتال ولن أحمل أي سلاح حتى آخر يوم في حياتي.

- وعليك أن تقسم لي أنك لن تدهن شعرك ولن تتعطر ولن تلبس ربطة عنق حمراء ولا معطفاً مقلَّماً، وتقسم ألا تنزعج مني إن لم تعجبك طبختي يوماً أو لم أكن قادرة على النوم في فراشك، وإن أنا اشتريتُ كتاباً ألا تعود فتبيعه.

فأجاب كاميران وهو يضحك:

- أقسم لكِ على كل ذلك... أقسم لكِ.

عند ذلك قالت سوسن مبتسمة:

- وعليك أن تقسم أنك ستسمح لي في كل ليلة أن أشم رائحة بدنك، وأن تروي لي كل ليلة قبل النوم حكاية من حكايات العالم.

قال كاميران:

- أقسم لك يا سوسن أن أنفِّذ جميع ما قلتِه.

قضى كاميران حوالي ساعة من الزمن عند سوسن گولدانـچـي. وبعد ذلك شرب كأساً أخرى من الشاي برفقة والدها، عاد إلينا.

قال له فِكرت گولدانـچـي وهما يشربان الشاي: «عليك أن تعلم أن سوسن فتاة عليلة وأنها بحاجة دائمة إلى المراقبة والعناية. إنها لا تحتمل الهموم ولا الصدمات، فإذا كنتَ ترى أن لا قدرة لك على مراعاة قلبها الرقيق فانسحب من الخطبة منذ الآن ولن يلومك أحد. أنت قد طفتَ العالم وتعلّمتَ الصبر والجلَد كما تعلّمت أن تعرف نفسك، ولا شك أنك تعرف الآن إن كنت قادراً على ما طلبتُ منك أم لا. ولذلك فإني أرجوك أن تعيد التفكير في كل شيء... ليس هناك من ينافسك الآن على حب سوسن، وليس هناك من يهمك هزيمته بحصولك على قلب سوسن... نعم يا ولدي، لا تنس أن سوسن فتاة عاشت معظم حياتها وحيدة وقضت عمرها كله بين الكتب... لا تنسَ ذلك أبداً».

فأجابه كاميراني سلمى: «كلا يا فِكرت بك، سوسن ليست في حاجة إلى مساعدة من أحد. بل على العكس فأنا من يحتاج إلى مساعدتها. لقد رجعت من آخر أصقاع الأرض قاصداً قلب ابنتكم، ولستُ نادماً على ذلك، وسأكون في غاية السعادة

إن قبلتموني كفردٍ جديدٍ في عائلتكم ولم تأنفوا من مصاهرة شخص مثلي».

ضحك فِكرت گولدانـچـي وقال: «إن غداً لناظره قريب يا ولدي... لنصبر ونرَ».

بكل المقاييس، كان ذلك اليوم تاريخياً في حياة كاميراني سلمى. حين غادر كاميران منزل گولدانـچـي، كانت على شفتيه ابتسامة كبيرة. وما إنْ وقعت أنظارنا عليه حتى أدركنا أن حكاية سوسن گولدانـچـي وطيورها ستتخذ منذ الآن منحًى آخر.

في ذلك اليوم نفسه، فتحت سوسن ألبومات صورها، وكان عددها قد ناف على الثلاثة، وأخذت تفرز صور خالد آمون ومنصور أسرين واحدة واحدة واضعة إياها جميعاً في ألبوم مستقل بعيد عن الأنظار.

٤٨

قبل أن يذهب كاميران إلى زيارة منزل گولدانـچـي، قال له منـگوري باباگوره: «اسمع يا كاميران، أنا أعلم أن ابنة گولدانـچـي لن تسامحني. أنا لستُ غبياً، وأعلم حق العلم أن مؤخرتي ليست طاهرة كما يجب ولا ألوم الفتاة في كرهها إياي، بل أكنُّ لها الكثير من الاحترام. وأعلم كذلك أنها لم تفهم جيداً طبيعة الحياة في هذه المدينة، ومن الخير لها أنها لم تفهمها... كان (أُسه دوگـل) رحمه الله يقول: أفضل الناس من لم يفهم طبيعة الحياة في هَذه المدينة. فإن من فهمها يكون أمام واحد من خيارين؛ فإما أن يرحل أو يفقد أخلاقه. ومهما يكن ما فعلته في هذه القضية إنما كان في سبيل أن تفوز بسوسن، وأنا أعلم أن الفتاة إن كانت تحبك وكانت عاقلة فستطلب منك أن تبعدني عن ساحة بيتك، إنها لا تريد لك نهاية كنهايتي، وأنا من جهتي فعلت كل ما بوسعي طوال السنوات الماضية كي أضمن لك عيشة كريمة طاهرة حُرمتُ أنا منها. أقسم عليك بمؤخرات جميع الطيور التي جمعتَها من أصقاع هذه الدنيا الحقيرة، لو طلبت منك الفتاة طلباً كهذا فعليك أن تجيبها إلى ما طلبتْ

دون أي تردد أو مماطلة. لا أريد شيئاً سوى أن أراك سعيداً. ليس عندي ولد، وأنا بحاجة في سني هذه إلى أن أشعر أنني قد قدَّمتُ معروفاً إلى شخص ما... أقسم بقبور الأولياء أنني بذلك أسدي معروفاً لنفسي وليس لك. إن أموري على ما يرام كما ترى، وعندي من المال ما يكفيني، ولو شئتُ جمعتُ المزيد، وبوسعي مساعدتك قدر ما تريد، ولكن على أن تعاهدني أن يبقى هذا الكلام سراً بيننا لا تُطلِع عليه أحداً».

كان كاميران يشعر بخجل شديد وهو يستمع إلى كلمات منـگور. كان يتألم كثيراً من هذا الجفاء بين شخصين يحبهما. فطوال السنوات التي قضاها كاميران مسافراً، لم يتأخر منـگور في تزويده بكل ما كان يطلبه من المال والعون. ومن أجل ذلك كان مضطراً، سنة بعد أخرى، أن يتورط في بعض الأعمال المشينة كالتهريب والسرقة. من أجل أن يكون قادراً على تمويل رحلة صاحبه باستمرار؛ قام منـگور بكثير من التجاوزات وخرجت الأمور عن سيطرته في كثير من الأحيان، ولكن بقي كما هو، منـگور الذي يقدم العون دائماً ولكن بطريقته هو، طريقته التي نشأ عليها، بتلك الطرائق التي كان خياله يقوده إليها، وتلك الدروب التي سلكها طفلاً وشاباً وسط حملة السكاكين واللصوص والمقامرين. كان كاميران، من جهته، يعلم حق العلم أنه ما كان ليكمل رحلته تلك لولا مساعدة منـگور، بل قد لا يكون قادراً دون مساعدته على حل مشاكل الحياة التي ستواجهه مستقبلاً. كان يدرك تماماً أن من ساعده

حتى استطاع أن يتحول إلى إنسان آخر لم يكن فقط سوسن والكون الكبير والطيور، ولكن كذلك منگوري باباگوره.

حالما عاد إلينا كاميران وأبلغنا بالخبر النهائي بشكل دقيق وواضح، انطلقت الاحتفالات هنا وهناك، ودامت الأفراح ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ متصلة أمام مقهى «پـَولَي آزاد» وبيت كاميراني سلمى، كما أمضينا ليالـيَ مفعمة بالسُّكْر والأغاني في قبو فندق باوَجان، وبقينا نحتفل حتى الصباح في صخب جنوني وقصف لا يهدأ. أما في النهار فقد جابت سيارات المحتفِلين والباصات التي تحمل أفراداً من عائلاتنا نساءً وأطفالاً مرتدين أبهى ثيابهم شوارع المدينة مرات كثيرة. وبلغت الاحتفالات أوجها في اليوم الذي تم فيه عقد القران. وكانت حماستنا المفرطة وهتافاتنا ورقصاتنا الهستيرية وسُكرنا وتقيؤ بعضنا مصدر إزعاج للجوار. ما زال معظمنا حتى الآن محتفظاً في ألبوماته بالصور التي تم التقاطها في تلك الأيام، والتي ستظل ذكراها خالدة في قلوبنا إلى الأبد. لطالما شهدنا احتفالات وأعراساً، وكان كلنا أبناء تلك الأجواء، أجواء الرقص على الطرقات والصخب المجنون والسُّكر الذي لا يعرف الحدود، إلا أننا لم نشهد من قبل احتفالاً بتلك الحرارة والعظمة. وكنا جميعاً نرى، بشكل من الأشكال، في تغريبة السنوات الثمانية التي قام بها «عاشقنا» مناسبة أسطورية تستحق الاحتفال والسُّكر والتقيؤ. طاف بعضنا بشوارع المدينة معلَّقاً على صدره صوراً لطيور كاميراني سلمى، وفي رؤوسنا جميعاً كانت تطوف فكرة

واحدة هي أننا يوماً ما قد نحصل على فرصة مشابهة نجوب بها العالم كما فعل كاميران. في أوج السُّكر والرقص، كنا نفكر في السفر حول العالم وزيارة الممالك والبلدان البعيدة بلداً بلداً مثل كاميران، لنعود في نهاية ذلك المطاف عودةً أسطورية كعودته هذه.

بعد ذلك بخمسة عشر يوماً، أقيم العرس المنشود، وأصرّت سوسن أن تكون ليلتهما الأولى كعروسين في منزلها، وبالذات في غرفتها في الطابق العلوي حيث أقفاص الطيور. ورغم تدخل أفرادٍ من عائلتها وإلحاح شديد من أخوات كاميراني سلمى الذين اقترحوا عليها قضاء ليلتهما الأولى في الفندق، إلا أنها رفضت. كانت عنيدة كعادتها ومصممة أن تكون المرة الأولى في حياتها التي تتجرد فيها من ثيابها من أجل رجل على مرأى من طيورها. وكان من المقرر أن ينتقلا بعد الأسبوع الأول إلى منزل فخم جداً كان كاميراني سلمى قد استأجره. كان المنزل في حقيقته قصراً كبيراً سبق أن اشتراه منـكور بالأموال المنهوبة وفي فترة الارتفاع الجنوني في أسعار العقارات. كان عبارة عن منزلين مدموجين وله باحة بمساحة ستمئة متر مربع وحديقة خلفية واسعة. وكان منـكور قد قرر منذ البداية أن يسجِّل ذلك القصر باسم كاميران رسمياً، لكن هذا الأخير رفض ذلك بشدة وصمم على أن يقيم في القصر مستأجراً، تاركاً صك الملكية باسم صاحبه، فوافق منـكور على ذلك، لكنه اشترط إخفاء ذلك عن سوسن. كان منـكور يتخطّى شيئاً

فشيئاً النصف الثاني من عقده الخامس دون أن يكون له وارث. كانت له دار أخرى في وسط المدينة لم يكن يستطيع إخلاءها، فقد كان أعدَّها حتى تكون هديته الأخيرة التي سيقدمها إلى كاميران، ولكنه اكتشف قبل يوم العرس بقليل أن تلك الدار ما تزال في حاجة إلى مزيد من التنظيف والإصلاحات والوقت حتى تصبح جاهزة للسكنى.

كان القصر فسيحاً وجميلاً للغاية. وحين وقعت عينا سوسن عليه للمرة الأولى، اقترحت على كاميران أن يبني في طرف الباحة كوخاً كبيراً من أجل الطيور، وأن ينقل إليه جميع تلك التي كانوا أودعوها في المستودع. في الحقيقة، كان تنفيذ ذلك يتطلب عملاً كثيراً، لكن العمال والحرفيين وعدوه أن ينجزوا هيكل البناء خلال أسبوعين، وكذلك طلب الحدّادون المهلة عينها من أجل تجهيز الأقفاص، وكانت سوسن تشرف بنفسها على طبيعة المكان وهندسة توزيع الأقفاص. كان عليهم الانتظار حتى يصبح المكان جاهزاً من الداخل والخارج من أجل استقبال الطيور، وأن يضمنوا وصول ضوء الشمس وحرارتها إلى كل شبر، ويضمنوا وسائل الوقاية من البرد. وكذلك تجهيز أحواض صغيرة من أجل بعض الطيور، ووضع النباتات بشكل دائم من أجل بعضها الآخر وإعداد مكان رطب وهواء منعش لبعضها الآخر.

كان على فِكرت گولدانـچـي إخلاء منزله من أجل أن تقيم فيه ابنته وصهره الجديد، رغم عدم اقتناعه مطلقاً بفكرة إقامة

عروسين متزوجين حديثاً وسط كل تلك الأقفاص. ولم يكن ليسعده، وهو الطاعن في السن، أن يتشرد خارج منزله لمدة أسبوع. ولكن كما كان يحدث دائماً، انصاع الجميع أمام عناد سوسن وتصلبها، ولم يكن أمام الشيخ فِكرت إلا أن ينتقل خلال ذلك الأسبوع للإقامة في منزل ابنته پروشه وصهره الدكتور رفعت. لأن سوسن كانت تعلم أنه في وقت قريب سيتم إخلاء هذا المنزل ويتم تأجيره، ولأنها منذ تسع سنوات وهي تفكر في هذا المنزل وتتخيله وتحلم به وتلج داخل الصور وتطوف العالم من خلالها، كان مهماً بالنسبة إليها في هذا المنزل بالذات، في المكان الذي انتصبت فيه مكتبتها زمناً طويلاً، في الغرفة التي لطالما تنزهت في داخلها برفقة تصاوير آريان جودت، في المكان الذي كانت تلتقي فيه المرة تلو الأخرى بخُطّابها، في المكان الذي غرَّدت فيه الطيور وعاشت... في ذلك المكان بالذات كانت تريد أن تفقد عذريتها.

أما تفاصيل ما وقع في تلك الليلة فقد بلغتنا عن طريق إحدى صديقات پروشه، التي كانت قد سمعتها بدورها من فم سوسن مباشرة.

ذات مساء من شتاء عام ١٩٩٥، دخل كاميراني سلمى منزل سوسن گولدانچي ولم يخرج منه مدة أسبوع كامل. لم تكن غرفة الطابق العلوي في المنزل تحتوي سوى على سريرين كبيرين مفروشين على الأرض. ذلك المساء، كانت الطيور تغرد بحبور وابتهاج حتى إن صوت غنائها كان مسموعاً في

بعض الشوارع القريبة المحاذية للمنزل. والغريب أن أصواتها كانت تعلو باستمرار.

حين تجرَّد العروسان من ثيابهما، علت تغريدات الطيور أكثر فأكثر حتى كان ليخيل لأي عابر من أمام منزل گولدانـچـي في تلك الساعة أن طيور العالم بأسره قد هجرت غاباتها وتجمعت في غرف منزل گولدانـچـي وباحته. في تلك الليلة، لم تفعل سوسن شيئاً باستثناء الإصغاء طويلاً إلى صوت ذلك التغريد وشم رائحة جسد كاميران العاري الذي لم يكن لرائحته مثيل في طول هذه المدينة وعرضها. كانت تفوح منه رائحة العالم والدروب البعيدة وعبق الطبيعة والليل. كانت مزيجاً من ضوء القمر وعَرَق الجسم البشري، رائحة الحشائش الغافية في المروج البعيدة، رائحة خشب المراكب الطري، رائحة القطارات القديمة والفلاحين الهاجعين في مقطوراتها، رائحة العالم السحرية، رائحة غامضة أشبه بروائح بتلات الورد كانت تفوح من جسد هذا الرجل. كانت تلك الروائح تمتزج بغناء تلك الطيور وبتغريد البلابل البرية وشدو العنادل، ومعها الأنغام اللطيفة التي تطلقها عشرات الأنواع من العصافير النادرة... كان كل ذلك كافياً حتى تستيقظ الرغبات الطبيعية المدفونة في أعماق سوسن، وتنكسر واحدة بعد أخرى تلك الأقفال الفولاذية القديمة على الأبواب المفضية إلى جنان جسدها الأبيض البض.

لم يكن صغر حجم نهديها هو ما أذهل كاميراني سلمى،

ولكن حلماتها التي انتصبت في الحال صلبة شامخة، عنقها الجميلة التي بدت له أطول مما كان يظن وهو يراها بثيابها، رشاقة جسدها ودقة خصرها، وعمق سرتها كانت أجمل بكثير مما كان يتخيله. حين التصقا ببعضهما بعضاً للمرة الأولى في حياتهما، لم تشعر سوسن بشيء... كانت ما تزال تصغي بروحها إلى غناء الطيور من حولها وتشم بعمق رائحة رجولة كاميران، ما جعلها لا تشعر تقريباً بذلك الألم الخفيف اللذيذ الذي أخذ بعد ذلك يشتد شيئاً فشيئاً ليعود فيخفَّ تدريجياً.

شعرت سوسن أن الطيور شمَّت رائحة الدم قبلها وقبل كاميران، وبقيت لحظات مغمضة العينين تستشعر من خلال غناء الطيور ورفيف أجنحتها انتشار رائحة عذريتها في أرجاء الغرفة... وأخيراً حين فتحت عينيها كانت قد تحولت إلى سيدة.

في اللحظات التالية، رأت كاميران طيفاً... شعرت أن رائحة جسده بدأت تصبح أكثف من السابق ونظراته أكثر بوهيمية، وشهدت بعينيها تعاظم حضور العالم كله في يديه اللتين كانتا تعبثان بطفولية بحلمتي نهديها. كانت واثقة في تلك اللحظات أن أحد أقدم أحلام حياتها يتحقق الآن... حلم طفولتها الباكرة بأن يكون زوجها رجلاً رحّالة... وها هو العالم الآن... العالم بأسره، بكل رائحته وصوته وكيانه كان في غرفتها وفي جسدها، وها هو يسيل أكثر فأكثر متسرِّباً إلى عمق أعماقها.

منذ تلك الليلة، لم تكن سوسن لتنام في سرير كاميران بدون وجود تلك الطيور. أصوات تلك الطيور كانت هي القوة التي تجعلها تستلقي على ظهرها بكل سهولة وطمأنينة، وتحل بكل نعومة جميع أقفالها المحكمة وتحطيم جميع سلاسلها وقيودها من الداخل. لم تكن لتتخيل أي نشوة حقيقية في تلك اللقاءات، ولا أن تشعر بأي رعشة حقيقية في لحظات الجماع الأخيرة بدون شدو تلك الطيور.

في ليالي ذلك الأسبوع الأول، توصلت سوسن إلى قناعة تامة بأن على المرأة أن تطوف العالم وتأتي بكل هذه الطيور إلى غرفتها حتى يمكنها الاستمتاع بالنوم في سرير واحد مع رجل. فبدون وجود كل هذه الروائح العابقة والأصوات المفعمة بنداء العالم وصراخه الوحشي، كان من الصعب عليها بوصفها امرأة أن تتعرف إلى جسدها... أن تفتح مغاليقه وتنهل منه كل تلك اللذة.

٤٩

بعد عشرة أيام، انتقل العروسان إلى منزلهما الجديد. كانت سوسن مصمِّمة على أن يقوم والدها بعرض منزله للإيجار ويأتي للإقامة معها. لا شك أن فِكرت گولدانـچـي كان راغباً في قضاء شيخوخة هادئة إلى جانب ابنته الحبيبة، غير أن حداثة معرفته بكاميران كانت تجعله قلقاً من حدوث سوء تفاهم بينهما في قادمات الأيام مما سيعكِّر الطمأنينة التي ينشدها. لكن إلحاح سوسن وكاميران دفعه إلى الموافقة دفعاً. لم تكن سوسن تتخيل حياتها بدون والدها، وكانت تلك من بقايا أفكارها الطفولية أن تبقى في كنف والدها حتى النهاية.

خلال أربعة أيام، كان كاميران قد استكمل تأثيث البيت؛ فنظَّم الغرف ووضع كل شيء في مكانه، فضلاً عن مظاهر الزينة والديكور المناسبة. في الطابق السفلي من المنزل، رتّب كاميران لوالد زوجته مكاناً طيباً للإقامة. كان يوم انتقالهم إلى منزلهم الجديد يوماً حافلاً بالنسبة لنا، فقد حظينا مرة أخرى برؤية عدد كبير من تلك الطيور الجميلة محمولة في شاحنات ضخمة، واستمتعنا بالإصغاء إلى شدوها وتغاريدها خلال سير

الشاحنات على الطريق. كنا مسرورين أن منزل سوسن الجديد كان في موقع يمكن معه للعابرين من الجهة الأخرى رؤية بهوه وحديقته بشكل أفضل. باستثناء الطيور، تم شحن جميع أثاث منزل گولدانـچـي في شاحنة واحدة. القطعة الوحيدة الثقيلة كانت «خزانة الذكريات المرة»، التي كان يجب نقلها بكل حذر وإيصالها دون خدوش إلى موضعها الجديد. كانت خزانة مملوءة باللوحات، مصنوعة من الخشب الغليظ الثقيل، ولم يكن نقلها من مكانها بالأمر السهل. كان على أربعة رجال حملها إلى مكانها المخصص في المنزل الجديد. لم تكن تلك الخزانة مجرد ذكرى من حياة العائلة في بغداد، لكنها كانت خزانة جميع الخواطر ومكان جميع الذكريات الحزينة التي كانت مقدسة لدى الابنتين ووالدهما. في الحقيقة، لم يكن في منزل گولدانـچـي، باستثناء أقفاص الطيور وخزانة الذكريات المرة، ما يستحق النقل. شحنوا طاولة سوسن وكراسيها البالية وحملوا الأريكة التي كانت في غرفتها كأنها قطعة ثمينة من الذكريات، فوضعوها في غرفة مستقلة في المنزل الجديد وأغلقوا بابها.

كانت سوسن في منزلها الجديد سيدة حقيقية مسموعة الكلمة. فمنذ الساعات الأولى من وصولها، وبعد أن رتبت المزهريات في مواقعها المناسبة، انهمكت في إعداد أرضية المكان الواسع المخصص لإقامة الطيور. كانت سعيدة أن يتوفر هذا المنزل على مساحة واسعة كهذه يمكن تخصيصها للطيور. في الطابق العلوي، قامت بتكليف بعض العمال

بهدم الجدار الفاصل بين غرفتين كبيرتين ليتحول المكان إلى قاعة كبيرة وضعت فيها أقفاص طيورها. كانت تلك الأيام التي انشغلت فيها سوسن بإعداد مكان للطيور من أجمل أيام حياتها وكانت تشرف بنفسها، بصوتها الهادئ ونظراتها الباردة وبشرتها الباهتة، على إنجاز معظم الأشغال يعاونها في ذلك والدها الكهل، وكان ذلك مما يسرُّ كاميران الذي يسعده أن يكون كل شيء في المنزل على هوى سوسن. وعلى هذا المنوال، لم يمضِ شهران حتى كان بيت الطيور جاهزاً مع تخصيص مساحة مناسبة لحركتها وطيرانها بأمان.

أتيح لنا من جديد وفي ساعة ظهيرة، رؤية الطيور حين تم نقلها من مستودع عزت گولدانچي القديم، وعبرت الشاحنة التي تحملها شوارع المدينة كلها قبل وصولها إلى مكانها الجديد. كانت عملية نقل الطيور واحدة من الرحلات الأسطورية النادرة التي قلما تشهدها المدينة. مرة أخرى، خطفت تلك الطيور قلوب مئات المشاهدين المتلهفين لرؤيتها، طيور البوم الضخمة واللقالق الكبيرة التي كانت مناقيرها الطويلة تبرز من داخل الأقفاص، وتلك الببغاوات العملاقة التي كانت أحجامها كأحجام النمور، وتلك الصقور التي كانت أجنحتها تتلألأ كالذهب وإناثها الجميلة المتجهمة. لقد أصابنا كل ذلك بالذهول من جديد، وأعادت رؤية تلك الطيور إلى ذاكرتنا أحلام السفر واللهفة لمشاهدة جمال العالم. تابع الكثير منا موكب الطيور بهدوء حتى لحظة وصوله

إلى أمام باب منزل سوسن الجديد. لم نكن نشبع من النظر إلى تلك الطيور. لقد شعرنا منذ ذلك اليوم أن تلك الطيور مباركة، ومن حينها أصبحنا نطلق مسمى «الطيور المباركة» عليها. بلغ من سعادتنا بتلك الطيور أننا كنا مستعدّين أن نطوف الشوارع ليلاً نهاراً من أجل الفرجة عليها. منذ ذلك اليوم، استأجرت الآنسة عاملين من أجل مساعدتها في العناية بالطيور؛ فقد كانت تلبية احتياجات تلك الطيور أمراً أكبر مما يمكنها أن تقوم به وحدها. أما الطيور الصغيرة فقد بقيت، كما في السابق، في الطابق العلوي تحت إشرافها الشخصي المباشر.

بعد انتقاله إلى المنزل الجديد، كان على كاميراني سلمى البحث عن عمل يعتاش منه، وحين تكلم مع منـگور في هذا الشأن قال منـگور إن حالة السوق هذه الأيام صعبة للغاية، ومن الصعوبة بمكان العثور على عمل بدون مساعدة أحد الموسرين الكبار، وأضاف أن لا عمل مفيد في هذه المدينة سوى بعض أعمال الصرافة والمتاجرة بالعملة. كان منـگور يفكر في شراء دكان في السوق وتسليمها إلى كاميران حتى يقوم فيها بأعمال بيع وشراء العملات ويأخذ الأرباح لنفسه، على أن يعيد إلى منـگور، بين الفترة والأخرى، وكلما استطاع ذلك، جزءاً مما أنفقه. كان كاميران خلال السنوات الماضية قد تعرَّف، بالإضافة إلى الطيور، إلى معظم أشكال العملات في العالم، ولطالما قام بتبديل العملات في كثير من مصارف العالم وفي الأسواق السوداء في معظم مدن العالم خلال

سنوات رحلته الطويلة، وكانت عنايته بتبديل العملات جزءاً مهماً من أسرار نجاح رحلته. منذ ذلك الوقت، أدرك بشكل عميق كيف تساعد عملات العالم بعضها بعضاً، لكنه لم يكن يدرك وهو يولج المفتاح في قفل باب مكتبه في أول يوم من العمل، أن هذا المكتب الصغير سيصبح ذات يوم قبلة جميع الراغبين في السفر حول العالم.

في تلك الأيام، كانت بدايات أولى موجات الهجرات الكبيرة، ولم تكن قد توضحت معالمها بعد. ولكن بعد أربعة أشهر من ذلك اليوم أصبحت أحاديث الهجرة مسعًى يومياً وخبراً ساخناً على كل شفة ولسان في حياتنا، ففي الفترة الواقعة بين عام ١٩٩٥ وبين دخول الأمريكان إلى بغداد وسقوط صدام حسين، هاجر من مدينتنا وحدها أكثر من مئة ألف شخص إلى مختلف أصقاع الأرض، وكانت تلك هي أكبر نسبة مهاجرين من مدينة من مدن البلاد. وأصبح من الواضح، بعد عودة الطيور، أن كارثة الهجرة قد أفلتت من عقالها، وكأن عودة الطيور قد حرّكت فينا جميعاً، بشكل من الأشكال، غريزة الطيران. وكأن حلم سوسن الصغير ذاك بحماية خُطّابها من الحرب قد أصبح حلمنا جميعاً.

لم يمضِ وقت طويل على افتتاح مكتب كاميران، حتى وجد لنفسه، دون أن يدرك كيف ولماذا، مصلحة جديدة كبيرة ومربِحة إلى جانب عمله في بيع وشراء مختلف العملات العالمية. كان عليه أن يجلس فيتحدث عن العالم وبلدانه

لأولئك الراغبين في السفر بعيداً، وخلال شهرين، توسع مكتب كاميران إلى ثلاث غرف مستقلة، واحدة مختصة بصرف العملات الأجنبية، والأخرَيان «مكتب هجرة» حيث يجلس كاميران في واحدة ورفيقه الإيراني في الأخرى، ويعملان في تزويد طلاب الهجرة بالمعلومات الضرورية عن العالم. كانت جدران الغرفتين مغطاة كلها بصور المخططات وخرائط البلدان.

كان طلاب الهجرة يأتون إلى هذا المكتب وفي رؤوسهم تدور آلاف الأسئلة. كل منهم يسأل عن طريق أو وجهة وعن أسلم الطرق لاجتياز الحدود والأنهار والبحار، فكان كاميران يحدثهم بكل صدق ووضوح عن جميع طرق العالم ومسالكها ومخاطرها، أسماء المدن وعناوين الفنادق والمحطات الرئيسية. يسدي لهم النصائح حول أوقات السفر وكيفيته وأين يجب أن يناموا، وكيف عليهم الحفاظ على نقودهم من اللصوص والمحتالين. يشير لهم على الخرائط إلى مواقع نقاط السيطرة وانتشار قوات الشرطة، ويرشدهم إلى أسلم الطرق التي عليهم أن يسلكوها من أجل الوصول بأمان. يقترح عليهم الساعة المناسبة للانطلاق، ويخبرهم عن عدد الساعات التي سيقضونها على الطريق، المسافات الدقيقة بين المدن، أسماء المهربين حول العالم من أجل مساعدتهم، أسماء أصحاب الزوارق والمراكب، عناوين أصحاب السيارات التي يعمل أصحابها في نقل المسافرين عبر الحدود. معلومات

عن المناطق الحارة والمناطق الباردة، اختلاف الطرق إلى البلدان المختلفة والتنبيه إلى خطورة بعضها، معلومات عن شرطة مختلف البلدان وطرق قبضهم للرشاوى. كان يُعلِّمهم واحداً واحداً كيف يتصلون من تلك البلدان بأهلهم وأقاربهم في الوطن، وإذا ألقي القبض عليهم ماذا يجب أن يقولوا في إفاداتهم، إن شعروا بالخطر كيف يفرون منه وكيف وأين يختبئون وأي ألبسة عليهم أن يرتدوا... إلخ.

أما رفيقه الإيراني فكان يساعد الراغبين في النساء والمتعة على الوصول إلى غاياتهم. كان يشير لهم بإصبعه على الخرائط إلى عناوين المواخير وبيوت الهوى في جميع مدن العالم، كيف يتقربون إلى الغانيات، معلومات عامة عن نساء كل بلد على حدة، بعض دروس الأتيكيت وأصول التعامل معهن، وصولاً إلى تعليمات خاصة عن كيفية التصرف في الفراش. كان البعض لا يبقى في المكتب أكثر من دقائق قليلة، بينما يمضي آخرون ساعات في تلقي تلك الدروس والتعليمات. لم يكن كاميران وشريكه يطلبان أي مال لقاء إسداء تلك الخدمات والمعلومات للزبائن، ولكن كل قادم كان يترك لهما على طاولة المكتب مبالغ محترمة من باب الامتنان، ناهيك عن أن معظمهم كان يقوم بتبديل نقوده إلى العملة الأجنبية التي سيحتاجها في رحلته أثناء وجوده في هذا المكتب.

لا أحد يعرف كيف ولا من أين خرجت أول مرة شائعة أن ريش الطيور التي في منزل كاميران تجلب السعد، وأنها خير

عون للمسافرين خلال رحلاتهم حيثما كانوا. ما حدث هو أن هذه الأسطورة قد ظهرت فجأة من مكان ما وأخذت بالانتشار في المدينة كالنار في الهشيم؛ فكان معظم طلاب الهجرة بعد ذلك يفِدون إلى مكتب كاميران ليس من أجل المعلومات وحسب ولكن كذلك ليطلبوا منه «ريشة البركة». تلك الريشات التي كانت في الحقيقة بلا قيمة لكنها لم تكن كذلك بالنسبة إلى طلاب الهجرة، فقد شاع بينهم اعتقاد أن روح الطائر صاحب الريشة ستساعدهم حيثما كانوا في السهول أو الغابات أو على أطراف الدنيا. فكان كاميران يجمع كل يوم جميع الريش الذي يتساقط داخل أقفاص طيوره، ليضعه في كيس ويأخذه معه صباحاً إلى المكتب ليوزعها على زبائنه قبل انطلاقهم في رحلتهم. في تلك السنوات، كان معظم الذين اجتازوا حدود إيران وتركيا وسوريا في طريقهم إلى بلدان المهجر، كثير ممن قطعوا الحدود سيراً على الأقدام من تركيا إلى اليونان ووصلوا حتى إلى أثينا، كثير ممن وصلوا ليلاً عن طريق التهريب إلى أطراف إيطاليا ودخلوا إلى مدن كبرى مثل البندقية وروما، كانوا يحملون في جيوبهم ريشة مأخوذة من أحد طيور سوسن خان.

عاش كاميران وسوسن في تلك الفترة حياة هانئة، وفي تلك الفترة أيضاً كانت پـروشه فِكرت تترك صغيرها هُزار حتى ساعة متأخرة في منزل سوسن ليكون في رعاية خالته وجدّه. وكانت جميع الحكايات التي يرويها كاميران لسوسن ليلاً تترجمها

هي في النهار إلى لغة الأطفال وهي ترويها لهُزار الصغير. كان كاميران في كل ليلة يروي لسوسن حكاية اصطياده لكل طائر من طيوره، وكان يريها في بعض صناديقه أدواته المخبأة التي كان يستخدمها في الصيد حينها، بدءاً من الأحابيل المتواضعة وحتى تلك البنادق الصغيرة التي كانوا يستخدمونها في إفقاد الحيوانات والطيور وعيها، فخاخ ذكية كانت تحتوي على كاميرات إلكترونية ترشد صاحبها إلى أماكن الطيور، فخاخ خاصة تقبض على أقدام الطيور ولكن دون أن تتسبب لها بأي أذى، بخاخات مخدرة يتم رشها في المكان عبر خراطيم خاصة موصولة بها فتصيب الطيور بالدوخة ويسهل القبض عليها. في كثير من تلك الليالي وبعد فراغهما من الحب وشؤونه، كان كاميراني سلمى وزوجته يقضيان ما تبقى من وقتهما حتى الصباح في محاولة ترجمة أسماء طيورهم إلى اللغة الكردية، فكانت سوسن تذكر الاسم اللاتيني ثم يبدأ الزوجان في اقتراح اسم كردي بديل تبعاً لنوع الطائر ولونه وشكله ومكان عيشه. لقد كانا في غاية السعادة، وكانا يريان أن القدر قد اختارهما حتى يعيدا تسمية العالم من جديد ولكن بالكردية هذه المرة. كانت سوسن تقول: هذا «باروكوراكس بيروكوراكس»، ثم يأخذ كاميران بوصفه بشكل دقيق ليعيد الزوجان تسميته تبعاً لذلك الوصف، فيصبح اسم الطائر في نهاية الأمر «غراب الألب». وتقول سوسن: هذا «فيراتيركولا آركيتيكا»، فيترجمانه معاً إلى «البغاء الغارق» لأنه كان يشبه البغاء وساقاه كساقي الإوزة ويمكنه الغوص في الماء. «گيمنوگيپس كاليفورنيانوس»،

صار اسمه «طيف العُقاب» لأنه كان على وشك الانقراض، وكان كلما بسط جناحيه الشبيهين بجناحي العنقاء ظهر بياض إبطيه كأنهما يدا طيفٍ طائر.

كان إطلاق الأسماء الجديدة على الطيور واحدة من المتع العظيمة في حياتهما. في تلك الليالي، ظهرت إلى الوجود أسماء «البومة المتجهِّمة» و«بوم باشا» و«البلبل الأزرق» و«العُقاب الحجري» و«الدجاجة الياقوتية» و«دوري الورد»، وعشرات الأسماء الأخرى التي ابتكرها الزوجان من أجل طيورهما السعيدة.

كانت إعادة تسمية الطيور بالكردية، بالنسبة إلى سوسن وكاميران، محاولة لإعادة تصحيح العالم، وكأنهما كانا يرميان من وراء إطلاق الأسماء على الأشياء الغامضة والمفقودة والغائبة في العالم إلى امتلاك تلك الأشياء، وجعل تلك الطيور جزءاً من سكنة مدينتهما. حتى ذلك الوقت، لم تكن سوسن تعرف من متع الحياة سوى النظر والسمع والشم، لكنها بإطلاق هذه الأسماء تعرَّفت إلى متعة جديدة في حياتها... متعة صنع الحياة. كانت كل تسمية تخلق تقارباً جديداً، وكان كل طائر يحصل على اسمه الجديد يصبح أجمل في عيني سوسن وأقرب إلى قلبها. ساعدت تلك الأسماء الكردية، بشكل أو بآخر، على تحطيم جدران الشعور بالغربة التي كانت تفصلها عن طيورها، وكأنها بتلك الطريقة جعلت من العالم مسكناً حقيقياً وواضحاً لها، كأنها بفعل ذلك قد حققت جزءاً من

حلمها القديم وهو توطين العالم في مدينتها وغرسه في قلبها.

بعد زواج كاميران وسوسن ونقل الطيور إلى مسكنهما الجديد، جاء الدكتور دلشاد شُكُر لزيارتهما ذات ليلة حاملاً معه عشرات الطيور المحنطة الصغيرة والكبيرة. وكان برفقته شخص أصلع وخجول يُدعى «كمال يلدا»، وهو أحد المخلوقات التي لا يمكن العثور عليها إلا في مدينة كمدينتنا. كان كمال هذا يعمل في مهن كثيرة لا تشبه إحداها الأخرى؛ فكان يصلح التلفزيونات وينظم الشعر ويحنِّط الطيور، وفي المساء يعمل سائق سيارة أجرة ويتقن العزف على آلة الأوكورديون. سيكون مقدَّراً لسوسن أن تلتقي به كثيراً في السنوات القادمة، وسيؤدي لها بهيئته الخجولة كعادته جميع الخدمات التي تكلِّفه بها. في تلك الليلة قدَّم الدكتور دلشاد صاحبه بوصفه «خبيرَ تحنيط». وبالفعل كانت الطيور التي حنَّطها في غاية الروعة والجمال والواقعية. فقد كان حنَّطها بطريقة فريدة تظهرها على طبيعتها ساكنة كانت أم هائجة. كان قد ألصق البعض منها بفرع شجرة، بينما نصب البعض الآخر على حجرة ملونة خاصة. بعض الطيور المحنّطة كانت باسطة أجنحتها على هيئة المتأهب للطيران، بينما كان قد جمَّد بعضها الآخر في هيئة تأمل أبدي هادئ. وزَّعت سوسن طيورها المحنَّطة على أرجاء منزلها الكبير، على الطاولات وعلى رفوف معدّة مسبقاً. وفي غرفة الضيوف، وبمساعدة حرفيٍّ في قص الحجارة، علَّقت سوسن بعض قطع الحجارة جبلية اللون

على الجدران وثبَّت إليها عُقاباً ونسراً وبازاً محنَّطين جميعاً، بحيث أصبح يخيَّل للداخل إلى هذا المنزل أنه في وسط طبيعة حجرية جبلية والطيور ترقبه من أماكنها الطبيعية.

ذات يوم قامت سوسن برفقة أختها پـروشه بزيارة كاميران في مكتبه. لم تكن قد رأت من قبل مكاناً بهذا الازدحام. أذهلها منظر المكتب وكل تلك الخرائط المعلقة بالجدران. لم تكن قد رأت في هذه المدينة من قبل مكاناً يضج بالحياة والحركة والصراخ كهذا المكان. كانت سعيدة بذلك. جلست قليلاً وهي تصغي إلى كاميران الذي كان يشرح لأحد زبائنه طريقة الانطلاق من حدود لبنان باتجاه اليونان. ضجة السوق والحماسة والحركة الدائبة زرعت الرضا في نفسها، خاصة أنها اكتشفت قدرتها على الاندماج مع هذا العالم. بعد ذلك، قامت سوسن بتكرار الزيارة، بهيئتها العليلة ورقتها التي يمكن لأتفه الأمور أن تجرحها. كانت تجلس على كرسي وتغمض عينيها وتصغي إلى الجلبة الدائرة من حولها. كانت تشم في بعض الأحيان رائحة لا تنتمي إلى هذه المدينة، رائحة جديدة وغريبة لم تعرف في البداية ما هي، لكنها فهمت بعد ذلك أنها رائحة الحلم... حلم كل أولئك الرجال والنساء الراغبين في الهجرة والسفر بعيداً، أحلام أولئك الأشخاص الذين يحلمون بمدن مختلفة ومروج بعيدة وسفن مبحرة. منحها ذلك إحساساً بأن هذا المكان الذي يعمل فيه كاميران ليس جزءاً من هذه المدينة، بل محطة غامضة لا بد من المرور بها على طريق الوصول إلى بلدانٍ أخرى وعالم آخر.

٥٠

بعد أن غادر خالد آمون المدينة متجهاً إلى إحدى المدن الصغيرة في منطقة بهدينان، لم يكن في قلبه شعور سوى الشعور بالكراهية، كراهية عمياء مصحوبة بحرقة فظيعة في أعماقه. لم تكن بطبيعة الحال حرقة العاشق المولّه، ولكن حرقة من فقد كل شيء، فهو غاضب من الدنيا ساخط عليها. حين وصل خالد إلى منزل أخته الكبرى، بقي عدة أيام لا يغادر فراشه. كان الآمونيون كلهم قد سمعوا بما حدث بالتفصيل وقد آلمهم كثيراً ما حدث لطيور خالد، ولولا أشعار عمر الخيّام وجلال الدين الرومي التي ألقاها على مسامعهم فوزي بـگـي لكان حدث ما لا تُحمد عقباه، إذ كان بعض من شباب الآمونيين الذين شعروا بالعار الذي لحق بالعشيرة عازمين على إرسال مفرزة سرية إلى المدينة للأخذ بثأرهم. عزا بعض منهم مقتل الطيور إلى أمر سري مباشر صدر عن أحد القيادات العسكرية في حزب الاتحاد الوطني، لأنهم يرون في الآمونيين جميعاً دون تمييز أعداء لهم. لكن مسؤولاً محلياً في حزب الاتحاد الوطني أرسل إلى الآمونيين، عن طريق تاجر شاي وسكر، رسالة قال

لهم فيها إنهم بوصفهم حزباً ينظرون إلى تلك الحادثة على أنها خلاف شخصي بين عائلتين، ولا علاقة للحزب بما حدث، مضيفاً أنهم كانوا قد عيّنوا أشخاصاً مناوبين لحراسة خالد آمون طوال إقامته في فندق باوَجان، وذلك خشية أن يتعرض له أحد الغادرين بسوء.

هل ما ورد في الرسالة صحيح؟ وهل هذه الرسالة تمثل رأي الحزب كله؟ لم يكن أحد يعرف على وجه التحقيق إجابة تلك الأسئلة. غير أن الكثير من الآمونيين لم يصدقوا ما ورد في الرسالة، بل كانوا موقنين أن دوافع ذلك الاستخفاف الذي وقع في حق خالد آمون سياسية بحتة. وبرأيهم، فإن لحزب الاتحاد علاقة وثيقة بقرار سوسن فِكرت النهائي في رفضها الزواج بخالد آمون. وقد وقعت في أيديهم بعض الوثائق الدامغة عن اتصالات سرية جرت بين كاميراني سلمى وبعض مسؤولي حزب الاتحاد، وكان ذلك الدليل سلاحاً فعالاً في أيديهم.

بعد عودة كاميراني سلمى، لم يكن صديقه القديم منـكور هو الوحيد الذي حضر لاستقباله، ولكن كذلك «قَپوز جُقلي» الذي يشغل اليوم منصب مدير سجن لدى حزب الاتحاد، وكذلك «ساماني كسرى». وقد أقام له كل منهم على حدة حفلاً ضخماً لتهنئته بالعودة. وفي كلتا الحفلتين، دارت عليهم الأقداح فشرب الجميع وسكروا وأنشدوا كثيراً من الأغاني. سامان وجُقلي كانا من أصدقاء طفولة كاميران، وقد قام أحد هواة إثارة الفتن بعد ذلك بإيصال صورة تجمع كاميران

بصديقيه إلى الآمونيين.

كان خالد آمون يعلم في قرارة نفسه أن لا دور للخلافات السياسية مطلقاً في زواج سوسن بكاميران، وكان موقناً أن الفتاة كانت تبحث عن شيء لم تجده فيه. ورغم نيران الحسد التي كانت تتأجج في صدره، ورغم العار الرهيب الذي كان يشعر به بسبب أن أبناء عشيرته قد دعموه ولم يتخلوا عنه ثانية واحدة طوال ثماني سنوات رغم الظروف الصعبة التي مرت بهم، ومع ذلك فقد خيّب ظنهم وعاد إليهم فارغ اليدين، ورغم أن فوزي بگي أكّد له أنه ليس خاسراً ويكفيه أنه طاف العالم الفسيح ثماني سنوات ورأى ما لم يره أحد، وأن ثروته من الذكريات ستكفيه طوال السنوات الباقية من عمره وأن السفر دائماً غنى الروح والقلب.

بعد عدة أيام من الحزن والعزلة التي فرضها على نفسه، حضر خالد اجتماعاً كبيراً كان الآمونيون قد أعدّوه للاحتفال بعودته والتخفيف عنه. أعلن خالد خلال الاجتماع أنه يبرّئ السياسة من أي دور سلبي في النهاية التي آلت إليها قصته، وأن من يقف وراء كل ما وقع له هو كاميراني سلمى ولا أحد سواه. كان حقده على كاميراني سلمى يفوق الحدود، وكانت أحشاؤه تحترق كلما تذكر الحزن الذي يعانيه هو بينما ينعم كاميراني سلمى في أحضان سوسن فِكرت. وكلما تأمل في أعماق نفسه لم يبصر سوى مشاعر الكراهية العمياء. شيئاً فشيئاً وبمرور الوقت، كان حبه الجنوني لسوسن يتحول إلى صورة أخرى،

هي كرهه الأعمى لابن سلمى، وكان يشعر أن ذلك الحقد قد تعاظم في قلبه حتى لم يعد قادراً على التخلص منه حتى الموت.

في اجتماع الآمونيين، تم عرض لائحة قديمة تتضمن الأسماء التي يجب الاقتصاص منها لمقتل قلندر آمون، وكانت أسماء قَپوز جُقلي وهُشي جُجه وساماني كسرى تتصدر «لائحة الثأر» تلك التي كان الآمونيون قد خطّوا حروفها بدمائهم. الغريب في تلك اللائحة كان ورود اسم منگوري باباگوره في الترتيب الخامس بعد اسم شخص مجهول كان هو مسؤول جميع تنظيمات حزب الاتحاد في المنطقة إبان مقتل قلندر. في ذلك الاجتماع، كان من المقرر إضافة اسم كاميراني سلمى إلى اللائحة، ولكن إضافة اسمه إلى رأس القائمة كان سيبرئ حزب الاتحاد من دم قلندر ويجعل القضية برمَّتها تبدو كأنها نزاع عشائري بحت، لأن جميع أهالي المدينة يعلمون أن كاميراني سلمى ليس عضواً في أي حزب، بل ولا يميل مطلقاً إلى الحديث في السياسة لأنه لا يفقه فيها شيئاً، فإن تغريبته مدة ثماني سنوات وحياته الآن مع سوسن لم تترك له فائضاً من الوقت يدفعه إلى ميدان السياسة، بل إنه كان يخلط بين أسماء الأحزاب وأسماء السياسيين ويلفظها جميعاً بطريقة طفولية مضحكة.

كان لطيف آمون، وهو بطل الآمونيين الجديد الذي كان نجمه يلمع شيئاً فشيئاً، من الرافضين لإضافة اسم كاميران إلى

اللائحة. حاول تذكير خالد عبثاً أنه سبق له أن وقّع على عهد يُلزمه بالانصياع لقرار سوسن النهائي مهما يكن، والآمونيون، كما هو معروف، رجال يفون بعهودهم، ولذلك فعليه أن يتحمل آلامه بصمت وجَلَد.

لكن الكثير من الآمونيين الآخرين كانوا يفكرون بطريقة أخرى، وكانوا يرون أن استخفافاً واضحاً وقع في حق الآمونيين، وأن دماءً قد سُفكت، وأن طيور خالد تعرضت للقتل في وسط المدينة عمداً، ولذلك لم يعد القرار محصوراً بيد خالد وحده وأن جميع الآمونيين قد دفعوا الضريبة من مالهم وبيوتهم وشرفهم، وأن العشيرة بأسرها قد تعرضت زمناً طويلاً للاستخفاف المهين، وأن رؤوس من تسبب بذلك الاستخفاف يلتفون اليوم حول اسم كاميراني سلمى، ولا سبب آخر لذلك الاستخفاف سوى أنه رغبة كاميراني سلمى الشخصية.

كان الحقد الذي ينبعث من أنفاس الآمونيين ورغبتهم الجامحة في الثأر أقوى من أن يستطيع فوزي بكي ولطيف آمون إطفاءها، وكل ما استطاعا فعله في نهاية الأمر هو أنهما نجحا في حذف اسم كاميران من الصدارة ووضعه بعد أسماء قتلة قلندر الثلاثة الرئيسيين.

رغم ذلك الاجتماع الكبير، نأى الآمونيون بأنفسهم عن الحرب التي دارت رحاها في ربيع عام ١٩٩٥، لأنهم كانوا بعيدين عن المدينة من جهة وكانوا، من جهة أخرى، أضعف من أن يتدخلوا فيها لنيل ثأرهم.

بعد أسبوع، كتب أحد الخيّرين إلى كاميراني سلمى رسالة ألقاها أسفل باب مكتبه. كانت الرسالة تخبره عن اجتماع الآمونيين. قرأ كاميران تلك الرسالة عدة مرات، ثم بدون أن يساوره أي خوف أو تردد قرأها لسوسن وقال: «ولكن لماذا؟... لماذا وأنا لم أقم بشيء ضد الآمونيين. قبل ثماني سنوات، طعنتُ منصور أسرين... نعم، ولكني لم أقم بأي عمل ضد الآمونيين». وبدون أن تكون سوسن مدركة لخطورة الموقف، دنت منه فقبّلته وقالت: «لا بأس يا كاميران... لا بأس. لا تدع هذا الموضوع يُحزن قلبك». لقد تعلَّم كاميران خلال سنوات رحلته الطويلة ألا يخشى شيئاً سوى الثعابين والعقارب والعناكب السامة، المخالب التي تشبه السكاكين ومناقير الجوارح الحادة، ولذلك كانت خشيته من البشر لا تكاد تُذكَر. كانت رحلته الطويلة في أرجاء الدنيا قد أضعفت لديه الشعور والمعرفة بطبيعة الوسط الذي يعيش فيه، ولهذا فقد ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتيه وقام بتمزيق الرسالة وهو يقول: «لا شك أن هذا لن يحزنني... لن يحدث شيء».

كانت الأيام التي قضاها سوسن وكاميران معاً أياماً رائعة. طيورهما كانت دائمة المرح والابتهاج والغناء. الطيور التي كانت أزواجاً باضت في أقفاصها وخرجت من تلك البيوض فراخ جميلة مجنَّحة. وكان الدكتور دلشاد شُكُر دائم السؤال عنها والعناية بها.

أصبح لكاميران مكانة جيدة في أوساط عائلة گولدانـچـي، وكان ثراؤه السريع ذاك مصدر سعادة لنا جميعاً.

٥١

طوال سنة ١٩٩٥، كان تغريد الطيور وشدو البلابل عالياً وكنا كلما مررنا من أمام منزل سوسن گولدانـچـي سمعنا أصواتها الشجية المتنوعة. كانت جميع الطيور تغرِّد بابتهاج، وحتى طيور خالد آمون الحزينة كان مزاجها قد تحسَّن، وأصبحت تشارك في تلك الجوقة الكونية المتواصلة إلى جانب الطيور الأخرى.

في ذلك الوقت، كنا قد غيَّرنا اسم منزل السيدة سوسن إلى «قصر الطيور». كان كاميران يستدعي، مرة كل شهرين، مصوراً فوتوغرافياً حتى يلتقط بعض الصور الجديدة للطيور، فضلاً عن أن سوسن ووالدها كانا يلتقطان مرة في كل فصل صوراً جديدة لهما وهما يتحركان بين الأقفاص.

في صيف عام ١٩٩٥، أحضر كاميران أحد أصدقائه الذي كان مصوِّر فيديو حتى يسجِّل له أول شريط فيديو طويل إلى جانب طيوره. كان ذلك أول شريط فيديو يتم تصويره للطيور ولمنزل گولدانـچـي، وقد حصلنا عليه بعد ذلك. يظهر السيد

گولدانـچـي في الشريط رجلاً مسنّاً بشاربه الكث ووجهه الرفيع وقامته المتناسقة مرتدياً بذلة خضراء، وهو واقف أمام قفصٍ طائر ذي منقار ضخم رشيق البنية أخضر اللون، ورأسه وطوقِ رقبته بنّيان. كان گولدانـچـي والطيور يشكلان ثنائياً عجيباً.

كلاهما بدا في شريط الفيديو وحيداً ومنزوياً ولكن مغتبطاً وراضياً. الطائر من النوع الذي يعيش في جزيرة صغيرة في جنوب آسيا تسمى «ناركوندام»، وهو يعيش في تلك الرقعة الصغيرة من العالم، ولا يوجد مثله في أي مكان آخر في الدنيا. كان گولدانـچـي مذهولاً بمرأى ذلك الطائر، وكان العجوز كلما نظر في عيني ذلك الطائر الذكي تحركت في نفسه رغبته الدفينة في السفر إلى تلك الجزيرة الصغيرة والتجوال فيها والعيش هناك إلى جانب هذه الطيور في أحضان الطبيعة النقية. كانت غرابة هيئة الطائر، في الصورة، تحاكي إلى حد كبير غرابة هيئة فِكرت گولدانـچـي وتجسدها بشكل أوضح.

في صور تلك الأيام، ومقاطعها المصوَّرة، يمكننا أن نتلمَّس بكل وضوح وجود آثار حياة صاخبة وحركة دائبة بين سوسن والحياة في الخارج. وتكشف لنا الصور الملتقطة في الصيف في باحة المنزل الواسعة، أن عائلة سوسن قامت في معظم لياليها باستقبال كثير من الضيوف بحرارة بالغة. لم تمنع الأوضاع السياسية السيئة وتدهور الوضع الاقتصادي في البلاد سوسن من أن تعيش أيامها الأولى كعروس جديدة

فتفتح أبوابها وتحتفي بضيوفها الكثيرين. أصبحت ليالي «قصر الطيور» ملتقى إخوة فِكرت گولدانـچـي وأخواته مع عائلاتهم، وكذلك عائلات أصدقاء كاميران وسواهم ممن كانوا متشوقين إلى الفرجة على الطيور عن قرب.

واليوم حين نتصفح ألبوم صور عائلة سوسن خان نرى صور الكثير من الأشخاص الذين لا نعرفهم والأطفال المجهولين، بالإضافة إلى صور عرسان في مقتبل العمر. صور بعض العائلات الكبيرة، وبعض الأشخاص الذين لا تربطهم بعائلة گولدانـچـي أي صلة قرابة. كل ذلك كان دليلاً واضحاً على حقيقة أن سوسن خان قد عاشت خلال سنة ١٩٩٥ حياتها بسعادة، رغم كونها واحدة من أسوأ السنوات التي مرت بنا على امتداد القرن العشرين. في السنة عينها، وبالتحديد بمناسبة عيد ميلاد «هُزار» الرابع، غصَّت باحة قصر الطيور بمئات الضيوف المقرَّبين الذين قام الدكتور رفعت رمزي وپـروشه بدعوتهم لمشاركتهم الاحتفال. عشرات الأطباء المعروفين ومديرو جميع مستشفيات المدينة وبعض مدرِّسي مادة العلوم الذين حضروا ليسمعوا من كاميران بعض المعلومات عن الأماكن الغريبة والمتميزة في العالم، بالإضافة إلى بعض صديقات پـروشه اللواتي انتهزن الفرصة من أجل مشاهدة الطيور... جميع هؤلاء ظهروا في الصور ومقاطع الفيديو وهم يحتفلون مبتهجين.

في تلك الفترة، كان كاميران يعيش خارج البيت كذلك

حياة حافلة؛ فقد كان يقضي ليلة في الأسبوع في قبو فندق باوَجان بصحبة منـكور ورفاقه. كان سعيداً أنه يكسب ما يكفي من المال حتى يؤدي إلى منـكور أجرة مجزية، ويتمكن من دعوة أصدقائه المفلسين إلى الشراب. في تلك الأيام التي كان منـكور يلتقي فيها بكاميران كان يشعر بسعادة بالغة، أما في باقي الأيام فكان يتحول شيئاً فشيئاً إلى شخص صموت أكثر من ذي قبل. وكان يمارس بعض الأعمال الخاصة التي لا يعرف أحد منا عنها شيئاً. كان يشعر باكتئاب شديد لأنه الشخص الوحيد الممنوع من رؤية الطيور. كان كاميران في بعض الأحيان يجلب معه بعض أقفاص الطيور إلى السوق ويُودِعها في مقهى «پـپولَي آزاد»، حتى إذا رجع في المساء إلى منزله أعادها معه. كنا جميعاً نعرف أنه يحضر معه تلك الطيور فقط من أجل أن يراها منـكور.

كانت رؤية الطيور تبعث سعادة لا حدود لها في قلب منـكور، وكانت كلما غرَّدت فتح منـكور فمه بمرارة وبدأ بشتم هذه المدينة التي لا يكاد المرء يسمع فيها صوتاً سوى هدير السيارات وحافلات نقل الأنفار وصرير العربات وزعيقها. كلما حمي وطيس الحرب الأهلية، كان اليأس والشيخوخة يرتسمان بشكل أوضح على وجه منـكور. بطبيعة الحال كانت علاقات منـكور بقيادات حزب الاتحاد وأعضائه النشِطين ما تزال متينة كما هي. وكم كان يسعده حين يكون ساهراً معهم أن يرشقهم بصوتٍ عالٍ بنقده الناري الذي كانوا يتقبلونه منه

دائماً بصدر رحب. لطالما انتقدهم بصوته الـجَهْوَري، وفي أكثر من مكان ومناسبة. وحين كنا نسأله ألا يخاف من الجهر بآرائه وانتقاداته ضد الحزب بذلك الشكل، كان يجيب: «كم أنتم مساكين يا إخوتي الأعزّاء. إن مؤخرة منـگور ليست قلعة سهلة حتى يحتلها أي أحد».

في ربيع وصيف السنة نفسها، قام كاميران وسوسن ببضع جولات خارج المدينة، وكان كاميران يأخذ معه في كل مرة عدداً من البلابل إلى أحضان الطبيعة واضعاً الأقفاص في صندوق سيارة صغيرة. كانت تلك النزهات بالنسبة إلى سوسن، والطيور كما كانت هي بالذات تصفها وهي تضحك، «حزينة مبهجة».

ذات صباح منعش من أواخر صيف سنة ١٩٩٥، نهضت سوسن من نومها وفتحت النوافذ، كأي يوم آخر، كي يتسرب بعض الهواء النقي إلى داخل القصر. وبعد أن وضعت قهوتها على النار وكانت ما تزال نصف نائمة، مضت إلى كوخ الطيور لكي تبدل لها أحواض ماء الشرب كما كانت عادتها. وكانت تلك هي المرة الأولى التي ترى فيها طائراً ميتاً، طائراً إن لم نقل إنه كان أجمل الطيور في مجموعتها على الإطلاق، فلا بد أن نقول إنه كان واحداً من أجملها. كان طائراً فريداً من جملة الطيور التي جلبها معه منصور أسرين، وكان معروفاً باسم «مُجنِّح الآلهة». كان طائراً يراه الأوربيون لشدة جماله وكأنه «مجنِّح من الجنّة»، واسمه باللاتينية «باراديسيو أوبادا». كان

ريشه ذهبياً وطويلاً. طول ريشه الأصفر وذيله الذهبي كان يصل في بعض الأحيان إلى المتر. كان واحداً من تلك الطيور التي تخلق في نفس سوسن شعوراً إلهياً، وكانت كلما رأته تضطرب مشاعرها بأجواء الجنة في داخل روحها. كان واضحاً أن الطائر قد مات في قفصه بدون سبب. هبَّ كاميراني سلمى من نومه فزعاً على صوت صراخ سوسن التي كانت جالسة عند رأس الطائر الميت وهي تبكي بكاءً مراً... كان ذلك أول يوم حزين في حياتهما المشتركة.

كان على فِكرت أن يقضي ذلك الصباح كله وهو يحدث سوسن مذكراً إياها بحقيقة أن الطيور كائنات حية، وأنها في النهاية لا بد أن تموت ذات يوم. في ذلك الصباح اتصل كاميران بكمال يلدا لكي يطلب منه أن يقوم بتحنيط جثة طائرهم الميت الجميل. خلقت تلك الحادثة في نفس سوسن خوفاً هائلاً، وحرّكت في داخلها أسئلة كبيرة مثل «ما الذي قد يحدث إن ماتت هذه الطيور كلها ذات يوم... ما الذي سيحدث؟ ما الذي سيحدث لو غرقت كل هذه الطيور في لجة الصمت شأنها شأن هذه الطيور المحنطة... ماذا لو ماتت جميع الطيور؟». إن حدث ذلك فلن يكون أمامها سوى أن تغرق بروحها وجسدها وخيالها في هذه المدينة. عليها أن تقبل حقيقة أن الأشياء ماضية فانية في كل مكان قد تلجأ إليه، وليس فقط هذه المدينة. كانت تلك حقيقة لم تستطع تقبلها والتعايش معها حتى النهاية. بعد أسبوع، عاد «مجنح الآلهة» محنطاً إلى المنزل، كان وقوراً

كطائر يعلم أنه قد مات في الغربة ولكن عودته كانت صامتة، وبدل أن يبهج منظره قلبها، أخافها، إذ ذكَّرها مرة أخرى بعزلتها عن العالم.

في مطلع سنة ١٩٩٦، كانت الأوضاع السياسية في كردستان كلها صعبة للغاية، والحرب الأهلية على أشدِّها. كانت المعارك متركزة في تلك الفترة حول احتلال هولير عاصمة الإقليم، وكانت تصبح دموية أكثر فأكثر دون أن يبدو في الأفق أي أمل في السلام بين الطرفين المتصارعين. مئات الأشخاص، من الأطراف جميعها، يجتازون الحدود بشكل يومي في طريقهم إلى الخارج. كان بعض الأشخاص يأتون قبل انطلاقهم فيطلبون من سوسن أن تسمح لهم بالتقاط بعض الصور إلى جانب طيورها، وكان بعضهم يرى أن زيارة قصر الطيور واجب عظيم يمكن أن يجلب لهم الحظ في رحلتهم. في خريف سنة ١٩٩٥ أقسم بعض الأشخاص من الذين زاروا قصر الطيور لسوسن أنهم سيرسلون إليها رسائلهم وصورهم حيثما حطوا رحالهم وفي أي مكان من العالم.

في نهاية صيف ١٩٩٦ أي بعد مرور حوالي عام ونصف على بناء قصر الطيور، نجحت قوات «البارتي» في انتزاع هولير عاصمة الإقليم من بين يدي قوات حزب الاتحاد التي هُزمت هزيمة سريعة وخاطفة. كانت هزيمتهم في هولير مقدمة لهزائم كثيرة؛ فقد هزمت قواتهم في كل مكان وفروا من جميع الجبهات، وفي بعض الأماكن تركوا جميع أمتعتهم سليمة

خلفهم وانسحبوا من جميع الأطراف باتجاه الحدود الإيرانية.

وصلت قوات البارتي إلى مدينتنا خلال زمن قياسي. وهزَّ خبر انهزام قيادات «حزب الاتحاد» العسكرية وانكسار قواتهم مدينتنا بشكل غير مسبوق. كان الآمونيون في مقدمة تلك القوات التي اتجهت شرقاً عازمة على احتلال منطقتنا. كان «لطيف آمون» على رأس كتيبة من تلك القوة الكبيرة. كان لطيف رجلاً ناعم البنية مدوَّر الجسم له شارب رفيع، وكان يبدو هادئاً ومطمئناً وهو يحمل بندقية روسية دون أخمص ويركب سيارة جديدة تسير في مقدمة القوات. من المعروف عن لطيف آمون، من بين جميع الآمونيين، أنه أكثرهم تعصباً لعشيرته، وأن اسم عشيرته أهم عنده من أي شيء آخر في العالم. ولم يكن قد قرر حتى اليوم السابق لمقتل قلندر، الذي كان صديق طفولته وشبابه، المشاركة في هذه الحرب، غير أن مقتل قلندر جعله يحول عن قراره ويشترك في الحرب بنفسه وماله.

في ذلك اليوم حين اجتازوا بوابة المدينة، كان عدد الآمونيين حوالي خمسمئة مقاتل، وكانوا جميعاً فخورين، بعد كل ذلك الاستخفاف والطرد والإهانة التي لحقت، بدخول المدينة ظافرين منتصرين. الكثير منهم كان عائداً وهو يحمل بين جنبيه روح الثأر، بينما كان البعض الآخر راغباً في السلام والوفاق. استولت قوات البارتي على المدينة دون مقاومة تذكر. وحالما دخلوها، اتخذوا من أحد المقرات الرئيسية لحزب الاتحاد مركزاً رئيسياً، لهم قبل أن يقوموا بعد ذلك،

وعلى وجه السرعة، بنشر قواتهم في جميع أرجاء المدينة.

خلال تلك السنة والنصف الماضية، كان خالد آمون قد أصبح عضواً نشطاً في «البارتي». في ذلك الوقت ويوماً بعد آخر، كانت نيران الكراهية تتأجج في صدره لشدة الجراح الداخلية العميقة التي كانت تحفر عميقاً في نفسه والكتمان الذي ألزم نفسه به. ولكي ينسى آلامه ويبدأ حياة جديدة، كان قد أصبح من الكوادر الفعالة في الحزب ولم تعد به رغبة نهائياً في الجلوس في دكان وبيع مستلزمات النساء، كان يريد القيام بعمل ينسيه همومه، ولم يمنعه كل ذلك بالطبع من تقصّي أخبار سوسن وكاميراني سلمى من بعض الأشخاص الذين كان يقابلهم بين الحين والآخر. كان معلوماً للآمونيين جميعاً أن انهماكه الشديد في أنشطة البارتي ومهماته، مرتبطة بذلك الهوس الذي كان يفترس أعماقه.

في ذلك اليوم الذي تحرك فيه لطيف آمون على رأس قواته نحو مدينتنا، وخلال اللحظات والدقائق التي تسبق إعداد القوات وتنظيمها، لم ينسَ أن يستدعي خالد آمون ليسأله إن كانت به رغبة في دخول المدينة معه. ودار بين الرجلين حوار دام حوالي عشر دقائق لم يعرف أحد ما الذي جرى فيه من حديث، لأنه بقي حتى اليوم سراً لا يعرفه سواهما. قال البعض إن خالد، في ذلك الحوار، قد طلب من لطيف أن يأخذ بثأره. بينما زعم آخرون أنه قد قال أن لا رغبة لديه في العودة إلى «مدينة اليأس القاتل»، وأنه يريد قضاء ما تبقى من حياته غريباً.

أما الحقيقة التي لا يمكن إنكارها فهي أن الرغبة في الانتقام لمقتل قلندر آمون، كانت هي الدافع الرئيسي الذي جرَّ أقدام الآمونيين إلى الدخول في تلك الحرب.

٥٢

ذات يوم، وقبل وصول أنصار البارتي، كان كل شيء قد انقلب حاله في مدينتنا الصغيرة منذ ساعة الظهيرة. حين تأكد منكور من خبر استيلائهم على هولير، عاد بسرعة إلى منزله فجمع بعض الأوراق والوثائق الخاصة وأحرق بعضها وخبأ بعضها الآخر في مكان آمن، وتلك الأموال التي كان يحتفظ بها في المنزل وضعها في حزام ملفوف بإحكام حول ظهره، ثم تناول سكيناً قديمة كانت ذكرى من يوسف كويار أخرجها من مخبئها قبل أن يمضي في الحال قاصداً مكتب كاميراني سلمى. كانت السوق نوعاً ما خالية ومعظم دكاكينها مغلقاً بسبب الهلع الذي استولى على الناس. تواردت الأنباء أن قوات البارتي يهاجمون المدينة مستخدمين دبابات ومدافع «صدام حسين». بعض التجار بسبب خوفهم من عمليات النهب، جاؤوا ببعض الشاحنات أمام دكاكينهم ومستودعاتهم وشحنوا بضائعهم إلى أمكنة آمنة، أما المستشفيات فكانت قد تأهبت استعداداً لحالة الطوارئ. القسم الأكبر من مراكز القيادة مغلق ومعظم الشوارع خالية.

حين وصل منـكور إلى مكتب كاميراني سلمى، دُهِشَ أنه كان المحل الوحيد المفتوح في السوق كله، والأعجب من ذلك أن كاميران بدا كمن لا يعلم شيئاً مما يجري حوله، إذ كان في تلك الساعة جالساً إلى شاب صغير السن يحدثه عن الغابات الكبرى الواقعة عند الأطراف الغربية من أفريقيا. استقبل كاميران منـكور بابتسامة كبيرة كما كان يفعل في أي يوم طبيعي في حياة المدينة. وبدون أن يمنحه منـكور فرصة الكلام، أمر الفتى الصغير بالانصراف إلى منزله في الحال، ثم قال لكاميران أن يقوم بسرعة بجمع ما عنده من مال في المكتب وأشيائه الثمينة وإغلاق المكتب ومغادرته دون إبطاء، لأنه خلال الساعات القادمة ستصل قوات البارتي، التي لم تواجه أي مقاومة تذكر، إلى المدينة. قال كاميران: «هيه يا منـكور... ولكن ما كل هذا الخوف الكبير من وصول قوات البارتي... أنت تعلم أنني لا أفقه شيئاً في السياسة، أنت تعرف هذا. ولكن في الحقيقة أنت من يجب أن يقلق كثيراً، فأنت كنتَ عضواً معروفاً في حزب الاتحاد». أقلقت السذاجة التي كان كاميران يتحدث بها منـكور بشدة، فقبض على ذراعه بقوة وأدخله إلى داخل المكتب وقال له: «اسمع يا كاميران، لقد شابَ شعري في هذه المدينة الملعونة، وما من حكاية جرت في شارع أو زقاق فيها إلا وأنا أعلم بها... منذ خمسين عاماً وكل ما جرى ويجري في هذه المدينة مغروس في داخل رأسي لا يغادره. وأعرف جيداً كيف يفكر سكان هذه البلاد. جميع رجال هذه المدينة العظماء قضوا نحبهم في حوادث

عبثية... أتفهم ما أقول؟... في زمان ومكان كهذا الذي نعيشه، ماتوا لأنهم كانوا حيث لا يجب أن يكونوا... جميع الرجال الشرفاء في هذه المدينة يختارون زماناً ومكاناً خاطئين من أجل الموت. أقسم بقبر أبي أن الأمر كذلك... انظر إليّ، منذ سنتين وأنا أعلم أن الآمونيين عائدون يوماً ما... عائدون عاجلاً أم آجلاً، كان واضحاً لي أن الدنيا تتغير يوماً بعد يوم وأنهم، بشكل من الأشكال، قادمون ثانية... أتفهمني؟ منذ اليوم الأول حين طعنّا ابن إبراهيم أسرين وأنا أعلم أن قصة حبك هذه قد اختلطت بقذارات هذه المدينة رغماً عنك وعني. لا يعرف الإنسان في هذه المدينة الملعونة كيف يعشق امرأة دون أن يضطر إلى الانغماس في حرب لا أول لها ولا آخر. في جميع الأحوال، أنا أقول لك إن الأمور لم تكن لتسير بأحسن مما سارت عليه، غير أني أريدك أن تعلم جيداً أنني بريء من دم قلندر آمون وأنني لم أصدر أمراً بقتله على الإطلاق... ولكن هذا لا يغير من الأمر شيئاً. قبل سنتين، أرسل إليَّ الآمونيون رسالة خاصة جداً كان قد كتبها كبار رؤوسهم. كانوا يظنون في ذلك الوقت أنني أنا المؤخرة الكبيرة التي تقف وراء كل تلك الأحداث. هكذا كانوا يظنون أنني كنت أنكر قتل قلندر آمون بسبب خوفي من الانتقام، لكنني كنت أقول الحقيقة. أنا أسوأ رجل في هذه المدينة، لقد ارتكبت جميع الأفعال السيئة ما عدا القتل. أقسم أنني مسرور جداً لأنني لم أقتل أحداً في حياتي وأنت تعرف جيداً هذه الحقيقة. بعد أن عدتَ إلى هذه المدينة في هيئتكَ الجديدة ورأيتك، وقد تخليتَ نهائياً عن

عادة حمل السكاكين وخلَّفتَ كل ماضيكَ وراءك وقررتَ أن تعيش لعائلتك الجديدة، قلتُ لنفسي إن هذا هو بالضبط ما كنت آمله، كان كل مرادي أن تعود مع طيورك تلك وتكون زوجاً صالحاً لسوسن خان. ولكن هذا لن يغيّر من الأمر شيئاً حين تتخضَّب هذه المدينة في غضون الساعات القليلة القادمة بالدماء كأنها عُرف ديك. انظر... الرسالة معي، أنت تفهم، لقد أحضرتها معي كي تحتفظ بها عندك. لقد كتبوا لي في الرسالة أن بإمكاني ألا أقلق في الوقت الحاضر، لأنهم عازمون أن يؤخِّروا قتلي حتى أشهد بعينيَّ مصرع أقرب الأشخاص إلى قلبي. أقسم بمؤخرات جميع الأبالسة أن بوسع الآمونيين أن يكونوا وحوشاً ضارية عديمة الرحمة... بوسعهم أن يضعوا إنساناً حيّاً على صفيح ساخن ويقوموا بشيّه... لم أكن أصدق من قبل أنهم كذلك. جميع أهل هذه المدينة الملعونة يعلمون أنك أقرب شخص إلى نفسي... أنت ولدي الذي لم أنجبه. لقد فرَّ آلاف الناس منذ الصباح الباكر من هذه المدينة، فرّوا دون أن يكون لمعظمهم أي مشكلة سابقة مع البارتي أو مع الآمونيين، فرَّ الآلاف لأن أنوفهم تشم جيداً رائحة الكارثة المقبلة، أما أنت... أنت الذي تقف على تاريخ طويل من المشاكل معهم تريد أن تبقى جالساً هاهنا بأمان؟ يا رجل... كان عليك أن تسبق الجميع في مغادرة هذه المدينة باتجاه الحدود... حياتك في خطر كبير... أقسم بقبور جميع الأنبياء أنك معرَّض للقتل. أنا لا أهوِّل الأمور يا كاميران، ولكنك إن فعلتَ كما فعل جميع أبطال هذه المدينة عبر التاريخ، حين قاموا بوضع مؤخراتهم

على الكرسي الخاطئ، فأقسم بقبور أمواتي أنني لا أعرف ما الذي قد يحدث لك». بدا كاميران وكأن حالته القديمة قد عادت إليه، إذ خيّمت عليه الحيرة والذهول كما كان يحدث معه قبل سنوات سفره. بدا وكأنه لم يكن يعرف البتة ما كان يحدث. نظر إلى منـكور وقال: «لقد أقسمتُ على أنني لن أغادر هذه المدينة وأنت بالذات تعرف ذلك، أقسمتُ أنني لن أشارك في أي حرب، ولذلك تراني لا أعرف ما الذي يجب أن أفعله». قال منـكور: «اسمع يا فتى، لأكن صريحاً معك، الآمونيون سيسلخون جلدك عن بدنك إن وصلوا إليك... سيقتلونك لا محالة. تلك هي الحقيقة، سيكونون هنا في غضون ساعات، فإن لم تأتِ معي فلن يمكنني الذهاب وتركك وحيداً هنا، وعندها سيفتكون بكلينا. لا أخفي عنك أنني لا أريد أن أرى مؤخرتي تحترق في جهنم بمثل هذه السرعة، ولكن إن لم تأتِ معي فليس أمامي خيار آخر سوى البقاء». أجابه كاميران بقلب مثقل وذاهل: «منـكور... لا يمكنني أن أتخلى عن سوسن وأترك طيوري هكذا... يا إلهي ما الذي تريد مني فعله؟ من يمكنه فعل ذلك؟!». قال منـكور: «أمامنا وقت قصير جداً للتفكير واتخاذ القرار المناسب، والآن هيا أغلق باب مكتبك ودعنا نذهب. علينا أن نخبر سوسن خان بما جرى، من حقها أن تعرف أن حياتك في خطر».

خلال نصف ساعة، كان الرجلان يقفان أمام باب قصر الطيور. ولأن منـكور كان ممنوعاً من دخول القصر، فقد جرى

الحوار أمام الباب. بعد أن حيّا سوسن بكل احترام، وضَّح لها منـكور بطريقته الخاصة أنه خلال الساعات القادمة ستدخل قوات البارتي إلى المدينة وهذا الأمر سيعرض حياة كاميران للخطر. بدا الأمر بالنسبة إلى سوسن عبثياً ومفاجئاً. وبدون أن تعرف السبب، شعرت أن جسدها يرتجف وشعرت ببرودة مفاجئة، فقالت بوهن: «كاميران، اذهب، اذهب... يمكنك الذهاب. أنا وگولدانـچـي باقيان هنا. إذا كان منـكور يرى أن حياتك معرضة للخطر فمن الأفضل أن تتوارى عن الأنظار. لقد سبق أن أرسلتُ بك بعيداً مدة ثماني سنوات خشية أن تدخل في حربٍ ما... آه... متى سترحل الحرب من هذه المدينة إلى الأبد! نفِّذ ما يطلبه منك منـكور، فهو يعرف الأمور بشكل أفضل. أنا سأبقى عند الطيور ومعي والدي، ولكن عاهدني أنك لن تشارك في القتال ولن تحمل سلاحاً... لن تفعل أي شيء باستثناء الهرب بعيداً عن الحرب». نظر كاميران إلى بشرتها البيضاء وشعر برعشاتها المفاجئة وارتجاف صوتها، تلك الأنفاس المتسارعة والصوت الرقيق، ذلك الكرب الذي ظهر بغتة على وجهها... لم يكن يستطيع أن يتركها خلفه ويمضي. ولكن ماذا لو غامر منـكور بالبقاء معه ثم تمكن الآمونيون من القبض عليه أو قتله؟! إن من شأن ذلك أن يترك في قلبه جرحاً غائراً لن يتحمَّله. حسناً، فماذا لو ترك المدينة ثم لم يتمكن من العودة إليها ثانية؟ حسناً، كم سنة عليه أن يبقى فارّاً من وجه الآمونيين؟ حسناً، إذا تغير الوضع السياسي ولم يتمكن من رؤية سوسن ثانية؟ حسناً، وماذا لو حاول الآمونيون إيذاء

سوسن؟ كان كاميران يعرف أنه عاجز عن الإجابة على أي من الأسئلة السابقة، ولكنه كان واثقاً من أنه إذا لم يترك المدينة فلن يتركها منـكور كذلك وقد يُقتل بسبب ذلك. هو شخصياً لم يكن يشعر بالخطر. كان موقناً أن خوف منـكور عليه بشأن دوره في الحكاية ليس في محله، فجميع الناس يعرفون أنه إبان وقوع حادثة مقتل قلندر آمون وسائر الحوادث الأخرى كان مهاجراً. ليس هناك من يجهل هذه الحقيقة. ولكن منـكور قال له: «في هذه الحرب، قتل الأخ أخاه وتلطخت أيدٍ كثيرةٌ بدماء كثيرة. لا تظن أبداً أنك ستحظى بالرحمة».

كان في نفس كاميران شيء لا بد من القيام به. لذلك وبعد تردد كبير، مضى مع سوسن إلى داخل القصر حيث بدَّل ثيابه، وبدون وداع حقيقي قبَّل سوسن ثم قال لها: «لا تخافي يا سوسن، كوني شجاعة مهما حدث... أتفهمين؟ عليك أن تتحلَّي بالشجاعة. سأعود في أسرع وقت ممكن، ولكن أطلب منك أن تعتني بالطيور... لا تغادري القصر، اعتني بنفسك وبالطيور... لن أتأخر كثيراً».

بعد أن غاب كاميران ومنـكور عن ناظريها، شعرت سوسن ببرودة فظيعة تجتاح جسدها، كما شعرت أن صمتاً كثيفاً وثقيلاً قد خيَّم على الطيور كذلك. كان يوماً حاراً، ورغم ذلك فقد شعرت أنها بحاجة إلى شيء ما تغطي به بدنها، ولكن ذلك أصبح بعيد المنال.

كان والدها منذ الصباح يتتبع الأخبار عبر الإذاعة. وكان قد اعتاد، في الآونة الأخيرة، على دخول قصر الطيور نهاراً أكثر من مرة ومعه إبريق شاي للفرجة على الطيور والتحدث إليها. لاحظت سوسن أن گولدانـچـي يمضي وقتاً طويلاً في الحديث إلى الطيور، وشيئاً فشيئاً بدأ هذا الأمر يقلقها، لكن والدها طمأنها ضاحكاً أنها لا يجب أن تقلق وأنه ما زال محافظاً على سلامة عقله.

بعد مرور ساعة على مغادرة كاميران، دخلت سوسن إلى قصر الطيور وحاولت أن تتسلى هي الأخرى بالإنصات إلى غنائها لعل ذلك يخفف عنها ساعة الكرب والضيق التي قاستها، ولكن عبثاً، فلم تذهب بها تلك الأصوات إلى أي مكان.

في ذلك اليوم، شعرت أنها تعيش في هذا المنزل وهذه المدينة بجميع مشاعرها، وأنها مهما فعلت لن يكون بإمكانها أن تتجاوز أسوار هذا المكان.



٥٣

في الليلة الأولى، نشر لطيف آمون بعض نقاط التفتيش على الشوارع الرئيسية، وثبت مدفع دوشكا في مكان مرتفع في المدينة قبل أن يعود إلى مقره الرئيسي ليستريح قليلاً. رغم أنه كان يحلم منذ سنتين بمثل هذه العودة إلى المدينة، يحلم أن يرى بعينيه ثانية شوارعها وأزقتها، إلا أنه لم يكن سعيداً بذلك الانتصار السهل وتلك العودة المفاجئة. ثمة شيء غامض كان يعتصر قلبه دون أن يعرف بالضبط ما هو. كان منظر المدينة وهي خالية لا روح فيها في ذلك الحر الخانق عند ساعة العصر منظراً متعباً يصيب المرء باليأس. حين عاد إلى مقره، كلف أحد رفاقه أن يرسل إليه بوجبة طعام من منزله. وبعد أن تناول طعامه مسح بحزامه يديه وفمه ثم اطّلع على بعض الرسائل والبرقيات اللاسلكية المستعجلة الواردة من أماكن مختلفة المتضمنة تفاصيل تحركات القطع العسكرية صغيرها وكبيرها. كان معظم المسؤولين الميدانيين يريدون معرفة كيفية التصرف مع الأهالي الذين كانوا يفرون من المدينة ويتحركون أفواجاً نحو الخارج.

قال لطيف، وهو يحتسي كأس الشاي، لكاتبه أن يحرر رسالة إلى القوات يأمرهم فيها بألا يتعرضوا لأحد من الناس وأن يتركوهم يتحركون دون عوائق. كان الكاتب شاباً نحيلاً طويل القامة وقد أدهشه أن يصدر أمر كهذا من لطيف آمون دون حتى أن يعود إلى رؤسائه. كان الفتى واثقاً أن هذا الأمر لن يعجب سائر الآمونيين الذين كانوا يتحرقون لهفة للأخذ بثأرهم. كان لطيف يشعر بكسل شديد وكأن ضباب الحوادث التي وقعت في اليومين الماضيين قد حجب الرؤية عن عينيه، وكأنه افتقد الرغبة كلياً في متابعة هذه الحرب، وكأنه كان يريد في أعماقه أن يتمكن جميع أولئك الذين جاء لملاحقتهم وقتلهم من إخلاء المدينة والفرار أو الاختباء في مكان ما، فيرفعوا بذلك هذا العبء الثقيل عن كاهله. أدرك الشاب الكاتب من تكاسل لطيف آمون وعدم حماسته أنه يريد منح وقت إضافي لأعدائه حتى يتمكنوا من مغادرة المدينة والفرار بعيداً. كان الجميع يعلم أن محاولة كهذه لا طائل من ورائها.

في خارج غرفة لطيف آمون، كان جميع الآخرين مضطربين بانتظار أمر مباشر حتى يشرعوا دون تأخير في البحث عن الأشخاص الذين وردت أسماؤهم في لائحة الانتقام. كان الجميع متعجباً من لا مبالاة لطيف. وفي الساعة الثامنة مساءً، جاء أربعة أشخاص ووقفوا عند باب غرفة لطيف طالبين اللقاء به. كان لطيف في غرفته قد وضع وشاحه تحت مروحة صغيرة وجلس حاسر الرأس على كرسي وأمامه طاولة، يفكر في كتابة

رسالة إلى المكتب العسكري للبارتي. كان الزوار الأربعة هم شقيق قلندر آمون وابن عمه واثنين من أولاد أخواله. وكان الأربعة مضطرين وعصبيين. قالوا له إن التساهل في ملاحقة قتلة قلندر يجعل أمر الوصول إليهم والاقتصاص منهم أصعبَ ساعةً بعد أخرى. كان الأربعة منزعجين بشدة من ذلك القرار الذي منح أهل المدينة فرصة الخروج منها والذهاب إلى حيث يريدون. قال لطيف ببرود ولا مبالاة إن أولئك الأشخاص المطلوبين قد غادروا المدينة، وإن معلوماته تفيد أنهم قد فروا منذ مساء البارحة باتجاه الحدود. وأضاف بالبرود عينه أنه يرى أن البحث عنهم في داخل المدينة أمر غير مجدٍ، ولكن مع شروق شمس الغد سيكون الجند قد ارتاحوا ليلتهم هذه وعندها سيكون بإمكانه تحريكهم باتجاه المناطق الحدودية لملاحقة القتلة الهاربين.

أصابت كلمات لطيف الأربعة باليأس. كانوا يريدون أن يأخذوا بثأرهم على مرأى من جميع أهل المدينة. طلب الأربعة بصوت واحد من لطيف أن يرسل معهم قوة، وحسبُهم ما أهدروا من وقت ثمين. قال شقيق قلندر إن التهاون والقعود في وقت كهذا يزيد من إهانتهم، وإن عليهم أن يفعلوا شيئاً ما يعيد لهم كرامتهم. لكن لطيف آمون، الذي جعلته هذه الظروف الاستثنائية مسؤولاً عن المدينة، كان يشعر أن من الصعب عليه بعد يومين متواصلين من الإجهاد أن يخرج من غرفته في ليلة حارة كهذه ويأخذ بتفتيش بيوت المدينة بيتاً بيتاً.

الجميع يعلم أن لطيف رجل شجاع، ولكن طريقة حديثه وجلوسه بتلك الصورة تحت هواء المروحة، كان يعطي انطباعاً أن استطالة أمد الحرب قد أرهقته.

بعد ساعة من الحديث، لفَّ لطيف وشاحه على رأسه وتقلَّد سلاحه وخرج، وما تزال به رغبة في النوم، مع ضيوفه الأربعة مصطحبين معهم قوة صغيرة من الرجال. لم يكن أمامه خيار آخر سوى إرضاء هؤلاء المقاتلين الغاضبين. كان من الواضح أن شقيق قلندر آمون هو صاحب الكلمة النافذة فيهم، وهو أكثرهم حماسة.

بدؤوا بمنزل قَپوز جُقلي. كسروا الباب واقتحموا المنزل وهم واثقون أنهم لن يجدوا أحداً في الداخل. كان ظلام ثقيل وقاتل يخيم على المنزل، ولذلك استعانوا بمصابيحهم الكبيرة واليدوية لتفتيش غرف المنزل غرفة غرفة. كان قَپوز خلال الفترة الماضية قد وصل إلى منصب مسؤول عن أحد معتقلات حزب الاتحاد. لم يعثر المهاجمون على أي شيء باستثناء ألبوم صور، أخذوه ثم قاموا بإحراق المنزل قبل أن يغادروا.

في تلك الليلة وقبل أن تدق الساعة الثانية عشرة ليلاً، كانوا قد أضرموا النار في منزلَي ساماني كسرى وهُشه جُجه قبل أن يتابعوا حملتهم في تفتيش بيوت المدينة بيتاً بيتاً باحثين عن إخوة القتلة أو أحدٍ من أقاربهم مستعينين بالمصابيح الكبيرة واليدوية، لكنهم لم يظفروا بأحد.

بعد فشل كل محاولاتهم، اشتد غضب الآمونيين ويأسهم في الوقت نفسه، فكانوا يحطِّمون الأبواب ويقتحمون البيوت بجنون أكبر ويعبثون بأثاث المنازل بشكل أكثر عصبية وهمجية، ويسكبون البترول هنا وهناك بكراهية عمياء عند إحراق البيوت.

حاول لطيف آمون، أكثر من مرة، أن يخفف من غلواء القوة التي ترافقه لكنه لم يستطع كبح جماحهم.

في حوالي الساعة الواحدة ليلاً، عثروا في منزل منـكوري باباگوره على ألبوم صوره، فأخذوه ثم أحرقوا المنزل. حاول لطيف كثيراً أن يوقفهم عند ذلك الحد، لكن الهياج كان قد أخذ بألباب الآمونيين وكانوا مصممين بشدة على منزل كاميراني سلمى قبل أن تشرق عليهم شمس الصباح. لقد كان مهماً بالنسبة إليهم أن ينتهوا من هذا الأمر في ليلة واحدة وهم في ذروة حماسهم وهياجهم قبل أن يصبح الصباح ويعودوا إلى رشدهم، فقد كانوا يعلمون أنهم مع شروق شمس الغد واستيقاظ أهل المدينة ومرور ليلة كاملة على وجود قوات البارتي فيها، سيستعيدون وعيهم بما يفعلون وإدراكهم لحدودهم التي يجب أن يقفوا عندها ويتضاعف عندئذٍ احتمال شعورهم بالأسف والندم. إن كان هناك ما يجب فعله فعليهم فعله في هذه الليلة، وأي غضب يعتمل في الصدور يجب أن يتم إفراغه في هذه الليلة بالذات.

في الساعة الثالثة فجراً، وصل رجال لطيف الذين كانت تفوح منهم رائحة البترول والنار إلى أمام باب قصر الطيور. وقبل وصولهم بساعة، كانت جميع الطيور في الداخل قد لاذت بالصمت... صمت لم يكن ناتجاً عن الظلمة أو النعاس ولكن عن الخوف والترقب.

٥٤

في الساعة الواحدة والنصف من الليلة نفسها، استيقظت سوسن فِكرت من نومها فجأة وأخذت تتحسس السرير بيديها في تلك الظلمة، فلامست أصابعها جسد زوجها كاميران الذي كان نائماً إلى جانبها بزيِّه الكردي. كانت الظلمة شديدة في الغرفة، وكانت سوسن عاجزة عن رؤية عينيه، لكنها لم تكن تعرف متى عاد إلى المنزل بالضبط، فحتى الساعة العاشرة ليلاً حين آوت إلى فراشها لم يكن كاميران قد عاد بعد. كانت تظن أن كاميران ومنـگور وكثيرين غيرهم قد فروا باتجاه الحدود خشية الانتقام. وقبل أن تشعل مصباحها اليدوي، استجمعت في تلك الظلمة كل أحاسيسها وأقبلت على صدر كاميران تشمُّه بعمق. وكما كان دائماً، شمت منه رائحة مروج الدنيا، رائحة المتنزهات البعيدة، رائحة الأنسام التي تهب بلطف فوق حقول النرجس، رائحة الصيادين المتعبين، رائحة فواكه المدن البعيدة والقهوة الذكية في مقاهي أقصى الأرض. بعد عامين من عودة كاميران سلمى، كانت رائحته ما تزال كما كانت في أول يوم عاد فيه من رحلته. اعتدلت سوسن في سريرها وأخذت تصغي

إلى صوت تنفسه. شعرت بعد دقائق بحاجتها إلى رؤية ملامح وجهه فأشعلت الفانوس بهدوء وأخذت تحدق إليه بشوق، إلى لون وجهه الخمري وحاجبيه الأسودين وشعره المرسل وتلك الفَحْصَة اللطيفة في منتصف ذقنه وخطوط وجهه الدقيقة. كان صمت طيورها في الخارج يدهشها؛ ففي مثل هذا الوقت من الليل كانت تسمعها عادةً تغرِّد بصوت عالٍ، ولكن هذه الليلة كانت جميعها صامتة رغم استيقاظها. شعرتْ برغبة شديدة في إيقاظ كاميران لممارسة الحب معه، لكن صمت الطيور كان ثقيلاً جداً لدرجة جعلتها تتراجع عن فكرتها. لم تلبث أن نهضت في تلك الظلمة فاتجهت نحو النافذة، فرأت من بعيد أضواء نيران ملتهبة، ولكن دون أن تكون متأكدة ما الذي يحدث هناك، عادت إلى سريرها. فجأة شعرت بألم في رأسها ووهنٍ في جسدها. منذ وقت طويل لم تشعر بإرهاق شديد كهذا. لم تعرف سوسن كيف نامت ولا في أي ساعة، ولكنها حين استيقظت من جديد رأت طيف رجلين ضخمين واقفين عند رأسها. بعد عدة لحظات، علمت أن ذينك الطيفين لم يكونا سوى لطيف آمون وهاجر آمون شقيق قلندر. كان لطيف آمون يحاول إيقاظها كمن يوقظ شخصاً قريباً إلى قلبه من النوم، فكان يضع يده بلطف على حافة سريرها ويهمس بنعومة «سيدتي، سيدتي... استيقظي. نحن هنا».

استيقظ كاميران وسوسن فزعين على همهمات لطيف آمون. بقي لطيف آمون نفسه دهِشاً للحظات من الطريقة

اللطيفة التي كان يتصرف بها، لكنه لم يكن يعرف ماذا يجب أن يقول ولا لماذا كان يتصرف بكل ذلك الهدوء. نهض كاميران من سريره، وبدون أن يقول شيئاً نظر إلى الرجلين ثم إلى سوسن. كان ما يزال نصف نائم وغير مدركٍ لما يجري حوله. غمغم فجأة وآثار النعاس ما تزال على عينيه «الطيور لا تضيع في الغابة». لم يفهم أحد منهم ماذا كان يقصد بتلك الكلمات. ولكن قبل أن يكون لديهم وقت للتفكير فيما قال، هتفت سوسن بصوت باكٍ وخائف: «من أنتم؟». فنظر إليها لطيف آمون وأجاب: «لا تخافي سوسن خان لا تخافي». نظرت سوسن إلى الخارج، وشعرت أن هناك كثيراً من الرجال الآخرين خلف نافذة غرفتها، ولمحت فِكرت العجوز الذي كان في باحة القصر يتشاجر مع بعض الأشخاص. وكان ثمة ضوء ساطع ينير قاعة منزلها الكبيرة. فجأة اقتحم فِكرت الغرفة ساخطاً وقال وهو يحدق إلى لطيف آمون بغضب: «إن اقتحام بيوت الناس في ساعة متأخرة كهذه تصرف قبيح... نعم أيها المحترم لطيف آمون. أنت شخصياً تعرف أنني لسنوات طويلة كنتُ رفيقاً لكم... أنت تفهم. كنت أستقبلكم في بيتي. إن ما تفعله الآن... في الساعة الثالثة فجراً تقتحم بيتي... يذكرني بتصرفات رجال الأمن في عهد النظام السابق، هل تفهم؟ لكي نستطيع التفاهم بهدوء عليك أن تشرح لي لماذا تقتحم منزلي ومعك كل هؤلاء الرجال؟ امضِ الآن فأخرجهم بعيداً عن قاعة منزلي وباحته».

أيقظت كلمات فِكرت الغاضبة كاميران الذي أدرك عندئذٍ أن الآمونيين قد اقتحموا منزله. قال هاجر آمون بهدوء: «فِكرت گولدانـچـي، مع كل أسف، يوجد في منزلكم شخص مطلوب لنا... شخص يجب أن نعتقله». قال فِكرت: «في منزلي لا يوجد شخص يمكنك اعتقاله... من تبحث عنه ليس هنا. إن مصيبة كل المصائب تكون عندما لا يستطيع الإنسان التميز بين المذنبين والأبرياء». رد هاجر آمون بعصبية: «وإن خطيئة كل الخطايا كانت أنك زوَّجت ابنتك بواحد من أولئك الذين قتلوا أخي». رفع فِكرت يده وصرخ: «إن قتلة أخيك معروفون... جميع أهل هذه المدينة يعرفونهم. والجميع يعرف كذلك أن أرض منزلي حرام عليهم، ولذلك فإن وجودكم في منزلي في مثل هذه الساعة خطأ شنيع».

بينما كان فِكرت گولدانـچـي ما يزال يزأر بغضب، كان بعض الآمونيين في الطرف الآخر من القصر منهمكين في تحطيم بعض الأشياء وسكب البترول هنا وهناك عازمين على إحراق القصر، وقد تسلل بعضهم الآخر إلى داخل قصر الطيور وأخذ يتفرج بدهشة وإعجاب إلى الطيور الخائفة الصامتة.

تذكَّر لطيف آمون فجأة، وهو يستمع إلى الحوار الغاضب بين فِكرت گولدانـچـي وهاجر آمون، أن مسلَّحيه قد يقومون، كما هي عادتهم، بإضرام النار في المنزل، فخرج مسرعاً من غرفة النوم وأصدر أمراً إلى رجاله بمغادرة المكان في الحال،

وصرخ بصوت يائس يأمرهم ألا يمسَّ أحدٌ شيئاً في هذا المنزل. كان غضب لطيف آمون من الحدة بحيث أيقظ رجال الآمونيين من غفلتهم. وبدوره، خرج إليهم هاجر وقال من أجل تهدئة الجميع: «لا حاجة لنا في هذا المكان إلا أن نأخذ كاميراني سلمى معنا».

كان هواء بداية شهر سبتمبر ما يزال حاراً. حين أركبوا كاميران معهم في السيارة، ولاحقته سوسن بأنظارها دون أن تنبس ببنت شفة. كانت تنظر بصمت إلى وجوه المسلحين المتعرِّقة وهي صامتة، وتصغي إلى كلمات والدها الغاضبة وهي صامتة، تشم رائحة البترول المسكوب وهي صامتة، تنظر إلى ذهول واستسلام كاميران وهي صامتة. كانت واثقة أن ما جعل كاميران مشلولاً، ودفعه إلى الانقياد بسهولة مع أولئك المسلحين، كان العهد العظيم الذي قطعه لها على نفسه ألا يدخل في قتال أبداً. أنقذت صرخات فِكرت گولدانـچـي ابنته وقصر الطيور لكنها، عجزت عن حماية كاميران من الاعتقال.

بعد مغادرة الآمونيين، جلس فِكرت في القاعة على الدرج وشرع يبكي. قبل حوالي عشر سنوات، كان قد لجأ إلى هذه المدينة فارّاً من الحرب، لقد فعل كل شيء من أجل تجنيب نفسه وعائلته شرور الحرب، حتى تكون بناته في منأى عن الحرب. ولكن ها هو بعد مرور عشر سنوات، بعد أن دار الزمن كل تلك الدورات، ها هي الحرب تطأ بأقدامها عتبة داره من

جديد بطريقة أخرى مرتدية ثوباً آخر... وها هو الآن مع ابنته جالسينِ على الدرج، هو يبكي وابنته تحدق إلى السماء. كانا واثقين باستحالة الإفلات من طوق الحرب.

حدث كل ذلك بسرعة. كان لطيف آمون يشعر في أعماقه ببراءة كاميراني سلمى، ولو كان بمقدوره لأطلقه في ساعته، ولكن للأسف فإن مكانته في العشيرة دون رتبته في الحزب. ثمة عشرات من القوى والقوانين والدساتير الخفية التي كانت تجعله أضعف فأضعف.

كان قد اطَّلع في المساء على تقرير يقول إن كاميراني سلمى غادر المدينة ظهراً برفقة منكور، أما ما أغاظه فكانت عودة كاميران إلى منزله في تلك الليلة ونومه في سريره بثيابه الكردية. صرخ من أعماق قلبه «كم أنت أحمق كبير يا كاميران... كم أنت غبي، كيف تبيت في سريرك في يوم كهذا؟». كان واثقاً أن تلك التغريبة الطويلة حول العالم قد جعلت كاميران غافلاً عن كثير من الأشياء. لم يكن لطيف آمون راغباً في الحديث إلى كاميراني سلمى، وذلك لمعرفته أن أي حوار يجري بينهما سيبقى منغرساً في ذاكرته إلى الأبد ويتسبب له بألم لا ينسى... لقد كان الفتى أصغر وأوسم من أن يُقتل. كان لطيف واثقاً من براءته، وأن كل كلمة تقال اليوم ستترك خلفها ألماً كبيراً في الغد حين يتذكرها.

حين أمر مسلَّحيه أن يقيدوه في غرفة ويغلقوا عليه الباب، كان يعلم أنه مهما فعل فلن يجدي ذلك شيئاً، بل كان متأكداً

أنه حتى لو احتفظ بكاميراني سلمى في غرفته الشخصية فلا أمل في نجاته من انتقام الآمونيين. فمنذ المساء والجميع يبحث عن ضحية ما، عن شيء ما يُفرِّغون فيه جام غضبهم ويأسهم الطويل. شعرَ أن ليس لديه حجة قوية يمكنه بها تجنيب كاميراني سلمى نهايته المشؤومة. كان التعبُ والحرُّ الشديد يمنعانه من التفكير بشكل سليم. ولكن في نهاية الأمر، لا بد لكل حرب من ضحايا. وأسوأ الحروب، بالنسبة إلى المحاربين، هي تلك التي لا تُسفَك فيها الدماء. منذ المساء، حين وصلوا إلى المدينة، لم يحدث أي انفجار ولم تواجههم أي مقاومة، لم يُجرح أحد ولم يُقتل أحد. كان لطيف آمون يشعر بالخجل كلما فكَّر أنهم سيذكرونه في المستقبل كقائد أبرد حرب لا روح فيها في التاريخ. كان يشعر بإرهاق شديد، ولكي يريح نفسه قليلاً من تلك الهواجس المرهقة، أمر كاتبه أن يعدَّ فراشه لكي ينام.

حين أوى إلى سريره، كان متأكداً من نوع الأخبار التي سيسمعها حين يستيقظ في صباح الغد. كانت حوادث هذا اليوم قد أنهكته كثيراً حتى إنه ما إن وضع رأسه حتى غفا كشخص أغمي عليه فجأة. رأى في منامه أنه مستيقظ، ولكن في أرض أخرى وعالم آخر بعيدٍ جداً عن هذه المدينة وهذه الحرب.

بين الرابعة والسادسة صباحاً، تم إعدام كاميراني سلمى برصاصة في الصدر...

لا أحد يعرف حتى اليوم من قتله؛ فقد تفرق دمه بين الآمونيين، فجميعهم مُتَّهم، وفي الوقت نفسه لا أحد منهم مُتَّهم بعينه. كانت دماء كاميران هي ما يحتاجه الآمونيون حتى يشعروا أنهم قد استعادوا كرامتهم بشكل حقيقي ويعلنوا انتصارهم على الملأ. إن حادثة قتل كاميران لم تكن مجرد حادثة أخذٍ بالثأر وحسب، ولكنها كانت عرفاً وطقساً تم بعثه من جديد في حياتنا. كنا جميعنا سعداء بشكل ما أن المدينة قد سقطت بدون مجزرة حقيقية أو حرب شوارع. ولكن للأسف لأن من تقاليد السياسة وأعراف العشائر أن لا نصر بدون دماء، فقد جاء قتل كاميران كرمز نموذجي لذلك الانتصار وبقي ذلك في ذاكرتنا إلى الأبد.

في السادسة والنصف صباحاً، نقلوا جثمان كاميران ملفوفاً بملاءة سوداء ووضعوه أمام باب الجامع الكبير في المدينة. ولم يكن أحدٌ، حتى الساعة الثامنة، يجرؤ على الذهاب نحوه. وفي الثامنة، قدِم اثنان من الملالي ورفعوا الملاءة عن جثته مما شجع بقية الناس، الذين كانوا في الجوار، على الاقتراب من الجثمان واحداً تلو الآخر. تعرَّف أحد أولئك المارّة إلى كاميران.

في الساعة التاسعة وبمساعدة الملالي وبعض المارّة، تم نقل الجثة إلى داخل المسجد. وفي الساعة العاشرة، وصل الدكتور رفعت وفِكرت گولدانـچـي معاً للتعرف إلى الجثة التي كانت موضوعة في غرفة غسل الأموات في المسجد.

كان كاميران بزيّه الكردي مسطَّحاً على لوح من الخشب... لقد كان هو، كاميراني سلمى بكل وقاره، بشعره الأسود ووجهه الخمري وحاجبيه السوداوين الممدودين، كان ميتاً هناك بهدوء عميق. لم يكن في وجهه ما يمكن أن يشير إلى خوف أو هزيمة، ولكن كأنه كان يدرك أنه ميت، وكأنه كان يترقب بعثاً قريباً. كان كمن قطع نومه ثم عاد إلى الاستلقاء ثانية... هكذا كان يبدو.

حين وصل جثمان كاميراني سلمى، كان معظم آل گولدانـچـي واقفين أمام باب قصر الطيور. لم يسمح لهم الدكتور رفعت أن ينزلوا الجثمان من السيارة ويعرضوه على الناس قبل أن تأتي سوسن وتلقي عليه النظرة الأخيرة، وبعد ذلك يمكنهم الذهاب به وغسله في أقرب مسجد. في البداية، لم تصدِّق سوسن ما سمعت، لم تتخيل أنها يمكن أن تصبح أرملة بهذه السرعة، لقد كان ذلك آخر ما يمكن أن يخطر لها. شعرت بألم لا يحتمل، أرادت أن تبكي لكنها لم تستطع. ومثل كل مرة، بنظراتها الواهنة ووجهها الشاحب وارتعاشاتها التي لا تكاد تُلاحظ، عانقت والدها ثم عانقت أختها وكان الجميع يبكي... لكن سوسن لم تكن تبكي. كانت تعانقهم بقوة. كانت تدرك في أعماقها أن حياتها تغيرت منذ هذه اللحظة وإلى الأبد. لكن مشاعرها كانت معقَّدة ومكتومة وغامضة بشكل لم يكن أحدٌ قادراً معه على إدراك ما تشعر به من خلال نظرتها وصوتها. في تلك اللحظة، لم تكن سوسن تشبه امرأة قُتل زوجُها. كان

هناك بعض الخوف مرتسماً على ملامح وجهها، لكنه لم يكن كافياً ليسبغ عليها سيماء المرأة التي فقدت شريك حياتها. هي الآن أشبه بالطفلة المتعبة الشاحبة التي كانتها في السابق. بعد هنيهة، قالت بصوت يشبه صوت طائر مخنوق وطلبت أن تكون هي من يخلع عن كاميران ثيابه المخضَّبة بالدم. أمسك الرجال بيدها وساعدوها على الوصول إلى الجثة. مرَّرت سوسن يدها على جبين كاميران ووجهه. كان وجهه يذكرها بتلك الليالي التي ناما فيها معاً في فراش واحد، حين كانا يستلقيان متعبين فيغفو ورأسه على كتفها. خلعت عنه بكل هدوء ثيابه المخضَّبة بالدم. وما إن وقعت عيناها على ذلك الثقب الكبير من الدم في صدره حتى صرخت بصوت مضطرب وعالٍ: «حمامة القلب الدامي... گـاليكولومبا لوزونيكا... گـاليكولومبا لوزونيكا». تذكر جميع من كان حاضراً هناك ذلك الطائر الذي كان على صدره الأبيض نقطة حمراء كأنها أثر ضربة خنجر أو رصاصة، ذلك الطائر النادر الذي قدمه لها كاميران قبل سنتين كهدية خاصة ومنفردة أمامنا جميعاً. خضَّبت سوسن يدها بدماء كاميران ثم أقبلت عليها تشمُّها. كانت لدمائه رائحة سحرية، كانت رائحة كاميران بذاته، تلك الرائحة التي لم تكن تشبهها أي رائحة أخرى في العالم. كررت بصوت هامس اسم ذلك الطائر، وعندها فقط كانت ترى بكل وضوح ذلك التشابه القاسي بين هذين الكائنين الجميلين. وأمام أنظار الجميع كانت تشم جسده، كانت تلك هي رائحته الساحرة كما في السابق لكنها الآن مختلطة برائحة باردة لم تشم سوسن ما يشبهها من

قبل سوى من جثث الموتى. ولكن رغم ذلك، كانت رائحة العالم ما تزال تفوح منه بشكل واضح. كانت واثقة أنها ستفتقد هذه الرائحة كثيراً. وبدل أن تبكي وتنكمش على نفسها، قامت بتقبيل كاميران عدة مرات وهي تشمُّه بعمق وجنون بين الفينة والأخرى.

حين أنزلها الرجال من السيارة، كاد أن يغمى عليها لولا أنها تماسكت مستعينة بقوتها الداخلية. قالت: «منذ ليلة البارحة وجميع الطيور خرساء». جعلت كلماتها المفاجئة والغريبة الجميع يطرق مفكراً. في تلك اللحظة، تذكروا الطيور، وانتبهوا إلى أن صمتها كان ثقيلاً للغاية على النفس وبشكل يفرض فيه كآبته على القصر كله. وبدون أن يدركوا ذلك، كان الجميع يشعر بحضورها.

أراد فِكرت گولدانـچـي أن يتناول من يد سوسن بعض الثياب المخضَّبة بالدم، لكنها أبت، وقالت بنبرة حزينة إنها تريد الاحتفاظ بها كلها لتضعها في «خزانة الذكريات المرّة». ثم مضت بصمت وسط كل أولئك المحتشدين الذين كان عددهم يزداد كلما تقدمت سوسن بين صفوفهم حاملة بين يديها تلك الثياب الكردية الخاصة بكاميران.

في تلك اللحظة، بدت سوسن في عيون جميع أولئك المشيِّعين أشبه بملكة جريحة في لحظة مغادرتها مملكة أحلامها العظيـمة.

٥٥

من أجل أن يبعد كاميراني سلمى منـگور عن المدينة ويعود هو إلى سوسن والطيور، كان عليه، وهما في طريقهما نحو الحدود، أن يجد نقطة مناسبة ينسلُّ فيها خفيةً عن منـگور دون أن يشعره بذلك أو يجعله يرتاب في أنه قد عاد إلى المدينة. في تلك الليلة، وصل منـگور إلى الحدود دون أن يعلم أن كاميران قد عاد إلى المدينة تحت جنح الظلام. وفي مساء اليوم التالي، وصل خبر مقتل كاميراني سلمى إلى أولئك الأشخاص العالقين عند الحدود الإيرانية، عن طريق بعض الذين كانوا قد نزحوا حديثاً من المدينة. سرعان ما انتشر الخبر مثل الريح والصاعقة بين الجميع، وأثار موجة من الضيق والانزعاج بينهم. مع وصول الخبر، رأى الجميع كيف تحدَّرت قطرات كبيرة من الدموع من عيني منـگور دون أن ينطق بكلمة واحدة.

في تلك الليلة، تسلَّق منـگور، تحت جنح الظلام، الجبال الحدودية الوعرة ولم نره بعد ذلك لمدة تزيد على عشر سنوات.

قبل أن يغادر منـگور إيران إلى الخارج، أرسل إلى سوسن

نسخة عن عقد ملكية البيت، ورسالة مختومة بمثابة وصية، بالإضافة إلى مبلغ كبير من المال ومعه عقد تنازله لها عن ملكية القصر. اجتاز منـگور مع مئات آخرين بفضل خريطة قديمة كان قد اشتراها قبل عدة سنوات وكان يحملها دائماً في جيبه، حدود إيران وتركيا بسلام إلى الجهة الأخرى. ووصل مع عشرات الأشخاص الآخرين إلى حدود اليونان سيراً على الأقدام، وانطلقوا عبر أرض الإغريق إلى أثينا، ومن هناك انطلقوا بالزوارق نحو شواطئ إيطاليا. مرة أخرى، اجتازوا، سيراً على الأقدام، الجبال الفاصلة بين إيطاليا وسويسرا. ومن فرنسا باتجاه بلجيكا ومن هناك إلى هولندا. مضت عشر سنوات بعد ذلك لم نسمع فيها أي خبر عنه... مهما كان صغيراً. بعد عشر سنوات، وذات مساء من شهر سبتمبر من عام ٢٠٠٦، عاد منـگور على هيئة شيخ كبير ومريض، أي (كانت مؤخرته تلفظ آخر أنفاسها، كما كان يقول هو واصفاً نفسه)، عاد ليموت بيننا كما قال. حدث مقتل كاميراني سلمى في وقت لم يكن أحد يستطيع أن يحزن عليه كما هو مطلوب، لأن معظم أصدقائه ورفاقه المقربين كانوا يمرون بظروف صعبة للغاية وهم عالقون على جانبي حدود منيعة، أو أنهم بقوا في المدينة قابعين في بيوتهم متوجسين بانتظار ما سيأتي به المستقبل. بعد ذلك، لم تلبث دماء كاميران، كدماء جميع أشباهه من ضحايا الحرب الأهلية، أن غابت تحت غبار النسيان يوماً بعد آخر. بعد عدة أسابيع، وللمرة الثانية، لم يلبث أنصار حزب الاتحاد أن هزموا حزب البارتي الذي انسحب

مقاتلوه بالسرعة ذاتها التي احتلوا بها المدينة في المرة السابقة. ومرة ثانية تشرد الآمونيون من موطنهم. لم يكن هناك من هو أشد حزناً على مقتل كاميران من سوسن ووالدها فِكرت سوى الطيور، الطيور التي لم يصدر عنها أي صوت منذ ليلة مقتل كاميران. ولعدة أيام لاحقة كانت سوسن تضع على صدرها، طوال أيام العزاء، ذلك الطائر الصغير ذا القلب الدامي وهي تحدق إلى جميع من حولها بحزن. وكان جميع أهل المدينة قد نسُوا اسم ذلك الطائر الصغير، لكن الأولاد الصغار في المدينة كانوا يتراكضون في الأزقة وهم يهتفون باسمه «گـاليكولومبا لوزونيكا... گـاليكولومبا لوزونيكا...». كانت سوسن خلال فترة الحزن مهتمة بصمت الطيور الثقيل أكثر من اهتمامها ببكاء أقاربها وأقارب كاميران القادمين للتعزية. رغم أن هموم سوسن كانت ثقيلة جداً لكنها لم تبكِ مطلقاً. طوال أيام العزاء لم تكن تشعر سوى بألم في رأسها وببعض القلق الذي كان يمتزج شيئاً فشيئاً بدمائها. كانت تحتاج في أعماقها إلى أن ينصرف جميع هؤلاء المعزّين ويتركوها لعزلتها. طوال أيام العزاء لم يفارق هُزار الصغير حضنها وهي جالسة تنظر بهدوء في وجوه المعزين. قد لا يكون لها أي علاقة حقيقية بذلك العالم الذي يعيش فيه الآخرون ويبكون. ليس في تلك الأيام ولا حتى بعد ذلك، لا أحد سمع شيئاً خاصاً يتعلق بمشاعرها الداخلية العميقة بشأن مقتل كاميران. ولكن سوسن منذ يوم الموت، ولعدة سنوات لاحقة، لم تغادر قصر الطيور قط. ولم تنفع معها جميع محاولات فِكرت گولدانـچـي وپـروشه من

أجل إخراجها من عزلتها في ذلك القصر. بعد انتهاء أيام العزاء، لم يبق لها ما تعيش من أجله سوى الطيور. مضى وقت طويل على مقتل كاميران قبل أن تعود الطيور إلى الغناء والتغريد مرة أخرى. ولكن غناءها بدا لنا حزيناً فيه رنة واضحة من الألم. ذلك النواح والنشيج الذي كان يصدر عن الطيور دفعنا إلى أن نغيِّر اسم منزل سوسن ونطلق عليه اسماً جديداً هو «قصر الطيور الحزينة». في بعض الليالي، كان ذلك البيت يمتلئ بنشيج تلك الطيور. وكنا كلما عبرنا من أمام بيتها خُيّل إلينا أنها أصوات أرواح بعض الموتى الجالسين خلف بوابات القصر يبكون وينوحون.

اتخذت علاقة سوسن، بعد رحيل كاميران، شكلاً غريباً مع جميع الأشياء الأخرى داخل القصر. فبعد سنتين ونصف من الانفصال والصمت، أرسلت في طلب آريان جودت. هذه المرة ليس فقط من أجل أن يرسم لها على الجدران، ولكن من أجل أن يلتقط لها بعض الصور بآلة تصوير خاصة. ولأنها لم تكن تغادر منزلها، كان على آريان جودت أن يزورها كل يوم جمعة حاملاً معه صورة جديدة لقبر كاميران، بالإضافة إلى بعض صور شوارع المدينة وأزقتها. لم تعد سوسن قادرة على التعايش مع حقيقة هذه المدينة، لكنها كانت تستطيع التعايش مع صورها. خلال الأشهر والسنوات اللاحقة، اتخذت لنفسها هواية زراعة الأزهار في باحة قصرها، وكانت كل يوم جمعة ترسل باقة ورد إلى ضريح كاميران. في السنوات القادمة،

سيصبح كمال يلدا، مثل آريان جودت، ضيفاً دائماً في منزل گولدانـچـي.

في خريف تلك السنة، وشيئاً فشيئاً، بدأت الطيور تموت واحداً تلو الآخر. كان كمال يلدا يأتي بشكل دوري فيأخذ الميت منها ويعود بها بعد ذلك محنَّطة. شيئاً فشيئاً وعاماً بعد آخر، امتلأت غرف منزل گولدانـچـي وممراته بمجسَّمات الطيور المحنَّطة. آريان جودت ما زال يأتي ويمارس عمله بكل هدوء في الرسم على الجدران. امتلأ منزل گولدانـچـي بلوحات المناظر الطبيعية الساحرة والطيور المحنَّطة وأقفاص البلابل الحزينة، حتى ليخيل للزائر أنه قد دخل في أعماق غابة بعيدة بكر. خلال تلك السنوات، انشغلت پـروشه والدكتور رفعت بعملهما في المستشفى والعيادة بشكل كان يأخذ فيه كل وقتهما، ولذلك كان هُزار الصغير يقضي معظم وقته مع خالته سوسن والطيور. أصبحت سوسن، عقب موت كاميران، تولي هذا الطفل جزءاً كبيراً من عنايتها واهتمامها. ويوماً بعد يوم، زرعت في نفسه حب الاطلاع على العالم والشوق إلى التجوال في أرجاء الأرض. كانت علاقة فِكرت گولدانـچـي بالطيور قد تطورت كثيراً، إذ بات يقضي معها معظم وقته. سأل سوسن ذات يوم: «كيف يمكن لإنسان يحلم بالعالم كله، وفي الوقت نفسه أن يأسر نفسه داخل قصر لا يخرج منه؟». فأجابته سوسن أنها لا تشعر برحابة العالم إلا حين تكون داخل هذا القصر، أما خارجه فجميع شوارع هذه المدينة وأزقتها لا

توحي لها إلا بالصغر والضيق. لم تعد عند فِكرت رغبة كما في السابق في دفع ابنته إلى تقبّل صغر هذه المدينة، ولا في إخراجها من زنزانتها الاختيارية هذه المحاطة بالطيور والطيور المحنَّطة، بل على العكس، فقد كان يشعر بنفسه أنه هو الآخر يتجه شيئاً فشيئاً نحو عالم بعيدٍ عن هذه الشوارع الباردة الخالية من الروح.

بالوصول إلى نهاية القرن العشرين ودخول العام ٢٠٠٠، كان فِكرت گولدانـچـي قد ابتكر لغة خاصة يتفاهم بها مع الطيور، لغة لا يعرفها سواه. بمرور الوقت، لم يعد فِكرت كذلك يغادر القصر إلا لأداء واجب التعزية في أحدهم. شيئاً فشيئاً، وكما كانت الطيور تموت تباعاً، أصبح فِكرت يرى موت من هم في مثل سنه واحداً بعد الآخر. يسقطون فيموتون... حتى إنه كان مضطراً في بعض الأيام أن يذهب إلى أكثر من تعزية. ومثل جميع الرجال المجايلين له، كان يجلس عادةً على كرسي في المسجد ويأخذ بالإنصات إلى آيات القرآن وهي تتلى. كانت بعض الأفكار الفلسفية حول الحياة والموت تشغل ذهنه. كان يقول في نفسه: «الموت لعبة ممتعة في هذه المدينة ونحن جميعاً نتقنها». وكان كلما عاد من واجب عزاء وجد أنه بحاجة إلى أن يبعد عن رأسه ما علق بها من أطياف الموت، فكان يمضي إلى طيوره ويبدأ في الحديث إليها ساعات طويلة.

ذات مساء في مطلع القرن الواحد والعشرين، شاهد إبراهيم

أسرين الملاك جبرائيل. هو الذي كان طوال حياته يشاهد جبرائيل في أشكال وصور متنوعة، ولكنه فهم، في لحظة الموت وفي تلك اللحظة التي واجهه فيها جبرائيل الحقيقي، أنه طوال حياته لم يفهم الموت جيداً وأن من كان يراه من قبل لم يكن جبرائيل الحقيقي. استطاع قبل موته أن يقول لبناته بأن أي تصوّر للموت كان في رأسه من قبل إنما كان من نتاج غبار هذه المدينة وزوابعها وظلمتها، ولا علاقة لكل ذلك بحقيقة الموت. فقط في لحظة الموت، أدرك أن أي جبرائيل رآه في السابق لم يكن جبرائيل الله ولكنه كان جبرائيل هذا المكان وهذه المدينة المظلمة.

في عزاء إبراهيم أسرين، التقى فِكرت گولدانـچـي مرة أخرى بساقي محمود. بدا ساقي عجوزاً متعباً محنيَّ الظهر وقد شابَ أكثر مما ينبغي خلال السنتين الماضيتين. في ذلك المساء، قام فِكرت گولدانـچـي وساقي محمود بنزهة طويلة معاً. وقبل أن يفترقا، طلب ساقي محمود من فِكرت أن يسمح له بزيارة منزله للفرجة على الطيور، خاصة طيور منصور الذي يكنُّ له احتراماً عميقاً أكثر من جميع الآخرين، ويراه عاشقاً صادقاً وعظيماً.

وذات مساء من ذلك الأسبوع نفسه، حضر ساقي محمود العجوز إلى منزل گولدانـچـي. وما إن وجد نفسه أمام الأقفاص حتى شرع بالبكاء. ولما سألته سوسن بهدوء عن سبب بكائه أجابها: «أبكي لأنني سأموت في هذه المدينة وأنا

لا أعرف شيئاً عن العالم العظيم والواسع. أنا أعلم أن هذه المدينة مثقلة بالأخطاء والضلالات». منذ ذلك المساء، أصبح فِكرت گولدانـچي وساقي محمود صديقين مقرَّبين. في كثير من الأمسيات، كان ساقي محمود يأتي لرؤية الطيور ويقف مذهولاً وهو يرى فِكرت يتفاهم معها بلغته الخاصة. في ذلك الوقت، توثقت عرى الصحبة بين الرجلين فكانا يقضيان كل مساء معاً يتحادثان ويلعبان النرد. الشيء الذي كانا قد تعاهدا على تجنبه وعدم الخوض فيه كان السياسة، وبالذات الحديث عن الحزبين الرئيسيين في البلاد. كان كلاهما مؤمناً أن السعيد حقاً في هذه البلاد هو ذاك القادر على ألا يحمل في قلبه همَّ ذينك الحزبين. كانت سوسن ترى نفسها محظوظة بقدوم ساقي إلى منزلها، وسعيدة أنه أصبح صديقاً لوالدها.

حدث كذلك خلال تلك السنوات أن كثيراً من المهاجرين العائدين كانوا يقدمون لسوسن صور المهاجرين الذين انتشروا في جهات الدنيا الأربع، وكانوا يرسلون إليها بصورهم ورسائلهم. كان الكثير منهم يتقدم لسوسن بشكره وامتنانه أن طيورها كانت مصدر إلهامهم حتى تمكنوا في النهاية من تحقيق أحلامهم.

في صيف عامي ١٩٩٨ و١٩٩٩، بلغت أفواج المهاجرين الزائرين إلى كردستان أوجها. وعلى امتداد أيام الصيف ولياليه، كانت سوسن تستقبل أولئك الأصدقاء الذين كانوا يحملون صور أولئك المهاجرين ورسائلهم. كان الجميع

يرسل إليها صوراً من المدينة التي يقيمون فيها، وصور منازلهم وصورهم الشخصية وهم يتجولون في الشوارع والأسواق أو يزورون حدائق الحيوان المتميزة، صور تلك الجزر والبحار والبحيرات التي صادفتهم في الطريق. كان البعض منهم يناشد سوسن أن ترسل إليهم ولو ريشة واحدة من ريشات طيورها «الطيور الحزينة المباركة» كما كنا نسميها... تلك الطيور التي مضت عليها عدة سنوات وهي لا تطلق من حناجرها سوى أنغام وتغاريد حزينة. خصصت سوسن ألبوماً ضخماً من أجل كل تلك الصور. كان في ذلك الألبوم صور كثير من المدن والمناطق وعناوين بعض الأمكنة في العالم التي كانت سوسن تجمعها يوماً بعد آخر، وتخرجها ليلة بعد أخرى لتضع إصبعها على الصور الصامتة، وتفتح عينيها لكي تلج إلى أعماق تلك الصور. وإذن، فقد أصبح بإمكانها أن تشمَّ وتسمع أفضل مما كانت عليه في السابق. كانت تستطيع أن تفتح عينيها وأن تشم في الحقيقة روائح الأمكنة البعيدة، أن تسمع هتاف الطيور. أصبح بإمكانها الآن أن تستحضر العالم بأسره إلى داخل قصر الطيور... العالم كله. ولكن بالإضافة إلى أولئك الضيوف، كانت سوسن دائماً تكلِّف آريان جودت وكمال يلدا ووالدها أن يشتروا لها كتباً وأطالس خاصة. خلال بضع سنوات، مرة أخرى، أصبح لديها في المنزل مجموعة من الكتب كانت في معظمها عن الأزهار والطيور والغابات والجبال وبعض بحيرات العالم.

كان هُزار يكبر يوماً بعد آخر وهو في كنف خالته المريضة، التي كانت في أغلب أحوالها تعقد حول رأسها عُصابة زرقاء وتضع أمامها كأساً من الشاي المنثورة فيه بعض وريقات الشاي المعطّرة. كانت، بألم رأسها الدائم ونحولها الأبدي، تتحدث إلى هُزار الصغير، تريه الكتب، تعلّمه الأسماء اللاتينية للطيور، تعوّده منذ الصغر أن يشم الورود داخل الكتب ويتعرف إلى الطيور وهي في السماء ويفرزها حسب أصواتها، علّمته أسماء المدن والطرق والجزر في العالم. وكانت تختار من مئات الحكايات التي كان كاميران قد رواها لها في الليالي الطويلة من زواجهما القصير، حكايات ترويها لهُزار.

كان هُزار في سن الثامنة عندما لاحظ الدكتور رفعت أن صغيره يعرف الأسماء اللاتينية لمئات الأزهار والطيور، ويعرف كذلك أسماء عشرات المدن والجزر التي لم يكن هو شخصياً قد سمع باسمها، ويعرف أقصر الطرق البحرية بين أمريكا الشمالية والجنوبية. سبَّب له هذا الأمر خوفاً فجائياً، وبعد مشاجرة كبيرة مع پـروشه كسر خلالها عدداً من الصحون وخبط بعض الكؤوس أرضاً، قرر الدكتور أن يمنع صغيره من الذهاب إلى قصر الطيور الحزينة، وأن يرسل به بدلاً من ذلك إلى جدته التي كانت كثيراً ما ألحَّت في طلب حفيدها حتى يكبر في أحضانها. كان الدكتور رفعت يتحول يوماً بعد آخر إلى شخص عبوس متجهم الوجه ويمضي وقتاً أطول مع مرضاه، أصبح سريع الغضب وأكثر تكبّراً. كان موقناً أن سوسن

قد أغرقت صغيره في عالم بعيد تماماً عن عالم الطفولة حين أدخلت في رأسه هوس التعرف إلى العالم، ذلك الهوس الذي سيجعل الصغير في المستقبل منقطعاً عن محيطه وخالياً من طاقة الحياة. تسبب إبعاد ذلك الطفل عن سوسن بإصابة كليهما بعلّة غير مفهومة. طوال ذلك الوقت، لم تقبل سوسن، رغم مرضها وآلام رأسها الدائمة وإغماءاتها المفاجئة، أن يعاينها الدكتور رفعت كما في السابق ولا أن يصف لها الدواء، ولذلك لم يكن أمام فِكرت گولدانـچـي إلا أن يحضر لها طبيباً آخر إلى المنزل. في ذلك الوقت، أصيب الطفل هُزار بنحول شديد وألم في الرأس وإغماءات مفاجئة وانقطع نهائياً عن الدراسة، لأنه لم يعد قادراً على الذهاب إلى المدرسة. أثَّر هذا الأمر كثيراً في حياة الدكتور رفعت وپـروشه، كما أثر في عملهما وحياتهما الزوجية بشكل باتا أمام أحد خيارين؛ فإما أن ينفصلا أو يعيدا الطفل إلى سوسن. وبعد شهرين، كان عناد الدكتور رفعت وتصلّبه قد بلغ منتهاه حين قرر ذات يوم أن يذهب أخيراً إلى قصر الطيور مصطحباً معه پـروشه والطفل.

ذلك المساء، ناشد الدكتور، على خلاف طبعه الغضوب، سوسن بأدب جم طالباً منها ألا تحشو رأس الصغير بأشياء أكبر من سنه، وألا تدفعه إلى تخيل أشياء كبيرة لأنه قد لا يستطيع بعدها أن يتعايش بشكل سويٍّ مع محيطه. لكن سوسن نظرت إليه بجفاء وقالت: «دكتور، يجب أن يتعرَّف الطفل إلى العالم، لا يجب أن يتوهَّم أن الحياة هي فقط ما يراه في هذه المدينة».

زرعت كلمات سوسن تلك الخوفَ في أعماق الجميع ولكن نظراتها كانت، كما هي دائماً، من النوع الذي لا يمكن إلا لقلة من الناس أن يرفعوا أصواتهم في حضرتها أو يتلفظوا بأشياء مخالفة لرغبتها.

٥٦

كانت الطيور تموت تباعاً...

فسَّر الدكتور دلشاد موت بعضها بأنه بسبب تقدمها الطبيعي في السن، وموت بعضها الآخر على أنه نتيجة إصابتها بمرض ما، أما تلك التي لم يجد لموتها تفسيراً فقال إنها ربما ماتت بسبب الحزن.

قال لها يوماً: «إن الطيور تحزن أكثر مما يحزن الإنسان نفسه... الطيور تبكي مثلنا، ولها أرواح خفيّة تضيِّق عليها أنفاسها وتتركها في اضطراب دائم».

خلال تلك السنوات، كانت سوسن قد وصلت إلى درجة من التفاهم مع طيورها بشكلٍ باتت معه قادرة على الشعور بحزنها من خلال تغريداتها وطبيعة صوتها، بل حتى إنها باتت تشعر بدنوِّ أجل الطائر قبل أيام من موته.

في مطلع عام ٢٠٠٠، ماتت حمامة القلب الدامي. وكانت سوسن قد شعرت، قبل ذلك بعدة أسابيع، أن هذه الحمامة

على وشك الموت، ولكن ما لم يكن طبيعياً في ساعة موتها هو قطرات الدم التي نزفت من تلك النقطة الحمراء في منتصف صدرها. وحين لمستها سوسن وشمتها تداعت إلى ذاكرتها في الحال رائحة كاميراني سلمى، تلك الرائحة التي لم يكن ليخطئها أنف سوسن على الإطلاق... كانت تلك رائحة كاميران ذاتها عائدة عبر رائحة دم ذلك الطائر.

عندما حضر كمال يلدا لأخذ الطائر النافق من أجل تحنيطه كما جرت العادة، طلبت منه سوسن أن يولي هذه الحمامة عنايته الفائقة وأن يحنِّطها بشكل لائق وجميل. واعتادت سوسن بعد ذلك أن تضع تلك الحمامة المحنَّطة بجانب سريرها بالقرب من رأسها حتى تملأ عينيها من صورتها قبل أن تخلد إلى النوم.

بعد مرور خمس سنوات على مقتل كاميراني سلمى، بدت سوسن وكأنها قد عادت إلى تلك السنوات التي سبقت وصول خُطّابها من رحلتهم؛ فكانت كلما انفردت بنفسها في بعض الليالي أخرجت، كما كانت تفعل في السابق، ألبوماتها القديمة وأخذت تتفرج عليها. كانت تتصفح صور خُطّابها الثلاثة وكأنها تترقب عودتهم قريباً، وكأن أحداً منهم لم يرجع بعدُ، وكأن كل هذه الطيور لم تكن سوى بقايا حلم طويل. بل أكثر من ذلك، فقد أصيبت خلال تلك السنوات بمرض يصيب عادةً النساء الوحيدات، إذ كانت تجلس أمام المرآة لساعات طوال وتأخذ بتمشيط شعرها. كانت أحياناً تقضي عدة ساعات أمام المرآة دون حتى أن ترى نفسها في المرآة حقيقةً. كانت تضفر

شعرها بينما يسرح خيالها وتفكيرها في مكان آخر... تضفر شعرها وتحدِّق إلى المرآة لكنها لا ترى فيها سوى صور طيورٍ وحدائق وغابات بعيدة.

في مطلع القرن الجديد، وبعد أن توصل الحزبان الرئيسيان في البلاد إلى اتفاقية سلام، بدأت أفواج الآمونيين في العودة إلى مدينتهم شيئاً فشيئاً. لا شك أن معظمنا لم يكن قد نسي بعدُ حادثتي مقتل قلندر آمون وكاميراني سلمى، غير أن ذكريات الحرب كانت مريرة لدرجة أن معظمنا لم يكن راغباً في نكء جراح تلك الأيام.

مع نهاية عام ٢٠٠٣، كان جميع الآمونيين، باستثناء خالد آمون، قد عادوا إلى المدينة واسترجعوا بيوتهم وأماكن عملهم السابقة في السوق.

طوال تلك السنوات، لم يحاول خالد آمون الاتصال بسوسن فِكرت؛ فقد كان خجلٌ عميقٌ وخوفٌ أعمق يهزانه من الأعماق. وكان، بعد مقتل كاميران، قد دخل في مرحلة من الصمت المطبق، فكان يحمل بندقية صيده ويمضي إلى الجبال في رحلات صيد طويلة. كان كل أسبوع يذهب عدة مرات إلى الصيد وبشكل خاص صيد الطيور. ورغم أن كلماته وأحاديثه لم تكن تشي بشيء، إلا أن نظراته إلى الطيور كانت تطفح بكراهية مكبوتة. لم يكن يأكل من لحوم الطيور التي كان يصيدها قط، بل كان يهبها لبعض حراسه الشخصيين دون أن

ينطق بكلمة. سرعان ما ترقى خالد آمون في المراتب الحزبية إلى أن أصبح مسؤولاً ذا مكانة رفيعة في الحكومة، وبقي مع ذلك محافظاً على طبيعته الصامتة، يؤدي أعماله دائماً بصمت غريب ويشارك في اجتماعات الآمونيين ولكن دون أن يتكلم سوى بكلمات معدودة. كان الجميع يشعر بتلك الحسرة والكراهية العمياء التي لم تكن ترفع مخالبها عن حياته...

بعد إحدى عشرة سنة، عاد إلى المدينة في مهمة رسمية من مهام الحكومة. وكان المدهش أنه، عند وصوله، ترك جميع تلك الفنادق الفخمة التي كانت قد بنيت مؤخراً في مدينتنا وقصد مباشرةً فندق باوَجان. عانق صاحب الفندق العجوز بحرارة، ثم نزل في الغرفة عينها التي كان قد أقام فيها لعدة أيام قبل إحدى عشرة سنة. كان الفضول يلتهم رؤوسنا، وكنا جميعاً نتحرق شوقاً إلى معرفة ماذا كان يفعل خالد آمون وحيداً في غرفته، حتى إننا دفعنا بعض المال إلى أحد مستخدمي الفندق ليدخل إلى غرفته بحجة ما ويستطلع لنا أخباره، لنعلم ما الذي يفعله هذا المسؤول الرفيع في الحكومة الجديدة في غرفته. نزل الفتى المستخدم بعد قليل وعلى وجهه آثار الدهشة، وأخبرنا أن خالد آمون كان جالساً في وسط الغرفة على كرسيه القديم ذاك وهو يبكي... كان يبكي ولا شيء آخر. ذلك الشخص الذي كان معروفاً في طول البلاد وعرضها كرمزٍ للصلابة والقسوة، قد جاء بعد كل تلك السنوات إلى هذا المكان حتى يبكي. أدركنا عند ذاك أن خالد آمون كان ما يزال متسمِّراً منذ إحدى

عشرة سنة عند تلك الانعطافة الروحية، عند تلك اللحظة التي لم يكن يستطيع حذفها من ذاكرته.

حين نزل من فندق باوَجان، قام حرسه الخاص بإبعادنا عنه ولم يسمحوا لنا برؤيته عن قرب. ولكن حين صعد إلى سيارته وانطلق، لحقناهم بسياراتنا. اتجه خالد آمون وحرسه، في ذلك اليوم، إلى شمال المدينة حيث يقع قصر الطيور الحزينة. اعتقدنا جميعاً أنه ذاهب دون شك إلى زيارة سوسن فِكرت. لقد كان تصرفاً نبيلاً منه في الحقيقة أن يسأل عن أحوال أجمل أرملة في مدينتنا، ويقوم بزيارة قصيرة إلى منزلها، ويحاول أن يخفف عنها بعض الحزن الذي كان يخيم على الحكاية بأسرها. ولكننا فوجئنا به حين توقف على مقربة من قصر الطيور ونزل من سيارته.

وقف خالد آمون خلف جدران القصر يصغي إلى أصوات الطيور في الداخل وهي تغرد، كان تغريدها في تلك الفترة قد أصبح أقل من السابق. لبث هناك بضع دقائق يحدِّق إلى جدران القصر ونوافذه. كنا جميعاً نعلم كم هو صعبٌ أن يقف المرءُ بكل هذا الكرب والألم خلف جدران منزل الفتاة التي يحبها دون أن يستطيع الدخول، نعلم كم هو صعبٌ أن يقضي المرءُ حياته كلها ونفسه تذوب حسرةً على امرأة ما.

ورغم أننا جميعاً كنا نرى أنه المسؤول الأول عن مقتل كاميراني سلمى، فقد كانت قلوبنا تعتصر حزناً عليه وتألماً

لحالته في لحظات الوحدة وسوء الطالع تلك التي أمضاها واقفاً فيها خلف جدران القصر.

من يعرف؟... ربما تكون سوسن هي من طلبت اللقاء به، ربما تكون لديها أسئلة ما تريد منه الإجابة عليها، ربما لو أنه فقط تجرأ وطرق بابها لسارت الأمور بشكل مختلف. كنا جميعاً نعلم أنها الفرصة الأخيرة في حياته لكي يخطو خطوته الأخيرة نحو سوسن. ولكنه بدون أن يقترب من الباب، عاد فركب سيارته وانطلق بعيداً. ولم يعد بعد ذلك على الإطلاق.

فيما بعد، حاولنا كثيراً عن طريق پروشه وبعض فتيات عائلة گولدانـچـي أن نعلم ماذا كان رأي سيدة الطيور في خالد آمون، لكننا سمعنا من الجميع إجابة واحدة هي أن سوسن لا تتكلم مطلقاً في هذا الشأن ولا تريد أن تقول فيه ولو كلمة واحدة.

٥٧

في سنة ٢٠٠٢، توفيت أخت ساقي محمود، فطلب منه فِكرت گولدانـچـي أن ينتقل للإقامة معه في قصر الطيور الحزينة. في الحقيقة، كان القصر كبيراً بما فيه الكفاية ويتّسع لإقامة الجميع. وكان ساقي رجلاً فقير الحال، ومن يدري لو أن فِكرت لم يقدم له ذلك العرض ما الذي كان سيحدث له.

كان لانضمام ساقي إلى عائلة گولدانـچـي أثر طيب في حياة فِكرت وسوسن وحتى في حياة هُزار الصغير؛ فقد كانوا يتناولون الإفطار معاً كل صباح، وكانت پـروشه تقوم بالتسوق وإحضار مستلزمات العائلة من سوق المدينة. هذه المرأة القوية النشيطة التي كان عليها، إلى جانب عملها محاسِبةً في مشفى زوجها، أن تعتني بأبٍ طاعن في السن وترعى أختاً مريضة «عالقة وسط أسراب من العصافير والطيور ولا يمكنها الإفلات»، كما كانت هي بالذات تصفها.

كانت پـروشه تكاد تنهار أحياناً من شدة الإرهاق فتنخرط في البكاء، أو تهرع إلى بنات عمتها أو إلى مريم گولدانـچـي

التي كانت تعمل في مخبر كبير للتحاليل الطبية، وتفضي إليهم بما يثقل كاهلها من هموم الدنيا؛ زوجها الذي حوَّل مهنة الطب إلى تجارة، وبات كل همه جمع المال من المرضى الذين يكلفونها من الجهد ما لا تطيق، من أخت عليلة شاحبة صامتة لا أحد يستطيع تخمين ما يدور في رأسها، من أب بات يتكلم لغة لا أحد يفهمها سوى الطيور، من مدينة لا تنفك تزداد ضجة وقسوة يوماً بعد آخر.

كانت راحتها الوحيدة في إتقانها قيادة السيارة وقدرتها على التجوال بها بمهارة في المدينة. في الصباح حين كانت تصل إلى القصر وتطرق مسامعها تغريداتُ الطيور الحزينة، كانت تتساءل بدهشة كيف لتلك الطيور السعيدة التي كان صوتها فيما مضى يثير الحماس والابتهاج في النفوس ويحسِّن الحالة الروحية للمستمع حتى لو كان رجلاً متجهماً قليل الكلام كالدكتور رفعت، كيف لها أن تتغير بهذه الصورة وتصبح حزينة كئيبة في كل يوم أكثر من سابقه. ولكنها ما إنْ كانت تلج إلى داخل البيت وترى الجميع متحلقين حول مائدة الإفطار ينتظرونها، وترى هُزار الصغير في حضن خالته وهو يسألها عن بعض أحوال الطيور، كانت تشهق نفساً عميقاً وتشعر بعظمة الحياة وعمقها في جنبات هذا القصر الفاره.

في كل شهر، مرتين أو ثلاثة، كان ساقي محمود وفِكرت گولدانـچـي يخرجان معاً منذ الصباح يطوفان بالمدينة، يمران بالمقاهي وأسواق التحف القديمة وأحياناً بأسواق الثياب

المستعملة العابقة برطوبة الثياب القديمة، قبل أن يجلسا معاً في أحد المطاعم لتناول الطعام. وفي طريق العودة كانا يمران بسوق السمك فيشتريان سمكة ضخمة ليطبخاها على العشاء. في البداية، لم يكن ساقي محمود يصدق أن بإمكان فِكرت گولدانـچـي التفاهم مع الطيور، ولكن تلك الحكايات الغريبة العجيبة التي كان يرويها له فِكرت بين الحين والآخر عن حياة الطيور ومواطنها الأصلية، كانت كافية لإقناع ساقي أن فِكرت يفهم بالفعل منطق الطير.

في ربيع ٢٠٠٣ مع سقوط نظام صدام حسين ودخول الأمريكان إلى البلاد، كانت مدننا هي المدن الوحيدة في العالم التي أسعدها قدوم الأمريكان وانهيار نظام صدام. في النهاية، لا أحد عانى كما عانينا من وحشية ذلك الرجل.

في ذلك الفصل، هرعت سوسن إلى جهاز التلفزيون وكادت تطير من الفرح لحظة سماعها بسقوط نظام صدام حسين، لكنها كانت الشخص الوحيد في المدينة الذي يستشعر اقتراب طوفان مخيف من النار.

في نهاية العام، وقبل أن يتم القبض على صدام حسين بلحيته الشعثاء مختبئاً داخل حفرة، وكأن طيور سوسن لم تُرِد أن تشهد تلك الأيام السوداء الحالكة التي كانت تنتظر البلاد، فكانت تموت واحداً تلو الآخر. كان فِكرت گولدانـچـي يرى في موت الطيور موتاً لكل الأحلام في هذه البلاد.

وقبل أن ينقضي العام، كان قد تبقى في الأقفاص أقل من

خمسين طائراً. مات قسم كبير من البلابل الصغيرة والطيور المغردة الأخرى. ورغم ذلك كان كل عابر من أمام القصر ما يزال يسمع تغاريدها العذبة من خلف جدران القصر. لاحظنا جميعاً أن الأصوات كانت تقل شهراً بعد آخر. كانت سوسن تتخيل في بعض الليالي أنها تسمع أصوات تغريد من بعض الطيور المحنَّطة من مكان ما في داخل القصر، فكانت تنهض وتبدأ بتفتيش الغرف واحدة واحدة دون أن تعثر على شيء أو تسمع أي شيء... ورغم ذلك لم تغادر تلك الأصوات الغريبة رأسها. كانت تشعر في كثير من الأحيان أن الطيور تناديها من مكان آخر وعالم آخر. ولكنها في أحيان أخرى كانت تفسر سماعها تلك الأصوات بالعزلة التي فرضتها على نفسها خلف أسوار ماضيها المر والقاتل، وداخل أقفاصه.

في سنة ٢٠٠٦، عاد منـگور ذات يوم إلى المدينة، عاد رجلاً نحيلاً بشعر أبيض ولحية بيضاء. وعلى خلاف توقعاتنا، وبدل أن يخرج علينا بثيابه الكردية العريقة، رآه الجميع واقفاً أمام مقهى پـوَلي آزاد مرتدياً معطفاً وبنطالاً قديمين، بالإضافة إلى ثوب أبيض كانت أزراره العلوية المفكوكة تكشف عن الشعر الأبيض الذي كان يملأ صدره. بعد عشر سنوات من العيش في الغربة، كان منـگور قد أصبح رجلاً صموتاً. تعرَّف إلى وجوه البعض منا ونسي وجوه البعض. كان قـپوز جُقلي قد أصبح في تلك الأثناء واحداً من المسؤولين الكبار في مديرية الأمن، بينما أصبح ساماني كسرى واحداً من وجهاء المدينة الكبار، كان يظهر أحياناً على شاشة التلفزيون فيتحدث عن

«الاستثمار» وعن «الخطة العامة لمشكلة التوطين» وأشياء أخرى مشابهة، كان يتجنب قدر استطاعته التحدث عن الماضي خشية أن يطّلع أحد على تفاصيل حياته، أو يفتح صفحات ماضيه. كان هُشه جُجه قد افتتح مطعماً عصرياً أقل وجبة فيه تكلف ثلاثة دولارات أمريكية. حين عاد منـگور، كنا جميعاً نظن أنهما، بعد فراق كل تلك السنوات، سيهرعان إلى زيارته والاحتفاء به والاعتذار منه وتجديد عهد الصداقة، لكن أحداً منهما لم يحفل بعودة منـگور. ولكن كنا نتوقع، من جهة أخرى، أن تكون السنوات العشر التي غابها منـگور قد مسحت الماضي كله من ذاكرته، لكننا فوجئنا حين علمنا أنه طوال تلك السنوات لم يكن يفكر في شيء سوى في الماضي. حين عاد ووقف أمام ذلك المقهى، كان كعادته يحمل سكيناً قديمة قال إنها هدية من يوسف كَويار. كان من الواضح أن تلك السكين قد طافت العالم معه، ولذلك كان يحتفظ بها في جيب بذلته الرمادية القديمة كرمزٍ لوفائه لأيام ذهبت أدراج الرياح. في أول مساء من ظهوره، قال أمامنا جميعاً إنه قد عاد إلى هذه المدينة كي يموت فيها.

في مساء اليوم التالي، ذهب لزيارة قصر الطيور الحزينة. وحين فتح له الباب هُزار الصغير، قال له بصوت مفعم بالاحترام العميق أن يمضي فيخبر سوسن خان أن ضيفاً قادماً من مكان بعيد يريد رؤيتها، لكنه لا يستطيع أن يطأ عتبة الباب إلا بعد أن يحصل على إذنها بذلك.

لم تتعرف سوسن في البداية إلى الشخص الذي كان واقفاً أمام الباب الخارجي. وقبل أن تعرفه، شعرت سوسن برائحة غريبة، رائحة رجل عاش وقتاً طويلاً على شاطئ بحر عظيم، رائحة رجلٍ قضى عشر سنوات من عمره في قرية هولندية واقعة على البحر. عشر سنوات كان قد قضاها وحيداً على سواحل ذلك البحر العظيم، عشر سنوات كان خلالها يقضي ساعات طويلة من يومه وهو يتفرج على البحر. كان ذلك قد أكسبه رائحة خاصة لم يكن أحد غير سوسن يستطيع شمها والتعرف إليها.

قالت سوسن بصوتها الرقيق العليل الذي لم يؤثر فيه مرور السنوات وشيخوخة العالم: «آه يا منـگور... أين كنتَ كل هذه السنوات. لقد ظنناك ميتاً». فأجاب منـگور، الذي لم يكن يجرؤ على التقدم أكثر، بصوت هادئ: «سوسن خان، لقد رجعتُ البارحة. كنتُ في آخر الدنيا، في أقرب مكان من مؤخرة الأرض، على شاطئ بحر عظيم... نعم يا سوسن خان... لقد أتيتُ حتى أُقدِّم لك احترامي وألقي عليكِ من خلف الباب تحية سريعة». كانت رائحة البحر التي تفوح منه حادة، فمدت سوسن يدها واجتذبته بلطف نحو الداخل وهي تقول: «تفضل إلى الداخل منـگور. لقد تغيرت أشياء كثيرة خلال هذه السنوات العشر، وأصبح بإمكاني أن أغفر أشياء كثيرة».

دُهش فِكرت گولدانـچـي وساقي محمود حين شاهدا

منگور جالساً في قاعة القصر. كانا منكبَّين على لوح نرد قديم ويتحادثان بحماس. في اللحظة التي رأى الجميع بعضهم بعضاً، حين جاءت العيون في العيون، فهم الجميع أن الزمن قد دار دورة كبيرة جداً، وأن العالم قد انقلب بشكل لم تعد فيه للأحقاد القديمة والحكايات التي ذهبت بها الريح أيُّ مكان في القلوب، وكأن الزمن انتظرهم حتى يشيخوا ليغسل قلوبهم ويصوغهم من جديد. لقد طحنتهم جميعاً تصاريف الزمان، وذرت جميع تلك الأحقاد الشخصية التافهة التي كانت بينهم مع الرياح. كانت كمية اليأس الكبيرة في حياتهم بحاجة إلى أن يفتشوا في عيون بعضهم بعضاً عن بصيص من الأمل. حين تعانق ساقي ومنگور، رأى فِكرت گولدانچي أن ذلك العناق كان أشبه بتصالح جثتين منه بتصالح اثنين من الأحياء.

بعد بضعة أيام، حين كان الثلاثة جالسين معاً على مائدة الإفطار، قال لهما فِكرت ضاحكاً: «إن اقتراب الموت هو ما جعلنا أصدقاء».

لم يغب عن بال سوسن وفِكرت گولدانچي قط أن هذا القصر الذي يقيمان فيه هو قصر منگور. وقد حاولا كثيراً لعدة سنوات مضت أن يستطلعا أخباره ومكان إقامته بسؤال أولئك المهاجرين العائدين من مختلف بلدان العالم عنه، لكنهما لم يتوصلا إلى شيء. وفي اليوم الذي سمعا فيه بنبأ ظهوره من جديد كانا في غاية السعادة، وقررا أنهما سيقترحان عليه العيش معهما في هذا القصر الكبير؛ قصره.

بالطبع لم يكن قد بقي لمنـﮔور منزل يعيش فيه، وكان سعيداً بأن يقضي ما تبقى من حياته في مكان هادئ كهذا.

في تلك الليلة نفسها، عاد إلى قصر الطيور الحزينة حاملاً حقيبته الوحيدة ورتب لنفسه مكاناً وسط الطيور المحنَّطة.

في الصباح حين كان الثلاثة جالسين على مائدة الإفطار، كانت سوسن تنظر إليهم فترى ثلاثة طيور محنَّطة كبيرة. كانوا ثلاثة شيوخ يبدون معاً كثلاثة أشباح تروح وتغدو داخل جنبات القصر. كانوا كل يوم يدخلون جميع غرف القصر ويخرجون منها عدة مرات. كان منـﮔور يروي لهما الحكايات بشكل دائم. روى لهما في الليلة الأولى حكاية طائر يُعرف باسم «الطائر المهاجر»، الذي كانوا يزعمون أنه يتعقَّب المهاجرين الكُرد من تركيا حتى وصولهم إلى أوربا.

في الأيام اللاحقة، حكى لنا منـﮔور حكاية «خالد مَهَـﭽـاوبازي» الذي كان يتعقَّبه زوج من الطيور بلداً بعد بلد حتى بلغ النرويج، قال: «حيثما كان خالد، كان ذلك الزوج من الطيور يراه. كان زوجاً من الطيور الصغيرة... أنتم لا تعرفون خالد. كان معي في مكانين مختلفين خلال رحلتي. في البداية لم أصدق ما كان يرويه عن تلك الطيور حتى ذلك اليوم الذي كنا فيه نائمين في منزل أحد أصحابنا. كان خالد ينام دائماً وهو منبطح على بطنه. حين نهضتُ، شاهدتُ الطائرين مقعيين على مؤخرته. كانت تلك أول مرة أرى فيها ذينك الطائرين، ولكني

رأيتهما بعد ذلك عند مهاجرين آخرين. التقيت بمهاجرين كانت الطيور قد بنت أعشاشها داخل جيوبهم... أتفهمون؟ كانت تضع فراخها في الجيوب العليا أو السفلى من معاطفهم».

استطاع منكور منذ اليوم الأول ومن خلال الحكايات المشوقة التي كان يرويها، أن يكتسب محبة جميع سكان القصر. لم تكن الشيخوخة قد نالت من ذاكرته ولا من قدرته العجيبة على التخيل. كان يطوف مع صاحبيه العجوزين في أرجاء القصر، يزور الطيور، يحضر لها الماء ويلعب النرد مع رفيقيه، ويصاحبهما في جولاتهما في المدينة ويجلس في مَقاهٍ مختلفة. وحين كانوا يذهبون إلى سوق السمك، كان يُظهر نفسه بوصفه خبيراً في الأسماك، وإن شكك باعة السمك في خبرته كان يقول لهم: «يا ابن أبي... تعال وشمَّ راحة يدي، تعال شمَّ رائحة مؤخرتي لترى بنفسك أن رائحة البحر ما تزال تفوح منها... أتريد أن تعلِّمني ما هو السمك؟!».

وحين يحل الليل، كان الثلاثة يجلسون في بهو القصر وقد لفَّ كل منهم نفسه بملاءة سميكة، يراقبون النجوم ويستمعون إلى تغريد ما تبقى من طيور القصر. كانوا ثلاثة طيور طاعنة في السن... ثلاثة طيور لم يكن كمال يلدا هو من حنَّطهم، ولكنه الزمن.

٥٨

خلال السنوات الأخيرة، بات آريان جودت يأتي يومياً إلى القصر وكان يزداد صمتاً يوماً بعد آخر. كان فناناً بارعاً، ولكن لم يكن له في العالم من معجب بفنه سوى سوسن فِكرت. كان يأتي كل صباح حاملاً حقيبته وفيها ألوانه وأدواته ويبدأ بالرسم على أحد جدران القصر. في تلك السنوات، كان هو بذاته من يختار ما يرسم. كان يحيط رقبته بوشاح أحمر رقيق ويعتمر قبعة خضراء اللون، وما إنْ يفرغُ من عمله حتى يغادر بصمت كما جاء. وكالعادة كان كل يوم يجلس عدة مرات إلى سوسن ويشربان الشاي معاً. منذ سنوات أصبح لا يطيب له شرب الشاي إلا من يدي الآنسة التي كانت تضع في الكأس بضع وريقات من أوراق الشاي المعطَّرة. يوماً بعد آخر، أصبح آريان جزءاً من القصر، فكان في بعض الليالي يستمر في الرسم حتى ساعات الصباح الأولى، وكانت سوسن تقعد أحياناً ساعاتٍ طِوالاً تراقب عمله باستمتاع، وتتركه أحياناً أخرى ليعمل وحده. كانت في بعض الليالي تنهض من سريرها لترى آريان وهو يعمل منتشياً بالرسم في إحدى زوايا القصر. كان

ينتقل من جدار إلى آخر، وكان إذا رأى أنه لم يبق لديه مكان فارغ من الرسم يختار صورة قديمة فيدهنها باللون الأبيض ثم يباشر الرسم فوقها من جديد. كان الشيوخ الثلاثة يأتون أحياناً فيجلسون على الكراسي في مواجهتها ويأخذون بالفرجة عليها. كان آريان واثقاً من أن هؤلاء الشيوخ لن يفهموا من أعماله ورسوماته ما تفهمه سوسن.

مع اشتداد الحرب الجنونية في العراق سنة ٢٠٠٤، كانت سوسن تتجنب قدر طاقتها صور الانفجارات ومشاهد الأجساد المحترقة على قوارع الطرقات، وتغرق نفسها في لوحات آريان. ولطالما تساءلت متى ستصل أشباح الموت إلى هذه المدينة. في ذلك الوقت، لم يكن في ذهنها سوى أمر واحد هو أن تحمي هُزار الصغير في يومه وغده من شرور الحرب. وكانت تفقد صوابها كلما تخيلت أن هُزار سيكبر يوماً وسيتم سوقه إلى الحرب، وقد يقضي نحبه في انفجار مجنون في أحد شوارع هذه البلاد.

بمرور الوقت، كان هُزار ينغمس أكثر فأكثر في عوالم خالته الحزينة، وحين أصبح في الثانية عشر عاهد سوسن أن يصون السر الذي بينهما، وألا يُطلع أحداً على ما كانت ترويه له خالته وتجعله يتعلق أكثر فأكثر بالعوالم البعيدة. تعلم هُزار في تلك السن كيف يظهر نفسه أمام والده كطفل غرٍّ وجاهل، وذلك لئلا يحاول التفريق بينه وبين خالته مرة أخرى. لم يكن الصبي تلميذاً مجتهداً، لكنه مع ذلك كان قد حفظ الأسماء

اللاتينية لجميع أزهار العالم وطيوره. خلال تلك السنوات، علّمته سوسن، بواسطة الأطالس الضخمة وصورها الخاصة وحكاياتها، أشياء كثيرة عن العالم. وحين أصبح في الرابعة عشر، كانت الأمنية الوحيدة لخالته هي أن تُبعده عن هذه المدينة وعن هذه الحروب العبثية التي قد تنشب في أي لحظة. وشيئاً فشيئاً كانت أحلام السفر إلى أماكن بعيدة تنمو في خيال الصبي، بينما كانت الطيور بدورها تموت شيئاً فشيئاً.

ذات ليلة، قال هُزار لخالته: «خالتي سوسن، مع موت الطائر الأخير من طيورك سأترك هذه المدينة لأجوب العالم وآتي إليكِ بطيور جديدة». فوضعت سوسن يدها بهدوء على فمه وقالت: «إن ماتت طيوري فاذهب... أتفهم؟... إن ماتت جميع الطيور فسآخذك بنفسي وأدلك على طريق الرحيل. ولكن لن أطلب منك أن تصطاد أي طيور... هل تفهم؟... من يدري هل ستجدني حية عند عودتك أم لا. ولكن مهما حدث وحيثما كنتَ من أطراف الأرض، فلا تنسَ كتابة الرسائل إلى أمك... أتفهم؟... ستطوف العالم وتستمع إلى شدو الطيور وأغاريدها. المهم هو ألا تبقى في هذه البلاد وتتورط في واحدة من حروبها».

في نهاية عام ٢٠٠٧، كان قد بقي لدى سوسن خمسة طيور أحياء فقط، وبالكاد كانت أصوات تغريداتهم تتجاوز جدران القصر. كنا نشعر يوماً بعد آخر بتقلص عددها وانخفاض أصواتها. كان البعض منا قد طلب من كمال يلدا أن يسمح لهم

بإلقاء نظرة على تلك الطيور التي كان يحنطها قبيل تسليمها إلى سوسن، فلم يخيّب ذلك الرجل النبيل ظنهم ولكن دون أن يسمح لهم بأن يلتقطوا صوراً للطيور بكاميراتهم الرقمية الحديثة.

في صيف العام نفسه، تداول شباب المدينة عبر هواتفهم المحمولة مقطع فيديو يصوّر كمال يلدا وهو يقوم بتحنيط طائر بوم رائع الجمال. وكان واضحاً أن واحداً من أولئك الذين وثق بهم كمال يلدا قد خان الثقة وصوّر على غفلة منه ذلك المقطع، ثم قام بنشره. كان مقطع الفيديو القصير ذاك سبباً كافياً لكي ينقض كمال يلدا اتفاقه معنا، ويمنعنا بعد ذلك من رؤية طيوره المحنَّطة. مع موت كل طائر جديد، كانت سوسن تزداد نحولاً، وكان الشيوخ الثلاثة يشعرون أن اقتراب الطيور من نهايتها كان يؤثر بشكل كبير في سوسن. ليلة بعد أخرى، كانت تبدو أشد شحوباً خاصة تحت أضواء الشموع وأنوار المصابيح الصفراء الخافتة. ولكي يخفف عنها منـگور، كان يجلس في بعض الليالي عند حافة سريرها ويأخذ بسرد حكاياته على مسامعها. حكايات حملة السكاكين في المدينة، حكايات اللاجئين، حكايات أولئك الكرد البائسين الذين ينظر إليهم الناس في جميع أصقاع الأرض كمخلوقات لا قيمة لها ولا موهبة. كان يضع يده على يدها وهو يقول: «يا ابنتي... أنت تحبين العالم وقد زرعتِ تلك المحبة في قلوب الكثير من أهل هذه المدينة. لكنكِ لم تسألي نفسكِ من قبلُ هل كان العالم

يحبنا أم لا. لقد قطعتُ نصف مساحة هذا الكوكب سيراً على الأقدام. أقول لكِ، كانوا ينظرون إليّ نظرتهم إلى جثة متعفّنة. حين وصلتُ إلى شاطئ البحر، وجدتُ لنفسي غرفة صغيرة، وهناك توقفتُ... كان النظر إلى البحر هو الشيء الوحيد الذي يبعث الراحة في نفسي. لأنه حين كان منكَور العجوز القزم القبيح يقف على شاطئ البحر كتفاً لكتف إلى جانب رجال الشعوب الأخرى طويلي القامة عريضي الأكتاف، كان يشعر أن جميع البشر أقزام مقارنةً بعظمة ذلك البحر، وكان ذلك الشعور يريحه كثيراً، إذ كان الشيء الوحيد الذي يُشعره بوصفه كردياً بالمساواة مع جميع الآخرين. كان يوسف كَويار العظيم يقول: إن الذي يولد في هذه المدينة حيثما دُفِن جسده، فروحه تموت في مدينته. ولو أنني لم أطف في العالم لم أكن لأفهم لِمَ رجع كاميراني سلمى في تلك الليلة المشؤومة إلى هذه المدينة. لسنوات طويلة كنتُ أسأل نفسي هذا السؤال، لمَ غافلني كاميران وعاد في تلك الليلة؟ وفهمتُ أخيراً أن كاميران لم يكن يريد أن تموت روحه في أرض وجسده في أرض أخرى. طوال سنوات سفره كان هذا أخشى ما يخشاه، ولم يكن يريد أن يعيش مرة أخرى مع ذلك الخوف. مثلكِ يا ابنتي... مثلكِ... حين سجنتِ نفسكِ في هذا القصر لئلا يغرق جسدكِ في هذه المدينة ويفترق عن روحكِ».

كان فِكرت گولدانـچـي يدرك أن علاقة سوسن بالعالم العظيم والدنيا الواسعة التي تعشقها منذ نعومة أظفارها،

ستنقطع مع موت الطائر الأخير. في نهاية عام ٢٠٠٧، جرت الكثير من المحاولات من أجل إطالة أعمار تلك الطيور التي ما زالت على قيد الحياة. في ربيع السنة التالية، لم تعد أصوات الطيور تُسمَع من خلف أسوار القصر. وفي منتصف الربيع كان الطائر الأخير الباقي على قيد الحياة عُقاباً ضخماً يُعرف بـ«النسر الفضّي». كان النسر الفضي أحد طيور خالد آمون، وكان قد جُرح في قفصه عند وقوع تلك الحادثة ونجا حينها بفضل تدخل الدكتور دلشاد، وها هو قد بقي آخر الطيور الأحياء على الإطلاق. كان واحداً من أشد الطيور حزناً، مضت عليه ثلاثَ عشرةَ سنة في هذه المدينة وشهد موت جميع الطيور من حوله وودَّع رفاقه واحداً واحداً. في تلك الأشهر الأخيرة التي قضاها وحيداً، كان الجميع يعلم أن الوحدة والحرَّ والصمت لا تلبث أن تقضي عليه.

في بداية شهر أغسطس من ذلك العام، ووسط جفاف الصيف وحَرِّه القاتل، استيقظ فِكرت ذات صباح ومضى إلى الكوخ كي يطمئن على العُقاب ويتحدث إليه، فوجده قد مات... مات مثل جميع الطيور الأخرى، دون ضجة ولا صراخ. أخرج فِكرت الطائر الميت، ثم أخذ يحدِّق إلى فضاء قصر الطيور وإلى أقفاصه التي تصفِّر فيها الرياح... عشرات الأقفاص المصفوفة فوق بعضها بعضاص التي خلّفت وراءها صوتاً ثقيلاً ومخيفاً.

حين شاع موت الطائر الأخير في المدينة، كنا متأكدين أن

موت ذلك الطائر سيضع نهاية لحكاية عمرها أكثر من عشرين عاماً. شعرنا -نحن عشاقَ الطيور الحزينة المباركة، التي كان معظمنا ما يزال يحتفظ في ألبوماته بصورها- أن هذه المدينة بموت آخر طيورها قد أصبحت أشد قبحاً وظلمة وبُعداً. ولكن شعرنا مع ذلك بأن تلك الطيور قد أقامت جسراً متيناً بيننا وبين العالم.

يوم مات الطائر الأخير، كان القصر يبدو من بعيد هادئاً وطبيعياً، ولكنه من الداخل كان فريسةً لصمت ثقيل بسط جناحيه على كل شيء فيه. قبل الظهيرة، خرج علينا الشيوخ الثلاثة وأعلنوا بحزن شديد خبر موت آخر طائر في قصر الطيور الحزينة. ثم نزلوا إلى مركز المدينة فأعلنوا الخبر في المقاهي والأسواق ودكاكين رفاقهم وأصحابهم القدامى، حتى لم يبقَ أحدٌ في المدينة بأسرها إلا وعلم بالخبر.

في ذلك المساء، رأينا كمال يلدا ذاهباً لاستلام جثمان الطائر الأخير، ثم لم يلبث أن خرج والدموع تترقرق في عينيه، وقال لنا إن سوسن كانت هادئة رابطة الجأش حين استقبلته وقالت إنها كانت تترقب هذا اليوم منذ سنوات وقد أعدَّت نفسها له، ولذلك فإن حادثة موت الطائر لم تكن مفاجئة لها.

في مساء اليوم نفسه، لم يحدث شيء غير طبيعي في منزل گولدانـچـي باستثناء خروج هُزار الصغير مرتين من القصر ثم عودته إليه.

في الليل، كان كل شيء داخل القصر هادئاً وكانت تلك أول ليلة ينام فيها سكان القصر، بعد كل تلك السنوات، وسط صمت مطلق بلا جلبة ولا تغريد. حين نظرنا إلى القصر من بعيد، بدا القمر في سمائه كأشد ما يكون اكتمالاً وسطوعاً.

في تلك الليلة، لم يعد هُزار الصغير بصحبة والديه إلى منزله...

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، ودون أن يشعر به أو يراه أحد، تسلل من القصر بصحبة سيدة الطيور.

كان قد مضى حوالي اثنتي عشرة سنة على آخر مرة وطئت فيها قدما سوسن خارج باب القصر. وكانت تلك أول مرة، بعد كل تلك السنوات، تلمس قدماها أرض الشارع المحاذي للباب. نظرت حولها فأدهشها كل ذلك التغيير الذي كان قد أصاب المدينة ببيوتها وشوارعها الجديدة التي كانت، في تلك الساعة حين عبرتها بصحبة ابن اختها، خالية تماماً. كانت سوسن تشعر، مثل كل مرة، بضيق شديد وخانق.

حمل هُزار، بالإضافة إلى مبلغ المال الذي كانت سوسن قد ادّخرته له عاماً بعد عام، حقيبة صغيرة فيها دفتر كبير يحتوي على عناوين وأرقام هواتف كثير من أولئك الأشخاص الذين سبق أن انطلقوا من قصر الطيور، وبمساعدة أهله، إلى خارج البلاد. أولئك الذين كانوا مواظبين عاماً بعد عام وفصلاً تلو فصل على إرسال عناوينهم وأمكنتهم وصورهم الجديدة إلى

سوسن. كان معه كذلك جواز سفر جديد لم يعرف أحد متى وكيف استخرجه.

في حوالي الخامسة والنصف صباحاً، وصلا إلى مركز انطلاق الحافلات الرئيسي في المدينة. كان المركز، في تلك الساعة من الصباح، خالياً إلا من سائق تاكسي عجوز كان جالساً في سيارته بانتظار أول زبائنه. طلبت سوسن من ذلك السائق أن يوصل هذا الشاب الصغير إلى أقرب نقطة على الحدود الإيرانية. المهم في الأمر كان وصوله إلى الحدود، أما بعد ذلك فقد كانت جميع خرائط الدنيا مرسومة في رأس هُزار الذي قضى كل سنوات طفولته وهو يحفظها بتفاصيلها الصغيرة. كان هُزار أصغر سائح حافظٍ للمسافات الدقيقة الفاصلة بين جميع مدن العالم، يعرف طبيعة أرض كل شارع في هذه الدنيا، ويعرف إلى أي نوع من المروج والأدغال ستقوده قدماه بعد ذلك. فإن وصل إلى الحدود فلن يعود بحاجة إلى مساعدة من أحد لأنه يعرف كل ما يلي الحدود كما يعرف بيته.

قبل أن يضع السائق حقيبة هُزار في صندوق السيارة، عانقته خالته وقبّلته بحرارة وهي تقول له: «لا تنسَ أن ترسل الرسائل إلى أمك حيثما كنتَ... في أي مكان من العالم إن استطعتَ أن تكلِّم أمك فافعل. في أي بقعة من الأرض، إن استطعت إرسال شيء جميل إلى هذه المدينة فافعل. وإن شعرت بالتعب في أي مرحلة من مراحل رحلتك، فقف حيث أنت واكتب حكايتك في رسالة وأرسلها لأهل هذه المدينة».

كانا يحدِّقان إلى بعضهما بعضاً بكل هدوء ومن عينيهما تشعُّ نظرات الحب العميقة... شاحبان ووحيدان في هذا العالم، ولكن في لحظات الوداع الأخيرة. لم يبكِ أحد منهما...

كانت الساعة حوالي السادسة صباحاً حين وصلت سوسن إلى منزلها حزينة منكسرة بشكل كبير. اتجهت مباشرة إلى قصر الطيور حيث كان الصمت والهدوء مخيِّمَينِ على المكان. تجولت بين الأقفاص الفارغة، وتخيلت أنها ما تزال تشم منها آثاراً من رائحة طيورها الراحلة، فاستنشقت هواء المكان بعمق. عادت بعد ذلك إلى داخل منزلها وأخذت تتجول بين الغرف دون هدف واضح، ففوجئت حين وقعت عيناها في واحدة من الغرف المنعزلة على آريان جودت بعينيه الحمراوين المتعبتين من قلة النوم وهو يعمل في تلك الساعة المبكرة من الصباح. شعرت أنهم قد تركوا هذا الرجل منسيّاً منذ عدة أيام في هذا البيت ولم يلتفت إليه أحد. كان آريان غارقاً وسط ألوانه ورسوماته بشكل بدا فيه أشبه بالمجنون. وضعت سوسن يدها بكل هدوء على كتفه وقالت: «آريان، لقد حان الوقت كي تستريح... حان الوقت كي نرتاح جميعاً، وأنت كذلك عليك أن ترتاح. آه... كم أتعبتكَ معي... كم أتعبتكَ». كانت تلك هي المرة الأولى التي يسمع فيها آريان مثل تلك الكلمات الرقيقة من الآنسة سوسن، فنظر إليها بدهشة. كان منكسراً إلى درجة لم يستطع أن يقول كلمة. لقد مضى عليه أكثر من عشرين عاماً وهو ينقش لوحاته الرائعة والعميقة والمجنونة على جدران هذا

القصر بناءً على طلب الآنسة... منذ عشرين عاماً وهو في رحلة بعيدة وعميقة دون توقف من أجل هذه المرأة التي عاش حياته وهو ينظر إليها بصمت وإعجاب. كنا جميعاً نعلم كم كان آريان جودت يحب الآنسة سوسن، وكنا نعلم كم تخرسه وتضنيه أغلال ذلك العهد الذي قطعه أمامها على نفسه في بداية عمله في القصر ألا يقع في هواها مهما حدث.

في ذلك الصباح، ولم يكن آريان جودت قد انتهى بعد من اللوحة التي كان يشتغل عليها، وضع ألوانه وأدواته في حقيبة عمله وهو واثق أن لا عودة له إلى هذا القصر ثانية. نظر إلى سوسن بعينين مغرورقتين بقطرات كبيرة من الدموع، ثم حمل الحقيبة وأجال عينيه بين غرف المنزل وطيوره المحنَّطة قبل أن يغادر قصر الطيور، ضائع لا يعرف إلى أين ستقوده قدماه...

في السادسة والنصف صباحاً، وقفت سوسن أمام المرآة وأخذت تضفر جدائلها بهدوء وصمت، ثم مضت بعد ذلك لتلقي نظرة على والدها وساقي محمود ومنگوري باباگوره. وقفت تنظر ملياً في وجوههم، كان الثلاثة غارقين في نوم عميق.

ألقت بعد ذلك نظرة على طيورها المحنَّطة وقامت بتقبيل عدد منهم بهدوء، وشمت رائحة البعض الآخر قبل أن تصعد إلى الطابق العلوي حيث غرفة نومها. فتحت خزانة ملابسها ثم فتحت صندوقاً صغيراً وأخرجت منه ثلاث رسائل قديمة جداً،

بدت لها جديدة كما كانت في اليوم الأول من انطلاق خُطّابها الثلاثة في رحلتهم تلك، جديدة كأنها قد وصلت إليها قبل ساعة واحدة. كانت تلك هي الرسائل الثلاث التي وافق فيها أصحابها، قبل أكثر من عشرين عاماً، على القيام بتلك الرحلة. أغمضت عينيها بهدوء وهي تشم رائحة الرسائل، وكانت تلك أول مرة تشعر فيها أن للورق رائحة خاصة... كانت رائحة مرور العمر وضياع الزمن أدراج الرياح.

ضمَّتْ تلك الرسائل إلى صدرها ومضت إلى الغرفة التي تحتفظ فيها بخزانة الذكريات المرة. فتحت الخزانة وأودعت فيها الرسائل.

صعدت ثانية إلى الأعلى فأحضرت بعض كتب هُزار ودفاتره ووضعتها هي الأخرى في خزانة الذكريات. لبثت واقفة هناك قليلاً، ثم مدت يدها وأخذت تتلمس الثياب القديمة التي كانت لأخيها نزار، ثم أمسكت بثياب كاميران المخضَّبة بالدم وانهالت عليها تشمها. أمسكت بين يديها بالقارورة التي كانت كل ما تبقى من منزل ساقي محمود المحترق، ثم لمست بندقيتين صدئتين غافيتين في تلك الخزانة منذ عدة سنوات... وفي النهاية، أخذت تشم كل شيء وكأنها كانت تستنشق رائحة الماضي البعيد كله دفعة واحدة. أغلقت باب الخزانة، بحسرة دفينة، وغادرت الغرفة عائدة إلى الأعلى من جديد.

في غرفة نومها، أسدلت جميع ستائر الغرفة ووضعت

«حمامة القلب الدامي» المحنَّطة فوق مخدتها، ثم أخرجت ألبومات صور خُطّابها الثلاثة فضمَّتها إلى صدرها واستلقت على سريرها.

بعد هنيهة، خيِّلَ إليها أنها تسمع هديل الحمامة. شعرت أنها تراها حية في الظلمة. أخذت تتأملها وهي مرهقة فشعرت أن الحمامة تتحرك بالفعل، بل شعرت أن جميع طيورها المحنَّطة كانت تتحرك خلف الجدران. كانت الطيور المحنَّطة في جميع الغرف تعود إلى الحياة.

فتحت عينيها وأخذت تحدِّق بذهول شديد إلى لوحات آريان جودت التي تحولت فجأة إلى غابات وأشجار وحدائق وآجام حقيقية. رأت الطيور المحنَّطة تطير من مكانها وتحلِّق في السماء وفوق البحيرات والغابات المرسومة. شعرت فجأة بسعادة غامرة حين فاحت في الغرفة روائح ذكية قادمة من كل مكان في الأرض. التفتت فرأت حمامة القلب الدامي تحرك جناحيها وتوشك على الطيران. رأت نفسها محاطة بضباب صباحي كثيف ولكن منعش، وطرق أذنيها صوتٌ ما كان يناديها من خلف ذلك الضباب. لم تستطع التعرف إلى صاحب الصوت... انشق الضباب عن طيف شخص كان يناديها. شعرت للمرة الأولى في حياتها برغبة جارفة في الغرق في أعماق تلك الغابات والذوبان وسط ذلك الضباب. كانت تتحرق شوقاً إلى معرفة صاحب ذلك الصوت الذي كان يناديها من خلف الأشجار والمياه، كانت تريد أن تعرف كذلك

إلى أين تطير طيورها المحلِّقة هذه.

نهضت من مكانها. كان ثمة نور غامض من خلف الضباب يجتذبها إليه. كانت تشعر بوجود أحد ما، دون أن تعرف هل كان كاميراني سلمى أم منصور أسرين أم خالد آمون؟ كانت راغبة من أعماقها في تعقب أثر ذلك الطيف الخفي الذي كان يتقدَّمها ويقودها رغماً عنها نحو غابة بعيدة وشاطئ مجهول. كانت تريد رؤية وجهه... تريد معرفة المكان الذي ذهبت إليه طيورها بعد موتها. كانت تسير وهي واثقة أنها إن بلغت الأعماق فلن يمكنها العودة بعد ذلك. كانت الطيور والأطياف والمياه تجتذبها، تجتذبها الغابة بأصواتها والرياح بلطفها والأشجار برائحتها. توقفت للحظات وفكرت في العودة إلى سريرها... ولكن هيهات... لم يعد بإمكانها العودة.

نظرت خلفها فرأت القصر غارقاً وسط ضباب كثيف، ويدٌ خفية تسحبها بقوة إلى الأمام... إلى مكان ما كانت الطيور ترافقها إليه محلِّقة عن قربٍ فوق رأسها وأمامها. تأكدت أنها الآن قد أوغلت بعيداً في طريق لم ترها من قبل، هناك سيمكنها أن تشم روائح جميع أزهار الدنيا وتصغي إلى شدو جميع طيور العالم.

حين خطر لها ذلك الخاطر، تابعت طريقها دون تفكير أو تردد في أعماق ذلك الضباب الذي كان يتكشَّف لعينيها شيئاً فشيئاً كلما تقدَّمت نحوه أكثر.

تابعت سيرها دون خوف خلف أسراب الطيور التي كانت تتقدمها.

تابعت سيرها دون خوف خلف ذلك الطيف الذي كان يتقدمها.

أصبحت متأكدة الآن أنها تسير إلى المكان الذي ستلتقي فيه بجميع الأشياء التي تشتاق إليها بكل جوارحها.

ظلت تسير بهدوء وثقة وهي تسمع أصوات العالم تناديها... العالم بأسره كان يناديها.

شعرت أن العالم يدعوها... العالم بأسره يدعوها إلى الغرق في أعماقه.

شعرت أن العالم... العالم بأسره يفتح لها جميع أبوابه باباً تلو باب.

كانت تتقدم بسرعة وعزيمة لم تعهدها في نفسها...

كانت تركض وتركض. وكلما ركضت أكثر، كان قصر الطيور الحزينة يتوارى أكثر فأكثر خلف الضباب.

وكلما تقدمت أكثر زاد يقينها أنها لن تستطيع العودة ثانية...





بختيار علي

في هذه الرواية، ثلاثة عشاق يخطبون، في وقت واحد، ودَّ الحسناء البغدادية «سوسن گولدانـچي». هم مختلفون عن بعضهم البعض وسوسن مختلفة ليس فقط عنهم جميعاً، ولكن عن أي فتاة عرفوها من قبل: إنها قارئة نهمة، تعرَّفت إلى العالم بأسره وهي جالسة في غرفتها. فتاة عليلة الجسد متواضعة المظهر، ولكنْ لجاذبيتها فعل السحر في روح كل من تقع عيناه عليها.

يعيش قارئ هذه الرواية ساعات رائعة مع شخصياتها. قد ينسى جميع الفتيات ويتعلق قلبه بسوسن گولدانـچي وبأسرارها العميقة، قد ينسى مغامرات فرسان «دوماس» الثلاثة؛ ليمضي مع فرسان «بختيار» الثلاثة إلى حيث أرسلتهم قلوبهم...

قد ينسى الأماكن التي حوله؛ ليتنقل بين (قبو خدرو دويار) و(مقهى بيولي آزاد) و(قصر آل گولدانـچي)...

هذه الرواية، مثل معظم نتاج بختيار علي، تجميعة ساحرة لتفاصيل حياتية صغيرة، تُعرِّفكَ إلى الوجه المشرق للرواية الكردية والوجه الآخر لكُردستان... كُردستان التي تسمع بها ولا تعرفها...

